

تاريخ الآداب العربية

من الجاهلية حتى عصر بني أمية

نص المحاضرات التي ألقاها بالجامعة المصرية

في سنة ١٩١٠ - ١٩١١

المرحوم الأستاذ

كارلوثاليمو

تقديم

الدكتور طه حسين



دار المعارف بمصر

تاريخ الآداب العربية

تاريخ الآداب العربية

من الجاهلية حتى عصر بني أمية

نص

المحاضرات التي ألقاها بالجامعة المصرية في سنة ١٩١٠ - ١٩١١

المرحوم الأستاذ

كارلوناتينو

اعتنت بنشرها مريم نالينو

تقديم

الدكتور طه حسين

الطبعة الثانية



دارالمغارف بمطز

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.ع.م.

تقديم

هذا كتاب في تاريخ الأدب العربي . قرأته كما تعودت أن أقرأ أمثاله من الكتب التي تعرض للأدب العربي وغيره من الآداب الأخرى . ولكني لم أقرأه بعقلي وحده، كما تعودت أن أقرأ كتب التاريخ الأدبي، وإنما قرأته بعقلي وقابلي وشعوري وبهذه العواطف الكثيرة المختلفة التي تثور في نفس الشيوخ حين يستحضرون أطرافاً من حياتهم في عصر من عصور شبابهم الأول . عواطف هذا الحنين إلى شيء لا سبيل إليه أو إلى أشياء لا سبيل إليها . وعواطف هذا الحب لما لا سبيل إلى بلوغه ولا مطمع في تحقيقه . وعواطف هذا الحزن على هذا الحرمان الذي لا سبيل إلى استدراكه ولا إلى اتقاء ما يثيره في النفس من الميضض واللوعة والأسى .

ثم عواطف الأناجس بتلك الآمال العذاب التي طالما تعلقت بها النفس واثقة مطمئنة ، والتي صدقت ولم تكذب وتحقق ولم تخب ، فلأنت القلب غبطة وبهجة وسروراً ، وأعانت على العمل والجد والكد والنشاط ، وأتاحت لكثير من المني أن تتحقق ثم انقضت وانقضت أيامها ، فأصبحت وكأنها حلم رائع رائق مضى مع تلك الليلة الجميلة التي أثارته وأثارت الرضى به ، ثم مضت إلى غير رجعة ومضى معها حلمها ذلك السعيد .

نعم هذا كتاب يتجه إلى العقل لأنه يؤرخ عصراً من عصور الشعر العربي القديم . ولكنه بالقياس إلى وإلى نفر من رفاقي في ذلك الجيل الذي مضى ، يتجه إلى القلب أيضاً لأنه قطعة من شبابنا ، ولأنه يصور لنا لوناً من ألوان تلك الحياة التي كنا نحياها في أول هذا القرن ، والتي لا يحياها الشباب الآن بعد أن تغيرت الحياة المصرية وذهبت معالم تلك الحياة القريبة البعيدة ، وأصبحنا لا نستطيع أن نستحضرها إلا بالذكرى حيناً تتيح لنا الحياة الحاضرة وأعمالها وأثقالها أن نخلو

إلى نفوسنا ونفرغ لذكرياتنا . وما أقل ما تتاح لنا الخلوقة إلى النفوس وما أندر ما يتاح لنا هذا الفراغ إلى الذكريات .

نعم ! وهذا الكتاب لا يتجه إلى هذه الناحية وحدها من نواحي قلوبنا وحياتنا في أول الشباب ، وإنما يتجه إلى ناحية أخرى هي ناحية الحب الرفيع النقي الكريم الذي لا تشوبه نقيصة ولا تتعلق به آفة من هذه الآفات التي تتعاقب بحسب الإنسان للإنسان ، فتفسده أو تشيع فيه ما يحزن ويسوء . ذلك هو حب الشباب الطامع الطامع المتطلع للأستاذ الذي يرضى الطاموح والطامع والتطلع ، ويخرج النفوس عن أطوارها ويرفعها إلى حيث تستطيع نفوس الشباب أن ترتقى إليه من منازل الإكبار والإعجاب والثقة والاتصال بالمثل العليا ، لا يصددها عن ذلك صداد ، ولا يردها عنه راد ، ولا يحول بينها وبينه حائل من تلك المعوقات التي تملأ حياة الشباب على اختلافها وتباين أشكالها وألوانها .

هذا كتاب في تاريخ الأدب العربي سمعناه في أول شبابتنا في تلك الجامعة المصرية القديمة من أستاذنا الإيطالي العظيم « كارلو نالينو » منذ أربعة وأربعين عاماً .

في ذلك الوقت كنت طالباً في الأزهر أقيم في ذلك الحى الذى وصفته في كتاب الأيام ، والذي زرته منذ حين لأحدث به عهداً ، ولأظهر عليه صديقاً لي من أساتذة « مدريد » ترجم كتاب الأيام وشاقه هذا الحى فأراد أن يراه . فلم نكد نلم به حين ارتفع الضحى من ذلك اليوم حتى رأيت هذين البيتين يترددان في نفسى :

يا دار مية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأمد
وقفت فيها أصيلاً لا أسائلها أعيت جواباً وما بالربع من أحد

نعم ! أشهد لقد أقوت ولقد طال عليها سالف الأمد، ولقد سألتها فلم تجب ولم أجد فيها أحداً يستطيع أن يجيب . وما أذهب في هذا مذهب الحجاز وإنما هو مذهب الحق الذى يستطيع الناس جميعاً أن يروه إذا ذهبوا إلى هذا الحى ورأوا فيه تلك الأطلال التى عبت بها الزمان ، وأهملها الإنسان ونحلى بينها وبين البلى والحراب .

كنت أعيش في ذلك الحى أخرج منه مصباحاً إلى الأزهر فأسمع فيه دروس الأدب من الأستاذ العظيم السيد على المرصني ، وأخرج منه مع المساء إلى الجامعة المصرية فأسمع فيها دروس الأدب من الأستاذ العظيم « كارلو نالينو » . وكانت دروس الأدب تلك التي كنت أسمعها في الأزهر حين يرتفع الضحى تردني إلى حياة الطلاب القدماء الذين كانوا يختلفون إلى العلماء في مساجد البصرة والكوفة وبغداد . وكانت دروس الأدب التي كنت أسمعها في الجامعة حين يقبل المساء تدفني إلى حياة الطلاب الذين يختلفون إلى الجامعات في روما وباريس وغيرهما من المدن الجامعية الأوروبية الكبرى . فكنت أعيش مع الماضي البعيد وجه النهار ، وأعيش مع الحاضر الأوربي الحديث آخر النهار ، وتشغلي خطوب الحياة المصرية الراكدة الممضة بين ذينك الوقتين . وكان الرفاق يجدون من هذه الحياة مثل ما كنت أجد ، يسعدون حين يعودون إلى الماضي ، ويسعدون حين يدفعون إلى الحياة الغربية التي كانوا يتطلعون إليها ، ويشقون بين ذلك بالركود والجمود .

ويجب أن يتصور القراء من الشباب والمعاصرين حياة أولئك الشيوخ الشباب من طلاب الأزهر في أول القرن ، حياتهم المادية وحياتهم العقلية أيضاً . وأن يقدرُوا ما كان يملأ قلوب بعضهم من الرضى والغبطة ، وهذا الغرور الحلو البريء الذي كان يمازج نفوسهم تلك الغضة المتواضعة حين كانوا يدفعون من حى الأزهر إلى حى قصر النيل ، وحين كانوا يتحلقون مصبحين حول أعمدة الأزهر متربعين على الحصر البالية ، ثم يجلسون إذا كان المساء إلى أساتذتهم في غرفات الجامعة لا يتربعون على الحصر وإنما يجلسون على الكراسي إلى تلك المواثد الصغار . وحين كانوا يسمعون من شيوخهم وجه النهار أحاديث الفقه والنحو كما كانت تلقى في تلك الأوقات ، وبأيديهم ملازمهم تلك العتيقة يتبعون فيها ما يقرأ الشيوخ عليهم من الكتب ويسمعون لما يلقى عليهم الشيوخ من التأويل والتعليل والتحليل ، فيفهمون قليلاً ويعجزون عن فهم كثير مما كانوا يسمعون . فإذا كان المساء جلسوا إلى أساتذتهم أولئك من الأوربيين فسمعوا منهم أحاديث لا عهد لهم بمثلها تلقى عليهم باللغة العربية الفصحى مع شيء من التواء الألسنة بهذه اللغة ، فتقع تلك الأحاديث من آذانهم موقع الغرابة ومن قلوبهم مواقع الماء من ذى الغلة الصادى ، فإذا خلوا إلى أنفسهم بعد ذلك وازنوا بين ما يسمعون وما يرون أول النهار ،

وما يسمعون وما يرون آخر النهار . فأثارت هذه الموازنة في نفوسهم عواطف وأهواء وميولا أقل ما توصف به أنها كانت تصور لهم هذه الآماد البعيدة إلى أقصى غايات البعد ، بين قديم سقيم وشبه وضاقوا به ، وبين جديد أحبوه وتهاكوا عليه .

ووازنوا كذلك بين شيوخهم أولئك الذين كانوا لا يعرفون إلا حين يقرءون في الكتب ، فإذا تكلموا غرقوا وأغرقوا طلابهم في اللغة العامية إلى أذقانهم أو إلى آذانهم ، وبين أساتذتهم أولئك الأوربيين الذين كانوا يعرفون حين يقرءون وحين يفسرون وحين يخوضون معهم فيما شاء الله من ألوان الحديث . وكانوا يسألون أنفسهم كيف أتبع هؤلاء الأوربيين ما أتبع لهم من العلم بأسرار اللغة العربية ودقائق آدابها ، وكيف لم يتبع هذا النوع من العلم لشيوخهم أولئك الأجلاء .

وكانت هذه الموازنات تثير في قلوبهم فنونا من التمرد وتدفع نفوسهم إلى ضروب من الثورة والحموح . وكان هذا كله يعرضهم لكثير من الشر . وحسبك أنهم كانوا مقسمين بين الأزهر القديم والجامعة الجديدة .

وكان هذا يجعل حياتهم قلقاً كلها . وأي شيء أجدى على النفوس الشابة من هذا القلق المحصب الذي هو الأساس المتين لكل تطور منتج في الحياة العقلية والمادية جميعاً . وما أظن حياة الشباب « المطربشين » الذين كانوا يختلفون إلى الجامعة إلا مشبهة من كثير من الوجوه لحياة زملائهم المعتمين .

من أجل هذا كله يستطيع القارئ المعاصر أن يقدر ما كان للجامعة المصرية القديمة من أثر بعيد فيما طرأ من تغير خصب على حياة ذلك الجيل من أجيال الشباب .

أما إذا فقدت سجلات غير مرة وأسجل الآن أنى مدين بحياتي العقلية كلها لمدين الأستاذين العظيمين : سيد علي المرصفي ، الذي كنت أسمع دروسه وجه النهار ، و « كارلو نالينو » الذي كنت أسمع دروسه آخر النهار . أحدهما علمني كيف أقرأ النص العربي القديم وكيف أفهمه وكيف أتمثله في نفسي وكيف أحاول محاكاته : وعلمني الآخر كيف أستنبط الحقائق من ذلك النص ، وكيف ألام بينها ،

وكيف أصوغها آخر الأمر علماً يقرؤه الناس فيفهمونه ويجدون فيه شيئاً ذا بال .
وكل ما أتبع لى بعد هذين الأستاذين العظيمين من الدرس والتحصيل في مصر
وفي خارج مصر فهو قد أقيم على هذا الأساس الذى تلقينته منهما في ذلك الطور
الأول من أطوار الشباب . بفضلهما لم أحس الغربة حين أمعنت في قراءة كتب
الأدب القديم ، وحين اختلفت إلى الأساتذة الأوربيين في جامعة باريس . وحين
أمعنت في قراءة كتب الأدب الحديث .

فلا غرابة إذاً في أن تكون حياتى كلها برأً بهذين الأستاذين وإكباراً لهما
واعترافاً بفضلهما وشكراً لما أهديا لى من معروف وما أسديا لى من جميل . وشهد
الله ما قرأت في كتاب قديم ولا حديث ولا حاولت كتابة في الأدب إلا ذكرت
أحدهما أو كليهما وأرسلت إليهما من أعماق نفسى تحية الحب والإعجاب والشكر
والوفاء .

والذين يقرءون هذا الكتاب الذى أقدمه اليوم إلى القراء المتأدبين يحسن بهم
أن يقرءوا ما كان يدرس لشبابنا في ذلك الوقت من أدب في معاهدنا ومدارسنا على
اختلافها ، ليقدروا الفرق الهائل بين ما كان الأستاذ « نالينو » يلقي علينا في الجامعة ،
وبين ما كان يلقي علينا في المعاهد والمدارس ، وأثر هذا الفرق في تطور حياتنا العقلية
وفي تطور تصورنا للأدب العربى قراءة وفهماً وإنتاجاً .

فلأول مرة درس لنا الأدب العربى القديم درساً منظماً ، وألقى فى روعنا أن
الشعر العربى لا يختلف باختلاف فنونه التقليدية مدحاً ورثاءً ووصفاً وهجاءً ونسيباً
وتشبيهاً فحسب ، وإنما يختلف باختلاف موضوعاته التى قيل فيها وظروفه التى
أحاطت به حين قيل ، والمؤثرات المختلفة التى أثرت فى قائله وفى سامعيه أيضاً .
ولأول مرة ألقى فى روعنا ما كان للسياسة من آثار دقيقة عميقة فى نشأة فنون مختلفة من
الشعر العربى فى العصر الإسلامى أيام الخلفاء الراشدين وأيام بنى أمية .

ولأول مرة ألقى فى روعنا الفرق بين الشعر التقليدى وبين الشعر الذى استحدثته
السياسة الإسلامية فى العراق ، وبين النسيب التقليدى القديم والغزل
الذى استحدثته النظام الاجتماعى الإسلامى فى الحجاز ، وبين الغزل المحقق الذى

نشأ في حواضر الحجاز والغزل العذرى النقى الذى نشأ في البادية العربية في الحجاز ونجد والعراق .

ولأول مرة عرفنا أن من الممكن أن ندرس الأدب العربى على أساس من الموازنة بينه وبين الآداب القديمة الكبرى ، وأن الحياة الإنسانية تتشابه وتتقارب مهما تختلف ظروفها ومهما يتنوع ما اختلف عليها من الخطوب .

ولأول مرة تعلمنا كيف نحقق هذه الموازنة بين أدبنا القديم والآداب القديمة الأخرى ، ملائمين بين ما ينبغى أن نلائم بينه ومخالفين بين ما ينبغى أن نخالف بينه من الظواهر المتباينة التى يذخر بها التاريخ والتى تؤثر في حياة الناس .

ثم لأول مرة تعلمنا أن الأدب مرآة لحياة العصر الذى ينتج فيه ؛ لأنه إما أن يكون صدى من أصداؤها، وإما أن يكون دافعاً من دوافعها ، فهو متصل بها على كل حال وهو مصور لها على كل حال ، ولا سبيل إلى درسه وفقهه إلا إذا درست الحياة التى سبقته فأثرت في إنشائه ، والتى عاصرته فتأثرت به وأثرت فيه ، والتى جاءت في إثر عصره فتلقنت نتائجه وتأثرت بها . فللأدب مظهران إذاً ، مظهره الفردى لأنه لا يستطيع أن يبرأ من الصلة بينه وبين الأديب الذى أنتجه ، ومظهره الاجتماعى لأن هذا الأديب نفسه ليس إلا فرداً من جماعة فحياته لا تتصور ولا تفهم ولا تحقق إلا على أنه متأثر بالجماعة التى يعيش فيها . هو في نفسه ظاهرة اجتماعية فلا يمكن أن يكون أدبه إلا ظاهرة اجتماعية .

كل هذا سمعناه وفهمناه في تلك الدروس التى كان الأستاذ «نالىنوه» يلقيها علينا، حين كان هذا القرن في العاشرة من عمره . وكل هذا كان جديداً بالقياس إلينا في تلك الأيام وبالقياس إلى الأزهرين منا بنوع خاص . فن الطبيعى أن يحدث في نفوسنا أعمق الآثار وأبعدها مدى ، وأن يطبع حياتنا العقلية بطابع النقد الحديث . وليس من شك في أن حقائق التاريخ الأدبى العربى قد تغيرت منذ ذلك الوقت في كثير من أنحاءها وفي كثير من تفصيلاتها كذلك .

وليس من شك أيضاً في أن العلماء المصريين كان لهم أعظم الأثر فيما حدث من هذا التغيير ، فهم تعمقوا دراسة الأدب أثناء هذه الأربعين سنة الأخيرة ، فاستكشفوا أشياء لم تكن معروفة في حياة الأدب العربى أثناء القرون الأولى

للهجرة ، وهم قد نشروا آثاراً قديمة لم تكن قد خضعت لبحث العلماء ، فيسروا للباحثين درسها وفقهها واستكشاف ما كانت تخفى من الحقائق . وهم بعد ذلك قد كسبوا بالدراسات الأدبية المصرية منزلة لها قيمتها الخطيرة في الدراسات العالمية لأدبنا العربي القديم .

كل هذا شيء ليس فيه شك ودلائله تلمس بالأيدى في هذه الكتب القديمة التي نشرت ، وفي هذه الكتب الجديدة التي ألقت ، وفي الدروس الأدبية التي تلقى في جامعاتنا ومعاهدنا المختلفة ، وفي إنتاجنا الأدبي الخالص الذي شغلت بدرسه وعينيت بفقهه ونقله إلى اللغات المختلفة البيئات العلمية في غرب أوروبا وشرقها وفي شمال أمريكا وجنوبها . ولكن هناك شيئاً ليس أقل من هذا ثبوتاً واستقراراً ووضوحاً ، وهو أن دروس الأستاذ « نالينو » في الجامعة المصرية القديمة كانت هي الموجة الأولى لنهضتنا العلمية في دراسة الأدب مباشرة أو بالواسطة ، وجهت تلاميذ الأستاذ الذين سمعوا منه فبحثوا وتعمقوا وأحسنوا الفقه ، ثم وجهت أجيالاً من الشباب سمعوا على هؤلاء الطلاب حين أصبحوا أساتذة وقرعوا لهم حين أصبحوا مؤلفين .

وكذلك مضى المذهب الحديث في تاريخ الأدب بين الأجيال المتعاقبة من الدارسين والباحثين . وما أعرف للأستاذ « نالينو » نظيراً في التوجيه العميق للنهضة المصرية إلا زميله الأستاذ « سنتلانا » الذي أحدث في مصر نهضة خطيرة في دراسة الفلسفة الإسلامية ، وفي الصلة بين هذه الفلسفة وبين الفلسفة اليونانية القديمة .

وقد أتيج للأستاذ « نالينو » من البرّ به بعد وفاته ما أرجو أن يتاح لزميله . والفضل في نشر هذا الكتاب يرجع قبل كل شيء وقبل كل إنسان إلى ابنته الكريمة الآنسة « ماريا نالينو » . فهي التي حفظت آثار والدها العظيم وجدت في إعدادها للنشر ، وظفرت بالمعونة على نشر هذه الآثار في إيطاليا ، فأهدت للعلم وللعلماء كنوزاً لا سبيل إلى تقويمها ولا إلى استقصاء آثارها الخطيرة ، فيما أنتج الباحثون من الشرقيين والغربيين وما سينتجون من الدراسات الأدبية العربية على اختلاف موضوعاتها .

وأعدت هذه الدروس للنشر كما تركها الأستاذ لم تغير فيها شيئاً وإنما وُضعت
 لأبيها أصدق الوفاء وأجدره بالإكبار والإجلال . ووجدت من دار المعارف للطبع
 والنشر معونة صادقة على إذاعة هذا الكتاب . فكان للدار وللأستاذة « ماري نالينو »
 فضل أى فضل ، لأنهما بنشر هذا الكتاب قد برّتا بأستاذ جدير بالبر ، وهياتا
 لشباب المصريين والشرقيين أن يعرفوا أصول نهضتنا الأدبية المعاصرة .
 فلهما على جهدهما الخالص لخدمة العلم ، الشكر أجمل ما يكون الشكر ،
 والثناء أصدق ما يكون الثناء .

أما أنا فلم أمل هذه الصفحات إلا لأسجل برى بأستاذى العظيم ، وشكرى
 لابنته الكريمة ودار المعارف على ما أتاحت لى من أن أرى لوناً من ألوان حياتى فى
 طور من أطوار الشباب .

طه حسين

تنبيه

لا يكون هذا الكتاب إلا نص الدروس التي ألقاها المرحوم الأستاذ كارلو نالينو (المتوفى سنة ١٩٣٨) في الجامعة المصرية سنة ١٩١٠ - ١٩١١ دراسية، فقد كان المرحوم ألف نص الدروس باللغة العربية ولكنه كتب الحواشي بالإيطالية بشديد الإيجاز والاختصار، فاعتنيتُ بنقل الحواشي إلى اللغة العربية وأضفتُ إليها ما عثرت عليه من الأخبار المفيدة الموجودة في بعض الكتب التي طُبعت بعد إلقاء هذه الدروس وإنما وضعتُ هذه الإضافات بين نصي مستطيل [] .

ومن الواجبات على أن أشكر الدكتور طه حسين شكراً جزيلاً لإرادته أن يؤسس ذكرى للمحبة الخالصة بينه وبين المرحوم بنشر هذا النص غير المطبوع إلى الآن .

مريم نالينو

مُتَلِمَات

لَمَّا افْتَتَحْتُ دُرُوسِي فِي السَّنَةِ الْفَائِئَةِ كَانَ أَوَّلُ كَلَامِي لِإِبْدَاءِ شُكْرِ خَالِصِ حَمِيمِ صَادِرٍ عَنِ خَفَايَا قَلْبِي لِلْقَائِمِينَ بِالْجَامِعَةِ الْمِصْرِيَّةِ عَلَى مَا شَرَّفُونِي بِهِ بِالدَّعْوَةِ إِلَى الْإِقَاءِ مَحَاضِرَاتٍ فِي هَذَا الْمَعْهَدِ الْعَامِيِّ الَّذِي عَلَى حِدَاثَةِ عَهْدِهِ أَضْحَى قَبْلَةَ آمَالِ الْمُجَدِّينَ فِي تَرْقِيَةِ هَذِهِ الدِّيَارِ الشَّرِيفَةِ وَمَرْكَزًا تَحْوِمُ حَوْلَهُ قُلُوبَ الْآخِذِينَ بِأَيْدِي الْأُمَّةِ الْمِصْرِيَّةِ فِي سَبِيلِ الْفُوزِ وَالتَّوَقُّدِ . وَكَذَلِكَ فِي هَذِهِ السَّنَةِ لَيْسَ لِتَدْرِيسِي افْتِتَاحُ أَوَّلِي وَلَا ابْتِدَاءُ أُخْرَى مِنْ إِعَادَةِ جَزِيلِ الشُّكْرِ عَلَى مَا أَظْهَرَهُ لِي دَوْلَةُ الْأَمِيرِ أَحْمَدَ بَاشَا فُهَّادٍ وَمَجْلِسِ إِدَارَةِ الْجَامِعَةِ مِنْ حُسْنِ الظَّنِّ بِي وَاسْتِحْسَانِ عَمَلِي السَّابِقِ حَيْثُ تَكَرَّمُوا عَلَيَّ بِتَكَرُّرِ الدَّعْوَةِ فِي هَذَا الْعَامِ وَإِنْ عَجَزَ لِسَانِي عَنْ تَوْفِيَةِ مَا يَقْتَضِيهِ مِثْلُ هَذَا الشُّرْفِ مِنْ عِبَارَاتِ الشُّكْرِ وَالْعُرْفَانِ :

وَالَّذِي حَمَلَنِي عَلَى تَلْبِيَةِ الدَّعْوَةِ مَعَ مَعْرِفَةِ قَلَّةِ عِلْمِي وَضَعْفِ قُوَّايِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى خَطَرِ الْمَوْضُوعِ وَجَلَالَتِهِ وَغَابَ فِي نَفْسِي عَلَى الْخِيفَةِ مِنَ النِّقْصَانِ عَنِ نَهْضِ أَعْيَابِ هَذَا الْمَنْصِبِ وَالتَّقْصِيرِ عَنِ إِحْسَانِ الْقِيَامِ بِمِثْلِ هَذَا التَّدْرِيسِ الصَّعْبِ الْوَعْرِ أَنْ الْجَامِعَةَ الْمِصْرِيَّةَ تَدْخُلُ فِي هَذِهِ السَّنَةِ فِي دَوْرٍ جَدِيدٍ وَطُورٍ مَجِيدٍ يُرْجَى مِنْهُ فَضْلًا عَنِ تَرْقِيَةِ الْعِلْمِ إِصْلَاحُ أَحْوَالِ التَّعْلِيمِ بِالْقَطْرِ الْمِصْرِيِّ فِي الْمُسْتَقْبَلِ غَيْرِ الْبَعِيدِ وَتَجْهِيزُ الْمُعَلِّمِينَ الْأَكْفِيَاءَ لِتَحْسِينِ جَمِيعِ الْمَدَارِسِ الْوَطَنِيَّةِ وَجَعْلِهَا أَهْلًا لِغَايَتِهَا تِلْكَ الْعُلْيَا الَّتِي هِيَ مَرَامُ أَوْلَى الْأَفْكَارِ السَّامِيَةِ وَالْأَمِّيَالِ الْعَالِيَةِ أَعْنَى تَكْوِينِ الْقَرَائِحِ وَتَثْقِيفِ الْعُقُولِ وَتَرْبِيَةِ النُّفُوسِ وَبَثِّ رُوحِ الْجِدِّ وَالْعَمَلِ وَإِيجَادِ الرِّجَالِ الْحَادِثِينَ لِوَطَنِهِمْ بِهَمَّةٍ وَصِدْقٍ وَاسْتِقْلَالٍ . وَإِنَّ الْأَفْضَلَ الْكِرَامَ الْمُعْتَنِينَ بِأُمُورِ الْجَامِعَةِ هُمْ كِفْلَاءُ النِّجَاحِ وَرِزْمَاءُ الْفَلَاحِ .

فَلِذَلِكَ سُرِرْتُ أَيَّ سُرُورٍ وَحَسِبْتُ أَنِّي قَدْ نَأَتْ أَسْمَى الْمُنَى بِوَقُوفِي الْيَوْمَ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ مُشْرِكًا وَإِنْ لَمْ أَكُنْ كَفْتَنًا فِي هَذَا الْأَمْرِ الْجَلِيلِ وَالْعَمَلِ الْخَطِيرِ الَّذِي هُوَ أَشْرَفُ مَا يَمْتَدُّ إِلَيْهِ أَعْنَاقُ الْهَمِّ وَأَعْظَمُ مَا يَتَنَافَسُ فِيهِ نِبَالُ الْأُمَمِ .

قد سبقت أمّتي الإيطالية أيّ سبق جميع الأمم الإفرنجية الأخرى إلى عقد
العهود وتثبيت روابط المحبة والوثام بينها وبين الديار المصرية فكان في القرون الوسطى
تجار البندقية وجنوة وغيرهما من المدن الإيطالية قاصدين مصر أفواجاً مقتحمين
لحج البحر منفرغين الجهد في توسيع نطاق التجارة فأصبحوا في أثناء أمد مديد
بل أجيال متوالية متفردين بالاتجار في الشرق مستبدّين بعلاقات الودّ والسلام
بهذه الأراضي الشريفة . وربما لم يقتصروا على مقايضة البضائع : ذهبوا بقصص
وحكايات سمعها من القصاصين المصريين وأشاعوها في الأنحاء الإيطالية حتى
اشتهرت فيها فألبسها أدباء أمّتي ثوباً قشيباً في مؤلفاتهم المنظومة
والمثورة . وكذلك بعض المصوّرين المشهورين من بني جالدي في القرن الخامس
والسادس عشر ربّما في تصاويرهم المحفوظة الآن في المتاحف رسموا أشعة الأبرار
والسلاطين من دولة المماليك أو صوّروا رجالاً عليهم الحالُ الخلاةُ بكتابات
عربية منقولة ممّا رأوه منقوشاً في الصواني والقناديل وما أشبهها من المصنوعات
المصرية . وإن تصفّحت الكتب العربية في صناعة إنشاء الدواوين (مثل كتاب
تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف للشيخ تقي الدين عبد الرحمن من علماء
القرن الثامن للهجرة أو كتاب صبح الأعشى للقلمة شهندي المتوفى سنة ٨٢١ هـ -
١٤١٨ م) وجدتم فيها قوانين رسم مكاتب سلاطين دولة المماليك لأرباب الولايات
أى الحكومات الإيطالية . وعلى تهادى الزمن لم تزل هذه العلائق بين وطنكم ووطني
موقوفة على محض المحبة والمسالمة فلا كدّرتها أبداً شرّ العداوة أو سوء الطمع
والغضب ولم يصل أبداً مركبٌ إيطاليّ إلى مرافئ القطر المصريّ إلاّ بصفة
صديق يزور الصديق . فأحسب من أحسن التفاوض لتوثيق علائق الارتباط بين
الأمّتين إن بعضنا الإيطاليين دُعينا إلى الاشتراك في هذه النهضة العلمية الجديدة
التي تعود على بلادكم بالناثدة العظمى وتكون سبباً في زيادة رفعة القطر وعزّة
الشعب . فأتمنى كلّ التمنى ازدياد المؤالفة والاتفاق وتبادل المحبة والصدقة
على الدوام .

إنّ الموادّ التي ستدور دروسى عليها هذه السنة ليست في كتاب واحد موضحة
أو في كتب قليلة مدوّنة بل هي في جملة وافرة من المصنّفات الكبيرة والصغيرة في

لغات شتى شرقية وغربية متفرقة فضلاً عما يكون من مبتكرات أفكارى .
فلذلك أرى من المناسب أن أكرر نصيحة قد نصحتها للطلبة عند ابتداء
السنة الدراسية السابقة أعنى أن أحثكم كل الحث على أخذ مذكرات في أثناء
الدرس ثم على تقييدها وترتيبها في منازلكم ببذل الجهد وإنعام النظر فيما قيّدتم لئلا
تسوا ما سمعتم ولا تحفظوا شيئاً من المسموع إلا فهمتم معناه واستقصيتم فحواه .
وأنتم تعلمون أن التعلم بشيئين : حسن الحفظ وإدمان الفكر في المحفوظ فإن قل
أحدهما قل ونقص المتعلم . وذلك خصوصاً في المدارس الجامعات التي منتهى
ما يرجى منها ليس كما في المدارس الثانوية محض إفادة الطلبة ما سينفعهم في
الحياة العادية من المعارف بل هو هداية الطلاب في طريق النبوغ في الفنون
وتمرينهم على آداب البحث العلمى باستقلال الفكر ودقة الانتقاد السالم . فمشكل
المدرّس بالجامعات كمشكل دليل رافق السائحين مدة ما فإمّا رأيهم قادرين على
تذليل عقبات الطريق عارفين بما يجب عليهم من التجهّز لباقي السفر والتحرّز من
أخطار السّير ودعهم وتركهم لوحدهم داعياً لهم بالطائر الميمون وفيل المرام متمنياً
أن يسعّهم اكتشاف طرق جديدة وسلوك مسالك لم يدخلها أحد قبلهم وقطع
بقاع لم يسبق إليها غيرهم . كذلك الأستاذ بجامعة يختار كل سنة قطعة صغيرة من
فنه ويتبحر فيها أثناء دروسه ليعرف الطلبة أساليب البحث الدقيق والفحص
العميق التي لا سبيل دونها إلى ترقية العلم وتوسيع حكمة المعارف . فقصارى القول
أن غاية الجامعات ليست فقط أن يصبح الطالب واعياً لما تلقاه عن أستاذه من
الفوائد والأخبار بل هي خاصة تدريب ذهن الطالب بإجراء الاعتبار والانتقاد فيما
وعاه ليصحى بعد ذلك التدريب أهلاً للتدرّج في مراقب الارتقاء العلمى باستقلال
الفكر قادراً على سدّ الخلل الذي ربّما وقع فيه السلف جديراً بالإيجاد فيما اختص به
من العلوم يجوز لطالب المدارس الثانوية الاقتناع بما دونه وبيئته المدرّس أو
بمضمون الكتب القليلة الابتدائية المقررة لتلك المدارس ليكون مقصد التعليم الثانوى
أن يقتبس الشاب قدراً معيناً من المعارف بفنون مخصوصة مناسباً للمقتضى القيام
بأمر الحياة العادية العملية . ولكن لا يجوز ذلك لمن طلب العلم بالجامعات التي
غايتهما القسوى إنّما هو تأهيل أختيار الشبان للتوصل إلى أعلى درجة من المهارة

بالبحث العلمي المبدع وإلتقان الوسائل والأسباب المبنية عليها سسير الوطن والعلم والاجتماع الإنساني في سبيل الرقي الدائم والتمدن الزائد . إن عمل الأستاذ بالجامعات كعمل الزراع في حقولهم لأن دروسنا ليست إلا بذور بزر صغير في عقول المستمعين فلا يدر ذلك البزر ولا ينبت ولا يسمي شجرة وارقة مثمرة إن لم يلقحه المتعلم بقوة الحافظة ورياض العقل وإمعان النظر وسعة مطالعة جسم من مصنفات أشهر العلماء على ما دون ذلك من النصب والجهد والعناء والجهد لأنه كما قيل :

بقدر الكد تكتسب المعالي فن طلب العلاء سهر الليالي

وحيث إن حفظ جميع ما سُمع مرة واحدة لشئء مستحيل (ولا يخفى على أحد صحة المثل السائر أن كل علم ليس في القرباس ضاع) . كيف لكم بإعمال الفكر فيما استمتموه بالجامعة والاستفادة منه بعد ما رجعتكم إلى منازلكم إن لم تكن لكم كراريس قيّمة فيها خلاصة الدرس ؟ ثم كيف لكم بالتجهز لتأدية الامتحان في آخر السنة إذا كان ما دُرّس بالجامعة أكثر المادة التي ستمتحنون فيها ؟ لا بد لكم من احتذاء مثال زملائكم بالجامعات الأورباوية في تقييد مذكرات بسرعة أثناء درس الأستاذ ثم في تكميلها واستخراج نخبها وترتيبها مستعنين بمراجعة ما يتيسر لكم من الكتب المشار إليها في الدرس .

ثم أحرصكم كل التحريض على الاتساع في المطالعة فإنه مما لا غنى عنه لمن يريد الترقى الرحب في أي علم . وهو أيضاً من أعظم الواجبات عليكم خصوصاً في هذا الفن الذي أتشرف بتدريسه هذه السنة لأن شدة الاعتناء بأداب لغتكم الشريفة وتاريخها ليست فقط مسألة علمية بل خدمة جليلة لوطنكم يحق عليكم القيام بها . إن الذي يعين ويصون وحدة أمة هو بالأخص وحدة اللغة والآداب والأخلاق والأميال والأفكار المتوارثة منذ الزمان القديم دون انقطاع وانفصال فإن أغفلت صيانتها انحدرت الأمة إلى ورطة انحطاطها بل إبطال وحدتها . وإن راجعت كتب تواريخ الغرب ألقيم أن بعض الأمم الإفريقية قد تراكمت عليها الفتن والحروب والبلايا والفساد وقهرها العدو وجعلها في حال شر العبودية سلمت من الفناء التام ليمسكها بحفظ آداب لغتها والعناية بتخليد ذكر ما ثر قدمائها العلمية

والأدبيّة. وربّ أمة قد ألقاها تقلّبات الأمور وصروف الدهور في غاية الانحطاط السياسيّ أخذت تُصليح شأنها الدليل وتعود إلى ما كانت أولاً عليه من العمارة والصلاح السياسيّ والاستقلال لمّا صارت علماءها مُفترغين كنانة جهدهم في البحث العميق عن تاريخها وأحوالها السالفة وفي إحياء آداب لغتها وآثارها ومفاخرها كأنهم يعملهم هذا قد ألقوا روح الحياة في جسم الأمة المنهوك القريب من الموت - فويل لكلّ أمة غلب فيها الفتور عن صون كنوزها الأدبيّة وإبقاء ذكر ما أثارها .

ستسمعونني يا سادة أسرد في أثناء دروسى عدداً غير قليل من أسماء علماء معتبرين قدماء كانوا أم معاصرين شرقيين أم غربيين فانتقيد أقوالهم وأبدي فكرى فيها بالحرية النامة مستحسناً تارة لآرائهم وراداً تارة عليها بعد تقديم الاستنادات والدلائل والحجج . وليس غرضى من ذلك الحط من شأن أولئك العلماء الأفاضل والحكماء الأماجد الذين سبقونى في هذه الأبحاث الخطيرة ومهدوا السبيل لمن جاء إثرهم وحدا حدوهم . كلا . وإنّما غرضى الانتفاع بأعمالهم العلميّة المهمّة وتقدير فضائلها حقّ القدر واقتداءً بمثالهم في المسعى إلى الفحص عن حقائق الأمور قدر ما استطعت ، لأنّه بسبب قلّة الطبيعة البشريّة بالنسبة إلى جلاله أسرار الكائنات وعظم المخلوقات ربّما يعرض للباحث القليل الشأن أن تمكّنه إضافة شىء ولو يسيراً إلى ما اكتشفه واخترعه السابقون له من الراسخين في العلم . إنّ مشكل العلم الذى لا نهاية لسعته كمشكل جبل شامخ ذى وعور هائلة وصخور مرعبة راس في وسط بقاع كادت تكون ممتنعة لا تُقطّع لِمّا فيها من الخشونة والصلابة فيرتفع ذلك الجبل بخراشيمه إلى فضاء الجوّ ارتفاعاً لا يُحدّد مقداره حتى لا يمكن أحداً أن يرى قمته . وفي قديم الزمان تجاهد أجراً الناس وأقوامهم في التقرب من سفح الجبل ونجحوا بعد مقاساة متاعب لا تُحصى ثمّ جاء ناسٌ آخر جسورين مثلهم أولو حزم وعزم وأخذوا في السعى إلى صعود الجبل وتوطئة طريق تسلك في الأحجار والصخور فبعد المشاقّ المهيّدة والزلاّت العديدة تمكّنوا من إنفاذ جزء صغير من المشروع . فتبعهم أجيالٌ آخر وانفقوا بعمل سلفهم وأصلحوه أحياناً وواصلوا فيه وربّما لم يتقدّموا إلا بعد ترك المسالك المأخوذة المألوفة والرجوع

إلى ما أسفل منها لإيجاد طرق غيرها تكون أهلاً لمشروعهم فترقوا شيئاً يسيراً بعد كثرة الشغل والضلال واليأس وقلما و مسافة ما بينهم وبين القمة المرغوب فيها - هذا مشكلٌ مسعانا إلى الحصول على الحقائق العلمية الغامضة فإن الحقيقة التامة المطلقة هي القمة المقصودة غير المدركة على تزايد تقربنا منها ، والأقدمون يفيدون المتأخرين علماً ويمكنونهم من التوصل إلى ما هو أعلى من منزلتهم ، وكذلك من المرتقين في سرقاة العلم ممن يعتبر ويشرح من مبحث وجهاً ومن يلاحظ ويبين منه وجهاً آخر فنقتبس من بنات أفكارهما نوراً على نور .

ومن ذلك يتضح جلياً أن تقدم العلوم النظرية العقلية مرتبط بل متعلق بامتحان آراء السلف واختبار جميع ما يسعنا من تجاربهم ومعارفهم بدقة التمحيص والنظر فيجب علينا أن ننتقد أقوال السابقين لنا انتقاداً صحيحاً سالمًا خالياً عن كل غرض دنيء وميل شخصي . إن ذلك الانتقاد المقرون بالاجتهاد يفيدنا علماً ويساعدنا على تحسين العمل وهو الذي يسوقنا إلى المقصود سياقة موثوقاً بها . راجعوا يا سادة تواريخ الأمم الشرقية وتأملوا فيها حق التأمل تجدوا أن انحطاط علومهم وسياستهم إنما ابتداء لما انصرف حكماؤهم عن سبيل الاجتهاد المستقل في العلوم واقتنعوا في المباحث النظرية بالتقليد الذي كما لا يخفى عليكم هو قبول قول الغير دون مطالبته بحجة فعدلوا عن تأليف الكتب المبهمة المطولة ملتهجين إلى الاختصار والتلخيص وتصنيف الحواشي اللاغية على المتون والشروح أو التقايد والتقارير الباطلة على ذات الحواشي . ليس لأمة تمدن صحيح ولا تقدم إذا لم يكن فيها رجال مستقلون بالعلوم النظرية مترقون عن رتبة تقليد من سبقهم . فلذلك لا تقتصروا أيها الطلبة على جمع أقوال أساتذتكم وتكريرها بل سرحوا فيها أنظاركم وأعملوا فيها قوة فطنتكم فإن سمعتم ما لا يقنعكم دلياً وبرهاناً فعليكم أن تسألوا أستاذكم وتطلبوا منه شرحاً أوسع وأوفى . وحيث إن العصمة لله وحده فلا يسلم إنسان من الخطأ تماماً على جليل قدره وعلو منزلته ووفر علمه وعقله ، ليس من المستحيل أن يرول الأستاذ أحياناً في كلامه أو لا يدرك غاية الوضوح في بيانه فتقودنا إذ ذاك المباحثة إلى كشف القناع عن الغوامض ورفع الحجاب عن كل مبهمة مرتاب فيه .

الباب الأول

١ - لفظ الأدب : بحث عن معناه الأصلي وما تفرع منه من المعاني
المتعددة المختلفة . ٢ - تعريف تاريخ الكتاب . ٣ - كيف ينقسم
تاريخ الآداب العربية .

وهذا أوان الخوض فيما ستدور دروسى عليه :

١ - يجب على من يأخذ فى بيان علم أن يقدم تغريف ذلك العلم وتعيين
موضوعه فأبتدى أنا أيضاً بشرح اسم الفن الذى أختص بتدريسه هذه السنة
وهو تاريخ الآداب العربية .

إن اللغة لكائنٌ حتى فعلى مثل كلِّ حتى تقبل النمو والتجدد والفساد .
وكذلك الألفاظ. المفردة فكثيراً ما يطرأ عليها من التغيير والانتقال من معنى
إلى آخر حسبما يقتضيه تغير أحوال الأمة الاجتماعية والسياسية والتقدم أو
التقهقر فى الصنائع والعلوم . ومن الألفاظ العربية التى كثر فيها تغير المعنى
الأصلى على تآدى الزمان وتقلبات العوائد والأفكار والأميال هو لفظ الأدب
حتى إن أحداً من عرب الجاهلية أو القرن الأول من الإسلام أو أخيراً الآن
وسمع اسم الفن المعين لى تدريسهُ لما فهم من حقيقة موضوعه شيئاً . فلنصفحه
عن معنى لفظ الأدب الأصلى ثم عما عرّض له من الانحراف عن أصله
والإطلاق والحصر مدة الأجيال التالية لظهور الإسلام إلى عصرنا هذا .

إذا راجعتم القواميس المطولة ما وجدتم فيها لهذا اللفظ تعريفاً كافياً
ولا شرحاً وافياً فلا عجب فى ذلك لأن لغوى العرب عند شغفهم وعنايتهم
المحمودة بلم غريب الألفاظ كثيراً ما أغفلوا إتقان تعريف المفردات

المألوفة كأنها غيراً حرية بالذكر . فتجدون مثلاً أن ابن منظور الإفريقي المتوفى بمصر سنة ٨٧١١ / ١٣١١ م لم يقيّد في قاموسه العظيم الجسم المترجم بكتاب لسان العرب لفظ « الحَرْف » بمعنى الكلمة مع أنه قديم متداول ، ولا أحد من علماء اللغة سجّل في كتبه ذلك اللفظ . بمعنى الشيء اليسير والقطعة الصغيرة على كثرة استعماله عند أظرف الكتاب منذ القرن الأوّل للهجرة النبوية^(١) . أمّا لفظ « الأدب » فأكثر اللغويين اقتصروا على تعريفه هكذا : « الأدبُ الظرفُ وحُسنُ التناول » . وفي المصباح المنير^(٢) لأحمد ابن محمد المقرئ الفيومي المتوفى سنة نيّف وسبعين وسبعمائة ما نصّه : « أدبته أدباً من باب ضرب علمته رياضة النفس ومحاسن الأخلاق . قال أبو زيد الأنصاري^(٣) : الأدب يقع على كلّ رياضة محمودة يتخرّج بها الإنسان في فضيلة من الفضائل . وقال الأزهري^(٤) نحوه » . وقال السيد الشريف عليّ بن محمد الجرجاني المتوفى سنة ٨١٦ هـ / ١٤١٣ م في كتاب التعريفات^(٥) : « الأدب عبارة عن معرفة ما يُحتَرَزُ به عن جميع أنواع الخطأ - آداب البحث صناعة نظرية يستفيد منها الإنسان كيفية المناظرة وشرائطها صيانة له عن الخبط . في البحث وإلزاماً للخصم وإفحامه . كذا في قطب الكيلاني^(٦) . آداب القاضي وهو التزامه لما ندب إليه الشرع من بسط .

(١) راجع J. WEISS, *Die arabischen Nationalgrammatiker und die Lateiner* في المجلة الألمانية (Z. D. M. G.) Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft 64, 1910, p. 368-374.

(٢) المصباح المنير ج ١ ص ٦ من طبعة بولاق ١٣١٦ .

(٣) توفى أبو زيد الأنصاري سنة ٢١٤ أو ٢١٥ أو ٢١٦ هـ .

(٤) أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري المولود سنة ٢٨٢ والمتوفى في ربيع الثاني ٣٧٠ هـ / ٩٨٠ م ألف كتاب تهذيب اللغة .

(٥) كتاب التعريفات ص ١٤ من طبعة ليبسك سنة ١٨٤٥ .

(٦) عاش قطب الدين الكيلاني هذا في النصف الثاني من القرن الثامن (الرابع عشر الميلادي) وله شرح على رسالة في آداب البحث لشمس الدين محمد السمرقندي .

العدل ورفع الظلم وترك الميل « - والذي توسع في بيان معنى الأدب من أهل اللغة هو السيد المرتضى الحسيني الزبيدي المتوفى بمصر سنة ١٢٠٥ هـ / ١٧٩١ م قال في كتاب تاج العروس^(١) الذي هو أوسع كتب اللغة العربية ألفه بصفة شرح على القاموس للفيروزبادي^(٢) : « (الأدب محرّكة) ^(٣) الذي يتأدّب به الأديب من الناس سُمي به لأنه يؤدّب الناس إلى المحامد وينهاكم عن المقابح وأصل الأدب الدعاء . وقال شيخنا^(٤) ناقلاً عن تقريرات شيوخه الأدب ملكة تعصم من قامت به عمّا يَشِينه . وفي المصباح^(٥) هو تعلم رياضة النفس ومحاسن الأخلاق . وقال أبو زيد الأنصاري^(٦) الأدب يقع على كل رياضة محمودة يتخرّج بها الإنسان في فضيلة من الفضائل . ومثله في التهذيب^(٧) . وفي التبويح هو استعمال ما يُحمد قولاً وفعلاً أو الأخذ أو الوقوف مع المستحسنات أو تعظيم مَنْ فوقك والرفق بمن دونك . ونقل الخفاجي^(٨) في العناية عن الجواليقي^(٩) في شرح أدب الكاتب الأدب في اللغة حُسن الإتّحلاق وفعل المكارم وإطلاقه على العلوم العربيّة مولد حدث في الإسلام . وقال ابن السّيد البطلانيّ^(١٠) الأدب أدب

(١) ج ١ ص ١٤٤ .

(٢) محمد بن يعقوب الفيروزبادي المتوفى سنة ٨١٧ هـ / ١٤١٤ م .

(٣) ما بين القوسين هو من القاموس .

(٤) « شيخنا » يعنى أبا عبد الله محمد بن الطيب الفاسي المولود سنة ١١١٠ هـ بفاس والمتوفى

سنة ١١٧٠ هـ بالمدينة .

(٥) يعنى المصباح المنير لأحمد بن محمد المقرئ الفيومي الذي تقدم ذكره .

(٦) أبو زيد سعيد بن أوس الأنصاري المتوفى سنة ٢١٤ أو ٢١٥ أو ٢١٦ .

(٧) يعنى كتاب تهذيب اللغة لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري الذي تقدم ذكره .

(٨) أحمد بن محمد الخفاجي المتوفى سنة ١٠٦٩ هـ . فانظر كتابه « شفاء الغليل فيما في كلام

العرب من الدخيل » ص ٢٣ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

(٩) توفى أبو منصور موهوب بن أحمد الجواليقي سنة ٥٣٩ هـ - [وراجع شرحه على أدب

الكاتب لابن قتيبة ص ١٣ من طبعة مصر ١٣٥٠] .

(١٠) ولد ابن السيد البطلاني سنة ٤٤٤ هـ ومات سنة ٥٢١ هـ أما اسمه ابن السيد فهو بكسر

السين المهملة وياء ساكنة فراجع كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان ترجمة عدد ٣٥٤ من طبعة فونزينج أو

عدد ٣٢٠ من الطبقات المصرية .

النفس والدرس . والأدب (الظرف) بالفتح (وحسن التناول) وهذا القول شامل لغالب الأقوال المذكورة ولذا اقتصر عليه المصنف « ا هـ .

إنَّ هذا النصَّ على طولهِ ليس غاية الوضوح ولا يفيدنا ما كان معنى الأدب أصلاً وكيف تفرَّعت منه المعاني المتعددة المشهورة التي ربما لا تُرى بينها علاقةٌ باديةٌ نظرٌ وذلك فضلاً عما في شرح المؤلف من الخلل والنقصان فعلياً أن نستخرج من تأليفات العرب النظمية والنثرية شواهداً ونصوصاً نافعة لتوضيح معنى ذلك اللفظ. أصلاً وفرعاً ونوردها مرتبةً ترتيباً تاريخياً دون خلط. القديم بالحديث لتجلو لنا حقيقة الأمر .

لا شك في أنَّ الأدب عند قدماء العرب إنما كان السنة (١) أي طريقة العمل والتصرف التي سنَّها (أي سار فيها) الأوائل فصارت مسلكاً لمن بعدهم أعني جملة العوائد القديمة الواجب على الإنسان سيرها على رأى عرب الجاهلية . وأنتم تدررون أن علم الأخلاق عندهم إنما كان مراعاة سيرة أسلافهم فيها كانوا يفتخرون كما قال لبيد في معلقته (٢) : (من بحر الكامل)

إنَّا إذا التقتِ المِجامعُ لم يَزَلْ منَّا لِيَزَّازُ عَظِيمَةٌ جِشَاهُهَا
وَمُقَسِّمٌ يُعْطَى العَشِيرَةَ حَقُّهَا وَمُعْذِمٌ لِحَقُوقِهَا حَضَامُهَا
مَنْ مَعَشَرَ سَنَّتْ لَهُمْ آبَاؤُهُمْ وَلِكُلِّ قَوْمٍ سُنَّةٌ وَإِمَامُهَا

(١) في السنة انظر : DE LANDBERG, *Etudes sur les dialectes de L'Arabie méridionale* ; Leiden 1901, II, P. 891-893; NOELDEKE, *Fünf mo' allaqat*, II, Wien 1900, P. 91-92 ; I. GOLDZIEHER, *Muhammedanische Studien*, Halle 1888-1890, I p. 41; II p. 13.

(٢) لزاز الخشبة التي يشد بها الباب ولزاز عظيمة لازم لها موكل بها والجشام المتكلف للأمر القائم بها . مقسم : قال الأصمعي : المقامر الذي يضرب بعض حقوق الناس ببعض لياخذ من هذا ويعطى هذا . وقال أبو عبيدة هو الذي يعصى ولا يرد . حضام الحضام الذي ينقص قوماً ويعطى قوماً بتدبير وقد وثق به في ذلك .

أو كما جاء في شعر المتلمس^(١) : (من بحر الطويل)
 وقد كنت ترجو أن أكون لعقبكم
 زنيماً فما أجزرت أن أتكلماً
 لأورث بعدي سنة يقتدى بها
 وأجلدوا عن ذي شبهة إن توهماً

فعلى معنى السنة والسيرة ورد لفظ الأدب في قصيدة لسهم بن حنظلة
 الغنوي^(٢) من الشعراء المحضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام : (من
 بحر البسيط).

قد يعلم الناس أني من خيارهم
 في الدين ديناً وفي أحسابهم حسباً
 لا يمنع الناس مني ما أردت ولا
 أعطيهم ما أرادوا حسن إذا أدباً
 فظاهر أن الأدب هنا هو السيرة والطريقة .

وحيث أن ركن التربية وثقيف العقول كان عندهم تعليم سنة الأوائل
 أطلقوا الأدب والتأديب على حسن الشيم وتهذيب الأخلاق . ومن هذا الباب
 قول بعض الفزاريين رواه أبو تمام الطائي في حماسته^(٣) : (من بحر البسيط)

(١) ديوان المتلمس المطبوع بليبسك سنة ١٩٠٣ م عدد ١ بيت ١٥ - ١٦ وزم المعلق
 في القوم ليس منهم . أجر شق طرف لسان الفصيل أو الجدى لئلا يرتفع .
 (٢) خزانة الأدب لعبد القادر البغدادي ج ٤ ص ١٢٤ من طبعة بولاق ١٢٩٩ والبيت الثاني
 موجود أيضاً في لسان العرب ج ١٦ ص ٢٦٩ .

(شرح البيتين) الدين السيرة . والحسب ما للإنسان من الشرف والجد بسبب كثرة آبائه المجيدين
 ومفاخرهم . وحسن من أفعال المدح أو اللوم مثل حب وبعد وسرع ونعم وبشس ، واختلف اللغويون
 في معنى البيت الأخير فهاكم ما جاء في شرحه في كتاب خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب لعبد القادر
 ابن عمر البغدادي المتوفى سنة ١٠٩٣ هـ / ١٦٨٢ م بمصر (ج ١ ص ١٢٥) « قال التبريزي في شرح
 إصلاح المنطق لابن السكيت يريد أنه يقهر الناس فيمنعهم ما يريدون منه ولا يمنونه ما يريد منهم
 لعزته وجعله أدباً حسناً . هذا تفسير أبي محمد . وقال أبو العلاء في معنى هذا البيت كأنه ينكر على نفسه
 أن يعطيه الناس ولا يعطيهم ويمنعهم . وهو الصواب لأن ما قبله يدل عليه . وإذا فاعل حسن وأدباً
 تميز وأراد حسن لخفف ولقل لأن هذا ملهب التعجب . وقال الصوار إن الشاعر أنكر على نفسه بأن
 الناس يعطونه ويمنعهم ثم قال حسن إذا أدباً أي ما أحسن هذا الأدب على سبيل الإنكار والتهكم . انتهى » .

(٣) الحاشية ص ٥١٠ - ٥١١ من طبعة بن ١٨٢٨ - ١٨٥١ أوج ٣ ص ٨٧ من طبعة

بولاق ١٢٩٦ .

أَكْنِيهِ حِينَ أَنْادِيهِ لِأَكْرَمِهِ وَلَا أَلْقِبُهُ وَالسُّوَاءَ اللَّقَبَا
كَذَاكَ أَذْبَتُ حَتَّى صَارَ مِنْ خُلُقِي إِنِّي وَجَدْتُ مَلَكَ الشُّيْمَةِ الْأَدْبَا

ومنه أيضاً قول امرأة من بني هِزَّان سُمِّيت بِأَمِّ الثَّوَابِ فِي ابْنِ لَهَا عَقْبَهَا (١) :
(من بحر البسيط.)

أَنْشَا يُمْرِقُ أَثْوَابِي يُودِبُنِي أَبْعَدَ شَيْبِي عِنْدِي يَبْتَغِي الْأَدْبَا

ومنه أيضاً قول عبد الله بن المخارق الشهير بنايعة بنى شَيْبَانَ (٢) من شعراء
عصر الأمويين :

إِنَّ الْغَلَامَ مُطِيعٌ مِنْ يُودِبُهُ وَلَا يُطِيعُكَ أَذْوَابِي لِتَأْدِيبِي

ثم لضيق المعارف عند العرب القدماء (وتعلمون أن أغلبه العلم بسنة
آبائهم ومكارمهم ومفاسدهم) صارت كلمة الأدب عبارة أيضاً عن المعرفة
بشيء، والتأديب عبارة عن الإنذار بشيء والتعليم، والأديب عبارة عن
المُخْبِر بِأَمْرٍ. ومن هذا الباب ما جاء في الحديث النبوي (٣) من قول عليّ

— (شرح البيهقي) الألقاب أعلام تشع بمدح شخص أو ذمه باعتبار معناها الأصل فجاء في القرآن
الشريف في سورة الحجرات : « وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ » . وفي شعر حريث بن عتاب النهدي من
معاصري الخلفاء الراشدين : (من بحر البسيط) .

لا يرتجى الجار خيراً في بيوتهم ولا محالة من شتم وألقاب

واختلفوا في شرح « والسوءة » ومنهم من قال إنه مفعول مع الألقاب أي لا ألقبه اللقب مع السوءة
ومنهم من قال إنه مفعول به كما يقال ما زلت وزيداً حتى فعل كذا أي ما زلت يزيد حتى فعل كذا
ومنهم من قال بالتقديم والتأخير كأن المراد ولا ألقبه الألقاب والسوءة . وملاك الأمر قوامه الذي يقوم به أي
نظامه وعماده .

(١) كذا في كتاب الحماسة لأبي تمام ص ٣٥٦ من طبعة بَنُ أوج ٢ ص ١٣٤ من طبعة بولاق .
وفي الكامل للمبرد ص ١٣٦ من طبعة ليبسك أوج ١ ص ١١٤ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٤
أنشا يحرق أثوابي ويضربني أبعد شيبني عندي تبغني الأدبا
(٢) كتاب الحماسة للبحري ص ٣٤٠ من طبعة ليدن وديوان نايعة بنى شيبان ص ٧٥ من
طبعة مصر ١٣٥١ .

(٣) انظر النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ج ١ ص ٣ من طبعة مصر ١٣١١ . وقال
السيوطي في كتابه الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة (ص ١٣ - ١٤ من طبعة مصر ١٣٠٧ -

ابن أبي طالب حين سمع النبي يخاطب وقد بنى نهْد : « يا رسول الله نحن بنو أب واحد ونراك تكلمم وفود العرب بما لا نفهم أكثره . فقال أدبني ربِّي فأحسن تأديبي وربيت في بني سعد » .

ومنه أيضاً بيت لمقاتل بن مسعود العبدي رواه البُحترى في حماسته (١) :
(من بحر الطويل)

عَرَفْتُ اللَّيَالِي بُوْسَهَا وَنَعِيمَهَا وَحَنَكِي صَرَفَ الزَّمَانَ وَأَدْبَا

أى جعلني ذا خبرة بالأمر . - ومنه قول أبي عطاء أفلح بن يسار السندي (٢)
من شعراء أواخر الدولة الأموية :

إِذَا أَرْسَلْتَ فِي أَمْرٍ رَسُولًا فَأَفْهِمَهُ وَأَرْسَلُهُ أَدِيبًا

وَإِنْ ضَيَّعْتَ ذَلِكَ فَلَا تَلْمُهُ عَلَى أَنْ لَمْ يَكُنْ عَالِمًا الْغُيُوبَا

فجلى أن المراد بالأديب المُخْبِرُ بأمر مخصوص .

هذه كانت معاني لفظ الأدب في زمان الجاهلية والقرن الأول للهجرة لا غير - فلسائل أن يسأل : ما لكل هذه الألفاظ والمعاني من العلاقة بسائر المفردات المشتقة أيضاً من حروف أدب مثل الأذَّب وهو العَجَب والأُدْبَةُ والمَأْدُبَةُ والمَأْدُبَةُ التي هي طعامٌ صُنِعَ لدعوة أو عِرْسٍ ومثل أَدْبَ يَأْدُبُ أَدْبًا معناه عمِلَ مَأْدُبَةً أو دعا فلاناً إلى الطعام ؟ إن علماء اللغة من العرب اجتمعوا على جواب هذا السؤال بما تقدّم ذكره في النص المنقول آنفاً

= بهامش الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي) مانعه : « (حديث) أدبني ربِّي فأحسن تأديبي أبو سعيد ابن السمعي في أدب الإملاء من حديث ابن مسعود والمسكري في الأمثال وابن الجوزي في الأحاديث الواهية من حديث علي وقال لا يصح ومصححه أبو الفضل بن ناصر قلت وأخرج ابن عساكر من طريق محمد بن عبد الرحمن الزهري عن أبيه عن جده أن أبا بكر قال يا رسول الله لقد طفت في العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك فمن أدبك ؟ قال أدبني ربِّي ونشأت في بني سعد . انتهى » .

(١) الحماسة للبحترى ص ١٥٤ من طبعة ليدن - حنكته هذبه .

(٢) كتاب الأخاني ج ١٦ ص ٨٦ من طبعة بولاق .

من كتاب نواج العروس . فيوافقه مثلاً قول أبي زكرياء يحيى التبريزي في شرحه على كتاب الحماسة لأبي تمام (١) : « والأدب اسم لما يفعله الإنسان فيتزین به في الناس . وأصله من الدعاء والأدب يدعو إلى نفسه بحُسْنِه . » وقال عبد القادر البغدادي في كتاب خزانة الأدب ج ٤ ص ١٢٤ من طبعة بولاق سنة ١٢٩٩ : « واشتقاقه من شَيْثِين يجوز أن يكون من الأدب وهو العجب ومن الأدب مصدر قولك أدب فلان القوم يأدبهم إذا دعاهم قال طرفة (٢) :
(من بحر الرمل)

نحن في المَشْتاة ندعو الجفلي لا ترى الأدبَ فينا ينتقِرُ
فإذا كان من الأدب الذي هو العجب فكأنه الشيء الذي يُعجَب منه
لحُسْنِه لأنَّ صاحبه الرجل الذي يُعجَب منه لفضله وإذا كان من الأدب
الذي هو الدعاء فكأنه الشيء الذي يدعو الناس إلى المحامد والفضل فينّهام
عن المقايح والجهل . »

بيد أن هذا الاشتقاق ليس بعري من الشك واللبس الشديد لما فيه من
التكلف البعيد عن مقتضى قوانين نمو اللغة الطبيعي وطريقة انتقال معاني
المفردات إلى غيرها . ولكن إذا طلب أحدكم مني إظهار رأيي في حقيقة
الأمر أجبت أني لا أستطيع إلا إبداء تخمين قد لمح إليه عرضاً في بعض
تصانيفه الأستاذ فلرُس (Vollers) (٣) المرحوم ناظر دار الكتب الخديوية
سابقاً . لا يخفى عليكم كثرة ورود لفظ الأدب في أشعار الجاهلية وأن

(١) الحماسة ص ١١١ من طبعة بن أوج ٣ ص ٨٧ من طبعة بولاق .

(٢) البيت مروى في الديوان : قصيدة رقم ٥ بيت ٤٦ من طبعة لندن (The Divans of the six
ancient Arabic poets edited by Ahlwardt, p. 62.) الجفلي قال في المصباح هي أن تدعو الناس إلى
طعامك دعوة عامة من غير اختصاص . التقر اختار .

(٣) انظر : VOLLERS, Katalog der islamischen . . . Handschriften der Universitäts Biblioth.,
Leipzig 1906, p. 180 n. 1.

معناه أى العادة والملازمة ليس بعيداً عن معنى السنة والأدب . ومع أن جمعة لا يُذكر في كتب اللغة ليس من المحال أن العرب قد جمعوه على آداب أعني على وزن أعفال بتخفيف الهمزة ومد الألف الأولى كما يُجمع بشر على آبار وشار على آثار ورأس على آراس ورأى على آراء . وحيث إن حُسن السيرة والأدب إنما كان عند العرب يحفظ ما كانوا توارثوا عن أسلافهم من العوائد المسنحة لعلهم استعملوا لفظ الآداب عبارة عن تلك العوائد أى السنة المحمودة . ثم على تهادى الزمان اشتقوا من ذلك الجمع المتداول اصطلاحاً صيغة جديدة لمفردة أعني الأدب كما اشتقوا تقى والتقى والتقى من اتقى أو اتخذ يتخذ تحذاً من اتخذ أو تله يتله تلهها (أى حار وذهل) من اتله وهلم جراً . فأصبح لفظاً الأدب والأدب (أى الدعاء إلى الطعام) كأنهما قرعان من أصل واحد على عدم علاقة حقيقية بينهما كما اتفق مثلاً للفظي الزور والزور فأولهما عربى محض معناه وسط الصدر وقوة العزم والثاني فارسى الأصل معناه الكذب .

وإن التفتنا إلى ما سلّم من التلّف ووصل إلينا من مصنّفات القرن الثانى للهجرة وجدنا أن المراد بالأدب لم يزل مقصوراً على طريقة التصرف ولاسيما المحمودة وحسن الأخلاق الناشئ عن حسن التربية والميل إلى المحامد ثم على المعارف سوى ما يتعلق بالدين والشريعة الذى قد اختص به اسم العلم منذ أواسط القرن الأول . ومما يدلّ على ذلك كُتَيْب لعبد الله بن المقفع ناقل كتاب كيلة ودمنة المتوفى نحو سنة ١٤٠ هـ / ٧٥٧ م وهو كُتَيْب فى الحكيم والنصائح والأخلاق اسمه كتاب الأدب الصغير نشره حضرة الشيخ طاهر الجزائرى فى مجلة المقتبس سنة ١٣٢٦ هـ ثم طبعه

مستقلاً في المجموعة المسماة برسائل البلغاء^(١). وقال حديثاً الأديب الأريب أحمد بك زكي^(٢) إنَّ عنوان ذلك الكتاب يجوز نقله إلى الفرنسية هكذا : *Le petit savoir faire* ولكني لا أرى تمام الموافقة بين العبارتين العربية والفرنسية وحدَّ ابن المقفَّع موضوع كتيِّبه هكذا^(٣) : « قد وضعتُ في هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ - حروفاً فيها عَوْنٌ على عمارة القلوب وصيقلها وتجليَّة أبصارها وإحياء للتفكير وإقامة للتدبير ودليلٌ على محامد الأمور ومكارم الأخلاق إن شاء الله ». فترون من هذا الكلام أنَّ مراد المؤلف جمعُ حِكْمٍ ونصائح وإنَّ الأدبَ عنده قسم من علم الأخلاق العمليِّ . فجاء في ضِمْنِ كتابه الأدب والآداب بمعنى طريقة التصرف وخصوصاً الحسنه فقال مثلاً المؤلف ص ٤ : « وعلى العاقل أن يُخصيَ على نفسه مساوئها في الدين وفي الرأي وفي الأخلاق وفي الآداب فيجمع ذلك كله في صدره أو في كتابه » ، وقال ص ٧ : « قد يسعى إلى أبواب السلطان أجناس من الناس كثيراً أمَّا الصالح فمدعوٌ وأمَّا الطالح فمقتحمٌ وأمَّا ذو الأدب فطالبٌ وأمَّا من لا أدب له فمختلسٌ » .

وفي ص ١٢ : « أمورٌ لا تصلح إلا بقرائنها : لا ينفع العقل بغير ورع ولا الحفظ بغير عقل ولا شدَّة البَطْش بغير شدَّة القلب ولا الجمال بغير حلاوة ولا الحَسَب بغير أدبٍ إلخ » .

وفي ص ١٥ : « لا يطمعن ذو الكِبَر في حُسن الثناء ولا العُخْبُ في كثرة

(١) رسائل البلغاء ص ١ - ١٧ من طبعة مصر ١٣٢٦ . نطبعه أيضاً أحمد باشا زكي في سنة

١٣٢٩ هـ بالإسكندرية (ونقله الأستاذ Reacher إلى الألمانية سنة ١٩١٥) .

(٢) AHMED ZEKI BEY, *Mémoire sur les moyens propres à déterminer en Egypte* (٢)

une renaissance des lettres arabes, Cairo 1910, P. 20.

(٣) رسائل البلغاء ص ٣ من الطبعة المذكورة .

الصديق ولا السبي الأدب في الشرف ولا الشحيح في المَحْمَدَة « وربما جاء الأدب بمعنى حُسن التربية وتعليم مكارم الأخلاق فقال ابن المقفع ص ٧ : « كلام اللبيب وإن كان نزرًا أدب عظيم » . وربما جاء أيضاً الأدب بمعنى المعارف الدنيوية فقال ص ١٣ : « مَنْ حَاوَلَ الْأُمُور احتاج فيها إلى ستِّ الرأى والتوفيق والفرصة والأعوان والأدب والاجتهاد . ومن أزواج فالرأى والأدب زوج لا يكمل الأدب إلا بالرأى ولا يكمل الرأى بغير الأدب . والأعوان والفرصة زوج إلخ » .

وفي ص ١٥ : « فضل العلم في غير الدين مهلكة وكثرة الأدب في غير رضوان الله ومنفعة الأخيار تائد إلى النار » . وأختم إيراد النصوص المنقولة من كتاب ابن المقفع بما ورد في أول نفس الكتاب (ص ٢) : « فغاية الناس وحاجاتهم صلاح المعاش والمعاد . والسبيل إلى دركها العقل الصحيح . وأمانة صحة العقل اختيار الأمور بالبصر وتنفيذ البصر بالعزم . وللعقول سجيئات وغرائز بها تقبل الأدب وبالأدب تنمي العقول وتزكو . فكما أن الحبة المدفونة في الأرض لا تقدر على أن تخلع يابسها وتظهر قوتها وتطلع فوق الأرض بزهرتها ونضرتها وريعها ونماؤها إلا بمعونة الماء الذي يغور إليها في مستودعها فيذهب عنها أذى اليبس والموت ويحدث لها بإذن الله القوة والحياة فكذلك سليقة^(١) العقل مكنونة في مغزها من القلب لا قوة لها ولا حياة بها ولا منفعة عندها حتى يعتملها الأدب الذي هو نماؤها وحياتها ولقاحها . وجل الأدب بالمنطق وكل المنطق بالتعلم ليس منه حرف من حروف معجمه ولا اسم من أنواع أسمائه إلا وهو مروى متعلم مأخوذ عن إمام سابق

(١) سليقة طيبة .

من كلام أو كتاب . اه فيلوح أن المراد هنا بالأدب هي المعارف على الإطلاق .

وكذلك لا يخرج عن العرف اللغوي القديم استعمال لفظ الأدب في عنوان الباب الثالث من كتاب الحماسة^(١) لأبي تمام المتوفى سنة ٢٢٨ هـ على أصح الأقوال فإن ذلك الباب يتضمن الأشعار في الحكيم وفي الأخلاق المحمودة من حياء وعفة وإغضاء عن الفحشاء وحسن معاملة الناس ومسامحة الأخطاء وهلم جرا ليكون ذلك كله هداية للناس في سيرتهم . وأنتم تعلمون أن الإمام أبا عبد الله البخاري المتوفى سنة ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م أفرد كتاب الأدب من كتاب الجامع الصحيح^(٢) لعلم الأخلاق العملي وقوانين الأنس فإن مدار الأحاديث النبوية المجموعة في ذلك الكتاب إنما هو ما على الأولاد للوالدين والعناية بالأرامل واليتامى والفقراء ومراعاة حقوق الجيران وطيب الكلام والرفق في كل الأمور ورحمة الناس بالبهايم وتعاون المؤمنين بعضهم بعضاً وحسن الخلق والسخاء وما يُكره من البخل وما يجوز من اغتياب أدل الفساد والريب وما يُكره من التماح والنهي عن التحاسد والتدابير والصبر على الأذى والتبسم والضحك والإخاء والحلف والزيارة والحياء والحذر من الغضب والضيغ وما يُستحب من العطاس وما يُكره من التثاؤب وما يُشبه ذلك . وكذلك كتاب الأدب لابن المعتز الشاعر الشهير المتوفى سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م لا يشتمل إلا على الحكيم في الأخلاق . ولكني لا أريد الإطناب في سرد النصوص والشواهد على ذلك لأن استعمال كلمة الأدب

(١) كتاب الحماسة ٤٩٨ - ٥٣٧ من طبعة بن أوج ٣ ص ٧٥ - ١١٢ من طبعة بولاق .

(٢) صحيح البخاري ٢ ص ٣٩ - ٧١ من طبعة بولاق ١٢٨٩ أوج ٣ ص ١٠٨ - ١٦٥ من

بمعنى مكارم الأخلاق وحسن الأنس والتصرف معروف لم يزل متداولاً إلى وقتنا هذا ، وهو المسمى عند بعض الكتّاب بأدب النفس .

وفي أواخر القرن الثاني وأوائل الثالث ابتدأت تتفرع من تلك المعاني الأصليّة معانٍ جديدة على طريق الإطلاق والحصر مع بقاء القديمة في عرّف الناس . وكان سبب ذلك فضلاً عن نمو اللغة الطبيعيّ ما حصل للعرب من الرقيّ في سبيل التمدن والتغيّر في حضارتهم والتجدّد في أحوال حياتهم والتقلّب في سياستهم منذ اتّسعت مملكتهم وامتدّ سلطانهم على أمم مختلفة الجنس واللغة والدين والعوائد والأميال الذين اختلطوا شيئاً فشيئاً بالمتغلبين عليهم وأثروا في عمرانهم وعلومهم ما لا يخفى على أحد من التأثير العظيم . ولا سيما بعد ما قويت شوكة بني العباس وانتقلت دار الخلافة من دمشق إلى بغداد سنة ١٤٥ هـ / ٧٦٢ م أعنى إلى المدينة الجديدة الواقعة في وسط تلك الأراضي العراقيّة التي قد أدرك فيها التمدن الفارسيّ الساسانيّ أوج عزّته وروّيقه . فنالت أشرف العجم المراتب العليا عند الخلفاء العبّاسيين حتّى كادلا يُستوزر إلا أكابر أهل الفرس .

قد ذكرنا آنفاً أنّ العرب أحياناً عبروا بلفظ الأدب عن جملة ما كان لهم من المعارف الدنيويّة القليلة . وحفظ هذا المعنى المطلق إلى ما يلي منتصف القرن الرابع حسبما يُستنتج من رسائل إخوان الصفاء . وفيها ما نصّه (١) : « واعلم يا أخي بأنّ العلوم التي يتعاطاها البشر ثلاثة أجناس

(١) انظر الرسالة السابعة من القسم الثاني من رسائل إخوان الصفاء ج ١ ص ١٨ - ١٩ من طبعة مجي سنة ١٣٠٥ - ١٣٠٦ . أما تسميتهم أنفسهم بإخوان الصفاء فأصلها عبارة توجد في أول باب الحماة المطبوعة من كتاب كليلّة ودنة وذلك لظنهم أنّ تلك الحكاية مثل ضرب في احتياجنا إلى معاونة إخوان لنا نصحاء وأصدقاء لنا فضلاء متبصرين بأمر الدين علماء بمحقات طريق الأمور لننجو من الورطة التي وقعتنا فيها كلنا بجناية أبينا آدم (اطلب الرسالة الثانية من القسم الأول من رسائلهم ج ١ ص ٥٣ من الطبعة المذكورة) . فقلوا أنفسهم بأولئك الإخوان النصحاء . أما رأيهم هذا في آدم فهو أقرب إلى اعتقادات النصاريّ منه إلى الدين الإسلاميّ .

فمنها الرياضية ومنها الشرعية الوضعية ومنها الفلسفية الحقيقية . فالرياضية هي علم الآداب التي وُضِعَ أكثرُها لطلب المعاش وصلاح أمر الحياة الدنيا وهي تسعة أنواع أولها علم الكتابة والقراءة ومنها علم اللغة والنحو ومنها علم الحساب والمعاملات ومنها علم الشعر والعروض ومنها علم الزجر والفأل وما يشاكله ومنها علم السحر والعزائم والكيمياء والحيل وما يشاكلها ومنها علم الجرف والصنائع ومنها علم البيع والشري والتجارات أو الحرث والنسل ومنها علم السير والأخبار . - فليس هذا بعيداً عن قول الوزير المشهور الحسن بن سهل المتوفى سنة ٢٣٦ هـ أو ٨٥٠ - ٨٥١ م . قال :
الآداب عشرة فثلاثة شهرجانية وثلاثة أنوشروانية وثلاثة عربية وواحدة أربت عليهن . فأما الشهرجانية ^(١) فضرب العود ولعب الشطرنج ولعب الصوالج . وأما الأنوشروانية ^(٢) فالطب والهندسة والفروسية . وأما العربية فالشعر والنسب وأيام الناس ، وأما الواحدة التي أربت عليهن لمقطعات الحديث والسمر وما يتلقاه الناس بينهم في المجالس ^(٣) . فظاهر أنه أراد

(١) الشهاجة أو الشهاريج هم من أشرف الفرس .

(٢) من كسرى أنوشروان الذي كان ملك الفرس من سنة ٥٣١ إلى سنة ٥٧٩ م .

(٣) زهر الآداب وثمر الألباب للحضري ج ١ ص ١٠٢ من طبعة مصر ١٣٠٥ بهامش العقد الفريد لابن عبد ربه [أوج ١ ص ١٤٠ من طبعة مصر ١٩٢٥] . فنسب جعفر بن محمد البيهقي العلوي (المتوفى سنة ١١٨٢ هـ) مثل هذا القول إلى ذي الرئاسين وهو أبو العباس الفضل بن سهل أخو الحسن بن سهل وتولى وزارة المأمون ومات سنة ٢٠٢ هـ . فهذا نص البيهقي في كتابه موسم الأدب وأثار العجم والعرب ج ١ ص ٢ - ٣ من طبعة مصر ١٣٢٦ : « وفي سلاسل الذهب للعلامة أمين سفر المنفى قال العلامة جار الله الزمخشري كان ذو الرئاسين يقول الأدب عشرة أجزاء ثلاثة أنوشروانية لعب الشطرنج والضرب بالعود والضرب بالصوالج (في الطبعة بالصوالج وهو تحريف) وثلاثة شهرجانية (في الطبعة شهرجانية وهو تحريف) الهندسة والطب والنجوم وثلاثة عربية النحو والشعر وأيام العرب وواحدة وهي السمر أراد المحاضرة . اد . فراجع أيضاً محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء للراغب الأصفهاني (المتوفى سنة ٥٠٢ هـ) ج ١ ص ٧٢ من طبعة مصر ١٣٢٦ .

فمضى الأدب هذا (أعني جملة العلوم والفنون والصنائع والألعاب التي يتميز الإنسان بمعرفتها من سلة الناس) فارسي تماماً ، فليراجع كتاب المعلمين للجاحظ في كتاب الفصول المختارة من كتب الجاحظ (بهامش الكامل للمبرد) ج ١ ص ٢٢ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٤ .

بالآداب جميع الفنون غير الدينية وكل ما كان يصلح على رأى الفرس للظريف الشريف الأصل من المهارة بأنواع الألعاب ورياضة الجسم .
 وفي نفس ذلك القرن الثالث ربما حصروا الأدب (بمعنى المعارف والقوانين الضرورية مراعاتها) في ما تجب معرفته على طبقة مخصوصة من الناس . فألف ابن قتيبة الدينوري اللغوي والمؤرخ والمتأدب الشهير المتوفى سنة ٢٧٦ (وقيل ٢٧٠ أو ٢٧١) كتاباً سماه أدب الكاتب أو أدب الكتاب جمع فيه ما لا غنى عنه لكل كاتب ماهر من العلوم اللغوية . وصنف أبو الفتح محمود بن الحسين المعروف بابن كشاجم المتوفى في حدود سنة ٣٥٠ (وقيل ٣٦٠) كتاب أدب النديم وهو عبارة عن مجموعة نكت وأبيات ونوادير يليق حفظها وروايتها في المناداة ترويحاً للنفوس . ومن ألف كتباً في أدب الوزراء دون فيها التصائح المفيدة للوزير في فروع الحكمة العملية والسياسية . ومن ألف التصانيف المترجمة بأدب القاضي شرح فيها قوانين القضاء الشرعي .

قد سبق أن الأدب والآداب أصلاً كانت السيرة أو السنة الحميدة . وفي أواخر القرن الثالث أطلق هذا المعنى على ما دون الأخلاق دلالة على المنهج الواجب سلوكه في فن من الفنون والعلوم أو في عمل من الأعمال . ففي كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه المتوفى سنة ٣٢٨ هـ / ٩٤٠ م نجد مثلاً باباً في آداب الحكماء والعلماء وأبواباً موسومة بالأدب في الحديث والاستماع أو الأدب في المجالسة أو الأدب في المعاشاة وهلم جراً . ودون الإمام الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ / ١١١١م في كتاب إحياء علوم الدين آداب الأكل وآداب النكاح وآداب الكسب وآداب الألفة والأخوة والصحبة والمعاشرة وآداب السفر وآداب السماع والتوجه وغير ذلك مما يطول نقله هنا . وألف محمد بن

علي بن طباطبأ المعروف بابن الطُّقْطَقِي كتاباً في التاريخ سماه كتاب
الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية^(١) وقال^(٢) إنه «إنما هو
موضوع للسياسات والآداب التي يُنتَفَعُ بها في الحوادث الواقعة والوقائع
الحادثة وفي سياسة الرعيّة وتحصين المملكة وفي إصلاح الأخلاق والسيرة» .
وكثيراً ما صنّفوا مصنّفات في آداب الدرس أي في طريقة التعليم والتعلم .
وكلّكم تدرّون أن آداب المريدين هي مناهج طالب الترقى في مدارج الطرق
الصوفيّة وأن آداب البحث هي قوانين المناظرة يسوغ للمتناظرين مراعاتها في
الردّ والقبول .

قلنتقل إلى بيان أصل سائر معاني الأدب . إن الترفّ والرفه والنعم
واتّساع الأحوال قد بلغت غايتها في مدن العراق والجزيرة وخصوصاً ببغداد
في أوائل القرن الثالث للهجرة فقد حصل هناك للعرب ما أجاد وصفه ابن
خلدون حيث قال في مقدمته الشهيرة^(٣) : «إن الأمة إذا تغلّبت وملكت
ما بأيدي أهل الملك قبلها كثر رباؤها ونعمتها فتكثر عوائدهم ويتجاوزون
ضرورات العيش وخبثونته إلى نوافله وزيّنته ويذهبون إلى اتّباع من
قبلهم في عوائدهم وأحوالهم وتصير لملك النوافل عوائد ضرورية في تحصيلها
وينزعون مع ذلك إلى رقة الأحوال في المطاعم والملابس والقرش والآنية
ويتفانخرون في ذلك ويفانخرون فيه غيرهم من الأمم في أكل الطيب ولبس
الأنيق وركوب الفاره^(٤) . . . وعلى قدر ملكهم يكون حظهم من ذلك وترّفهم

(١) ألف ابن الطقطي كتابه في سنة ٨٧٠١ / ١٣٠١م لفخر الدين عيسى بن إبراهيم
عامل الموصل .

(٢) الفصل الأول من الفخرى ص ١٩ من طبعة غريفزولد بألمانيا سنة ١٨٥٨ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ١٦٧ من طبعة بيروت ١٩٠٠ أوج ١ ص ٣٤٢ من الترجمة

الفرنسية لدى سلان (De Slane) .

(٤) الفاره الحصان الجارى الملح .

فيه إلى أن يبلغوا من ذلك الغاية . هـ . ا . هـ . ومن طالع كتاب الأغاني
 لأبي الفرج علي الإصصهاني المتوفى سنة ٨٣٥٦ / ٩٦٧ م وكتاب مروج الذهب
 للمسعودي المتوفى سنة ٨٣٤٥ / ٩٥٦ م وما يشاكلها من الكتب أو تصفح
 دواوين شعراء ذلك العصر عرف إفراط شغف الناس بالمجالسة والمناذمة
 والمحادثة على الشراب في أيام هارون الرشيد والأمين والمأمون ومن تبعهم من
 الخلفاء وتلقن قدر ما بلغه حينئذ قصده الأناقة في كل شيء وفعل والتفنن
 في جميع المعارف المستظرفة حتى إن غاية التورية في بعض طبقات الناس
 إنما كان الظرف في اللبس والتصرف ورشاقة الكلام ورقة المعاني وحسن
 الاستئناس . وإن أردتم الوقوف التام على كنه أولئك المتظرفين فراجعوا كتاب
 الموشى^(١) لأبي الطيب محمد بن إسحاق بن يحيى الأعرابي المعروف بالوشاء
 المتوفى سنة ٨٣٢٥ / ٩٣٧ م توصف فيه سنن الظرف بتفصيل فتجدون فيه
 أبواباً في ذكر زي الظرفاء في اللباس المستحسن عند سراوات الناس وفي
 زي الظرفاء في التكاك والنعال والخفاف وفي زيهم المخصوص في الخواتم
 والفضوص وفي زيهم في التعطر والطيب الذي من خالفه كان غير مصيب
 وفي ذكر زي الظرفاء في الطعام الذي بانوا به من منزلة اللثام وفي ذكر زيهم
 في الشراب الذي يتخير به ذوو الألباب وفي ذكر الأشياء التي ينطير الظرفاء
 من إهدائها ويرغبون عنها لشناعة أسماؤها وفيما اختير من ألفاظ الأدباء في
 المكاتبات واستحسن من الظرفاء من ملبح المعاتبات وفيما ضمنوه كتبهم من
 الأشعار وتكاتب به ذوو الظرف والخطار وفيما ضمنوه كتبهم من السلام
 وجعلوه تلواً للشعر والنظام وهلم جرا .

فإذا لاغرو أن لفظ الأدب عندهم أخذ يعدل عن معنى محض الأخلاق

(١) طبع بليدين سنة ١٨٨٧ وبمصر سنة ١٢٢٤ بعنوان كتاب الظرف والظرفاء .

المحمودة الحاصلة من حسن تربية النفوس حتى صار عبارةً عن كلِّ ما وجب مراعاته ومعرفة والتحملي به على من أراد مجالسة اللطفاء والوجهاء وتعمد جميع أنواع التظرف في أعماله وأفكاره وحديثه . فذلك لا فرق في كتاب الموشى المذكور بين الظريف والأديب . وخلاصة القول أن المراد بالأدب عند بعض طبقات الناس ببغداد منذ ابتداء القرن الثالث كان إظهار الأخلاق المرصية للجلساء والظرف والأناقة في اللباس والطعام والشراب وسائر أحوال الحياة والأنس والفصاحة وعذوبة الكلام ثم حفظ الأبيات والنكت مع أخذ شيء من كل علم لتوشية الحديث به . فهذا أعني الأخلاق الحميدة والتظرف والمعارف المستطابة هو معنى الأدب مثلاً في كتاب العقد الفريد لأحمد بن عبد ربه الأندلسي المتوفى سنة ٥٣٢٨ / ٩٤٠ م كما يلوح من جميع كتابه وخصوصاً من الباب في آداب الحكماء والعلماء (١) .

ومن هذا المعنى المُجَدِّث العام تفرَّع معنيان خاصان مطابقة لاختصاص أميال بعض المتظرفين بنوع معين من الظرف . فإن الذين مالوا إلى ما يلد للعقول وفضلوه على غيره رأوا غاية الظرف في حضور المجالس والمقامات ورواية الأمثال والحكايات والتحدث بالملح والنوادر والأخبار وتذاكر القصص والأشعار على ما تجرُّ المحادثة من شجون الكلام وذلك مع كراهة كل إطناب مُجِل . فإن الإسام كان عندهم من شر العيوب فكثيراً ما جاء التحذير منه في تأليفات القرن الثالث والرابع . وروى مثلاً عن الأشجع السلمى الشاعر في أيام هارون الرشيد أن أنس بن أبي شيبخ النصرى صاحب الوزير جعفر بن يحيى لما عاشره أول مرة طلب منه إنشاد بعض شعره .

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٢٠٦ - ٢٠٩ من طبعة مصر ١٣٠٥ [وإن أردت المقابلة بصحائف الطبقات الأخرى فانظر : *tohis Kitāb al-Ikd* ; Mohammad Shafic, *Analytical Indices* [*al-farid*, Calcutta 1935] . أما لفظ الأدب في « فصول في الأدب » (المقدج ٢ ص ١٨٩-١٩١) وفي « فصول لعمر بن بحر الجاحظ في الأدب » (العقدج ٢ ص ١٩١) فعناه الحكم .

« قال الأشجع فأنشدته فقال إنك لشاعرٌ فما بمنعك من جعفر بن يحيى فقلت ومن لي بجعفر بن يحيى فقال أنا فقل أبياتاً ولا تُطيل فإنه يمل الإطالة . فقلت لست بصاحب إطالة فقلت أبياتاً على نحو ما رسم لي »^(١) .
 وفي الباب السابع بعد المائة من كتاب مروج الذهب للمسعودي^(٢) ما نصه :
 « وقد ذكر بعض المحدثين من أهل الأدب أن من الأدب عدم إطالة الحديث من التديم وأن أحلى لحديثه وأحسن لموقعه أن يجتنب منه الأحاديث الطوال ذات المعاني المتغلطة^(٣) والألفاظ الحشوية التي افتن باقتصاصها سمار المجلس وتتعلق بها النفوس وتحتسى^(٤) على أواخرها الكوروس فإن ذلك بمجالس القصص أشبه منه بمجالس الخواص . وقد ذكر هذا المعنى فأجاد فيه عبد الله ابن المعتز ووصف ذلك من أوصاف أصحاب الشراب على المعاقرة^(٥) فقال^(٦) :
 (من بحر الخفيف)

بين أقداحهم حديث قصير هو سحرٌ وما سواه كلامٌ
 وكان السقاة بين الندامى آفاتٌ على سطورٍ قيامٌ

فلتفتنهم في المعارف المستظرفة المقرون بالخوف الشديد من الممل اشتبه
 في عرفهم أن علم الأدب عبارة عن الملح واللطائف والنكت والأمثال والنوادر
 والإبيات الرقيقة والتواريخ وذكر الشيء بالشيء بالاستطراد أو بالمناسبة مع

(١) كتاب الأغاني ج ١٧ ص ٢٣ من طبعة بولاق سنة ١٢٨٥ راجع A. MEZ, *Abulhasin*, Heidelberg 1902, P. VIII-IX.

(٢) مروج الذهب للمسعودي في الباب السابع بعد المائة ج ٦ ص ١٢٢ - ١٢٣ من طبعة باريس ١٨٦١ - ١٨٧٧ .

(٣) الرسالة المفصلة المحمودة من بلد إلى بلد .

(٤) « لستنا يحسو واحتسى شربه شيئاً بعد شيء » .

(٥) عاقر الخمر آدم من شربه .

(٦) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ٦٣ (الباب الخامس في الشراب والخمريات) من طبعة مصر

سنة ١٨٩١ .

مراعاة مقتضى الحال . فـقـيـل إن « الفرق بين الأديب والعالم أن الأديب من يأخذ من كل شيء أحسنه فيألفه والعالم من يقصد لفن من العلم فيعلمه »^(١) . وقال شاعر^(٢) :

أرى العلمَ نوراً والتأديبَ حذيةً فخذ منهما في رغبة بنصيب
وليس يتم العلمُ في الناس للفتى إذا لم يكن في علمه بأديب

ولا يخفى عليكم كم كتاب ألف في فن الأدب بهذا المعنى الخاص أعنى في جمع مقطعات الأشعار وطرف الأخبار وغرائب النوادر ترويحاً للنفوس وتفكيهاً للألباب . وأول من سلك هذا المنهج في التأليف وصار أنموذجاً في ذلك للمتأخرين هو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ / ٨٦٩م فإنه في مصنفاته النفيسة الشهيرة يهيم في كل واحد ويجمع بين المنظوم والمنثور والنوادر والفكاهات والأخبار من غير ترتيب واضح مخافة من ملل القارى . ومن الغريب أن المسعودي^(٣) قال إنه نظم تصانيفه أحسن نظم . ومن أحسن بيان لمادة التأليفات من ذلك الفن ما قال أبو إسحاق إبراهيم ابن عليّ الحُصَريّ القيرواني المتوفى سنة ٤١٣ وقيل ٤٥٣ في وصف موضوع كتابه المسمى بزهر الآداب وثمر الألباب^(٤) : « هذا كتاب اخترت فيه قطعة كافية من البلاغات في الشعر والخبر والفصول والفقر مما حسن لفظه

(١) انظر إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب لياقوت ج ١ ص ١٧ من طبعة لندن بعناية الأستاذ مرجليوث (Margoliouth) سنة ١٩٠٧ [إلى ١٩٢١] في النسخة الخطية : فيتمله وهو غلط فأقرأه : فيتمله فقرأ الأستاذ مرجليوث : فيتمله .

(٢) إرشاد الإريب ج ١ ص ١٦ .

(٣) مروج الذهب في الباب الأحد والعشرين بعد المائة (ج ٨ ص ٣٤ من الطبعة البارسية المذكورة) .

(٤) زهر الآداب ج ١ ص ٢ - ٤ من الطبعة المصرية سنة ١٢٠٥ [أوج ١ ص ١ - ٣ من طبعة سنة ١٩٢٥] .

ومعناه واستدلّ بفحواه عن مغزاه ولم يكن شاردًا حُوشياً ولا ساقطاً سُوقياً بل كان جميع ما فيه من ألفاظه ومعانيه كما قال البُحترى^(١) :

في نظام من البلاغة ما شـ لكُ امرؤ أنه نظامُ فريدِ
حُزنٍ مستعملِ الكلامِ اختياراً وتَجَنُّبِ ظلمةِ التعقيدِ
وركيبنِ اللفظِ القريبِ فأدرك من به غاية المراد البعيدِ

ولم أذهب في هذا الاختيار إلى مطوّلات الأخبار . . وهو كتاب يتصرف الناظر فيه من نشره إلى شعره ومطبوعه إلى مصنوعه ومحاورته إلى مفاخرته ومناقضته إلى مساجلته^(٢) وخطابه المُبهِت إلى جوابه المُسَكِّت وتشبيهاته المصيبة إلى اختراعاته الغريبة . . وكان السبب الذي دعاني إلى تأليفه وتديّني إلى تصنيفه ما رأيته من رغبة أبي الفضل العباس بن سليمان أطلال الله مدته وأدام نعمته في الأدب وإنفاق عمره في الطلب وماليه في الكتب وأن اجتهاده في ذلك حمله على أن أرتحل إلى المشرق بسببها وأغمض في طلبها باذلاً في ذلك ماله مستعذباً فيه تعباً إلى أن أورد من كلام بلغاء عصره وفصحاء دهره طرائف طريفة وغرائب غريبة وسألني أن أجمع له من مختارها كتاباً يكتبني به عن جملتها وأضيف إلى ذلك من كلام المتقدمين ما قاربه وقارنه وشابهه ومائله فسارعت إلى مراده وأعنته على اجتهاده وألّفت له هذا الكتاب ليستغني به عن جميع كتب الآداب إذ كان موثّقاً من بديع البديع^(٣) ولآلى

(١) انظر ديوان البُحترى ج ٣ ص ١٩٥ من الطبعة القسطنطينية سنة ١٣٠٠ أو ج ١ ص ٢٠٦ من الطبعة المصرية سنة ١٣٢٩ هـ أو ص ٦٩٣ و ٦٩٤ من طبعة بيروت سنة ١٩١١ وندح البُحترى (المتوفى سنة ٢٨٤ هـ) في هذا الشعر محمد بن عبد الملك بن الزيات . الأبيات مروية أيضاً في إعجاز القرآن للباقلاني ص ٥٥ من طبعة مصر ١٣١٥ والبيتان الآخران مرويان في كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ص ٣٧٢ من طبعة مصر ١٣٢١ .

(٢) مساجلته : وساجله فآخره وهارضه .

(٣) يعنى بديع الزمان أحمد بن الحسين الهمداني المولود سنة ٣٥٨ هـ ٩٦٩ م والمتوفى سنة ٣٩٨ هـ ١٠٠٧ م [وفيه انظر النثر الفنى في القرن الرابع لزكى مبارك ج ٢ ص ٣٢٥ إلى ٣٥٦] .

الميكالي^(١) وشهبي الخوارزمي^(٢) وغرائب الصاحب^(٣) ونفيس قابوس^(٤) وشذور
 أبي منصور^(٥) . وهذا النوع من الأدب أي أخذ شيء مستظرف وطرائف
 وغرائب من كل فن ولا سيما من مقطعات الأشعار ولطائف الأخبار هو المقصود
 في أكثر ما جاء في مدح الأدب ومحاسنه وفضيلته في عدة تأليفات مشهورة
 مثل كتاب العقد الفريد السابق ذكره وكتاب المحاسن والمساوي لإبراهيم
 ابن محمد البيهقي^(٦) من علماء القرن الخامس وكتاب إرشاد الأريب إلى
 معرفة الأدب^(٧) لياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦ / ١٢٢٩ وشرح أبي العباس أحمد
 ابن عبد المؤمن الشريشي^(٨) - المتوفى سنة ٦١٩ / ١٢٢٢ على المقامات الحويرية
 وكتب أخرى يطول سرد أسماؤها .

أما المعنى الخاص الثاني الملمح إليه فيما تقدم فأصله عند قوم من الظرفاء
 فضلوا صناعة الشعر والإنشاء البليغ ودقائق اللغة على سائر أجناس الظرف
 فاصطلحوا بلفظ الأدب على جميع الفنون الكتابية المستظرفة لا على مجرد

-
- (١) وهو أبو الفضل عبد الرحيم بن أحمد الميكالي المتوفى سنة ٤٣٠ هـ ١٠٣٨ م . [راجع
 النثر الفنى المذكور آنفاً ج ٢ ص ٣١٩ - ٣٢٤] .
- (٢) المراد هو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي ولد سنة ٣٢٢ هـ ٩٣٥ م ومات سنة
 ٣٨٣ هـ ٩٩٣ م (وقيل ٣٩٣) [راجع النثر الفنى المذكور سابقاً ج ٢ ص ٢٥٩ إلى ٢٧٦] .
- (٣) يعنى الصاحب بن عباد ولد سنة ٣٢٤ هـ ٩٣٦ م (وقيل ٣٢٦) وتوفى سنة ٣٨٠ هـ
 ٩٩٥ م [انظر النثر الفنى ج ٢ ص ٢٤٣ - ٢٥] .
- (٤) وهو شمس المعالي قابوس وشمكير المتوفى سنة ٤٠٣ هـ ١٠١٢ م [انظر النثر الفنى ج ٢
 ص ٢٧٧ - ٢٨٩] .
- (٥) وهو أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي ولد سنة ٣٥٠ هـ ٩٦١ م ومات سنة ٤٢٩ هـ
 ١٠٣٨ م [انظر النثر الفنى ج ٢ ص ١٧٩ - ١٩٠] .
- (٦) راجع كتاب الحسن ج ١ ص ٢٠١ و ج ٢ ص ٧٤ - ٧٥ من طبع مصر سنة ١٣٢٥ هـ
 ١٩٠٦ م [وراجع أيضاً ج ٢ ص ٧٥ - ٩٢] .
- (٧) إرشاد الأريب ج ١ ص ١٣ - ٢٧ من الطبعة الليدية .
- (٨) شرح المقامات الحويرية للشريشي في آخر المقامة الثامنة والثلاثين (ج ٢ ص ١٨٠ من
 طبعة مصر ١٣٠٦) .

المقطعات منها ولفظ. الأديب على من يُحسِن العربية ويتعاطى صناعاتي النظم والنثر . وابتداء استعمال كلمة الأدب هذا في نفس النصف الأول من القرن الثالث حسبما يتضح من جملة من النصوص . منها قول الجاحظ. ^(١) المتوفى سنة $\frac{٢٥٥}{٨٦٩}$: « طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يُحسِن إلا غريبه فرجعت إلى الأخصر فوجدته لا يُتقِن إلا إعرابه فعطفت إلى أبي عبيدة فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالآيām والأنساب فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك الزيات . فجلّي أن الأدباء هنا هم الذين يُسمون بالفرنسيّة gens de lettres أو lettrés . وقال الجاحظ. ^(٢) أيضاً في موضع آخر : « وأنشد رجل قوماً شعراً فاستغربوه فقال والله ما هو بغريب ولكنكم في الأدب غرباء » ، فظاهر أن الأدب هنا صناعاتي النظم والنثر البليغ . وهذا أيضاً المراد بالآداب في قول المبرّد المتوفى سنة ٢٨٥ في خطبة كتابه الموسوم بالكامل في اللغة والأدب ج ١ ص ٢ من طبعة مصر سنة ١٣٢٣ إلى ١٣٢٤ : « هذا كتاب الفنائه يجمع ضروباً من الآداب ما بين كلام منشور وشعر مرصوف ومثل سائر وموعظة باللغة واختيار من خطبة شريفة ورسالة بليغة » . وكتب الآداب هي جميع التصانيف المستظرفة نظماً ونثراً كما يلوح من ذكر كتب ذلك الفن في إحدى رسائل أبي بكر الخوارزمي ^(٣) المتوفى سنة ٣٨٣ وقيل ٣٩٣ : « ذكر السيّد أنه كتب جواب كتابي من وقت الظهور إلى وقت العصر . ولقد استبطأته مع ما أعرفه من بُعد غوره وغزارة بحره . ولكنني أغلقت لهذا

(١) المروى في العملة لابن رشيقي ج ٢ ص ٨٤ من الطبعة المصرية سنة ١٣٢٥ .

(٢) وقول الجاحظ هذا مروى في عمدة ابن رشيقي ج ١ ص ٨٦ من الطبع المذكور .

(٣) رسائل الخوارزمي ص ٢٢ من طبعة مصر سنة ١٣١٢ أو ص ٣٠ - ٣٦ من طبعة

قسطنطينية سنة ١٢٩٧ ولكن في هذه الطبعة الأخيرة روايات غير صحيحة .

الجواب بابي وأرخت له حجابي وضمت إلى نشر كتب آدابي وجلست من الدواوين بين آل الجراح^(١) وآل ثوابة^(٢) وبين بني الخصيب وبني مقله^(٣) ونشرت من المقابر آل يزداد وآل شداد^(٤) وحشرت من الآخرة ابن المقفع البصرى^(٥) وسهل بن هارون الفارسي^(٦) وابن عبدان المصري والمحسن بن وهب الحارثي وأحمد بن يوسف المأموني^(٧) ووضعت عن يميني عهد أردشير بن بابكان وعن يساري كتاب التبيين والبيان^(٨) وبين يدي فصول بزرجمهر بن البختكان^(٩) وقبل ذلك رسائل مولانا الصاحب^(١٠) عين الزمان وزين الشيب والشبان ، فما زلت أسرق من هذا كلمة وأطرد من ذلك فقرة وأستعير من هناك نادرة وثيقة أغصب الأحياء على بيانهم وأنبش الموتى من أكفانهم - وعلى

- (١) يشير بال الجراح إلى داود بن الجراح الذي عاش في أيام المستعين $\frac{248}{862} - \frac{251}{866}$ وابنه محمد وحفيده علي بن عيسى وابني حفيده عيسى بن علي وعبد الله بن علي فكلهم من الأدباء والمؤرخين فراجع فهرست ابن النديم ص ١٢٨ - ١٢٩ من طبع ليبسك سنة ١٨٧١ .
- (٢) أما آل ثوابة فهم أبو العباس أحمد بن محمد بن ثوابة بن يونس المتوفى سنة ٢٧٧ وابنه أبو عبد الله محمد وهما مؤلفا رسائل (انظر كتاب الفهرست ص ١٣٠) .
- (٣) ومن بني مقله الوزير الكاتب أبو علي محمد بن علي بن مقله الذي ولد سنة ٢٧٢ ومات سنة ٣٢٨ (راجع ابن خلكان عدد ٧٠٨ من طبعة غوثنجن أو عدد ٦٦٩ من الطبقات المصرية) وأخوه أبو عبد الله القاسم الذي ولد سنة ٢٧٨ وتوفى سنة ٣٣٠ (انظر كتاب الفهرست ص ٩ والإرشاد لياقوت ج ٣ ص ١٥٠ - ١٥٢) .
- (٤) ابن يزداد هو أبو عبد الله محمد بن يزداد بن سويد المتوفى سنة ٢٣٠ وكان وزير المأمون وله ديوان ورسائل . راجع كتاب الفهرست ص ١٢٤ .
- (٥) يعنى عبد الله بن المقفع المشهور الذي أمر الخليفة المنصور بقتله سنة ١٤٠ م ٧٥٧ .
- (٦) هو سهل بن هرون كاتب المأمون ومدير خزائن الحكمة مات سنة ٢١٥ م [انظر الإرشاد لياقوت ج ٤ ص ٢٥٨] .
- (٧) [لعله أحمد بن يوسف بن القاسم مات سنة ٢١٣ أو ٢١٤ وتوفى ديوان رسائل المأمون فليراجع الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ١٦٠ - ١٧١] .
- (٨) وهو كتاب مشهور للجاحظ .
- (٩) انظر ما قلت فيه في كتابي علم الفلك تاريخه عند العرب في القرون الوسطى (روما ١٩١١) . ص ١٩٠ - ١٩٦ .
- (١٠) يعنى الصاحب بن عباد الذي قد تقدم ذكره (انظر الحاشية ٣ من ص ٣٠) .

مثل ذلك يستعمل ياقوت في كتاب إرشاد الأريب لفظاً الأدباء لتعريف الذين يعتنون بفنّي النظم والنثر لا غير . وهذا المعنى لم يزل في عرف الناطقين بالضاد إلى أيامنا .

ولننتقل إلى بيان معنى آخر أصله في قوم من العلماء اشتغلوا بعلوم الدين والشريعة ورأوا من موجباتها التدقيق في معرفة أسرار العربية لتفسير القرآن من جهة المفردات والعبارات اللغوية أو لشرح الغريب الوارد في الأحاديث النبوية فجعلوا الاستقصاء في جميع أنواع العلوم المتعلقة باللغة والشواهد الشعرية جلّ المعارف الدنيوية بل توطئة لكل العلوم الشرعية . فقال مثلاً الإمام أبو حامد الغزالي المتوفى سنة ١١١١هـ في كتاب إحياء علوم الدين^(١) إن العلوم الشرعية تنقسم إلى أربعة أضرب الأول منها أصول الفقه والثاني فروع الفقه والثالث المقدمات والرابع المتممات يعنى تفسير القرآن وعلم الحديث . ثم قال : « والضرب الثالث المقدمات وهي التي تجرى منه مجرى الآلات كعلم اللغة والنحو فإنهما آلة لعلم كتاب الله تعالى وسنة نبيه (صلى الله عليه وسلم) . وليست اللغة والنحو من العلوم الشرعية في أنفسهما ولكن يلزم الخوض فيهما بسبب الشرع إذ جاءت هذه الشريعة بلغة العرب وكلّ شريعة لا تظهر إلا بلغة فيصير تعلم تلك اللغة آلة » . فإذا لا غرو أن الذين جعلوا جلّ المعارف الدنيوية في علوم اللغة العربية حصرها فيها الأدب الذي - كما مرّ بيانه فيما سبق - قد أطلق اسمه أحياناً على جملة المعارف غير الدينية الشرعية . إلا أنهم سلكوا في هذا الحصر طريقين مختلفين فمنهم من ذهب إلى أن علم الأدب أو الآداب الاعتناء بالأشعار القديمة والتأليفات

(١) إحياء علوم الدين ج ١ ص ١٤ - ١٥ من طبعة مصر ١٣٠٢ (وفي آخرها ١٣٠٣) وراجع أيضاً كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢ من طبعة لندن ١٩٠٤ م والمفصل للزنجشري ص ٣ من الطبعة المصرية سنة ١٣٢٣ ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ص ٧ من طبعة مصر ١٣٢١ .

والرسائل البليغة من جهة اللغة الفصيحة واستخراج الشواهد النافعة والتوصل إلى المعرفة التامة بدقة الكلام وأسرار الفصاحة والبلاغة لا من جهة قصد النزهة أو مجرد الظريف البديع . هذا هو المراد بالأدب في كتاب روضة العقلاء ونزهة الفضلاء للإمام الحافظ. المحدث أبي حاتم محمد بن حبان البستي المتوفى سنة ٣٥٤ الذي أفرد فيه باباً للحث على تعلم الأدب ولزوم الفصاحة^(١) وعلى مثاله ما قال عبد الله بن محمد المعروف بابن السيد البطليوسي المتوفى سنة $\frac{٥٢١}{١٢٢٧}$ في كتاب الاقتضاب في شرح أدب الكتاب ص ١٤ - ١٥ من طبعة بيروت سنة ١٩٠١ م : «إن الأدب له غرضان أحدهما يقال له الغرض الأدنى والثاني الغرض الأعلى . فالغرض الأدنى أن يحصل للمتأدب بالنظر في الأدب والتمهرفيه قوة يقدر بها على النظم والنثر . والغرض الأعلى أن يحصل للمتأدب قوة على فهم كتاب الله تعالى وكلام رسوله (صلعم) وصحابته ويعلم كيف تُبنى الألفاظ . الواردة في القرآن والحديث بعضها على بعض حتى تُستنبط منها الأحكام وتُفْرَعُ الفروع وتنتج النتائج وتُقرَن القرائن على ما تقتضيه مبادئ كلام العرب ومجازاته كما يفعل أصحاب الأصول . وفي الأدب لمن حصل في هذه المرتبة منه أعظم معونة على فهم علم الكلام وكثير من العلوم النظرية . فقد زهد الناس في علم الأدب وجهلوا قدر الفائدة الحاصلة منه حتى ظن المتأدب أن أقصى غاياته أن يقول أبياتاً من الشعر . والشعر عند العلماء أدنى مراتب الأدب لأنه باطل يُجلى في وعرض حق وكذب يُصور بصورة صدق . وهذا الدم إنما يتعلق بمن ظن صناعة الشعر غاية الفضل وأفضل حلي أهل النبل . فأنما من كان الشعر بعض حلاله وكان له فضائل سواه ولم يتخذها مكسباً وصناعة ولم يُرضيه لنفسه

(١) روضة العقلاء لابن حبان ص ١٩٥ - ٢٠٠ من طبعة مصر ١٣٢٨ .

حِرْفَةً وَبِضَاعَةً فَإِنَّهُ زَائِدٌ فِي جَلَالَةِ قَدْرِهِ وَنِبَاهَةِ ذِكْرِهِ . ثم قال : « وُحِدُ المنطق كتاب يتَّخذه المتفلسفون مقدِّمة للعلوم الفلسفية كما يتَّخذ المتأدِّبون صناعة النحو مقدِّمة للعلوم الأدبية » . - وُحِدُ علم الأدب (أو الآداب) بهذا المعنى ومرتبته في مراتب العلوم حدِّهما ابن خلدون في مقدِّمته بغاية الوضوح فقال في موضع (١) « إنَّ النظر في القرآن والحديث لا بدَّ أن تتقدِّمه العلوم اللسانية لأنه متوقِّف عليها وهي أصنافٌ فمنها علم اللغة وعلم النحو وعلم البيان وعلم الآداب » . وقيل في موضع آخر (٢) « إنَّ علم اللسان العربيُّ أركانُهُ أربعة وهي اللغة والنحو والبيان والأدب . ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلُّها من الكتاب والسنة وهي بلغة العرب ونقلتها من الصحابة والتابعين عربٌ وشرحُ مشكلاتها من لغتهم فلا بدَّ من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة » . وفي موضع ثالث أتى بتعريف علم الأدب فقال (٣) : « هذا العلم لا بموضوع له يُنظر في إثبات عوارضه أو نفيها . وإنما المقصود منه عند أهل اللسان تَمَرُّهُ وهي الإجابة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم (٤) فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحضُّلٌ به الكلمة من شعر عالي الطبقة وسجع متساوٍ في الإجابة ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة أثناء ذلك متفرقة يستقرى منها الناظر في الغالب مُعْظَمَ قوانين العربية مع ذكر بعض من أيام

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٨١ من طبعة بيروت ١٨٧٩ أو ص ٤٣٦ من طبعة بيروت ١٩٠٠ أو ٤٨٦ من طبعة مصر ١٣٢٧ أوج ٢ ص ٤٥٢ - ٤٥٣ من الترجمة الفرنسية لدى سِلان .
 (٢) مقدمة ص ٤٩٩ من طبعة بيروت ١٨٧٩ أو ص ٥٤٦ من طبعة بيروت ١٩٠٠ أو ص ٦٢٨ من طبعة مصر ١٣٢٧ أوج ٣ ص ٣٠٧ من الترجمة الفرنسية .
 (٣) ص ٥٠٦ من طبعة بيروت ١٨٧٩ أو ص ٥٥٣ من طبعة بيروت ١٩٠٠ أو ص ٦٤٧ من طبعة مصر ١٣٢٧ أوج ٣ ص ٢٢٨ إلى ٣٣٠ من الترجمة الفرنسية .
 (٤) المنحة : المسيل للمعوى .

العرب يفهم به ما يقع في أشعارهم منها وكذلك ذكر المهيم من الأنساب الشهيرة والأخبار العامة ثم إنهم إذا أرادوا حيداً هذا الفن قالوا : الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كبل علم بطرف . يريدون من علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط . إذ لا مدخل لغير ذلك من العلوم في كلام العرب إلا ما ذهب إليه المتأخرون عند كلفهم بصناعة البديع من التورية في أشعارهم وترسلهم بالاصطلاحات العلمية فاحتاج صاحب هذا الفن حينئذ إلى معرفة اصطلاحات العلوم ليكون قائماً على فهمها . وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانها أربعة دواوين وهي أدب الكتاب لابن قتيبة وكتاب الكامل للمبرد وكتاب البيان والتبيين للجاحظ . وكتاب النوادر لأبي عليّ القالي البغدادي « اهـ .

أما المسلك الثاني في حصر علم الأدب في علوم اللغة العربية فهو مسلك الذين عنوا بالأدب علم الصرف والنحو واللغة والمعاني والبيان مع ما يتصل بها من علمي القوافي والعروض وكل ذلك خلافاً لما نقلته عن ابن السيد البطليوسي وابن خلدون . والمحتمل عندي أن هذا المعنى الخاص لم يتولد إلا نحو انقضاء القرن الخامس فإني ما عثرت عليه فيما صنفت قبل القرن السادس . ومن أمثلة ذلك الاستعمال أن أبا البركات عبد الرحمن بن محمد الأنباري المتوفى سنة $\frac{577}{1181}$ ألف كتاباً جيداً سماه بنزهة الألباء في طبقات الأدباء ، فإن راجعتموه وجدتم أنه لم يذكر فيه إلا اللغويين والنحويين . فقال ابن خلكان^(١) المتوفى سنة $\frac{781}{1282}$ في ترجمة أبي زكرياء يحيى التبريزي : « كانت له معرفة تامة بالأدب من النحو واللغة وغيرهما وصنف

(١) وفيات الأعيان ترجمة عدد ٨١٠ من طبعة غوتنجن أو ٧٧١ من الطبقات المصرية .

في الأدب كتباً كثيرة مفيدة منها شرح الحماسة وكتاب شرح ديوان المتنبي وكتاب شرح سقط الزند . . وشرح المعلقات السبع وشرح المفضليات وله تهذيب غريب الحديث وتهذيب إصلاح المنطق وله في النحو مقدمات حسنة إلخ . . فيتضح من هذا الكلام أن علم الأدب عند ابن خلكان كالأدب عند أبي البركات ابن الأنباري المذكور وعند أبي يعقوب يوسف ابن محمد السكاكي المتوفى سنة ٦٢٦ الذي قال في كتاب مفتاح العلوم (١) إنَّ الغرض من علم الأدب هو الاحتراز عن الخطأ في كلام العرب وأنه مشتمل على علم الصرف والنحو واللغة والمعاني والبيان . ومن المشهور أن علماء هذا الفن اختلفوا في أقسامه لأنَّ بعضهم جعل قسماً مستقلاً ما ليس على رأى غيره إلاَّ جزء من أجزاء أحد الأقسام الأصلية فمن ذكر لعلم الأدب أربعة أقسام ومن ذكر ثمانية ومن ذكر اثني عشر ومن ذكر أربعة عشر وهلم جراً . فقال مثلاً السيّد الشريف عليّ بن محمد الجرجاني المتوفى سنة $\frac{816}{1413}$ إنَّ الاشتقاق قسم مستقل خلافاً لرأى سعد الدين مسعود بن عيمر التفتازاني المتوفى سنة ٧٩٢ الذي جعله ذليلاً لعلم الصرف . وذهب قوم من العلماء إلى أن البديع قسم برأسه وعنده آخرون من تنمّة علمي المعاني والبيان . ولكنني لا أريد الخوض في مثل هذه المسائل الخارجة عن مقصودنا الحالي .

فتمّ كلامنا على ما عرض لكيفية استعمال لفظ الأدب من التغيّر والحصر والإطلاق والتفرّع بتغيّر أحوال العمران وتباين أصناف الناس في الأجيال السابقة لتأثير علوم الإفرنج في علوم الشرق . وأرى من المناسب أن أخصّ الآن نتائج البحث المتقدّم بغاية الاختصار أعني مجردة عن الشواهد

(١) مفتاح العلوم للسكاكي ص ٣ من طبعة مصر سنة ١٣١٧ .

والنصوص التي إنما أتيت بها قبلاً لئلا تأخذوا مني شيئاً بدون حجة . فإنني لا أخاف من الإطالة إذا لا بدّ منها لإثبات البراهين على أقوالى فلست حينئذ من أولئك المتطرفين السابق ذكرهم الذين كان الإسلامُ عندهم شرّاً الكبائر . إنَّ الأدب كان على المحتمل في عرف عرب الجاهليّة عبارةً عن العوائد الحميدة المتوارثة خلفاً عن سلف فليس من البعيد أن اسمه مشتقٌّ في قديم الزمان من الآداب جمع الدّأب . ثمّ لكون تلك العوائد المتوارثة عمدةً للناس في أعمالهم المستحسنة عبّروا بالأدب عن السنّة والسيرة لا سيما المحمودة وعن حُسن الأخلاق . وبما أنّ تعليم العوائد القديمة الماثورة كان عندهم أساس كلِّ تعليم وتربية ، بل مُعظَم معارفهم . أطلقوا الأدب أيضاً على جملة المعارف فاستعملوا لفظي التأديب والتعليم بدون فرق بينهما وكان الأديب المُخبر بشيء .

ثمّ بعد ظهور الإسلام إلى ما يلي أواخر القرن الثاني لم تزل معاني الأدب على ما كانت عليه في الجاهليّة أعنى عبارة عن المنهج المسلك وعن حسن الأخلاق طبيعته كانت أم كسبيّة وعن جملة المعارف . إلاّ أنّ المقصود من هذه المعارف انحصر في الأمور الدنيويّة ولم يُطلق على العلوم الدينيّة . وإثر ما وقع للعرب من التقلّب العظيم في هيئتهم الاجتماعيّة وأميالهم بسبب اختلاطهم بأمم غيرهم تولّدت من معاني الأدب القديمة معاني أخرى حديثة وذلك في القرن الثالث حين بلوغ التمدّن الإسلامي أوجه بمدينة بغداد . وتارة وسّعوا نطاق المعارف المدلول عليها بلفظ الآداب قبلاً واصطلحوا بهذا الاسم على كل أنواع العلوم والفتون والصنائع والحرف والألعاب الشريفة سوى ما يتعلّق بأمر الدين والشريعة .

ثمّ اندرس استعمال الآداب بهذا المعنى العام الذي ما عثرت على أمثلة

منه فيما صُنِّفَ بعد انقضاء القرن الرابع . وتارةً حصرُوا الأدب والآداب فيما تَمَسُّ إلى معرفته حاجةٌ تعاطى فنَّ مخصوص من العلوم فقالوا مثلاً أدب الكاتب دلالةٌ على جميع ما لا يستغنى الكاتب عن تعلُّمه ليقوم بصناعته قياماً حسناً . وتارةً اتَّخذوا الأدب بمعنى السنَّة وأطلقوه على ما غير الأخلاق عبارةً عن الأساليب والقواعد الواجب التمسُّكُ بها في عمل من الأعمال فقالوا بآداب الأكل وآداب السفر وآداب الدرس وآداب البحث وهلمَّ جراً . أمَّا الناس الذين جعلوا أسمى مقصدهم في الظرف واتَّخذوه سنَّةً في جميع أفعالهم فاصطلحوا الأدب (أى السنَّة) على كلِّ أنواع الظرف والأديب على المتظرف في كلِّ شيء . وحيث إنَّ التفنُّن والمعرفة بما يُعجِب من كلِّ علم أو صناعة كان عندهم أيضاً جزءاً من المتظرف حصر بعضهم الأدب في النكت والملح والنوادر واللطائف ومقطعات الشعر غير الطويلة المُمِلَّة وسمَّوا أديباً من أخذتُفناً ظريفة لطيفة من كلِّ علم وفن . ومن حرَّص منهم على تحصيل أساليب الشعر وفنونه ووجد غاية الالتداد بما نُسج من الكلام على أحسن منوال حصر الأدب في صناعتى النظم والنثر وسمَّى أديباً المتعاطى الفنون الكتابية المستظرفة . فقصارى القول أنَّ المتظرفين اتَّبعوا ثلاث طرائق مختلفة في حدِّ الأدب موافقةً لما كان عنده أرجح من سائر أنواع الظرف .

وفى ذات القرن الثالث سلك صنفٌ من الناس منهجاً خاصاً في تعريف الأدب وهم الذين بذلوا عنايتهم في علوم الدين والشريعة . وذلك أنَّهم لم يجدوا علماً من العلوم الإسلامية لا يتبيَّن افتقاره إلى العربية وما يتعلَّق بها من الأخبار والأشعار لأنَّها الاحتجاج في تفسير القرآن الكريم والحديث النبوى المتوقَّف عليهما جميع الأحكام الشرعية ورأوا الكلام في مُعظَّم أبواب أصول الفقه وفروعه مبنياً على علم العربية والتفاسير مشحونةً (كما قال

الزمخشري^(١) بالروايات عن سيبويه والأخفش والكسائي والفراء وغيرهم من النحويين البصريين والكوفيّين والاستظهار في مآخذ النصوص بأقواويلهم . فحملهم ذلك على التبهر في أسرار اللغة ودقائق النحو وعلى جمع الأشعار القديمة وما يتصل بها . ففريق منهم حصروا الأدب في الشواهد الشعرية والنثرية مع جملة المعارف النافعة لشرحها لغة ومعنى . وفريق ذهب في القرن السادس وما يتلوه إلى أن الأدب علم الصرف والنحو واللغة والبيان .
فمما أوضحتها نرون أن تشعب لفظ من أصل معناه إلى معان مغايرة له ربّما هو أيضاً خلاصة تاريخ ما عرض للهيئة الاجتماعية من التقلب والتشعب .

وبعد منتصف القرن المنصرم لما كثرت العلائق وشدّت الارتباطات العلمية والأدبية بين بلاد الشرق وأمم الغرب ونقلت كتب فرنسية وإنكليزية في كل فن إلى اللسان العربي أخذ المترجمون يستعملون لفظ الآداب استعمال *littérature* عند الإفرنج . فكان ذلك انحرافاً عن العرف العربي السابق من وجوه . أولاً لأن الإفرنج ومن يقلدوهم في الشرق يُطلقون الآداب على مآثر أي لغة خلافاً للسلف من العرب فإنهم على وفرة المعاني التي وضعوا لها لفظ الآداب لم يستعملوه أبداً للدلالة على الكتب والعلوم الأعجمية . وسبب مثل هذا الحصر أنهم كما هو مشهور أغفلوا في كل وقت البحث عن آداب اللغات الأجنبية فلم نقف على أحد منهم ألف شيئاً في لغة اليونان والرومان والعبرانيين والهنديين والسرّيان والقبط . وأن الدين اعتنوا في غابر الزمان بلغة الترك والفرس قليلاً جداً لا يكادون يجاوزون عدد أنامل اليد مثل أبي حيان محمد بن يوسف الغرناطي المتوفى سنة ٧٤٥/١٣٤٤ صاحب كتاب الإدراك

(١) الفصل للزمخشري ص ٣ من الطبعة المصرية سنة ١٣٢٣ .

للسان الأتراك^(١) والزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨^{هـ} ١١٤٤ الذي وضع كتاب مقدمة الأدب على صفة قاموس عربي فارسي^(٢). نُقل إلى لسان العرب عدد وافر من كتب العلوم الرياضية والفلسفية والطبية والكهواية والفلاحية مما صُنّف بلغات الهند والفرس واليونان ولكن لم يُترجم لأحد أدباء اليونان والرومان والهند تاريخ^(٣) (ما عدا تاريخاً مختصراً له روسيوس^(٤)) ولا خطبة بليغة ولا شعر ولا رواية من رواياتهم المستظرفة. ومع أنّ العرب وجدوا في تأليفات أرسطوطاليس الثناء الوافر على شعراء اليونان وعلو مرتبة فنون البلاغة والخطابة عندهم واستفادوا من كتب أفلاطون قدر اعتبار اليونان للشعر والبلاغة وسائر الفنون المستظرفة في تربية الأطفال والأحداث ما رغّبوا في معرفة تلك الآداب وبلغوا في شأنها غاية الجهل حتى إن أبا عثمان عمراً الجاحظ وهو من أحلق كتّاب العرب وأوسعهم علماً وأدقهم بحثاً قال في كتابه المسمّى بالبيان والتبيين ما نصّه^(٥): «إننا لا نعرف الخطب إلا للعرب والفرس، وأمّا الهند فلمّا لهم معاني مدونة وكتب مخلّدة^(٥) لا تُضاف إلى رجل معروف ولا إلى عالم موصوف وإنّما هي كتب متوارثة وآداب على وجه الدهر سائرة مذكورة. ولليونانيين فلسفة وصناعة منطق وكان صاحب المنطق

(١) L. BOUVAT, *Une grammaire turque du huitième siècle de L'Algérie*: "La pénétration dans la langue des Turcs" d'Abou Hayyân al-Gharnâtî (Actes du XIV^{ème} Congrès international des Orientalistes, Alger 1905), Paris 1907 suiv., III, p. 44-78.

وكتاب الإدراك هذا مطبوع بقسطنطينية سنة ١٣٠٩ (سنة ١٩٣١).

(٢) *Samachsharii Lexicon arabicum-persicum*, ed. J.G. Wetzstein, Leipzig 1844, 2 voll. (٢)

(٣) هو من مؤلف القرن الخامس بعد الميلاد.

(٤) البيان والتبيين للجاحظ ج ٣ ص ٥٥ من طبعة مصر ١٣١٣ [أوج ٣ ص ٢٠ من طبعة مصر سنة ١٣٥١] وقول الجاحظ هذا موجود أيضاً في منتخبات البيان والتبيين للإمام الجاحظ المطبوعة في مجموعة خمس رسائل (ص ٢٢٣ من الطبعة القسطنطينية سنة ١٣٠١) وفي كتاب علم الأدب مقالات لمشاهير العرب للأب شيخوخ ج ٢ ص ٢٣١ من طبعة بيروت سنة ١٨٨٩.

(٥) وفي طبقات مصر: مجلدة وهو تصحيف.

نفسه بكَيْء اللسان غير موصوف بالبيان مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله ومعانيه وبخصائصه وهم يزعمون أن جالينوس كان أنطق الناس ولم يذكره بالخطابة ولا بهذا الجنس من البلاغة « ١٥٠ . وإن هذا الكلام من أغرب الأقوال حيث إنه من المشهور أن الخطب اليونانية صارت أنموذجاً لخطباء الرومان وجميع الأمم الإفرنجية وهي متداولة إلى الآن غير مجهولة لكل من له ذوق سليم في الأدب في بلاد الغرب^(١) . - وكذلك ترجمت العرب بعض الحكايات والأمثال من تصانيف الهند والفرس ولكنهم لم ينقلوا حرفاً من أناشيدهم الشهيرة الطويلة . فلعدم اهتمامهم بالفنون الكتابية المستظرفة الأجنبية حصروا الآداب في علومهم العربية .

ثم إن المعاصرين لنا من أبناء الشرق قدلوا الإفرنج في وضع معنيين للفظ. الآداب معنى منها عام ومعنى خاص . والمعنى العام عبارة عن جميع ما صنّف في لغة ما سواء في العلوم أم من الشعر والنثر البليغ ، فالآداب حينئذ تشتمل على جملة ما قيّد في الكتب والدفاتر من نتائج أفكار علماء الأمة وأدبائها. أمّا الآداب بمعناها الخاصّ فعبارة عما سببك في قالب ظريف وصيغ على نمط. الإنشاء الأنيق من الكلام المنشور والمنظوم أعني أنها عبارة عن حواصل الفنون الكتابية المستظرفة فتشتمل على أنواع الشعر والحكايات والروايات والقصص والأمثال والحكم والمحاضرات والمقامات والمناظرات والخطب

(١) وكذلك ما ذكر أبو أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري (المتوفى سنة ٣٨٢ هـ ٩٩٣ م) من الآداب الأجنبية إلا حكماً وجزية نسبها إلى اليونان والفرس وبعض توقيعات ملوك الفرس ، فانظر كتابه المسمى برسالة التفضيل بين بلاغتي العرب والمجم وقد طبعت هذه الرسالة في الصحفة البهية والطرقة الشبية ص ٢١٨ - ٢٢١ من الطبعة القسطنطينية سنة ١٣٠٢ وطبعت أيضاً (بغير اسم مؤلفها وبالعنوان: في بلاغة كلام العرب وكلام العجم) في ج ٢ ص ١٢٦ - ١٣٦ من مقالات لمشاهير العرب المذكورة آنفاً وكان هذا العسكري معلم أبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل صاحب كتاب الصناعات المتوفى سنة ٨٣٩٥ هـ وأنها توافقاً في الاسم واسم الأب والنسبة (راجع بغية الوعاة للسيوطي ص ٢٢١ من طبعة مصر ١٣٢٦) .

مع ما أُلّف بفضيحه العبارة وطلاوة الإنشاء من التواريخ ووصف الرّحل والأسفار وما يشاكل ذلك . - فإذا كان الأمر كذلك أصاب الأب لويس شيخو في قوله^(١) : « تحيا الأمم بآدابها لأنّ الآداب تُرقى المرء فوق الحياة الماديّة وتسمّقُ به إلى المدارك الشريفة وتُقربه إلى عالم الأرواح وإلى الجمال الذي منه يستعير كلُّ مخارق جماله . وعليه فإنّ أراد العاقل أن يعرف درجة التمدن التي بلغها شعب من الشعوب بحث عن انتشار الآداب بين أهله . ولذلك ترى المؤرّخين يقدّمون في تاريخهم تاريخ الآداب على تاريخ الوقائع وربّما أفردوا للآداب تاريخاً قائماً بذاته يُثبت ما يختصّ بالعلوم والمعارف في كلّ ملّة مُخبراً عن نشأة الآداب بينها واتّساع نطاقها وأسباب ترقّيها ونتائجها الطيّبة في إصلاح القوم وتحسين أخلاقهم ودفعهم إلى المشروعات الأثيرة والمساعى الخطيرة » .

٢ - أمّا تاريخ الآداب فما هو؟ إذا اتُّخذت الآدابُ بمعناها الخاصّ وبالنظر إلى العربيّة أجاد في وصفه وصيني الأديب حضرة حفني (بك) ناصف حين قال فيما طُبِع من محاضراته^(٢) أن « يدخل في ذلك التاريخ وصفُ الكلام من شعر ونثر في كلّ عصر من عصور التاريخ وذكرُ نوابغ الشعراء والخطباء والكتّاب والمؤلّفين وبيانُ تأثير كلامهم في من بعدهم وتأثيرهم بمن قبلهم وما حولهم والموازنةُ بينهم والإلمامُ بمؤلّفاتهم » . - فإذا اتُّخذت الآداب بمعناها العامّ يفضروى أن تُدخِل في تاريخها أيضاً ذكر جميع أصناف العلماء والحكماء والمؤلّفين البارعين مع بيان مشارب أفكارهم وشرح مناهج أعمالهم في العلوم وتقدير علوّ منزلتهم في الفنّ الذي تعاطوه . فيصف حينئذ تاريخُ

(١) الآداب العربيّة في القرن التاسع عشر ج ١ ص ١ (ألف) من طبعة بيروت سنة ١٩٠٨ -

١٩١٠ .

(٢) تاريخ الأدب أو حياة اللغة العربيّة المطبوع في مصر سنة ١٩١٠ - ١٩١١ ص ٦ .

الآداب سِير العلوم في مدارج الترقى وأحوال مشاهير أصحاب الحكمة والفلسفة والرياضيات والفلك والطب وهلم جرا فلا يتميز في قسمة هذا من التواريخ المختصة بعلم من العلوم أو فن من الفنون إلا لقدرة التبصر في تلك المباحث ولصفة النظر فيها . مثال ذلك أن مؤرخ الحكمة والفلسفة يتوسع في الشرح التام لمذاهب الفلاسفة وينتقدها ويقدرها تقديراً دقيقاً . أما مؤرخ الآداب فيمتنع عن الخوض في المسائل الخاصة والانتقاد العلمي مقتصرًا على جوامع ما توصل إليه مؤرخ الفلسفة في أبحاثه المستقصاة ومقدرًا تصانيف الحكماء من حيث جنس إنشائهم أكثر منه من حيث أفكارهم العلمية المحضة .

إن تاريخ الآداب علم جديد في بلاد الشرق لم يسبق إليه علماء العرب اللهم إلا في نبد وجيرة وأشياء قليلة جدًا وردت في كتبهم مبعثرة دون أن استقصوا فيها بدقة النظر والانتقاد . وسبب ذلك حال علم التاريخ عند العرب . فلم يمتدحوا قدر ما أتقنه اليونان والرومان في الزمن القديم أو الأمم الإفرنجية منذ القرن الخامس عشر للمسيح بل اقتصر أكثرهم على تفصيل ذكر الحوادث والوقائع سنة سنة بدون البحث عن الأسباب والأحوال الاجتماعية وعن ارتباط الوقائع ببعضها ونتائجها ومن غير مدّ بصرهم إلى ما هو أسمى من محض ذكر ما طرأ على أمة من الطوائر الظاهرة . فلا يخفى عليكم أن أكثر الذين حكيم لهم بالتقدم وحازوا قصب السبق في ميدان التاريخ عند العرب مثل أبي جرير الطبري وابن الأثير وأبي الفداء الحموي وزين الدين عمر بن الوردى لم يسلكوا في تصانيفهم غير هذا السلوك . ومن اتخذ منهجاً غيره ودون الحوادث مسرودة آخذة بعضها ببعض لم يؤلف إلا كتساً مختصرة ولم يُجرِ التحييص والنقد في مصادره ولم يتأمل تأثير الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في الحوادث السياسية ولم يُدقق النظر في

سائر العوامل في ترقية العمران أو انحطاطه . ومن أغرب الغرائب أن ابن خلدون الذي أوضح في مقدمته قواعد علم التاريخ الصحيحة وأمعن الفكر في كل مبحث يتعلّق بالاجتماع الإنساني إمعاناً يستوجب العجب العجيب انصرف عن أصوله تلك الجسيمة العالية لما صنّف سائر الأجزاء في تاريخ الأمم واتبع فيه طريقة لا تفوق طريقة الأقدمين قدراً جزئياً .

وكذلك في تاريخ الآداب ما ألف العرب إلا كتباً تتضمن التراجم المفردة المرتبة على حروف الهجاء أو على الطبقات بدون التعمق في البحث عن أصل كل جنس من الفنون الأدبية وعن كيفية نموه أو انحطاطه وعن تأثير الأدباء بعضهم في بعض وأسباب تغير الذوق والأعمال . فأكثروا مثلاً في رواية أخبار أفراد الشعراء وأقصروا عن بيان تقلب أساليب الشعر وأغراضه بتقلب الهيئة الاجتماعية وتمادي العصور .

أطلت الكلام في هذا الموضوع ليشبين لكم سبب تكليفي بتدريس آدابكم مع أنني رجل أجنبي بعيد أي بُعد عن إمكان مسابقة الوطنيين في معرفة اللغة والتضلع من علم أسرارها وخصائصها . إن المطلوب مني ليس إلا أن أطبق على الآداب العربية أساليب البحث التاريخي التي عادت على تاريخ آدابنا الإفرنجية بطائل عظيم . والمرجو أنكم في آخر السنة المكتبية لا تجدون عملي باطلاً مجرداً عن كل فائدة .

٣- إن تاريخ الآداب العربية يجوز قسمته إلى ستة أطوار أو أعصر .

(١) عصر الجاهلية المنتهى من زمان لا تُذكر أوائله إلى ظهور الإسلام .

وهو عصر عربي صريح لغةً وأدباً وبلاداً .

(٢) العصر العربي الإسلامي من ظهور الدين الإسلامي إلى انقراض

الدولة الأموية سنة ١٣٢. وفيه انتشر استعمال اللغة العربية في بلاد متباعدة بتوسيع حدود المملكة بالفتوحات المشهورة فأخذت الآداب العربية تزدهر أيضاً فيما خارج جزيرة العرب لا سيما في بلاد الشام إلا أنها لم تنزل محصورة في ميدان آداب الجاهلية ما عدا العلوم المتعلقة بأمور الدين .

(٣) العصر العباسي الأول من سقوط الدولة الأموية وابتداء دولة العباسيين إلى نحو سنة ٤٥٨. وصار فيه للأمم الأعجمية القسم الأوفر من أمور الدنيا والدين بل غلبت العجم على العرب في تكون التمدن الإسلامي فأدخلت كتب العلم العجمية القديمة واتسع التفنن في الآداب وسلكت فيها مسالك جديدة وصيغت صناعة النظم والنثر في بعض القوالب المستحدثة وبلغت العلوم والفنون وبعض أنواع الآداب مداها الأقصى من الكمال والإتقان والرونق والبهاء . وذلك ثمرة ما سببه الإسلام من تعاون الأمم المختلفة الأصل والأخلاق والأميال وتشاركهم في العلم والعمل كأن لسان حالهم قول أبي تمام ^(١) : (من بحر الكامل)

إن يكدي مطرف الإخاء فإننا نسرى ونغدو في إخاء تاليد
أو نفدق نسباً يؤلف بيننا أدب أقمناه مقام الوالد
أو يختلف ماء الوصال فماؤنا عذب تحدر من غمام واحد

(٤) العصر العباسي الثاني من نحو سنة ٤٥٨ إلى فتح التتار مدينة بغداد وانقطاع دولة بني العباس سنة ٦٥٦. وفي هذا العصر أخذت الآداب والعلوم تنحط مما كانت عليه من الكمال تبعة للانحطاط السياسي

(١) الأبيات مرورية في إرشاد الأريب لياقوت الحامدي ص ١٨ من طبعة ليدن فراجع ديوان أبي تمام ص ٧٩ من طبعة بيروت ١٨٨٩ أو ص ٨٦ من طبعة بيروت ١٩٠٥ . أكدي : قل خيره ، وأطرف الشيء : اشتره حديثاً ، وثالد : (مال) قديم .

الذي قد ابتدأ في العصر السابق حين تجاسر الجند التركي على الخلافة في أيام المتوكل (٢٣٢-٢٤٧/٨٤٧-٨٦١) فاستولى على الدولة أمراء الجيوش مثل وصيف وبغا وأتامش كما قال الشاعر^(١) : (من بحر الخفيف)

أصبح الترك مالكي الأمر والعا لم ما بين سامع ومطيع

وزاد تفرع الدولة إلى دول صغيرة في أنحاء مختلفة فربما تلاشت العلاقات بينها فاختلقت أحوال الآداب على اختلاف البلاد .

(٥) عصر الانحطاط من انقطاع الدولة العباسية إلى استيلاء محمد علي باشا على مصر سنة ١٢٢٠/١٨١٥ . وفيه خمدت جذوة الآداب والعلوم التي لم تنزل مائلة إلى الهبوط حتى كادت تنطفئ جمرتها كلية في بعض الأصقاع الإسلامية . وفترت همم أهل العلم فأصبح أكثرهم ممسكين عن الاجتهاد المستقل في المباحث مقتنعين بالنظر في كتب من تقدمهم بدون خروج عن رتبة المقلدين وبغير طمع في مباراة السلف . وكذلك الشعراء والأدباء اقتصر أغلبهم على حذو السابقين فنجد أشعارهم كأنها تصدر عن المتصنع المشبه الذي يكتب بتعميق العبارة وزخرف الكلام وإشكال البديع ولا يتم بالتعبير عن حقيقة ما يكتنه صدره من العواطف والمخاطر . فإن نجد بين أهل ذلك العصر من فاق غيره فوقاً عظيماً (وحسبنا ذكر نصير الدين الطوسي وابن خلدون) يصلح له بالنظر إلى معاصريه ما قيل عن انحطاط الدول إنه^(٢) وربما يحدث عند آخر الدولة قوة يوهم أن الهرم قد ارتفع عنها ويوهض

(١) البيت مروري في الباب العشرين بعد المائة من مروج الذهب للمسعودي ج ٧ ص ٤٠٠ من الطبعة الباريسية .

(٢) بقدمه ابن خلدون ص ٢٥٦ من طبعة بيروت ١٨٧٩ أو ص ٢٩٤ من طبعة بيروت ١٩٠٠ أوج ٢ ص ١٢١ من الترجمة الفرنسية .

ذُبَالُهَا إِيمَاضَةُ الْخُمُودِ كَمَا يَقَعُ فِي الذُّبَالِ الْمَشْتَعِلِ فَإِنَّهُ عِنْدَ مَقَارِبَةِ انْطِفَائِهِ
يُؤَمِّضُ إِيمَاضَةً تُؤْهِمُ أَنَّهَا اشْتَعَالٌ وَهِيَ انْطِفَاءٌ^(١)

(٦) النهضة الأخيرة من ابتداء ولاية محمد علي باشا سنة ١٢٢٠ إلى
آيامنا هذه . وفي هذا العصر شاعت العلوم الإفرنجية في كثير من بلاد
الشرق فكانت خميرة اختمرت بها العقول بعد مدة العقم والسقم وانتششت
أهل الإسلام مما قد قضت الصروف لأغلبهم من الاستكانة والتفريط . في
التعلم والتأليف والاعتناء بالفنون والصنائع . وانتشر فن الطباعة في الشام
ومصر وغيرهما من الأنحاء الإسلامية وذاعت الجرائد والمجلات بنافع المعارف
والأخبار وعادت أسواق الآداب والعلوم قائمة وبضائعها رائجة لا سيما في
القطر المصري وشقيقته الشام والقسطنطينية وبغداد فتحقق وتم لأهلها
مراد قول الشاعر^(١) :

لعلَّ إلمامةً بالجزع ثانيةً يدبُّ منها نسيمُ البرءِ في عدلي

إلَّا أنَّ إفراط التأثير الإفرنجي لم يخلُ عن الإضرار بآداب الشرق لأنَّه
ربَّما أبعد الناس عن شدة العناية بلغتهم وأدخل في تأليف بعض المحدثين
وفي بعض المجلات والجرائد العجمة المستقبحة والتراكيب الشائنة السقيمة
وركاكة الكلام وسخافة الإنشاء وغير ذلك مما يستنكف منه صاحب الذوق
السليم : فاتفق لبعض الكتبة ما اتفق لبعض الناس الذين قلدوا الإفرنج
وعوائدهم بدون بصيرة وخلطوا الغث بالسمين والبخس بالشمين :

إنَّ هذه الحدود التي ذكرتها لكلِّ عصر من الأعصر الستة ليست إلا حدوداً

(١) البيت مروى للطبراني المولود سنة ٤٥٣ / ١٠٦١ والمتوفى سنة ٥١٥ / ١١٢١ وهو البيت السادس والعشرون من

شعره المسمى بلامية العجم ، فانظر كتاب نشر العلم في شرح لامية العجم للشيخ جمال الدين محمد بن
عمر الحضرمي ص ٣٠ من طبعة مصر ١٣١٩ - وألم به نزل به . جزع : منعطف الوادي ومحلة القوم .
دب : مري . برء : شفاء .

صناعية اصطلاحية أثبتتها على التقريب فإن عصرًا ما سواه من التاريخ السياسي أم من تاريخ الآداب والعلوم لا يُحصر في مواقيت معينة بدقة .
 فلذلك أسباب . أولاً أن كلَّ حيٍّ وكلِّ نوعٍ أو فرعٍ من الهيئة الاجتماعية لا تتغير أحوالهُ بديهاً أبداً بل من المشهور أن الانتقالَ من حالٍ إلى حالٍ لا يحصل إلا بالتدرج الباطني حتى لا يُشعر في الأغلب بالفرق بين الدرجة القادمة والدرجة التالية لها . فإن أعملنا الفكر فيما يظهر بادي نظر أنه تقلب فاجئ ألفينا أنه في الحقيقة نتيجة عدّة أسباب مرتبطة بعضها ببعض عاملة منذ زمان طويل . قال إبقراط^(١) ومن اتبعه من أطباء اليونان والعرب إنَّ الإنسانَ يبتدى طفلاً ثم يصير صبياً إلى أربع عشرة سنة من عمره ثم غلاماً إلى إحدى وعشرين سنة ثم شاباً ما دام يشبُّ ويقبل الزيادة إلى خمس وثلاثين سنة ثم كهلاً إلى تسع وأربعين سنة ثم شيخاً ثم هراً إلى آخر العمر الذي ينقسم إلى سبع أسنان على هذا القول^(٢) . وظاهر أن هذه القسمة لمدة حياة الإنسان إنما هي اصطلاح محض لا يوافق حقيقة الأحوال الطبيعية إلا بالتقريب فلا يزعم أحدٌ أن الإنسانَ عند انتقاله من سنٍ إلى التالية لها على ذلك القول يتغير تغيراً محسوساً . وكذلك تقلبات الأمم والدول إنما تقع قليلاً قليلاً فلا يُشعر بها إلا بعد مضيَّ أمدٍ مديد حين يمكن مقابلة الحال الحاضر بالحال الماضي البعيد . فمن قال من المؤرخين بانتهاء القرون الوسطى وابتداء العصر الحديث سنة اكتشاف أمريكا أعنى سنة $\frac{1492}{1492}$ ما أراد أن الدنيا قد تغيرت أحوالها بَعثةً في تلك السنة أو أن أهل ذلك العهد أحسوا بشيء من التغيير العام الواضح . ولا يخالف ذلك ما يقع في

(١) يعني Hippocrates الطبيب اليوناني المشهور الذي عاش من أواخر القرن الخامس إلى منتصف القرن الرابع قبل المسيح .

(٢) انظر الباب الثاني والستين من مروج الذهب للمسعودي (ج ٤ ص ٢١ من الطبعة الباريسية) .

سير الآداب فإن أنواعها وفنونها بطيئة التحول فتختلط في الأغلب الأساليب القديمة بالجديدة في عصر واحد، وتوازنت فيه مدة إلى أن يأخذ الأسلوب الجديد في الغلب على القديم شيئاً فشيئاً . فكم مرة ما انفرد به شاعر أو أديب طفق بعد مدة يتشبه به القليلون الذين استحسنته واستطابوه ورأوا أنه تألفه الأسماع وتقبله النفوس ثم سائر الأدباء اتبعوه أيضاً وتعلموه فعمم ما كان يختص به أولاً الواحد . وفي أشعار الجاهلية تجدون أحياناً من التغزل^(١) ما يُشبه الأسلوب الذي اشتهر به عمر بن أبي ربيعة^(٢) بعد منتصف القرن الأول وقرون الهجاء في القرن الثاني كأنه متردد متحير فيما بين منهجه القديم الملائم لأحوال أهل الوبر وبين الطريقة الجديدة اللائقة بأهل المدر . ويحتذى المتنبي^(٣) حذو القدماء حين يدعى في بعض أشعاره بالحماصة وابن المعتز^(٤) حين شرع في نوع الافتخار ، ومع ذلك إنهما من الشعراء المُحدثين لا يفردان عن معاصريهما في المدح والفزل والوصف والطرديات . فإذا كيف يمكن أن سنة معينة تكون حداً حقيقياً طبيعياً بين عصرين من عصور تاريخ الآداب ؟

ثم لا يخفى عليكم أن آداب لغة ما إذا شاعت في أراض متباعدة وأقطار مختلفة ولم يساعد فن الطباعة في انتشار الكتب انتشاراً سريعاً بعيداً لا تتغير أحوالها ولا تتقلب أميالها على نمط واحد في كل قطر لا سيما إن

(١) راجع Th. NOELDEKE, *Furf Mo'allagat*, II, P. 49. *Encyclopedie de l'Islam*, I, P. 366 و (مادة عنزة) .

(٢) عمر بن أبي ربيعة ولد $\frac{23}{644}$ م وتوفي سنة $\frac{101}{720-719}$ على القول الأرجح وسيأتي ذكره في باب الشعراء الغزليين الذين عاشوا بمدن الحجاز في عصر بني أمية .

(٣) توفي المتنبي سنة $\frac{354}{965}$.

(٤) مات ابن المعتز سنة $\frac{296}{918}$ وفي افتخاره راجع إعجاز القرآن للباقلاني ص ١٢٤ - ١٢٥ من طبعة مصر ١٣١٥ .

نشئت شملت المملكة كما اتفق للأمم الإسلامية منذ قرون عديدة . فمثال ذلك اختصاص النهضة الأخيرة (التي جعلتها العصر السادس) بالقطر المصري والشام والعراق والهند لأن سائر الأنحاء الإسلامية العربية لم تزل بالنظر إلى الآداب على ما كانت عليه في العصر السابق الذي سميناه عصر الانحطاط ففي عمان وحضرموت واليمن والمغرب الأقصى مثلاً لم ينبغ بعد عالم أو أديب أو شاعر طفيق يشرع في الأساليب الجديدة فما هبت هناك الآداب العربية من كراها ولا نفضت غبار خمولها . ودعوا عنكم ما وقع في المغرب الأوسط . أي بلاد الجزائر بعد الاحتلال الفرنسي فإن مصابيح العلوم العربية أطفئت هنالك وتلاشت الآداب كلها حتى لا يجاوز عدد أنامل اليد من يتمكن من استعمال اللغة الفصحى في الكلام واندريست المكاتب العربية التي قد اشتهرت في الأجيال الخالية بالقسنطينة وبجاية وتلمسان وكادت تضحج معرفة الآثار العربية عند الوطنيين كيف لا وهناك الشبان في نفس مدارس القضاء الشرعي يتلقون أكثر العلوم بلسان الفرنسيين . ومثال مقدار ما بلغه الناس في بلاد الجزائر من إغفال درس لسانهم أن أحد الجزائريين وهو حضرة محمد صوالح نشر قبل الآن بأربع سنين ترجمة باب أحكام صيام رمضان من رسالة ابن أبي زيد القيرواني^(١) في الفقه المالكي قائلاً : في مقدمة الترجمة إنه رأى من المناسب نقل ذلك الباب إلى الفرنسية لكون أغلب الوطنيين المتأدبين أعرف بها منهم بالعربية^(٢) . وهذا لعمري عيب يعود على أهل البلد وعلى من تسلط عليهم معاً .

(١) توفي سنة ٣٧٩ .

(٢) SOUALAH Mohammed, *le jeûne chez les Musulmans Malékites* (*Revue Africaine*, vol. (٢)

[كذلك كان في سنة ١٩١٠ عندما ألف الأستاذ نلينو محاضراته هذه . (993, P. 1906, 50 في تاريخ الآداب العربية] .

وقصارى القول أن قسمة تاريخ الآداب أقساماً محصورةً محدودةً إنَّما هى وسيلة لتسهيل بيان سير الآداب فى مدارج الترقى أو رجوعها القهقرى . فالحدود المعينة لكل عصر هى كالأعلام التى كان أهل البدو ينصبونها فى البرارى والقفار ليهتدى بها ابن السبيل ولا يضلُّ فى تلك الأراضى المستوية الجرداء والرمال المتساوية والكثبان المتشابهة المتوالية . فتكون فائدة استعمال تلك الحدود الاصطلاحية مثل منفعة بل ضرورة وضع خيوط السدى التى يُنسج عليها النسيج . - وربما زيادةً لوضوح البيان وتسهيلاً لنظم درر الأخبار بأسلاك التاريخ ينبغى قسمة تلك العصور الأساسية أقساماً أخرى صغيرة وذلك بالنظر إلى اختلاف البلدان أو أهمية بعض الوقائع السياسية والأدبية . لكننى أمتنع الآن عن الخوض فى تعريف تلك الأقسام الفرعية التى سأذكرها فى دروسى عند منسوح المناسبة إن شاء الله .

الباب الثاني

العصر الجاهلي

- ١ - شعر أهل البادية - ٢ - شعر الوثنيين الملازمين ملوك الحيرة وغانم -
- ٣ - شعر النصارى بالحيرة وفي مملكة بني غسان - ٤ - شعر أهل الحضرة
- في مدن الحجاز - ٥ - النثر الجاهلي - ٦ - المسائل المتعلقة بالقرآن

أما بعد هذه المقدمات وقبل الشروع في المواضيع الخاصة التي ستندرج تحتها محاضراتي على البحث عنها بالتوسع أرى من المناسب لمنحة في أحوال الآداب العربية أثناء كل عصر من الأعصر الستة السابق تحديدًا بالإجمال ... فأبتدى بالعصر الجاهلي^(١).

لا شك أن ما وصل إلينا من آثار الجاهلية نظمًا ونثرًا شيء يسير جدًا بالإضافة إلى جميع ما أنشدته العرب أو روتته في مسامراتهم ومواسمهم ومفاخراتهم ونهاجيتهم وما قالوه ارتجالًا في غزواتهم وحروبهم وغيرها من الحوادث. ومن المشهور أن العرب القدماء من أكثر الأمم شعرًا لهم فيه التصرف العجيب والاعتدال اللطيف دونوا فيه عواطفهم وأعمالهم ومفاخرهم فأجاد أبو هلال العسكري المتوفى سنة ٣٩٥ هـ حين قال^(٢): «لا تعرف أنساب العرب وتواريخها وأيامها ووقائعها إلا من جملة أشعارها فالشعر ديوان العرب وخزانة

(١) [في الشعر الجاهلي انظر (فضلا عن المؤلفات المذكورة في الحواشي التالية) الأدب الجاهلي للدكتور

طه حسين طبعة مصر ١٩٢٧ ثم E. BRÄUNLICH, *Versuch einer literarhistorischen Betrachtung der weise altarabischer Poesien* (Der Islam, XXIV, 1937, P. 201-269); G. VON GRUNEBaum, *Die Wirklichkeit der früh-arabischen Dichtung*, Wien 1937; G. VON GRUNEBaum, *Zur Chronologie der früh-arabischen Dichtung* (Orientalia, VIII, 1939, P. 328-345).

(٢) كتاب الصناعتين ص ١٠٤ من الطبعة المصرية سنة ١٣٢٠.

حكمتها ومستنبطُ آدابها ومستودع علومها » . وقال الجاحظ. ^(١) المتوقى سنة ٢٥٥ : « قال الهيثم وابن الكلبي وأبو عبيدة فكل أمة تعتمد في استيفاء مآثرها وتحصين مناقبها على ضرب من الضروب وشكل من الأشكال وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون والكلام المقفى وكان ذلك هو ديوانها ، وعلى أن الشعر يفيض فضيلة البيان على الشاعر الراغب والمادح وفضيلة المأثرة على السيد المرغوب إليه والممدوح به . وذهبت العجم على أن تُقيد مآثرها بالبُنيان فبنوا مثل كرد بيداد ^(٢) وبني أزدشير بيضاء إسطخر وبيضاء المدائن والحضر والمدن والحصون والقناطر والجسور والنواويس . قال ثم إن العرب أحببت أن تشارك العجم في البناء وتنفرد بالشعر فبنوا عمُدان وكعبة نجران وقصر مارد وقصر مأرب وقصر شعوب والأبلق الفرد ومارد قالوا تَعَرَّدَ مَارِدٌ وَعَزَّ الأَبْلَقُ ^(٣) وغير ذلك من البنيان » . - ولكن كثيراً مما سارت به الركبان إلى أطراف بواديهم وأقاصي أنحاسهم من المنظوم والمنثور ضاع منذ زمان مديد فلم تطق الحصول على معرفته أهل اللغة في القرن الثاني للهجرة . إن أوائل آداب اللغات المتفرعة من اللاتينية مثل الإيطالية والفرنسية والإسبانية معروفة فنستطيع وصف تدرج تلك الآداب من ابتدائها إلى وقتنا . أما الآداب العربية فليست على مثل هذا الحال فلا نتمكن من الحصول على أوائلها لا بروايات العرب أنفسهم ولا بواسطة ما نعثر عليه من الأخبار في تصانيف اليونان والرومان .

(١) كتاب الحيوان ج ١ ص ٣٦ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٥ .

(٢) في هذا الاسم تحريف وذكر المسموي « بيت النار بسجستان يقال له كراكركان » (مروج الذهب في الباب الثامن والستين ج ٤ ص ٧٣ من الطبعة الباريسية) .

(٣) المثل مروى في مجمع الأمثال للميداني ج ١ ص ٨٤ من طبعة مصر ١٣١٠ (راجع G.W. FREITAG, *Arabum Proverbia antiquiora quae proverbialia*, Bonn 1898-1843, I p.218. وفي أمثال العرب المفضل الضبي ص ٦٤ من الطبعة القسطنطينية سنة ١٣٠٠ .

ولم يُنقل إلينا بيتٌ عربيٌّ غيرُ مُرتابٍ بصحَّته أقدمُ من أواخر القرن الخامس للمسيح أعني سابقاً للهجرة بأكثر من مائة وثلاثين سنة تقريباً . وقولنا هذا الذي سأتى بالبرهان عليه فيما بعد لا يبعد عن رأى علماء العرب بكثير . فقال مثلاً الجاحظ . في كتاب الحيوان ^(١) : « وأما الشعر فحدث الميلاد صغير السن أولُّ من نهج سبيله وسهل الطريقَ إليه امرؤ القيس بن حُجر ومهلهل بن ربيعة ، وكتب أرسطاطاليس ومعلمه أفلاطون ثم بطلميوس وذى بقراط ^(٢) وفلان وفلان قبل بدء الشعر بالدهور قبل الدهور والأحقاب قبل الأحقاب ويدلُّ على حداثة الشعر قول امرئ القيس بن حُجر ^(٣) .

(من بحر المنسرح)

إنَّ بنى عوفٍ ابتنوا حسباً ^(٤) ضيعةُ الدُّخْلُونِ ^(٥) إذ غدروا
أدوا إلى جارهم خُفارتَهُ ولم يَضِعْ بالمغيب من نصروا
لا حَمِيرِيٌّ وَفَى ولا عُدَسٌ ولا استُ عَيْرٌ يحكُّها الثُفْرُ
لَكِنْ عَوَيْرٌ وَفَى بدمتهِ لا قِصْرٌ عابَهُ ولا عَوْرٌ ^(٦)

فانظروكم كان عُمُرُ زُرارةَ وكم كان بين موت زُرارةَ ومولد النبيِّ عليه الصلاة والسلام . فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له إلى أن جاء الله بالإسلام خمسين ومائة عام وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فماتى عام . قال وفضيلة الشعر قصيرة

(١) كتاب الحيوان ج ١ ص ٢٧ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٥ .

(٢) [لعله Hyppocrates الطبيب اليوناني المشهور] .

(٣) راجع ديوان امرئ القيس ص ٣٩ من طبعة باريس ١٨٣٧ أو ص ١٤٢ - ١٤٣ من طبعة مصر ١٣٠٧ مع شرح أبي بكر عاصم بن أيوب البطلبيسي أو عدد ٢٧ (ص ١٣٣) من طبعة لندن ١٨٧٠ : AHLWARDT, *The Divans of the six ancient Arabic poets.*

(٤) في كتاب الحيوان : حسناً وهو تصحيف .

(٥) في كتاب الحيوان : الداخلون وهو غلط - قال البطلبيسي الدُّخْلان والدُّخْلان والدُّخْلان الذي يداخل الرجل في أمره ويصاحبه عليه وهم الخاصة .

(٦) وروى الشطر في الديوان كذا « لا عور شانه ولا قصر » .

على العرب وعلى من تكلم بلسان العرب والشعر لا يُستطاع أن يُترجم ولا يجوز عليه النقل إلخ - ولكن في كلام الجاحظ. هذا نظراً. فإنه خطأ أولاً لما قابل عهد الآداب اليونانية النثرية بعهد الشعر العربي ولم ينتبه لعدم كل علاقة بينهما. ثم لو أدق البحث في تاريخ الآداب لوجد أن الشعر سبق سائر الفنون الأدبية المستظرفة عند كل أمة متمدنة كانت أو همجية. ثم لا يلوح كيف تُستنتجُ حداثة الشعر من الأبيات التي أنشدناها لأمري القيس لأنه لا دلالة فيها على سابقية تلك الأبيات لغيرها. ولعله اغتر بقول كثير من علماء اللغة أن مهلهلاً وهو خال امرئ القيس أول من قصد القصائد^(١) وهذا القول - ولو صح - لا يدل على عدم وجود أنواع غيرها من الشعر عند من تقدم مهلهلاً من العرب. والحق يقال إن من يسرّح أبصاره في رياض الشعر الجاهلي لا يجد في شذراته التي نجت من أيدي الضياع ما يدل على كونه فناً صغير السن فإن جميع ما نُقل إلينا منه يظهر لنا في غاية الإتقان وزناً وتقنية وفي نهاية التفنن من الافتخار والتخفيض والزجر والإغراء والوعد والوعيد والتأديب والمدح والغزل والهجاء والوصف والرثاء، وهو يجمع رقة العبارة إلى دقة الإشارة ومتانة التراكيب إلى رشاقة الأساليب. فليس من الممكن مثل هذا الكمال في صناعة حديثة لأنه من المعلوم أن كل مبتدئ لشيء لم يُسبق إليه وكل مستدع لأمر لم يتقدم فيه عليه لا بد من أن يكون قليلاً ثم يكثر وصغيراً ثم يكبر وضعيفاً ثم يتقوى. ومصادقاً لقولنا هذا الإجمالي نأتى فيما بعد بنصوص قديمة غير عربية تدل على أن الكلام المنظوم عند أهل البادية سبق عهد شعر مهلهل وامري القيس بمدة مديدة. وخلاصة الأمر أن العلماء من العرب الذين قالوا بمدة

(١) راجع كتاب العمدة لابن رشيق ج ١ ص ٥٤ من طبعة مصر ١٣٢٥ مثلاً.

مائة وخمسين سنة تقريباً للشعر الجاهلي لم يبعثوا عن الصواب إذا فرضنا أنهم إنما أرادوا بذلك ما وصل إلينا من الأشعار القديمة .

ثم من الجدير بالذكر أن جميع ما نعرفه من شعر الجاهلية إنما هو لأهل نجد والحجاز والبحرين أو لمن سكن في هذه الأنحاء وأن أصله من قبائل اليمن . أمّا أهل الحضرم من سكان اليمن ومهرة وحضرموت وعمان فلا يُعرف لهم أبياتٌ صحيحة الرواية لا بالعربية ولا بالحميرية . فعلى مؤرخ الآداب أن يفحص عن سبب ذلك باعتبار كيفية النقل وأحوال عرب الجاهلية في السياسة وفي نظامهم الاجتماعي . - ثم على الباحث عن آداب العرب القديمة حلُّ مسائلٍ أخرى خطيرة الشأن أذكرها هنا سريعاً . أكانت أصلاً علاقةً بين الكلام المسجع والكلام المنظوم ؟ وما السجع في أوائله ؟ وكيف نشأ الكلام الموزون المقفى ؟ أكان الشعر أولاً ذا وزن معين وقافية ؟ وما أصل الوزن والقافية ؟ وكيف توصلت العرب إلى اختراع القصيدة على نمطها الكامل المنتقن ؟ ولماذا جعلوا النسب أول القصيدة ؟ وما كان الشاعر عند العرب القدماء ؟ أكانت لغة الأشعار لغةً واحدةً ؟ وكيف تكونت هذه اللغة ؟ وعلى أيّ وجه وصلت أشعارُ الجاهلية إلينا ؟ أيجوز لنا أن نشق بصحة رواياتها ؟ وأن نعتمد على الحكايات المروية لشرح الأبيات القديمة ؟ - إن هذه المسائل المهمة وغيرها التي لا نستطيع أن نحلّها جميعها خلاً نهائياً قاطعاً تكون موضوعَ جملة من محاضراتي بعد إنجاز بيان المقدمات التي نحن بصددّها .

نستفيد من كتب الأدب واللغة أسماءً نيّف وثمانين شاعراً عاشوا في عصر الجاهلية ولكل واحد منهم تُنشدُ أبياتٌ وصلت إلينا متفرقةً في جملة من التصانيف . ولكن أكثر ما رُوي من أحوال حياتهم وسبب إنشادهم

الأبيات المنقولة ذو شبه واختلافات وأخبار متناقضة فضلاً عن الخرافات التي إن عرضناها على نار الانتقاد وجدناها لا تصبر عليها هنيئة من الزمان . فلا نستطيع ترتيب تراجمهم على توالي الأزمنة اللهم إلا للقليبين منهم ولا نتمكن من تعيين سنة المولد أو الوفاة لأحد منهم فمن أغرب الغرائب أن بعض كتب عربية في آداب لغتكم صنفت حديثاً وطُبعت بمصر وهي متداولة في المدارس تروى لكل شاعر تذكره من شعراء الجاهلية تاريخ وفاته كأنه معين ثابت ولا شك فيه وذلك من غير دلالة على مصدر تلك التواريخ . فالظاهر أن منبع تلك الأخبار كان أصلاً كتاب روضة الأدب في طبقات شعراء العرب تأليف إسكندر أغا إبكاريوس الذي مات سنة $\frac{1303}{1880}$ ونشر كتابه في بيروت سنة ١٨٥٨م دالاً فيه لكل شاعر على عام وفاته من غير أن يبين كيف استخرج تلك السنين . والمحتمل أنه توصل إليها بالحدس والتخمين مستنداً إلى إشارات غير كافية وجدها في الكتب القديمة ولافتاً مقطعات الأخبار^(١) . ثم على جرى عادة كثير من المحدثين الناقلين كلام من تقدمهم بغير بصيرة وتمحيص وبغير ذكر مصادرهم أخذ بعض الكتبة في بيروت يقبل تلك التواريخ بلا انتباه ثم اتبعهم في مثل ذلك النقل بعض المتأدبين بمصر فشاعت تلك الأوهام ودخلت في الكتب المدرسية بعدما زيدت عليها غير مرة أغلاط طبع في أرقام الأعداد . - ولكن عدم تعيين التواريخ الموماً إليها ليس ضرراً عظيماً لسببين : الأول أن المدة التي عاش فيها شعراء الجاهلية المنقول إلينا شيء من أبياتهم لا تتجاوز مائة وثلاثين سنة تقريباً كما تقدم .

والثاني أننا نقدر على تعيين تتابع أكثر الفحول بإشارات وردت في نفس

(١) راجع R. GEYER, Beiträge zur Kenntnis altarabischer Dichter II. (Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes, XVIII, 1904, P. 5, n. 1).

أشعارهم أو بأخبار محققة نُقلت إلينا من الزمان القديم .
 إذا أطلنا النظر والتأمل في شذرات الشعر الجاهلي التي سلّمت من
 التلف واعتبرنا خصائصها من جهة الصيغة والمعاني وجدناها تنقسم إلى أربعة
 أصناف أساسية : الصنف الأول ما نسجه أهل البادية أو من تقرب منهم
 سواء كانوا وثنيين أم يهوديين . الثاني أشعار الوثنيين الذين قصدوا ملوك
 الحيرة وبنى غسان وجالسوم . الثالث أشعار النصارى بالحيرة أو في مملكة
 بنى غسان . الرابع أشعار أهل الحضر الوثنيين في مدن الحجاز . لا تستغربوا
 عدم الفرق بين الوثنيين واليهود من أهل البادية ووجوده بين الوثنيين والنصارى
 من أهل الحضر لأنكم إذا اطّلعتم على ما وصل إلينا من أشعار اليهود قبل
 الإسلام ما ألفتكم فيها شيئاً أو عبارة يميّزها من سائر أهل البادية . فمن
 طالع مثلاً أبيات السمّوع بن عادِيَاء (مع قطع النظر عن قصيدة واضحة
 التزوير منسوبة إليه لم تُعرف ولم تُطبع إلا حديثاً) لما توهم أن صاحبها تابع
 لدين اليهود . والأمر كذلك أيضاً في سائر أشعار يهود جزيرة العرب مثل
 شُعْبَة^(١) بن خَرِيض والربيع بن أبي الحَقِيق وغيرهما التي اعتنى بجمعها
 نولدك وفرانز دِلِتْش^(٢) ليس من المستحيل أن ما فُقد من أشعارهم (وهو كثير
 بالإضافة إلى ما حُفِظَ) قد حوى أشياء مما يختص بدينهم وليس من المحال
 أيضاً أن الرواة المسلمين امتنعوا عن نقلها لهذا السبب ، ولكن لا يجوز لنا
 الحكم إلا في الموجود المعروف الذي لا يختلف عن شعر أهل البادية الوثنيين
 لا لغة ولا أسلوباً ولا مأخذاً كأن دينهم لم يؤثر في شعرهم ألبتة .

(١) [إن شعبة تصحيف سبعة (بفتح السين المهملة وسكون الياء) . انظر ما قال الأستاذ
 الإيطالي Levi Della Vida في المجلة *Rivista degli Studi Orientali*, VIII, Roma, 1919-21, P. 627-628,
 فليراجع أيضاً ما قال الأستاذ المذكور في سبعة بن خريص في مقاله *A proposito di*
as-Samaw'al المطبوعة بالمجلة *Rivista degli Studi Orientali*, XIII, 1931-32, P. 62.]

(٢) NOBLDEKE, *Beiträge zur Kenntniss der Poesie der alten Araber*, P. 52-86; F. (٢)
 DELITZSCH, *Jüdisch-arabische Poesien aus vorislamischer Zeit*, Leipzig 1874.

١ - وإيضاحاً لما قلته من قسمة أشعار الجاهلية أربعة أصناف أذكر هنا أسماء أكبر الشعراء صنفاً صنفاً مع دلالات على خصائصهم بغاية الإيجاز . فأبتدى بالصنف الأول أي أشعار أهل البادية . لا يخفى على أحد وجود رجال بين قدماء العرب كانت أخلاقهم وعوائدهم أقرب للهمجية المحضة منها لأحوال أهل ذات نظام اجتماعي متين فسموا أولئك الرجال صعاليك أي فقراء ولصوصاً معاً وكانوا يعيشون متعزّلين عن نفس قبائلهم جائلين في القفار واليوادي بغاية الاستقلال طالبين رزقهم من الصيد والغصب والغزو كما يفعل في أيامنا المعروفون بالبواقين عند أهل شمر والحجاز الشمالية^(١) ومنهم من نبغ في الشعر على توحش عيشتهم فأشهرهم اثنان ضرب هما الأمثال لكونهما من محاضير العرب ومغاويرهم^(٢) فكثرت فيهما الأخبار العجينة والروايات الغريبة . وهما تَابُطٌ . شراً الفهمي^(٣) والشنفرى الأزدي عاشا في القرن السادس للمسيح وتشاركا أحياناً في غزواتهما . وافتخر تَابُطٌ شراً في قصيدة بلقائه الغولة ومخاطبتها واتخاذها جارة في ليلة مظلمة^(٤) :

وأذهم قد جُبْتُ جِلْبَابَهُ كما اجْتَابَتِ الكاعبُ الخَيْعَلَا
إلى أن حَدَا الصُّبْحُ أَثْنَاءَهُ ومزقُ جِلْبَابَهُ الأَيْلَا
على شِيمِ نارٍ تَنَوَّرَتْهَا فَبِتُّ لَهَا مُدْبِرًا مُقْبِلَا
فَأَصْبَحْتُ والغولُ لى جَارَةٍ فَيَا جَارَتَا أَنْتِ مَا أَهْوَلَا
وطالبتُها بضعها فالتوت بوجه تَهَوَّلَ فاستغولَا

(١) انظر : JACOB, *Altarabischer Beduinleben*, 2 éd., Berlin 1897, P. 225.

(٢) محضير : كثير العدو . ومغوار : مقاتل كثير الغارات .

(٣) جمع المستشرق الإنكليزي LYALL أربعة أشعار لتابط شرا في المجلة *Journal of the Royal*

Asiatic Society سنة ١٩١٨ ص ٢١١ - ٢٢٧ .

(٤) الأبيات مروية في كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٧٦ من طبعة ليدن ١٩٠٤ والباب

التاسع والأربعين من مروج الذهب للمسعودي (ج ٣ ص ٣١٠ - ٣١٤ من طبعة باريس) وإعجاز القرآن لبالقلاني ص ٢٢ من طبعة مصر ١٣١٥ . خيميل : قميص بدون أكمام - تنوره : تطلع نحوه ببصره .

وما أحسن وصف حال حياته في قصيدة مدح بها عمه شمس بن مالك^(١) :
(من بحر الطويل)

قليلُ التشكُّي للمُهَمِّ يُصِيْبُهُ كثيرُ الهوى شتى النوى والمسالِكِ
يظَلُّ بمومةٍ ويُمسِي بِغَيْرِهَا جَحِيْشاً وَيَعْرُورِي ظُهْرَ المَهَالِكِ
ويسبِقُ وَفَدَ الرِيحِ مِنْ حَيْثُ يَنْتَحِي بِمُنْخَرِقٍ مِنْ شَدِّ المِتْدَارِكِ
إِذَا حَاصَ عَيْنِيهِ كَرَى النَوْمِ لَمْ يَنْزَلْ لَهُ كَالِيٍّ مِنْ قَلْبِ شَيْحَانٍ فَاتِكِ
وَيَجْعَلُ عَيْنِيهِ رَبِيْئَةً قَلْبِهِ إِلَى سَلَّةٍ مِنْ حَدِّ أَخْلَقِ صَائِكِ
إِذَا هَزَّهُ فِي عَظْمٍ قِرْنٍ تَهَلَّلَتْ نَوَاجِذُ أَفْوَاهِ المَنَايَا الضَوَاحِكِ
يَرَى الوَحْشَةَ الأَنْسَ الأَنْسَى وَيَهْتَدِي بِحَيْثُ آهْتَدَتْ أُمُّ النَجُومِ الشَوَابِكِ

أما الشنفرى الأزدي فصاحب اللامية المشهورة التي يفتخر فيها بانفراده من قومه ووحشة عيشه في البرزاري كأنه لم يعاشر إلا السباع . وهي قصيدة غاية في الجمال تنطق بلسان حال الشاعر وإن كان بعض التحويين يزعمون أنها من مصنوعات حماد الراوية المتوفى سنة ١٥٥ . ومما يدل أيضاً توحش عيشته شعر آخر له قال فيه^(٢) :

[و] لَا تَقْبِرُونِي إِنْ قَبِرِي مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ وَلَكِنْ أَبْشِرِي أُمَّ عَامِرٍ
إِذَا أَحْتَمَلُوا رَأْسِي فِي الرَّأْسِ أَكْثَرِي وَغَوْدِرَ عِنْدَ المُلْتَقَى ثُمَّ سَائِرِي

(١) الأبيات مروية في حسانة أبي تمام من ٤١ - ٤٤ من طبعة بن أوج ١ ص ٤٦ - ٤٩ من طبعة بولاق . - اعروزي الفرس : ركبته حريا ليس تحته ثوب - منخرف : سريع - فالك : فاجي . وقيل إن أم النجوم الشمس وقيل إنها الهرة .

(٢) الأبيات مروية في حسانة أبي تمام ص ٢٤٢ - ٢٤٣ من طبعة بن (أوج ٢ ص ٢٤ - ٢٥ من طبعة بولاق) وفي NOELDEKE, *Delectus veterum carminum arabicorum*, Berlin 1890, P. 90 . - [في تأبط شرا والشنفرى راجع أيضاً مقالتي المشرق الإيطالي] Francesco GABRIELI المباتين *Rendiconti dalli* Ta'abbata Sharra ex Sharfard e Khalaf al-Akmar (Accademia dei lincei, classe scienze morali, serie VIII, vol. I, Roma 1946, P. 40-69); *sull'Autenticità della «Lamiyyat al-'Arab» (Rivista degli Studi Orientali) XV, Roma 1934, 35 P. 358-361.*

هُنَالِكَ لَا أَرْجُو حَيَاةً تَسْمُرُنِي سَجِيَسَ الْمَيْلَالِي مُبَسَّلًا بِالْجَرَائِرِ

ثم من الصنف الأول مع بعدهم عن همجية تأبط. شراً والشنفرى أصحاب ست من المعلقات السبع الشهيرة أعنى : امرأ القيس وهو أقدمهم ، والحرث بن جِلْزَة ، وعَمْرَ بن كلثوم ، وعنقرة العيسى وزُهَيْرًا ولبيداً وهو أحدثهم . أما طَرْفَة فمن شعراء الصنف الثاني المجالسين للملوك . وامرؤ القيس ابن حُجْر من آل ملوك كندة عاش في النصف الأول من القرن السادس للمسيح ويقال إنه أمير الشعر لما أدرك فيه من الإتقان فقال ابن قتيبة (١) المتوفى سنة ٢٧٠ أو ٢٧٦ إنه « سبق إلى أشياء ابتدعها واستحسنها العرب واتبعته عليها الشعراء من استيقافه صحبه في الديار ورقة النسيب وقرب المأخذ » . وأجوداً أيضاً الوصف والتشبيه فكان كثير من أهل الأدب والشعر في القرون الماضية يفضلونه على سائر الشعراء واختصر القاضي أبو بكر الباقلائي (٢) حكمهم فيه هكذا (٣) : « وأنت لا تشك في جودة شعر امرئ القيس ولا ترتاب في براعته ولا تتوقف في فصاحته وتعلم أنه قد أبدع في طرق الشعر أموراً اتبع فيها من ذكر الديار والوقوف عليها إلى ما يتصل بذلك من البديع الذي أبدعه والتشبيه الذي أحدثه والتعريض الذي يوجد في شعره والتصرف الكثير الذي تُصادفه في قوله ، والوجوه التي ينقسم إليها كلامه من صناعة وطبع وسلاسة وعلو ومتانة ورقة وأسباب تحمّد وأمور تؤثر وتمدح . وقد ترى الأدباء يوازنون بشعره فلاناً وفلاناً إلخ » . إلا أن القاضي الباقلائي يقول بوجود ما يُعاب أيضاً في شعر امرئ القيس فيوضح ما يزعمه عواراً في

(١) كتاب الشعر والشعراء ص ٤٠ من طبعة ليدن ١٩٠٤ .

(٢) توفى الباقلائي سنة ٤٠٣ هـ ١٠١٣ م .

(٣) إعجاز القرآن ص ٧٤ من طبعة مصر ١٣١٥ .

معلّقة بالتحصيل المفرط^(١) وربما عدل عن الإنصاف في أقواله لأن غرض كتابه إنما هو البرهان على عدم إعجاز الشعر وإن كان صاحبه من فحول الشعراء وعلى أن^(٢) «طريقة الشعر شريعة مورودة ومنزلة مشهودة يأخذ منها أصحابها على مقادير أسبابها ويتناول منها ذووها على حسب أحوالهم وأنت تجد للمتقدم معنى قد طمسه المتأخر بما أبرّ عليه فيه وتجد للمتأخر معنى قد أغضله المتقدم وتجد معنى قد توافدا عليه وتوافقا إليه فهما فيه شريكا عنان وكأتهما فيه رضيعا لبيان». أما معلّقة امرئ القيس وسائر قصائد ديوانه فأشهر من أن يجب الإطناب في الكلام عليها في هذه النبذة الإجمالية الوجيزة.

ثم الذي يتبع امرأ القيس من أصحاب المعلّقات على الترتيب التاريخي هو الحارث بن حلزة البشكري البكري الذي ألف قصيدته المشهورة في أيام عمرو بن هند ملك الحيرة (٥٥٤ - ٥٦٨ أو ٥٦٩ م) ولا ارتجالاً بين يديه كما يقوله خطأ أكثر كتبة العرب. ورضيها سياسي أعنى حث بني بكر ابن وائل وبني تغلب بن وائل على ترك التشاكي الباطل لئلا تعود تضرهم جدوة العداوة والحرب بينهما ولا يثقب الصلح المنعقد عند المنذر بن ماء السماء^(٣) ملك الحيرة (نحو ٥٠٦ - ٥٥٤ م) بعد الحرب الطويلة الشهيرة بحزب البسوس. وبعد الحارث بمدة غير مديدة ألف عمرو بن كلثوم التغلبي^(٤) معلّقة التي تشير أيضاً إلى ما كان قد بدأ بين حبي بكر وتغلب من

(١) إعجاز القرآن ص ٧٥ - ٨٥ من طبعة مصر ١٣١٥ م.

(٢) إعجاز القرآن ص ٨٦.

(٣) ولا عند عمرو بن المنذر بن ماء السماء كما يقال أيضاً فليراجع في هذه المسألة ما كتب المستشرق NOELDEKE في كتابه (Fünf Mo'allaqat, I., Wien 1899, P. 54).

(٤) [طبع ديوان الحارث بن حلزة وعمرو بن كلثوم في مجلة المشرق ص ٥٩١ - ٦١١ من السنة العشرين ١٩٢٢].

العداوة . ويُؤنذِر فيها الشاعر بل يرعب عمرو بن هند الملك لميله إلى بكر
ويوعد البكرين وثوبَ بني تغلب عليهم إن لم ينقطعوا عن التحريض .
وهي قصيدة غاية في الفخر لا تكاد تفوق فيه عليها غيرها فلا عجب أن
بني تغلب لم تزل تعظمها جداً يرونها صغارها وكبارها في القرن التالي
لظهور الإسلام حتى قال بعض الشعراء بهجهم (١) :

ألهى بني تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يفأخرون بها منذ كان أولهم يا لرجالٍ لفخرٍ غير مشوم

ومما تنفرد به معلقتنا الحارث وعمرو عن أغلب سائر قصائد الجاهلية أن
مُعظمها يدور على الموضوع الأساسي فلا تبتغي فيهما للغزل والوصف وسائر لواحق
القصائد إلا أبيات قليلة جداً . ثم تتشابهان أيضاً خلافاً للمعلقات الأخرى
لأن صاحبيهما كأنهما يقولان الشعر باسم قومهما جميعاً وهما يخاطبان ملكاً
ذا شأن عظيم ولا يدخلان في أمورهما أو أهوالهما الشخصية ما عدا النسب
الذي تبتدى القصيدتان به .

وفي السنين العشرين الأخيرة من القرن السادس للمسيح قال عنتر بن
شداد العبسي معلقته في الفخر والحماسة وصف فيها فضله وأفعاله المجيدة
في الحرب وبمسالته في القتال وقدر ما أهان هائل الأخطار والموت . كيف
لا وهو من أشجع العرب وأعلام همّة وأعزهم نفساً ضرب به الأمثال واتخذ
كأنموذج الفتي الكامل المروءة والشجاعة فلم يزل صيته يطير في كل الأنحاء
لما أُلّف فيه من القصص والروايات العجيبة المتداولة بين العوام حتى الآن
المعروفة بسيرة عنتر . وديوان أشعاره أيضاً كله فخر وحماسة مع العرض

(١) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٢٠ من طبعة ليدن ، والبيتان مرويان أيضاً في
الأغاني ج ٩ ص ١٨٣ من طبعة بولاق وكتاب الاشتقاق لابن دريد ص ٢٠٤ من طبعة غوتنبرج
سنة ١٨٥٤ .

فيه عن توحش الشنفرى وعن كل تنافر الألفاظ. وخشونة المعاني .
 ونحو سنة ستمائة للمسيح أى اثنتين وعشرين قبل الهجرة أنشد زهير
 ابن أبى سلمى المزنى معلقته بمدح فيها هريم بن سنان والحرث بن عوف
 من سرّوات العرب اللذين ينحملهما أغياء الدية أزالا الحرب^(١) وأتما الصلح
 بين قبيلتى عبس وذبيان ، ويحث الناس على الخير والمحبة . وهذه المعلقة
 تختلف عن المعلقات السابق ذكرها لما تحويه من عبارات الحلم والورع ومن
 النصائح والحكم تجذب زهير فيها رى سائر أشعاره عن الوحشية والفخر .
 فأحسن ما قيل فيه أنه لم يمدح أحداً إلا بما فيه . قال أبو منصور الثعالبي
 المتوفى سنة ٤٣٠ / ١٠٣٨ فى كتاب خاص الخاص^(٢) : « لأنه أجمع الشعراء للكثير
 من المعاني فى القليل من الألفاظ . وأبياته التى فى آخر قصيدته التى أولها
 * أمِنَ أَمْرٍ أَوْفَى دِمْنَةً لَمْ تَكَلِّمْ * تُشْبِهُ كَلَامَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ
 وَالسَّلَامُ وَهِيَ غُرَّةُ حِكْمِ الْعَرَبِ وَنَهَايَةُ فِي الْحُسْنِ وَالْجَوْدَةِ تَجْرَى مَجْرَى الْأَمْثَالِ
 الرَّائِعَةِ الرَّائِقَةِ وَهِيَ^(٣) :

وَمَنْ يَكُ ذَا فَضْلٍ فَيَبْخَلْ بِفَضْلِهِ	على قومه يُسْتَخَنَ عنه وَيُدْهَمَ
وَمَنْ يَغْتَرِبُ بِحَسِبٍ عَدُوًّا صَدِيقَهُ	وَمَنْ لَا يَكْرِمُ نَفْسَهُ لَا يُكْرَمُ
وَمَنْ لَا يَذُدُّ عَنِ حَوْضِهِ بِسِلَاحِهِ	يُهْدَمُ وَمَنْ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ يُظْلَمُ
وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ	وَلَوْ خَالَهَا تَعْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمُ
وَمَنْ لَا يُصَانِعُ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ	يُضْرَسُ بِأَنْبَابٍ وَيُوطَأُ بِمَنْسِمِ

فترون من كل ما تقدم كم فرق بين أكثر أشعار زهير وبين أكثر أشعار

(١) يعنى الحرب المعروفة بحرب داحس والغبراء .

(٢) كتاب خاص الخاص ص ٧٥ من طبعة مصر ١٣٢٦ وانظر أيضاً كتابه الإيجاز والإيجاز

ص ٣٧ من القسطنطينية سنة ١٣٠١ .

(٣) هكذا روى أبو منصور الثعالبي الأبيات فى كتابه المذكور فليراجع معلقة زهير .

السابقين له كأنَّ زهيراً أحسَّ بتقرب عهد جديد أعنى عهد الإسلام الذي بُدِّلَ فيه التوحُّشُ والجهلُ القديم بتهذيب الأخلاق والعِلمِ . - وممَّن اتَّبَعَ من هذه الجهة طريقة زهير ونظم في شعره درر المواعظ- والحِكمَ والتأملَ لبَّيد ابن ربيعة العامري الذي أدرك الإسلام إلاَّ أنه لم يقلْ في عهده إلاَّ بيتاً واحداً اختلفت الرواة فيه . ومات على القول المرجح سنة $\frac{41}{662.661}$ وهو كبير السن وألَّفَ معلقته بين سنة ٦١٠ و ٦٢٥ م تقريباً . ومن طالعتها وجد فيها الفخر بيد أنَّ هذا الافتخار ليس بالشجاعة والأفعال الحربيَّة مثل ما ورد في معلقة عنتره بل إنَّما هو بالمكرِّمات ومكارم الأخلاق ، ومن المشهور ما في ديوانه من العبارات الدينيَّة بل الشبيهة بالعقائد الإسلاميَّة مثل ^(١) (من بحر الرمل) .

إِنَّ تَقْوَى رَبَّنَا خَيْرٌ نَفَلْ وبإذن الله رَيْئِي وَعَجَلْ
أَحْمَدُ اللهُ فَلَا نِدَّ لَهُ بيديه الخيرُ ما شاء فَعَلْ
مَنْ هَدَاهُ سُبُلَ الْخَيْرِ أَهْتَدِي ناعمَ الببال ومن شاء أَضَلْ

ولكن ليس كلُّ ما يُنسب إليه في ديوانه من هذا الباب صحيحاً بل لا اختلاف في بعض الأشعار أنَّها مصنوعة .

إنَّ أصحابَ المعلقات الستِّ (أى ما عدا معلقة طرفة) أشعرُ الشعراء من الصنف الأول مع أنَّ شعراء آخرين نبغوا في عهدهم في قبائل العرب فوصلت إلينا جملةٌ من مآثرهم . منهم عُرْوَةُ بن الورد وهو عبَّسِيٌّ مثل عنتره

(١) ديوان لبَّيد المطبوع بليدن سنة ١٨٩١ عدد ٣٩ بيت ١ - ٣ .

(٢) ديوان عرْوَةُ بن الورد المطبوع بفتوتجن سنة ١٨٦٣ عدد ٣ بيت ١٣ - ٢١ . والأبيات مروية أيضاً في الأصمعيات عدد ٣١ (ص ٢٩ - ٣٠ من طبعة برلين سنة ١٩٠٢) وسهاسة أبي تمام ص ٢٠٨ - ٢٠٩ من طبعة بن (أر ج ١ ص ٢١٩ - ٢٢٠ من طبعة بولاق) وخزانة الأدب ج ٤ ص ١٩٤ - ١٩٦ من طبعة بولاق ١٢٩٩ . - وما يذلل على كراهة العرب للعمل اليدوي بيت جرير في ديوانه ج ١ ص ١١٧ سطر ١٢ من طبعة مصر سنة ١٣١٣ [ج ١ ص ٢٦٢ سطر ٨ من طبعة مصر ١٣٥٤] .

ومات قبيل الإسلام . واشتهر مثل عنتره بالشجاعة والفضل ، ومن أحسن شعره أبيات وصف فيها فضيلة الفقير الحرّ الباسل وذمّ الذي يُستأجر شغلُهُ (١) :

لَحَى اللهُ صُعْلوكاً إِذَا جَنُّ لَيْلُهُ مُصَابِي المُشَاثِ آلِفاً كُلَّ مَجْزِرِ
يَعُدُّ الغنى مِنْ دَهْرِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ أَصَابَ قِرَاها مِنْ صَدِيقٍ مُبْسِرِ
يَنَامُ عِشاءً ثُمَّ يُصْبِحُ طاوِياً يَحُبُّ العصى عَن جَنْبِهِ المَتَمَمِرِ
قَلِيلَ التِماسِ الزادِ إِلا لِنَفْسِهِ إِذَا هُوَ أَتَى كالعَرِيشِ المُجَوِّرِ
يُعِينُ نِساءَ الحَيِّ ما يَسْتَعِينُهُ فِيمَنْبِي طَلِيحاً كالبَعيرِ المَحْسِرِ
وَلَكِنَّ صُعْلوكاً صَحيفَةً وَجْهَهُ كَضَوْهِ شِهابِ القابِسِ المُنْتَوِرِ
مُطِلاً على أَعْدائِهِ يَزْجُرُونَهُ بِسَاحَتِهِمْ زَجَرَ المَنِيعِ المَشْهُرِ
فإِنْ بَعَدُوا لا يَأْمَنُونَ أَقْترابَهُ تَشَوُّفَ أَهْلِ الغائِبِ المُنْتَظَرِ
فذلك إِنْ يَلْقَ المَنيَّةَ يَلْقَها حَميداً وَإِنْ يَسْتَعْنِ يَوماً فَأَجْدِرِ

ومن الشعراء المجيدين حاتم بن عبد الله الطائي المصروب المثل بجوده الوافر ف قيل إن بنته وصفته بين يدي النبي على هذه الصفة : « كان أبي يفك العاني ويحمي الذمار ويقري الضيف ويشبع الجائع ويفرج عن المكروب ويطعم الطعام ويمنشي السلام ولم يرُدَّ طالب حاجة قط . (١) » . وقال ابن الأعرابي إنه « كان جواداً يشبه شعره جوده ويصدق قوله فعله إذا غنم أنهب وإذا سُئِلَ وهب . . . وإذا أسر أطلق (٢) » . عاش بعد منتصف القرن السادس للمسيح وأدرك أوائل السابع وله ديوان مشهور إلا أن في صحفة بعض أشعاره نظراً فظاهر أن أبياتاً مجهولاً اسم منشدها إنما عزيت إلى حاتم لما فيها من مدح الجود والكرم .

(١) كتاب الأغاني ج ١٦ ص ٩٧ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغاني ج ١٦ ص ٩٧ - ٩٨ من طبعة بولاق .

وممن كان بعد منتصف القرن السادس الأفوه الأودي سيد قومهم وقائدهم
في حروبهم عدّه العرب من حكماؤها لما ورد من الحكيم في أبياته منها (١)
(من بحر البسيط) :

لا يصلح الناس قوضي لاسراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا
والبيت لا يبئننى إلا له عمدٌ ولا عماد إذا لم ترس أوتادُ
وأن تجمع أوتادُ وأعمدة يوماً فقد بلغوا الأمر الذي كادوا

وممن كان وفاته قبل الإسلام بقليل ذو الإصبع العدواني صاحب الغارات
الكثيرة والوقائع المشهورة والحكم والوصايا . ومنهم سلامة بن جندل التميمي
من فرسان العرب الذي يروى عنه ديوان صغير (٢) أكثره في الحماسة والفخر
مع شيء جميل من الوصف والتشبيه .

وممن أدرك الإسلام مع وقوع جميع شعره في الجاهلية دريد بن الصمة
الجشمي أحد الشجعان المشهورين وذوى الرأي الذي شهد يوم حنين
سنة ٦٢٩-٦٣٠ هـ فقتل فيه (وهو كبير السن جداً) فيمن قتل من الوثنيين .
ومنهم أيضاً شعراء غير المذكورين لا فائدة في سرد أسمائهم في هذه النبذة .
وقبل أن نختم الكلام على هذا الصنف الأول من شعراء الجاهلية لا بد
من الإشارة إلى جرى النساء أيضاً من أهل البادية في ميدان الشعر لا سيما
في المراثي فإنهن استنبطن في هذا الباب أساليب بديعة لم يتنبه لها الفحول

(١) الأبيات مروية في العقد الفريد لابن عبد ربه ج ١ ص ٥ من طبعة مصر ١٣٠٢ . وروى
القالى في أماليه القصيدة كلها (راجع ج ٢ ص ٢٢٨ - ٢٢٩ من طبعة بولاق ١٣٢٤ [أوج
٢ ص ٢٢٤ - ٢٢٥ من طبعة مصر ١٣٤٤]) . [أما ديوان الأفوه فهو مطبوع في كتاب الطراف
الأدبية بمصر سنة ١٩٣٧] .

(٢) - [عن بطمه المستشرق Huart في المجلة الفرنسية *Journal Asiatique*, série X
vol. 15, 1910, P. 71-105 والأب لويس شيخو في بيروت سنة ١٩٢١] .

لَمَّا طُبِعَ عَلَيْهِ مِنْ رِقَّةِ الطَّبَاعِ وَشِدَّةِ الْجَزَعِ فِي الْمَصَائِبِ وَصَدَقَ الْحِسُّ
فِيُبْرِزْنَ عَوَاطِفَهُنَّ بِشَعْرِ سِلَاسٍ وَكَلَامٍ لَيْنٍ قَرِيبِ الْمَأْخِذِ يَكَادُ يَسِيلُ رِقَّةً
وَانْسِجَاماً (١) . فتعلمون أَنَّ الْأَبَّ لُوَيْسَ شَيْخُو أَفْرَدَ لَهُنَّ كِتَاباً جَمَعَ فِيهِ
كُلَّ مَا تَيْسَّرَ لَهُ مِنْ مِرَائِي إِحْدَى وَسِتِّينَ شَاعِرَةً مِنْ عَهْدِ الْجَاهِلِيَّةِ مَا عَدَا
دِيوَانَ الْخَنْسَاءِ الَّذِي نَشَرَهُ عَلِي حَيْدَةَ (٢) . أمَّا أَشْعَارُ الْخَنْسَاءِ فِي رِثَاءِ
أَخْوِيَّهَا صَخْرٍ وَمَعَاوِيَةَ فَشَهِيْرَةٌ قَالَتْهَا جَمِيعُهَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ مَعَ أَنَّهَا أَدْرَكَتْ
خِلَافَةَ عَمْرِ (٣) .

٢- فلننتقل إلى الصنف الثاني من شعراء الجاهلية أعني إلى الشعراء
الوثنيين الذين لازموا أبواب ملوك الحيرة وغيسان ومدحهم وامتنعوا عن خشونة
أهل البادية لتقربهم من أحوال سكان المدن والرفاهية والترّف . فمدحهم
للملوك ليس كمدح شعراء الصنف الأول لسادة قومهم لما أدخلوا فيه من إفراط
المَلَقِ وافتخارهم بالحماسة ليس إلّا قليلاً ووصفهم يجري أحياناً في مجال
مختلف عن مجال وصف أهل البراري ، والغزل وذكر الخمر في قصائدهم يتبعان
مذهب أهل المدن . وربما أخذوا عن نصارى الحيرة وغيسان معاني وعبارات
دينية جديدة لم يسبق إليها أحد شعراء الصنف الأول .

لكان زهير بن جَنَابِ الكَلْبِيِّ من أقدم شعراء الصنف الثاني لو صحّت
قطعة شعر منسوبة إليه وردت في كتاب الأغاني لأبي الفرج على الأصفهاني (٤)

(١) رياض الأدب في مرآة شواعر العرب للأب لويس شيخو ص ١ من طبعة بيروت
سنة ١٨٩٧ .

(٢) بيروت سنة ١٨٨٦ وطبع أيضاً ديوان الخنساء في بيروت سنة ١٨٨٨ و ١٨٨٩ (ويليه
الترجمة الفرنسية) وفي مصر سنة ١٨٨٨ و ١٣٢٦ [و ١٣٤٨] .

(٣) وفي الخنساء راجع G. GABRIELI, *I tempi la vita sul conzoniere della poetessa araba*
al-Khansa' Firenze 1899 (2 ed., Roma 1944); N. RHODOKANAKIS, *al-Khansa' und ihre*
Trauerlieder, Wien 1904.

(٤) الأغاني ج ٢١ (المطبوع بليدن سنة ١٣٠٦ م ١٨٨٨) ص ١٠٠ .

وفي كتاب المَعْرِينِ لِأَبِي حَاتِمِ السَّجِسْتَانِيِّ (١) الْمَتَوْفَى فِيهَا بَيْنَ سِنَتَيْ ٢٥٠ و ٢٥٥ فِي عِدَّةِ كُتُبٍ أُخْرَى :

لَقَدْ عُمِّرْتُ حَتَّى لَا أَبَالِي أَحْتَفَى فِي صَبَاحِي أَوْ مَسَائِي
وَحَقٌّ لِمَنْ أَتَتْ مَائَتَانِ عَامًا عَلَيْهِ أَنْ يَحَلَّ مِنَ الشَّوَاءِ
شَهِدْتُ الْمَوْقِدِينَ عَلَى خَزَازَى وَبِالسَّلَانِ جَمْعًا ذَا زُهَاءِ
وَنَادِمْتُ الْمَلُوكَ مِنْ آلِ عَمْرٍو وَبَعْدَهُمْ بَنِي مَاءِ السَّمَاءِ

والمُرَادُ بِآلِ عَمْرٍو عَلَى الْمَحْتَمَلِ مَلُوكُ كِنْدَةَ أَيْ بَنِي عَمْرٍو بْنِ حُجْرٍ وَالْمُرَادُ بِبَنِي مَاءِ السَّمَاءِ الْمُنْدَرِ بْنِ مَاءِ السَّمَاءِ الَّذِي تَوَلَّى مُلْكَ الْحَيْرَةِ مِنْ سَنَةِ ٥٠٥ هـ أَوْ ٥٠٦ م إِلَى شَهْرِ يُونِيُو سَنَةِ ٥٠٤ م . وَلَكِنْ مَعَ قَطْعِ النَّظَرِ عَمَّا فِي صَحَّةِ تِلْكَ الْأَبْيَاتِ مِنَ الشُّكِّ لَا نَجِدُ فِيهَا نَقْلًا لِنَا مِنْ أَشْعَارِهِ وَأَخْبَارِهِ شَيْئًا غَيْرَ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ يَدُلُّ عَلَى مَلَازِمَتِهِ مَلُوكَ الْحَيْرَةِ بَلْ إِنَّ شَعْرَهُ شَعْرُ بَدَوِيٍّ مَحْضٍ كَمَا يَصْلُحُ لِمَنْ قِيلَ إِنَّهُ « كَانَ سَيِّدَ بَنِي كَلْبٍ وَقَاتَلَهُمْ فِي حُرُوبِهِمْ وَكَانَ شُجَاعًا مَظْفَرًا مَيْمُونًا النَّقِيبِيَّةَ فِي غَزَوَاتِهِ » (٢) .

فَأَوَّلُ مَنْ نَتَحَقَّقُ مَلَازِمَتَهُ مَلُوكَ الْحَيْرَةِ مِنَ الشُّعْرَاءِ الْوَثْنِيِّينَ عَبِيدُ بْنُ الْأَبْرَصِ الْأَسَدِيُّ مَجَالِسُ الْمُنْدَرِ بْنِ مَاءِ السَّمَاءِ السَّابِقِ ذَكَرَهُ . وَشَعْرُهُ سَلِسٌ اللَّفْظُ . وَوَصَفَهُ مَصِيبٌ وَهُوَ يَفْتَحُزِرُ أَحْيَانًا عَلَى مَنْوَالِ أَهْلِ الْبَادِيَةِ فَلَمَّا قُتِلَ وَالِدُ امْرَأَتِ الْقَيْسِ الشَّاعِرِ بَيْدِ بْنِ أَسَدٍ وَرِثَاهُ امْرَأَتُ الْقَيْسِ وَقَالَ إِنَّهُ يَأْخُذُ ثَأْرَ أَبِيهِ بِقَتْلِ جُمَّةٍ مِنَ الْأَسَدِيِّينَ أَنْشَدَ عَبِيدُ فِي قَصِيدَةٍ طَوِيلَةٍ (٣) :

(١) كِتَابُ الْمَعْرِينِ ص ٢٦ - ٢٧ مِنْ طَبْعَةِ لَيْدِنِ ١٨٩٩ . أَمَّا خَزَازَى وَالسَّلَانُ فَهِيَ مِنْ أَيَّامِ الْعَرَبِ قَبْلَ حَرْبِ الْبُسُوفِ بِقَلِيلِ أَيَّامٍ فِي أَوَاخِرِ الْقَرْنِ الْخَامِسِ لِلْمِيلَادِ .

(٢) كِتَابُ الْأَغَانِي ج ٢١ ص ٩٣ - ٩٤ . [وَفِي صَحْفَةِ شَعْرِ زَهْرٍ بْنِ جَنَابِ نَظَرِ فَيْرَاجِ مَاقَالَ الْأَبِ Lammens فِي كِتَابِهِ الْمُسَمَّى [*Le barreau de l'Islam*, Roma 1914, P. 319-321]

(٣) رُوِيَتِ الْأَبْيَاتُ فِي كِتَابِ الشُّعْرِ وَالشُّعْرَاءِ لِابْنِ قَتَيْبَةَ ص ١٤٣-١٤٤ مِنْ طَبْعَةِ لَيْدِنِ ١٩٠٤ وَالْأَغَانِي ج ١٩ ص ٨٥ مِنْ طَبْعَةِ بُولَاقِ [وَدِيُونِ عَبِيدِ قَصِيدَةَ عَدَدِ ١٧ بَيْتِ ١ [إِلَى ٧ مِنْ طَبْعَةِ لَيْدِنِ ١٩١٣] .

يا ذا المُخَوِّفِنا بقتل أبيه إذلالاً وحيناً
 أزعمت أنك قد قتلت سرّاتنا كذباً وميناً
 هلاً على حُجْرِ بنِ أُمِّ قَطامٍ تبكى لا علينا
 إنا إذا عَضُّ الثِّقَا فُ برأسِ صَعْدَتنا لَوِينا
 نحمى حقيقتنا وبتة ضُ القومِ يسقطُ بَيْنَ بَيْنا
 هلاً سألتَ جُموعَ كِنْدِ مَدَةَ يومٍ ولَوِوا أَيْنَ أَيْنا
 أيامَ نضربُ هامَهُمُ ببواترٍ حتى أنحنينا

ولكن أكثر ما وصل إلينا من شعره يعجى في الحكمة والاعتبار فمن هذا الباب مُعْظَمُ قصيدته البائية الشهيرة التي عدّها بعض اللغويين من المعلقات. وفيها أيضاً من الوصف ما يدلُّ على معرفة الشاعر بنهر الفرات وترعّيه القريبة من الحيرة حين قال في الدموع (١):

أَوْ فَلَجِ بَبْطَنِ وادٍ للماء من تحته قَسِيبِ
 أَوْ جَدْوَلٍ فِي ظِلَالِ نَخْلِ للماء من تحته سُكُوبِ

فظاهر أن هذا الوصف لا يوافق أحوال أقاليم جزيرة العرب المتوسطة التي ليس فيها أنهار . وعبيدُ أمر الملك المنذر بن ماء السماء بقتله في حكاية مشهورة يطول ذكرها هنا (٢) .

وممن جالس عمرو بن هند (٥٥٤ - ٥٦٨ أو ٥٦٩) طرفة بن العبد أحد أصحاب المعلقات السبع وأقلهم عُمرًا لأنه قُتل بأمر الملك وهو ابن ست وعشرين سنة . وهو يفتخر في شعره بشرب الخمر أكثر منه بالشجاعة

(١) كتاب شرح القصائد العشر . . . تصنيف أبي زكرياء . . . العبريزي طبعة كلكتة سنة ١٨٩٢ - ١٨٩٣ بيت ٩ و ١٠ من شعر عبيد [وديوان عبيد قصيدة عدد ١ بيت ٩ و ١٠] .

(٢) [راجع في عبيد مقالة الأستاذ FRANCESCO GABRIELI المسماة 'Abid Ibn al-Abras' La poesia di 'Abid Ibn al-Abras' *Rendiconti dell' Accademia d'Italia, classe scienze morali, serie VII, vol. I, Roma 1940, P. 240-251.*]

والحماسة ويعتبر زوال كلِّ أمور الدنيا كما يعتبره لبيد ولكنه لا يستنتج من ذلك الاعتبار وجوبَ الزهد فإنَّما يقصِدُ لذات العيش . وفي معلقته أبيات تدلُّ على قربه من الفرات والبحر (من الطويل) (١) :

كَأَنَّ حُدُوجَ الْمَالِكِيَّةِ غُدُوَّةٌ خَلَايَا سَفِينٍ بِالنَّوَاصِفِ مِنْ دَدِ
عَدَوَلِيَّةٍ أَوْ مِنْ سَفِينِ بْنِ يَامِنٍ يَجُورُ بِهَا الْمَلَّاحُ طَوْرًا وَيَهْتَدِي
يَشُقُّ حَبَابَ الْمَاءِ حَيْزُومُهَا بِهَا كَمَا قَسَمَ التَّرْبَ الْمُفَائِلُ بِالْيَدِ
وفي نفس معلقته عند وصف ناقته قال (٢) :

وَأَتْلَعُ نَهَاضٌ إِذَا صَعِدَتْ بِهِ كَسُكَّانٍ بَوْصِيٌّ بِدَجَلَةَ مُضْعِدِ

ومن حاملي لواء الشعر أيضاً المتلمس نحالُ طرفة وحكايته مع الملك عمرو ابن هند أشهر من أن أذكرها . وعاصره أوس بن حَجَر التميمي الذي قال فيه أبو عمرو بن العلاء (٣) : « كان أوسٌ فحلَّ مُضَرَّ حَتَّى نَشَأَ النَّابِغَةَ وَزَهِيرَ فَأَحْمَلَاهُ » . وقال أبو ذؤيب : « وكان أوس عاقلاً في شعره كثير الوصف لمكارم الأخلاق وهو من أوصفيهم للحُمُر ولا سيما للقوس وسبق إلى دقيق المعاني وإلى أمثال كثيرة » . وإذا أطلعنا على ما نُقل إلينا من شعره وجدناه غير بعيد من أسلوب شعراء الصنف الأول المعاصرين له مع تقربه من الملوك والمدن . ومن الجدير بالذكر أنه ربَّما استعمل في أبياته عبارات أقرب لدين النصاري منها للمذاهب الوثنيين ثم إنَّ زهير بن أبي سلمى كان راوي شعره .

ولكن الذي فاز في قريضه بالرتبة العُلَيَّا من شعراء ملوك الحيرة وغيسان وكان من أبرز المبرزين في ميدان الشعر هو النابغة الذبياني فقدَّمه بعض

(١) معلقة طرفة بيت ٣ إلى ٥ .

(٢) معلقة طرفة بيت ٢٨ .

(٣) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٩٩ من الطبعة اليدوية .

أهل الأدب والشعر على امرئ القيس^(١) وقالوا إنه أوضح الشعراء القدماء
معنى وأبعدهم غاية وأكثرهم فائدة^(٢). وقيل أيضاً إنه «أحسنهم»^(٣) ديباجة
شعر وأكثرهم رونق كلام وأجزلهم بيتاً كان شعره كلاماً ليس فيه تكلف
ونبع بعد ما احتنك وهلك قبل أن يهترأ. - كان مع المنذر بن ماء السماء
(نحو ٥٠٦ - ٥٥٤ م) والمنذر بن المنذر (نحو ٥٧٦ - ٥٨٠ م) وأبي قابوس
النعمان بن المنذر (نحو ٥٨٠ - ٦٠٢ م) فلماً وشى به إلى النعمان هرب
منه إلى عمرو بن الحارث من ملوك غسان في الشام ومدحه بقصائد مشهورة
ذكر فيها شجاعة الغسانيين في الحرب وكثرة من يقتلونهم من الأعداء^(٤) :
إذا ما غزواً بالجيش حلق فوقهم عصائب طير تهتدى بعصائب
.... فهم يستاقون المنية بينهم بأيديهم بيض رفاق المضارب
ووصف فيها أيضاً ما كان لهم من الترف والرّفه^(٥) :

محلّتهم ذات الإله ودينهم قويمٌ فما يرجون غير العواقب
رفاق النعال طيب حُجراتهم يُحيون بالريحان يوم السباسب
تحييهم بيض الولائد بينهم وأكسية الإضريح فوق المشاحب
يصونون أجساداً قديماً نعيمها بخالصة الأزدان خضر المناكب

(١) [راجع أيضاً كتاب فعلة الشعراء للأصمعي المطبوع في *Zeitschrift der deutschen morgenländischen Gesellschaft*, LXV, 1911, P. 492.]

(٢) جمهرة أشعار العرب ص ٢٦ من طبعة بولاق سنة ١٣٠٨ - ١٣١٠.

(٣) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٧٠ من طبعة لندن. - واحتنك : أحكته التجارب
أي جعلته حكماً. وهترأ : فقد عقله من الكبر والمرض.

(٤) ديوان النابغة الذبياني عدد ١ بيت ١٠ و ١٧ من طبعة لندن ١٨٧٠ (*The Dians of the six Arabic poets*) وعدد ٣ بيت ١٠ و ١٧ من طبعة باريس ١٨٦٩ و ص ٤٣ و ٤٤ من طبعة
مصر سنة ١٣٢٨ [وانظر ما قاله في هذه الطبعة الأستاذ لينورفي *Raccolta di scritti editi e inediti*, vol. III, Roma 1941, P. 174-176] .

(٥) ديوان عدد ١ بيت ٢٤ إلى ٢٩ من طبعة لندن أو عدد ٣ أبيات ٢٤ إلى ٢٩ من طبعة باريس
١٨٦٩ أو ص ٤٥ من طبعة مصر ١٣٢٨.

ولا يَحْسِبُونَ الْخَيْرَ لَا شَرَّ بَعْدَهُ ولا يَحْسِبُونَ الشَّرَّ ضَرْبَةَ لَأَزْبِ
حَبَوْتُ بِهَا غَسَّانَ إِذْ كُنْتُ لَاحِقًا بِقَوْمِي وَإِذْ أُغِيَّتْ عَلَيَّ مَذَاهِبِي
فترون ما بين هذا المدح وبين مدح شعراء البادية من اليون الشاسع .
وبعد إقامة سنين عند بني غَسَّانَ رَجَعَ إلى الحيرة وجالس الملك النعمان
ثانيةً إلى موت الملك سنة ٦٠٢ م ثم عاش في قبيلة ذبيان ومات قبل ظهور
الإسلام . ووصف بديع الزمان الهمذاني في مقاله الأولى (١) شعر النابغة
فقال : « ينسبُ إذا عشق ويثلب إذا حنق ويمدح إذا رغب ويعتذر إذا
رهب » . وقال الأصمعي : (٢) « كفاك من الشعراء أربعة زهير إذا طرب
والنابغة إذا رهب والأعشى إذا غضب وعنترة إذا كلب » - أما ما يُلام
النابغة عليه فإنه أول فحول الشعراء لم يقل الشعر إلا طمعا في الكسب .
قال ابن رشيق القيرواني المتوفى سنة ٤٦٣ في كتاب العمدة (٣) : « كانت
العرب لا تنكسب بالشعر وإنما يصنع أحدهم ما يصنعه فكاهة أو مكافأة عن
يدٍ لا يستطيع على أداء حقها إلا بالشكر إعظاماً لها . . . حتى نشأ النابغة
الذبياني فمدح الملوك وقبيل الصلة على الشعر ونخضع للنعمان بن المنذر
وكان قادراً على الامتناع منه بمن حوله من عشيرته أو من سار إليه من ملوك
غَسَّان فسقطت منزلته وتكسب مالا جسيما حتى كان أكله وشربه في صحاف
الذهب والقضبة وأوانيهِ من عطاء الملوك . وتكسب زهير بن أبي سلمى بالشعر
يسيراً مع هرم بن سنان . فلما جاء الأعشى جعل الشعر متجزاً يتجر به
نحو البلدان » .

والأعشى هذا هو ميمون بن قيس من شعراء الصنف الثاني أيضاً المشهور

(١) ص ٢ من طبعة بيروت ١٨٨٩ .

(٢) جمهرة أشعار العرب ص ٢٦ من طبعة بولاق والمزهر للسيوطي ج ٢ ص ٢٩٧ من طبعة مصر

١٣٢٥ .

(٣) كتاب العمدة ج ١ ص ٤٩ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

برقة شعره انمظاً وتفننه بحراً ، نادم ملوك الحيرة . وكثر شعره في وصف التميميان
والخمر كأنه من شعراء عصر العباسيين الأول في زمان هارون الرشيد . وفي
أبياته أيضاً أقوالٌ تتقرب من اعتقادات النصارى فجاء في ذلك في كتاب
الأغاني^(١) ، ما نصه : « قال لي يحيى بن متى راوية الأعشى وكان نصرانياً
عبادياً وكان معمرًا قال كان الأعشى قدرياً وكان لبساً مشبهاً قال لبساً
من هداه سبيلُ الخير اهتدى ناعم البال ومن شاء أضلَّ
وقال الأعشى :

إستأثرَ اللهُ بالوفاءِ وبإلِّ مدلٍ ووئى الملامةَ الرجلاً^(٢)

قلت فمن أين أخذ الأعشى مذهبه ؟ قال من قبل العباديين نصارى
الحيرة كان يأتيتهم يشتري منهم الخمر فلقدنوه ذلك . - وأدرك الأعشى
الإسلام فقصيدته الجميلة التي مدح فيها النبي مشهورة .

ممن يدخل جزئياً في الصنف الثالث من شعراء الجاهلية ملازمته ملوك
بنى غسان مدة سنين وذلك قبل الهجرة النبوية هو حسان بن ثابت المولود
ببيشرب (المدينة) المتوفى سنة ٤٥٤ بعد ما طعن في السن . فإن أجمل شعره
ما قاله في الجاهلية واصفاً ملاذ عيشته في جلق وغيرها من قرى الشام رمادحاً
الملوك الغسانيين الذين كان يفرد عليهم لينال منهم الهدايا والجوائز .
ففي كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٠ أو ٢٧٦ ما نصه^(٣) :
« قال الأصمعي الشعرُ نكيدٌ بابُه الشرُّ فإذا دخل في الخير ضعُف . هذا
حسان بن ثابت فحل من فحول الجاهلية فلما جاء الإسلام سقط شعره .

(١) كتاب الأغاني ج ٨ ص ٧٩ من طبعة بولاق .

(٢) استأثر به : استبد به ونص به - وئى : جعله والياً عليه .

(٣) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٧٠ من طبعة ليدن .

وقال مرة أخرى شعرُ حَسَّان في الجاهليَّة من أجود الشعر فُقطعتُ منه في الإسلام لحال النبي صلعم^(١). ومن جيّد شعره وأشهره قصيدة أولها «أسألت رَسْمَ الدارِ أمَّ لَمْ تَسألِ»^(٢) مدح فيها ملوك بني غَسَّان ووصف لذيذ عيشه في الشام واقتخر بعشيرته من الخَزْرَج . وهي لينة الألفاظ . أسهلُّ فهمًا من قصائد شعراء الصنف الأوّل بكثير وفيها من المدح ما يليق بملوك أهل المَدَر المتتمِّعين بأنواع الترف والرفاهية ثم إن إطناب الشاعر في وصف الخمر يبعد عن أسلوب شعراء أهل البادية كما يبعد عنه أيضاً الافتخار بقومه المقصور في بلاغة خطّابهم ووفدهم على أبواب الملوك . - أمّا أشعار حَسَّان في عهد الإسلام فهي على نَمَط غير هذا فسيأتي الكلامُ عليها فيما بعد إن شاء الله .

٣- وهذا أوّان ذكر الصنف الثالث من الشعر الجاهليّ أعنى شعر النصارى المقيمين في مملكة اللخميّين بالحيرة وما يليها وفي مملكة بني غَسَّان فيما بين الشام والبادية . - لا يخفى عليكم أنّ الأب لوييس شيخو بما له من اليد الطولى في الآداب العربيّة نشر سنة ١٨٩١ م في بيروت القسم الأوّل من كتابه المسمّى بشعراء النصرانيّة وهو عبارة عن مجلد ضخّم جمع فيه من عدّة كتب جملة وافرة من أشعار عهد الجاهليّة زاعماً أنّ أصحابها كانوا يدينون بدين النصارى . ولكنّه بالغ في ظنّه هذا أيّ مبالغة كأنّه زعم نصرانيّاً كلّ شاعر جاهليّ لم يوصف صريحاً باليهوديّة وورد في شعره شيء مما يتقرّب

(١) وهذا الحكم الذي أثرت فيه كراهة بعض أهل الدين للشعر يوافق قول أبي منصور الثعالبي المتوفى سنة ٤٣٠ في كتاب خواص الخواص ص ٨٠ من طبعة مصر سنة ١٣٢٦ « من عجائب أمر حسان أنه كان رضي الله عنه يقول الشعر في الجاهلية فيجيد جداً ويقبر في نواصي الفحول ويدعى أن له شيطاناً يقول الشعر على لسانه كعادة الشعراء في ذلك . . . فلما أدرك الإسلام وتبدل الشيطان الملك تراجع شعره وكاد يرك قوله ليعلم أن الشيطان أصلح للشاعر وأليق به وأذهب في طريقه من الملك » . [وراجع كتاب الموشح للمرزباني ص ٦٥ من طبعة مصر ١٣٤٣] .

(٢) ديوان حسان بن ثابت ص ٥٧ - ٥٨ من طبعة بمبي سنة ١٢٨١ أو ص ٧٢ - ٧٣ من طبعة تونس سنة ١٢٨١ أو ص ١٦ - ١٧ من طبعة لندن ١٩١٠ [أو ص ٣٠٧ - ٣١٣ من طبعة مصر ١٣٤٧] .

من اعتقاد وحدانية الله أو من التأمّلات والاعتبارات الدينية فعدّ من النصارى
امراً القيس والنابغة وطرفة ، وغيرهم من شعراء الصنف الأول والثاني الذين
لا شك لكلّ منصف في أنّهم من أصحاب الوثنية . أمّا المؤكّد المثبت فإنّما
هو أنّ دين النصرانية ذاع في القرن السابق للهجرة في شمالي جزيرة العرب^(١)
فاعتنقه بعض القبائل مثل بني تغلب وقسم غير صغير من بني تميم ففضلاً
عن أكثر المقيمين بمملكة بني غسان وأكثر سكّان مدينة الحيرة وُسّمت
نصارى الحيرة بالعباد^(٢) ولعلّ المقصود عبادة الله أو عبادة المسيح ، ونصرانيّتهم
(وهي على مذهب النسطورية) قديمة لأننا نعرف أسماء أساقفة الحيرة من
سنة ٤٠٠م تقريباً إلى نحو سنة ٦٠٤م . ومن أقدم شعراء النصارى الذين وصل
إلينا شيء من أشعارهم أبو ذؤاد الإياديّ قد ولاه المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة
(نحو ٥٠٦ - ٥٥٤م) على خيله « فكان وصافاً للخيل وأكثر أشعاره في وصفه ،
وله في غير وصفه تصرف بين مدح وفخر وغير ذلك إلا أنّ شعره في وصف
الفرس أكثره^(٣) . ولانت ألفاظه لقربه من حضارة ريف الفرات ، وبعد شعره
عن أساليب عرب البادية . - وأشهر منه عدويّ بن زيد العبادي^(٤) من
عائلة قديمة بالحيرة تعلّم الفارسيّة وتولّى الأمور العربيّة بديوان كسرى

(١) [انظر ما قاله في هذا الموضوع الأستاذ فليبو في ج ٣ ص ١٢١ - ١٦٨ من كتابه

Raccolta di scritti editi e inediti, Roma 1941] .

(٢) راجع G. ROTHSTEIN, *Die Dynastie der Lakhmiden in al-Hira*, Berlin 1899, P. 19-28

(٣) كتاب الأغانى ج ١٥ ص ٩٥ من طبعة بولاق - أما أبيات له فهي مروية في حماسة

البحريّ ص ١٣١ من طبعة ليدن أو ص ٨٧ عدد ٣٩٦ من طبعة بيروت سنة ١٩١٠ (وفي هذه الأبيات

يذكر الشاعر السلف من النامى) والأصمعيّات عدد ٢٩ ص ٢٧ - ٢٨ (بيتاً في الطرد)

وعدد ٧٢ ص ٦٨ - ٧٠ (بيتاً) من طبعة برلين ١٩٠٢ وكتاب الحيوان للجاحظ ج ٤ ص ١١٨

من طبعة مصر ١٣٢٢ - ١٣٢٥ .

(٤) راجع J. HOROVITZ, *Adi ibn Zaid the poet of al-Hira* (*Islamic Culture*,

P. 91-69); F. GABRIELI, *Adi ibn Zaid il poeta di al-Hira* (*Rendiconti Accademia die Lincei
classc scieze morali, VIII serie, serie, vol. III, 1948, P. 81-96*).

أَبْرُويز (٥٩٠ - ٦٢٨ م) من ملوك بني ساسان بالمدائن فأرسله مرة كسرى إلى ملك الروم بهدية من طرفه ثم استدعاه النعمان بن المنذر (نحو ٥٨٠ - ٦٠٢ م) من المدائن إلى الحيرة وولاه على جميع أمور المملكة إلى أن قتله لما وثقت إليه به الحساد . وشعره أقرب إلينا من شعر أهل البادية وأهل فهماً فلذلك لم يعدّه علماء اللغة العربيّة من الفحول « وكان الأصمعيّ وأبو عبيدة يقولان : عدىّ بن زيد في الشعراء بمنزلة سهيل في النجوم ^(١) يعارضها ولا يعجى معها مجراها ^(٢) . وعلى قول الأصمعيّ « كانت الرواة لا تروى شعر أبي دؤاد ولا عدىّ بن زيد لمخالفتهما مذاهب الشعراء ^(٣) » أو كما قيل « لأنّ ألفاظه ليست بنجدية ^(٤) . والحق يقال إنّ الجواليقيّ المتوفى سنة ٥٣٩ كثيراً ما روى أبياتاً لعدىّ بن زيد في كتاب المعرب وذلك دليل قاطع على تأثير الحضارة الأرامية والفارسيّة في كلام عدىّ ومعاني شعره . وهو يخالف أيضاً شعراء نجد في استنكافه من الأعاريض الطويلة واختياره القصيرة ثمّ في أسلوب خمريّاته الشبيهة بخمريّات الأعشى وحسان بن ثابت . ومن المشهور أنّ الخليفين الأمويّين هشام بن عبد الملك (٧٢٤ - ٧٤٣) والوليد بن يزيد (٧٤٣ - ٧٤٦) كانا يُحبّان سماع شعر عدىّ بن زيد في الشراب ^(٥) . ولكن مع حبّه لوصف القيان والصهباء كعين الديك والصبوح حملة دينه مراراً عديدة على اعتبار زوال أمور الدنيا كلّها ، وذكر ما هو قريب من الزهد في بعض قصائده لطيفة قلّها غير مرة المتأخرون فقال مثلاً

(١) يعني الكواكب السيارة .

(٢) كتاب الأغاني ج ٢ ص ١٨ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب الأغاني ج ١٥ ص ٩٧ سطر ١٥ - ١٦ من طبعة بولاق .

(٤) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١١٥ من طبعة ليدن .

(٥) كتاب الأغاني ج ٥ ص ١٦٧ و ج ٦ ص ١٢٣ من طبعة بولاق .

بلسان حال المقابر^(١) : (من بحر الرمل)

مَنْ رَأَى فَلْيُحَدِّثْ نَفْسَهُ أَنَّهُ مَوْفٍ عَلَى قَرْنٍ زَوَالٍ
 وَصُرُوفُ الدَّهْرِ لَا يَبْقَى لَهَا وَلِيَمَّا تَأْتِي بِهِ صُومُ الْجِبَالِ
 رَبُّ رَكْبٍ قَدْ أَنَاخُوا عِنْدَنَا يَشْرَبُونَ الخمرَ بِالماءِ الزُّلالِ
 وَأَبَارِيقُ عَلَيْهَا قُدُمٌ وَجِيَادُ الخيلِ تَرْدِي فِي العِجَالِ
 عَمَرُوا دَهْرًا بَعِيشٍ حَسَنِ أَمْنَى دَهْرِهِمْ غَيْرُ عِجَالِ
 ثُمَّ أَضْحَوْا عَصَفَ الدَّهْرِ بِهِمْ وَكَذَلِكَ الدَّهْرُ يُودِي بِالرِّجَالِ
 وَكَذَلِكَ الدَّهْرُ يرمى بِالْفَتَى فِي طِلَابِ العَيْشِ حَالًا بَعْدَ حَالِ

فظاهر ما في هذا الشعر من مشابهة زهديات بعض الشعراء الإسلاميين لا سيما أبي العتاهية فليس من البعيد أن شعر عدى بن زيد ومن سلك منهجه من القدماء صار أنموذجاً للمتأخرين في وصف فناء الأمور الدنيوية وذكر عواطف الزهد الناشئة عن اعتباره . ثم من الجدير بالذكر أن عدى بن زيد أحب في زهدياته الإشارة إلى الحوادث العظيمة الماضية فكثير إيراد أبياته كأنها شواهد تاريخية في كتب التاريخ مثل كتاب الطبري المشهور . ومن هذا الباب ما قاله نحو سنة ٦٠١م وهو في الحبس^(٢) : (من بحر الخفيف)

(١) كتاب الأغاني ج ٢ ص ٣٤ من طبعة بولاق والأبيات مروية أيضاً في كتاب شعراء النصرانية ص ٤٤١ - ٤٤٢ من طبعة بيروت سنة ١٨٩٠ . - قرن : طرف . وري الفرس : رجعت الأرض بحوافرها . وأودى به الموت : ذهب به . وقدم : جمع فدام المصفاة تجعل على لم الإبريق ليصق به ما فيه من شراب . وإبريق وفدام كلمتان فارسيتان معربتان وأصل الأولى آب ريز وأصل الثانية pandam . راجع S. FRAENKEL, *De vocabulis in antiquis Arabum e minibus et in Corano Peregrinis*, Lugduni Batavorum 1880, P. 9.

(٢) الأبيات مروية في كتاب الأغاني ج ٢ ص ٣٦ من طبعة بولاق وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١١١ - ١١٢ من طبعة ليدن وشعراء النصرانية ص ٤٥٥ - ٤٥٦ وحساسة البحري عدد ٣٩٤ ص ١٢٩ - ١٣٠ من طبعة ليدن أو ص ٨٦ - ٨٧ من طبعة بيروت . ضام يضيغ : ظلمه وقهره . معرضاً : مبتدأ أمامه . إمة : رخاء العيش . أما كسرى أنو شروان فكان ملك الفرس بين سنتي =

أَيُّهَا الشَّامِيتُ الْمُعِيرُ بِالِدِهِ . رَأَيْتِ الْمَبْرَأُ الْمُفُورُ
 أَمْ لَدَيْكَ الْعَهْدُ الْوَثِيقُ مِنَ الْأَيِّ . ام بَلْ أَنْتِ جَاهِلٌ مَغْرُورُ
 مَنْ رَأَيْتِ الْمَنُونَةَ نَحْلُدْنَ أَمْ مَنْ . ذَا عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يُضَامَ خَفِيرُ
 أَيْنَ كَسْرِي كَسْرِي الْمَلُوكِ أَنْوَشِرُ . وَإِنْ أَيْنَ قَبْلَهُ سَابُورُ
 وَبَنُو الْأَصْفَرِ الْكِرَامُ مَلُوكُ الْ . رُومِ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ مَذْكَورُ
 وَأَخُو الْخَضِرِ إِذْ بَنَاهُ وَإِذْ دَجَّ . لَمْ تُجِبِي إِلَيْهِ وَالْمَخَابُورُ
 شَادَهُ مَرْمَرًا وَجَلَّلَهُ كَدِّ . سَأَ فَلَطِيرِ فِي ذُرَاهِ وَمُكُورُ
 لَمْ يَهَبْهُ رَيْبُ الْمَنُونِ فَبَادَ الْ . مُلْكُ عَنْهُ فَبَابَهُ مَهْجُورُ
 وَتَذَكَّرُ رَبُّ الْخَوَزَنْدَقِ إِذْ شَدَّ . رُفَ يَوْمًا وَلِلْهُدَى تَفْكِيرُ
 سَرَّهُ مَالُهُ وَكَشْرُهُ مَا يَمُ . لِيكَ وَالْحَرُّ مُعْرِضًا وَالسَّيْدِيرُ
 فَارْعَوَى قَلْبُهُ فَقَالَ وَمَا غَيْبُ . هَلَّةَ حَتَّى إِلَى الْمَمَاتِ يَصِيرُ
 ثُمَّ بَعْدَ الْفَلَاحِ وَالْمُلْكِ وَالْإِ . مَةِ وَارْتَهُمُ هُنَاكَ الْقَبُورُ
 ثُمَّ صَارُوا كَأَنَّهُمْ وَرَقٌ جَ . فَ فَأَلَوْتَ بِهِ الصَّبَا وَالْدَبُورُ

وبخلاصة القول أن شعر العباديين أصبح ذات تأثير لا يُنكر في المعاصرين
 المجاورين لهم من الوثنيين مثل الأعشى وفي بعض المتأخرين الإسلاميين
 لا سيما في مجال الزهديات والخمريات .

٤ - يبقى على أن أتكلّم بالإجمال في الصنف الرابع من شعراء الجاهلية ،
 أي في شعراء أهل المدن الذين لا يدخلون في الصنف الثاني والثالث فأقصر
 قولي على اثنين منهم : قيس بن الخطيم وأمّية بن أبي الصلت .

= ٥٣١ - ٥٧٩ م . أما سابور فهو اسم ثلاثة من ملوك الفرس تولي الأمر أولهم من سنة ٢٤١ إلى سنة
 ٢٧٢ م . والثاني من ٣٠٩ إلى ٣٧٩ والثالث من ٣٨٣ إلى ٣٨٨ . ويروي البحري في حماسته عدد ٣٩٣
 و ٣٩٥ مثل هذه الأبيات وهي أيضاً من أبيات زيد .

وُلد قيس بن الخطيم الأوسى بالمدينة بعد منتصف القرن السادس للمسيح
فقتل أبوه وهو صغير السنَّ جدًّا في حروب جرت بين الأوس والخزرج
فلما شبَّ قيس وعرف أخبار قومه وأبيه أراد أخذ ثأر قتل والده ولم يزل
يتربصُّ بذلك في المواسم حتى ظفر بقاتل أبيه وقاتل جدّه فقتلها . فله في
ذلك قصيدة تقولون إنَّها من نسج أهل البادية (١) : (من بحر الطويل)

طَعْنَتْ ابْنَ عَبْدِ الْقَيْسِ طَعْنَةً ثَائِرَ	لَهَا نَفْدٌ لَوْلَا الشَّعَاعُ أَضَاعَهَا
مَلَكَتْ بِهَا كَفِّي فَأَنْهَرْتُ فَتَقَّهَا	يَرَى قَائِمٌ مِنْ دُونِهَا مَا وَرَاءَهَا
يَهُونَ عَلَيَّ أَنْ تَرُدَّ جِرَاحُهَا	عُيُونَ الْأَوَاسِي إِذْ حَمِدَتْ بِلَاعَهَا
كُنْتُ امْرَأً لَا أَسْمَعُ الدَّهْرَ سُبَّةً	أَسْبُ بِهَا إِلَّا كَشَفْتُ غِظَاءَهَا
فِيَّ فِي الْحَرْبِ الضَّرُوسِ مُوَكَّلٌ	بِإِقْدَامِ نَفْسٍ مَا أُرِيدُ بَقَاءَهَا
مَتَى يَأْتِ هَذَا الْمَوْتُ لَا تُلْفَ حَاجَةٌ	لِنَفْسِي إِلَّا قَدْ قَضَيْتُ قَضَاءَهَا
ثَارَتْ عَدِيًّا وَالْخَطِيمَ فَلَمْ أَضِغْ	وِلَايَةَ أَشْيَاحٍ جُعِلْتُ إِزَاءَهَا

ولكنه مدني لا بدوي في نوع التغزل إذا قال القصائد المشهورة في عمرة
بنت رَوَاحَةَ ، ومات قبل الهجرة بقليل .

أما أمية بن أبي الصلت الثقفي فهو من أهل الطائف كان في الجاهلية
رغب عن عبادة الأوثان ويؤمن بالبعث وله أشعار مليحة حكى فيها قصص
الأنبياء وأتى بالفاظ . لم يعرفها العرب أخذها من أهل الكتاب كما أخذ منهم
أيضاً الأحاديث التي جاء بها في شعره . ويكثر في أبياته ذكر الله والاستدلال
على وجوده وحكمته باعتبار عجائب المخلوقات ووصف رحمته تعالى وعدد

(١) حجة أبي تمام ص ٨٥ - ٨٧ من طبعة بن أوج ١ ص ٩٤ - ٩٧ من طبعة بولاق لمراجع
أيضاً كتاب الأغاني ج ٢ ص ٦٠ من طبعة بولاق . [توجد قصيدته هذه في ديوانه ص ٣ - ٥ من طبعة
ليبسك ١٩١٤ بعناية الأستاذ Kowalewski (انظر في ص ١ - ٦ الترجمة الألمانية والحواشي)] .

الأبيات المنسوبة إليه المتفرقة في كتب إسلامية شتى يزيد على الأربعمئة إلا أن لا شك في كون كثير منها مختلقة لا سيما المروية في كتاب البدء والتاريخ لمطهر بن طاهر المقدسي من علماء القرن الرابع للهجرة فإنها مخلوطة عبارات وألفاظاً قرآنية . ومن المشهور أن أمية لم يُسلم بل رثى من قُتل من قريش في وقعة بدر ومات في السنة الثامنة للهجرة^(١) . وإننى أمتنع عن إيراد أمثلة من أشعاره لأنها معروفة .

قد اتضح مما تقدم أن الشعر الجاهلي مصدر أكثر فنون الشعر العربي في عهد الإسلام . وفيه المدح والفخر والحماسة والثناء والهجاء والوصف والزهديات والطرديات والتشبيب والخمريات وهو غاية الجمال والإتقان لفظاً وعروضا حتى لا يخفى أن الشعراء المتأخرين لم يزيدوا على البحور القديمة إلا شيئا قليلا جدا . كان الشعر ديوان أفكار العرب وخواطرهم وعواطفهم كأذ دفتر عظيم قيّدوا فيه عوائدهم واعتقاداتهم وأمثالهم ومآثرهم . ولولا الشعر الذي نشأ في نجد ثم شاع في سائر أنحاء جزيرة العرب الشمالية لما نهأت قبل الإسلام وحدة اللغة الأدبية مع اختلاف شعوب العرب وقبائلهم وتباين لهجاتهم^(٢) . وإن قابلنا فضائل شعر الجاهلية بفضائل الشعر بعد الإسلام استصوبنا قول ابن رشيح القيرواني في كتاب العمدة^(٣) : « إنما مثل القدماء والمحدثين كمثل رجلين ابتداء هذا بناء فأحكمه وأتقنه ثم

(١) اعنى الدكتور Schlthess بجمع بقايا ديوان أمية (وهي ٥٠٠ بيت) وبنقلها إلى اللغة الألمانية ويطبعها في ليبسك سنة ١٩١١ (Beiträge für Assyriologie vol VIII, 3) ثم في سنة ١٩٣٥م في بيروت ديوان أمية بن أبي الصلت يحمى على ٣٠٠ بيت فاعتنى بجمعه بشير يموت . لا توجد في طبعة ليبسك كل الأبيات المروية في طبعة بيروت .

(٢) [في هذا الموضوع انظر مقالة الأستاذ نليشو « كيف نشأت اللغة العربية » في مجلة الهلال سنة ٢٦ عدد أكتوبر ١٩١٧ ص ٤١ - ٤٨] .

(٣) كتاب العمدة ج ١ ص ٥٧ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

أتى الآخر فنقشه وزينه فالكلفة ظاهرة على هذا وإن حسن والقدرة ظاهرة على ذلك وإن خشن .

٥ - تقدمت لَمَحَة في شعر عرب الجاهلية فقبل الشروع في الوصف الإجمالي للآداب بعد ظهور الإسلام يبقَى على أن أقول كلمة في حال كلامهم المنشور . إنني ذكرت في أحد الدروس السابقة أن ابتداء الآداب عند كل أمة كان بالشعر مع كون الكلام المرسل المعتاد أقدم من المنظوم بكثير . وذلك أن الكلام العادي لا يأخذ بمجامع القلوب فليس كفيًا بالتعبير عن حُميا العواطف وشدة الطرب ؛ أما الشعر فبانسجامة ووزنه يحرك أهواء النفس ويثير كامن حركاتها وهو ألدُّ في الأسماع وأشدُّ وقعًا في القلوب من الكلام المنشور لا سيما إذا أنشد على الغناء وآلات الطرب كما كانت العادة فيه عند كل الأمم القديمة فالنثر أجدر من الشعر بإظهار بنات الأفكار والشعر أجدر من النثر بإبداء ما يكنه القلب أو تتصوره النفس بلا تفكير وتعمد . وبما أن القوة الخيالية عند كل أمة غلبت أولاً على القوة الفكرية والنظرية ومال الإنسان إلى ما استحسنه قبل ميله إلى إدمان الفكر في الأشياء لا عجب في سبق الشعر لسائر الفنون الأدبية المستظرفة . أما الإنشاء المنمق البعيد عن الكلام المرسل المعتاد فلم ينشأ إلا وقت بلوغ الأمم درجة أعلى في سير ترقُّها في المدنية والآداب . ثم سبق الشعر سبب ثان وهو أن الغرض من الشعر أو المنشور المستظرف ليس فقط إبراز العواطف والأفكار بل هو أيضاً تخليدها وتداولها على ألسنة الناس . فإذا كانت صناعة الخط مجهولة أو قل استعملها فلا سبيل إلى إبقاء المنشور وحفظه من ورود التغيير والنقص والزيادة في ألفاظه وعبارته فبتغيير العبارة والألفاظ يضيع ما كان فيه من العذوبة والرشاقة والأناقة ولا يبقَى إلا كلام ركيك معتاد لا يُعد من المستظرف ولا

تهش إليه الأسماعُ ولا ترتاح له القلوب . أما الكلام المقيد بالوزن والقافية فأسهل حفظاً وأكثر صبراً على توالي الزمان وأخف على السنة الرواة فيمكن أن يشيع في الآفاق ذكره ويعظم في الناس خطره وإن لم يحفظ. بالتخليد في بطون الصحف .

فلهذين السببين كان معظم براءة كلام العرب في الشعر على كثرة ما كانوا يروونه في أسماهم ومواسمهم من الحكايات المتعلقة بأنسابهم وغزواتهم وأيامهم (أى حروبهم ووقائعهم) فضلاً عن الروايات التي كانوا يشرحون بها أصل أمثالهم ومعانيها وهي من قبيل ما يوجد في كتاب جمهرة الأمثال لأبي هلال الحسن العسكري المتوفى سنة ٣٩٥ في كتاب مجمع الأمثال لأبي الفضل أحمد الميداني المتوفى سنة ٥١٨ . وربما حفظوا شيئاً من تواريخ الأمم المجاورة لهم مثل أهل تدمر والفرس والروم والعبرانيين كما يظهر من إشارات إليها وردت في أشعارهم وإن كانت الأحاديث الخرافية قد انسربت إلى تلك الحكايات ولعلها هي أساطير الأولين التي كان كفار مكة يشبهون بها إنذارات القرآن وقصصه (١) . والذين ساعدوا على إشاعة الروايات الأعجمية في مدن الحجاز هم أهل الكتاب المقيمون بها أو ناس مسافرون إلى الشام والعراق للتجارة ومنهم النضر بن الحارث بن كلدانة الذي قتله النبي صبراً يائئيل بعد وقعة بدر وهو قد أتى الحيرة وأخذ من أهلها أخبار العجم ثم رجع إلى مكة وعلم سكاتها ضرب العود والغناء فإذا جلس النبي مجلساً دعا فيه الناس إلى الله قال هلُموا إلي أحدثكم أحسن من قصص محمد ثم حدثهم أحاديث ملوك الفرس وأخبار رستم وإسفنديار ويُلهمهم من القرآن

(١) انظر القرآن : ٦ : ٢٥ و ٨ : ٣١ و ١٦ : ٢٤ و ٢٣ : ٨١ - ٨٣ و ٢٥ : ٤ -

٥ و ٢٧ : ٦٧ - ٦٨ و ٤٦ : ١٧ و ٦٨ : ١٥ و ٨٣ : ١٣ .

ومن ذكر الله؛ ففيه نُزلت الآية^(١) : « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ . وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلِيٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِيْ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » . - وعند الكلام على آداب الجاهلية بالتفصيل سأشير إلى حكايات متداولة عند أمم أجنبية اتخذها العرب وخصصوها ببعض رجالهم المشهورين .

إلا أن أغلب المقصود من تلك الحكايات والروايات كان المنفعة أو التفكك فرأى العرب فيها المضمون ولم يدروا وشئ الكلام وحلى المعاني ودرر الألفاظ . أما الذى قصدوا فيه رقة الكلام وتنميق الإنشاء وغاية البلاغة فالحكيم النثرية والخطب . ومن حكمهم لم يصل إلينا إلا شئ قليل جداً أغلبه على صورة أمثال قصيرة فلا شك أنها من قبيل وصايا لقمان المروية فى القرآن الشريف^(٢) . - أما فن الخطابة فله عند العرب مقام عال جداً فلو جمعنا الأبيات القديمة التى يُحمد فيها خطيبٌ ملأنا بضع صحائف . ولذلك أسباب مرتبطة بنظامهم السياسى المبني على الحرية ونوع من مجلس الشورى^(٣) فكان رجال كل قوم من أهل الوبر يباحثون أهم أمور القوم فى مجلسهم كما كان كبار أهل مكة يتفاوضون فيها فى دار الندوة المنسوب تأسيسها إلى قصي بن كلاب . فكان للخطيب البليغ شأن عظيم . ومن الحرى بالذكر أن الألفاظ التى كان العرب يعبرون بها عن متولّى حكم قوم من أقوامهم أعنى السيد والأمير عند عرب نجد والحجاز والقبيل فى أنحاء اليمن إذا بحثنا

(١) سورة ٣١ (لقمان) آية ٦ - ٧ .

(٢) سورة ٣١ (لقمان) آية ١٢ - ١٩ .

(٣) فى نظام قبائل العرب قبل الإسلام راجع C.A. NALLINO *sulla costituzione delle tribù arabe prima dell'islamismo. Raccolta di scritti editi e inediti* VOL. III, Roma 1941, P. 64-86.

عن اشتقاقها بمقارنة سائر اللغات السامية وجدنا أنَّ معناها الأصلي إنما كان القائل أو المتكلم^(١). ثمَّ أثرت في ارتقاء فن الخطابة سياسة العرب الخارجية ، أعني العلاقات بين قوم وقوم أو بين قبيلة وملوك اليمن والحيرة والفرس وغسان فكان حينئذ الخطيبُ وكيلَ جميع قبيلته يخطبُ باسمها في المواسم والأوقود للمفاخرة والمشاجرة والدُّفاع عن حقوق قومه . فوصف أوس بن حَجْرَ منصيب الخطيب في داخل قومه وخارجه حين قال^(٢) وهو يرثي أبا دُلَيْجَةَ فضالة بن كَلْدَةَ : (من بحر البسيط) .

أبا دُلَيْجَةَ مَنْ يَكْفِي الْعَشِيرَةَ إِذْ
أَمْسَوْا مِنَ الْخُطْبِ فِي لَبِيسٍ وَبَلْبَالِ
أَمْ مَنْ يَكُونُ خُطِيبَ الْقَوْمِ إِذْ حَفَلُوا
لدى الملوك ذوى أيدٍ وأفضال

ولهم عوائد خاصة عند إلقاء الخطب الاحتفالية وعند أهل المدن الحجازية في أواخر القرن السادس للمسيح نوعٌ ثانٍ من الخطابة جارٍ في أمور الدين والأخلاق والزهد وهو نوعٌ اشتهر به زيد بن عمرو بن نُفَيْلٍ من أهل مكة وقُتْسُ بن ساعدة الإيادي النصراني أسقف مدينة نجران ، الذي ضرب به المثل في الفصاحة والبلاغة . بيّد أنَّ القليل الذي بلغنا من خطب زيد بن عمرو مختلقٌ من غير شك^(٣) وما يُروى عن قُتْسٍ ليس إلا قطع صغيرة

(١) قال التبريزي في شرحه على حاشية أبي تمام (ص ٧٠٥ من طبعة « بين » أوج ٤ ص ٧٧ من طبعة بولاق) ما نصه : « وسمى الرئيس زهيباً لأنه يزعم عنهم أى يقول كما قيل له قيل ومقول » وانظر أيضاً ما قاله المستشرق الكبير Th. Noeldeke في *Zeitschrift der deutschen morgenländischen Gesellschaft* vol. 49, 1888, P. 481. وراجع أيضاً ما قاله Hommel في نفس المجلة الألمانية ج ٤٦ سنة ١٨٩٢ ص ٥٢٩ و GOLDZIEHER, *Muhammedanische Studien*, II, p. 52 note 4

(٢) عدد ٣٢ بيت ٤ و ٥ من ديوان أوس بن حجر المطبوع بمدينة وينا سنة ١٨٩٢ اعتمى بجمعه ونشره ونقله إلى اللغة الألمانية الأستاذ R. Geyer وراجع ما قاله في هذا الطبع J. Barth (*Zeitschrift der deutschen morgenländischen Gesellschaft*, vol. 47, 1893, P. 323-334).

(٣) انظر Th. NOELDEKE, *Geschichte des Qorans*, 2ème édition, 1ère partie, Leipzig (٣) 1909. P. 18-19.

لا نعرف أهي ألفاظه أم لُبَابُ كلامه فقط. . وما يُنسَبُ إلى قَس هو كَلْمُهُ
بالكلام المسجَع الذي كان يَألفه الكُهَّانُ لارتباطه بالأصليّ بالسحر القديم
حسباً سَابِئِنه إن شاء الله .

وَقَصَّارِي الأمرُ أَنَّ العربَ في الجاهليَّة لم يخرِجُوا في النثر عن قدر
الإنشاء القصير والمقطَّعات فلو جاز قياسُ كتابِ ديني جليل بسائر التصانيف
لَقَلَّتْ إنَّ أولَ كتابٍ مطوَّلٍ صدر بلغة الناطقين بالضاد كان القرآن
الشريف .

٦- لا بُدُّ للباحث عن تاريخ الآداب العربيَّة من الفحص عما يتعلَّق
بالقرآن من المسائل اللغوية والأدبيَّة ؛ منها مسألة اغتته أهي لغة أهل قريش
المعتادة أم لا؟ ومسألة إنشائه الذي اجتمع أكثر العلماء المسلمين على أنَّه
كلام منشور خارجٌ عن نوعي المنشور المتداولين لا يسمَّى مُرْسَلًا مُطْلَقًا ولا
مسجَعًا. ومسألة جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق وفي عهد عثمان بن عفان.
ثمَّ مسألة نواتره وقراءاته . ومسألة بلاغته وإعجازه وهلمَّ جراً . ولكني في هذه
المقدمة المختصرة لا أريد بيانها ولا حلها مقتصرًا على التلميح إليها والإشارة
إلى ما كان للقرآن من التأثير العظيم الذي لا يُقدَّر مقداره في حياة الأمم
الإسلاميَّة وآدابهم وعلومهم وهو أكبر من تأثير الإنجيل في النصراني لأنَّ
مدار الإنجيل ليس إلاَّ على العقائد والأخلاق بخلاف القرآن الذي يتضمن
أيضاً أحكاماً فقهيةً مهمَّةً أساسيةً لا يجوز للمسلم الانصراف عنها في
التشريع . فالتشريع عند النصراني عمَلٌ بشريّ ليس له ارتباط متين بأقوال
الإنجيل أمَّا التشريع في الإسلام فلا يُتصوَّر إلاَّ كفرع من العلوم النقلية
الدينيَّة، أصوله في القرآن والسنة والإجماع. فهذا السبب أيضاً تنطوي كتب
الفقه الإسلاميَّة على العبادات التي لا مكان لها في فقه الأمم النصرانيَّة .

وكفى ذلك برهاناً على عظيم شأن القرآن في الهيئة الاجتماعية الإسلامية ودخول أحكامه في أمور تكون دنيوية فقط. عند النصارى . ثم لا شك في أن القرآن كان أشد العوامل في انتشار لغة العرب في غير بلادهم القديمة وصيرورتها لغة العلم عند كافة المسلمين مهما كان بُعد مساكنهم عن أقطار الحجاز . ولا ريب أيضاً أن القرآن كان مصدر علوم شتى اختص بها المسلمون أو ساعدتهم على التقدم في علوم أخرى فقال جلال الدين السيوطي^(١) في النوع الخامس والستين من كتاب الإتيقان في علوم القرآن نقلاً عن تفسير ابن أبي الفضل المرسي ما نصه^(٢) : « ثم [أي بعد التابعين] تقاصرت الهِمَم وفترت العزائم وتضاءل أهل العلم وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه ، فنوعوا علومه وقامت كل طائفة بفن من فنونه فاعتنى قوم بضبط لغاته وتحريير كلماته ومعرفة مخارج حروفه وعددها وعدد كلماته وآياته وسوره وأحزابه وأنصافه وأرباعه وعدد سجدياته والتعليم عند كل عشر آيات ، إلى غير ذلك من حصر الكلمات المتشابهة والآيات المتماثلة من غير تعرض لمعانيه ولا تدبير لما أودع فيه فسُموا القراء ، واعتنى النخاة بالمعرب منه والمبني من الأسماء والأفعال والحروف العاملة وغيرها وأوسعوا الكلام في الأسماء وتوابعها وضروب الأفعال واللازم والمتعدي ورسوم خط الكلمات وجميع ما يتعلق به حتى إن بعضهم أعرب مشكله وبعضهم أعربه كلمة كلمة ، واعتنى المتسرون بالفاظه فوجدوا منه لفظاً يدل على معنى واحد والفظاً يدل على معنيين ولفظاً يدل على أكثر ؛ فأجروا الأول على حكمه وأوضحوا معنى الخفي منه وخاضوا في ترجيح أحد محتملات ذى المعنيين والمعاني وأعمل كل منهم فكرة

(١) توفى السيوطي سنة ٩١١
١٥١٥

(٢) الإتيقان ج ٢ ص ١٢٦ - ١٢٧ من طبعة مصر ١٣١٨ .

وقال بما اقتضاه نظره؛ واعتنى الأصوليون بما فيه من الأدلة العقلية والشواهد الأصلية والنظرية مثل قوله تعالى: (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة، فاستنبطوا منه أدلة على وحدانية الله ووجوده وبقائه وقدمه وقدرته وعلمه وتنزيهه عما لا يليق به وسَمَّوا هذا العلم بأصول الدين؛ وتَأَمَّلت طائفة منهم معاني خطابه فرأت منها ما يقتضى العموم ومنها ما يقتضى الخصوص إلى غير ذلك فاستنبطوا منه أحكام اللغة من الحقيقة والمجاز وتكلموا في التخصيص والإخبار والنص والظاهر والمجمل والمحكم والمتشابه والأمر والنهي والنسخ إلى غير ذلك من أنواع الأقيسة واستصحاب الحال والاستقراء وسَمَّوا هذا الفن أصول الفقه؛ وأحكمت طائفة صحيح النظر وصادق الفكر فيما فيه من الحلال والحرام وسائر الأحكام فأسسوا أصوله وفرَّعوا فروعه وبسطوا القول في ذلك بسطاً حسناً وسَمَّوه بعلم الفروع وبالفقه أيضاً؛ وتلمحت طائفة ما فيه من قصص القرون السالفة والأمم الخالية ونقلوا أخبارهم ودونوا آثارهم ووقائعهم حتى ذكروا بدء الدنيا وأول الأشياء وسَمَّوا ذلك بالتاريخ والقصص؛ وتنبه آخرون لما فيه من الحكم والأمثال والمواعظ التي تُقلِّل قلوب الرجال وتُكاد تُدَكِّدك الجبال فاستنبطوا مما فيه من الوعد والوعيد والتحذير والتبشير وذكر الموت والمعاد والنشر والحشر والحساب والعقاب والجنة والنار فصولاً من المواعظ وأصولاً من الزواجر فسَمَّوا بذلك الخطباء والوعاظ؛ واستنبط قوم مما فيه من أصول التعبير مثل ما ورد في قصة يوسف في البقرات السماء وفي منامى صاحبي السجن وفي رؤياه الشمس والقمر والنجوم ساجدة، وسَمَّوه تعبير الرؤيا؛ واستنبطوا تفسير كل رؤيا من الكتاب فإن عز عليهم إخراجها منه فمن السنة التي هي شارحة للكتاب فإن عسر فمن الحكم والأمثال؛ ثم نظروا إلى اصطلاح العوام في مخاطباتهم وعُرف

عادتهم الذي أشار إليه القرآن بقوله وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ، وأخذ قوم مما في آية
المواريث من ذكر السهام وأربابها وغير ذلك علم الفرائض . واستنبطوا منها
من ذكر النصف والثلث والرابع والسادس والثمن حساب الفرائض ومسائل العول
واستخرجوا منه أحكام الوصايا ؛ ونظر قوم إلى ما فيه من الآيات الدالات على المحكم
الباهرة في الليل والنهار والشمس والقمر ومنازله والنجوم والبروج وغير ذلك ،
فاستخرجوا منه علم المواقيت ؛ ونظر الكتّاب والشعراء إلى ما فيه من جزالة اللفظ .
وبديع النظم وحسن السياق والمبادئ والمقاطع والمخالص والتلوين في الخطاب
والإطناب والإيجاز وغير ذلك ، واستنبطوا منه المعاني والبيان والبديع ، ونظر فيه
أرباب الإشارات وأصحاب الحقيقة فلاح لهم من ألفاظه معان ودقائق
جعلوا لها أعلاماً اصطلاحوا عليها مثل الفناء والبقاء والحضور والخوف والهيبة
والأنس والوحشة والقبض والبسط وما أشبه ذلك ؛ هذه الفنون التي أخذتها
الملة الإسلامية منه .

الباب الثالث

الآداب في صدر الإسلام وفي أيام الخلفاء الراشدين

- ١ - الشعر في مدح النبي - ٢ - شعراء المشركين الخاقدون على النبي -
- ٣ - الشعراء الذين أسلموا من غير أن يهتموا في أبياتهم بأمور دينية -
- ٤ - شعر الفتحاحات - ٥ - الديوان المنسوب إلى علي بن أبي طالب - ٦ - النثر .

أما حال الآداب العربية الدنيوية في صدر الإسلام وأيام الخلفاء الراشدين فما هو^(١) ؟ قال ابن خلدون في مقدمته^(٢) : « ثم انصرف العرب عن ذلك [أي عن الشعر] أول الإسلام بما شغلهم من أمور الدين والنبوة والوحي وما أذهشهم من أسلوب القرآن ونظمه فأخربسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زماناً ثم استقر ذلك وأونس الرشد من الملة ولم ينزل الوحي في تحريم الشعر وحظره وسَمِعَهُ النبي (صلى الله عليه وسلم) وأثاب عليه فرجعوا حينئذ إلى دينهم منه » . وقال عمر بن الخطاب : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوها بالجهاد وغزوا فارس والروم ولهت عن الشعر وروايته »^(٣) - هذان القولان لا يوافقان حقيقة الأمر البتة ؛ فما أوردتهما لو لم أعثر على مثل هذا الفكر في تواريخ الآداب العربية المتداولة في المدارس المصرية مثل أدب اللغة العربية لمحمد حسن

(١) [في هذا الموضوع انظر أيضاً OMAR A. FARRUKH, *Das Bild des Frühislam in der*

arabischen Dichtung von der Higr bis Zum Tode des Kalifen 'Umar Leipzig 1937.]

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٥٨١ من طبعة بيروت ١٩٠٠ أو ج ٣ ص ٤٠١ من الترجمة الفرنسية .

(٣) الزهر للسيوطي ج ٢ ص ٢٩٣ من طبعة مصر ١٣٢٥ عن محمد بن سلام الجمحي

[فراجع طبقات الشعراء للجمحي ص ١٠ من طبعة لبنان سنة ١٩١٦] .

المرصفي^(١) وأدبيات اللغة العربية لمحمد عاطف بك وصاحبه^(٢) وخلاصة
أدب اللغة لإبراهيم عبد الخالق^(٣). فإذا طالعتم كتب التاريخ القديمة المطولة
مثل سيرة الرسول لابن هشام، وكتاب المغازي للواقدي وطبقات ابن سعد
وتاريخ الطبري وجدتم كثرة ما يروونه من أشعار صدر الإسلام، ثم إذا
تصفحتم كتب الأدب القديمة مثل كتاب الأغاني وغيره أقيمت أن الآداب
العربية لم تنزل في ذلك العصر زاهية وأن الشعراء لم ينصرفوا عن أنواع
قريضهم ولا الخطباء عن نسج نشرهم.

إنَّ الشعراء المخضرمين الذين عاشوا في أوائل ظهور الإسلام أو في أيام
الخلفاء الراشدين يجوز تقسيمهم إلى ثلاثة أصناف بالإضافة إلى الذين
الإسلامي : ١ الذين قالوا الشعر في مدح النبي سواء أسلموا أم لم يسلموا؛
فأكثرهم وأشهرهم من أهل المدر الذين كانوا يفدون في الجاهلية على الملوك .
٢ الشعراء الذين قالوا الشعر في رثاء قتلى الكفار وهجاء النبي وأغلبهم من
أهل مكة . ٣ شعراء أسلموا ولم يهتموا في أبياتهم بأمور النبي والدين وهم
أكثر شعراء أهل البادية .

١- ومن الصنف الأول كعب بن زهير والأعشى وحسان بن ثابت
السابق ذكره . فإن تأملتم أشعارهم وجدتم بينهم فرقاً بالإضافة إلى الإسلام .
لأن كعباً وهو بدوي الأصل مدح النبي سنة ٩ هـ بقصيدة شهيرة ألفها على
منوال قصائد أهل البادية في مدح سادتهم فلولا البيتان :

نُبئتُ أن رسولَ اللهِ أوعدني والعصوُ عند رسولِ اللهِ مأمولُ
مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة الـ قرآن فيه مواعيطُ وتفصيلُ

(١) أدب اللغة العربية للمرصفي ج ١ ص ٩٣ - ٩٤ و ١٢١ و ١٤١ - ١٤٢ من طبعة
مصر ١٣٢٦ .

(٢) أدبيات اللغة العربية ج ١ ص ٢٨ من طبعة مصر ١٩٠٦ .

(٣) خلاصة أدب اللغة لإبراهيم عبد الخالق ص ٤٧ من طبعة مصر ١٣٢٦ .

والبيت الثالث :

إِنَّ الرَّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ مَهْنَدٌ مِنْ سَيُوفِ اللَّهِ مَسْلُوكٌ
لَقَلْنَا إِنَّهُ إِنَّمَا أَرَادَ قَائِدًا أَوْ سَيِّدًا مِنْ قَوْمِهِ لَا نَبِيًّا جَلِيلًا أَتَى بِدِينٍ
جَدِيدٍ . ثُمَّ فِي نَفْسِ تِلْكَ الْقَصِيدَةِ مَدْحُ الْمُهَاجِرِينَ فَلَمْ يَصِفْهُمْ إِلَّا بِالْحِمَاسَةِ
وَالشُّجَاعَةِ . فَشَتَّانَ مَا بَيْنَ أُسْلُوبِ هَذِهِ الْبُرْدَةِ الْبَدَوِيَّةِ وَبَيْنَ الْعَوَاطِفِ وَالْعِبَارَاتِ
الِدِينِيَّةِ الَّتِي تَتَحَلَّى بِهَا بُرْدَةُ الشَّيْخِ الْبُوصَيْرِيِّ (١) ! وَفِي قَصِيدَةٍ أُخْرَى (٢) يُمدِّحُ
كَعْبَ الْأَنْصَارِ وَلَمْ يَجْعَلْ فِيهَا بَيْتًا يَخْرُجُ عَنْ مَنَهْجِ الْمَدْحِ الْبَدَوِيِّ وَيُشِيرُ
إِلَى مَحَاسِنِ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ . - أَمَّا الْأَعْشَى فَمَدْحُ النَّبِيِّ (مَعَ أَنَّهُ لَمْ يُسَلِّمْ)
فِي سَنَةِ ٧ فَلْتَقَرِّبِهِ مِنْ نَصَارَى نَجْرَانَ وَالْحَيْرَةَ اسْتَعْمَلَ بِقَصِيدَتِهِ مَا دَلَّ بِهِ
عَلَى عُلُوِّ مَنْزِلَةِ النَّبِيِّ فِي الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ فَقَالَ مِثْلًا (٣) :

نَبِيٌّ يَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَذَكَرَهُ أَغَارٌ لِعَمْرَى فِي الْبِلَادِ وَأَنْجَدَا

وَلَكِنْ أَوَّلُ مَنْ يَصْلُحُ لَهُ اسْمُ شَاعِرٍ إِسْلَامِيٍّ هُوَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيُّ
الَّذِي مَرَّ ذَكَرَ شِعْرَهُ فِي عَهْدِ الْجَاهِلِيَّةِ . وَهُوَ بَعْدَ الْهَجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ رَبَّمَا هَجَا
الْكُفَّارَ عَلَى الْأُسْلُوبِ الْقَدِيمِ حَسْبَمَا كَانُوا هُمْ يَهْجُونَ النَّبِيَّ ، وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ
مِثْلًا مَا قَالَهُ فِي الْهَيْذَلِيِّينَ لَعَنًا أَسْرَوْا بَعْضَ الْمُسْلِمِينَ وَبَاعُوهُمْ مِنْ قَرِيشٍ (٤) :

(مِنْ بَحْرِ الْبَسِيطِ .)

لَوْ خُلِقَ الدُّوْمُ إِنْسَانًا يُكَلِّمُهُمْ لَكَانَ خَيْرَ هُدَيْلٍ حِينَ بَأْتِيهَا

(١) توفى شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد البوصيري فيما بين سنتي ٦٩٤ و ٦٩٦ هـ .

(٢) نقل الأستاذ R. Basset معظمها إلى اللغة الفرنسية في كتابه *La Banat Sa'ad ... de*

Ka'b ben Zohair Alger, 1910, P. 51-53. أما ديوان كعب بن زهير فهو غير مطبوع .

(٣) كتاب الأغاني ج ٨ ص ٨٥ من طبعة بولاق [أو ديوان الأعشى قصيدة ١٧ ، بيت ١٤ من طبعة لندن ١٩٢٨] .

(٤) ديوان حسان ص ١٠٣ من طبعة تولى سنة ١٢٨١ أو ص ٨١ من طبعة بمبي سنة ١٢٨١ أو عدد ٦٧ من طبعة لندن ١٩١٠ [أو ص ٢٤ - ٢٥ من طبعة مصر ١٣٤٧] .

تَرَى مِنَ اللُّؤْمِ رَقْمًا بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ كَمَا سَكَى أذْرَعِ الْعَانَاتِ كَاوِيهَا
تَبْكِي الْقُبُورَ إِذَا مَا مَاتَ مَيِّتُهُمْ حَتَّى يَصْبِيحَ بِحَمْنٍ فِي الْأَرْضِ دَاعِيهَا
مِثْلُ الْقَنَاغِدِ تَحْزَى أَنْ تُفَاجِئَهَا شَدَّ النَّهَارِ وَيُلْتَقِي اللَّيْلُ سَارِيهَا

ولكن حُسن إسلامه ظاهر في جملة من أشعاره مثل قصيدة أنشدتها بعد يوم أُحد مجيباً لعبد الله بن الزبير القُرشي قال في آخرها (١) :

فَلَا تَذْكُرُوا قَتْلِي وَحِمْرَةَ فِيهِمْ قَتِيلٌ ثَوَى لِي وَهُوَ مُطْبِعُ
فَإِنَّ جَنَّاتِ الْخُلْدِ مَنْزِلَةٌ لَهُ وَأَمْرٌ الَّذِي يَقْضِي الْأُمُورَ سَرِيعُ
وَقَتْلَاكُمْ فِي النَّارِ أَفْضَلُ رِزْقِهِمْ حَمِيمٌ مَعَا فِي جَوْفِهَا وَضَرِيعُ

وما أحل وأرق القصيدة التي رثى بها النبي ومطلعها (٢) :

مَا بَالُ عَيْنِكَ لَا تَنَامُ كَأَنَّهَا كُجِلَتْ مَا قَبِيهَا بِكُحْلِ الْأَرْمَدِ

وهي على سداجة نظمها وألفاظها واقعة في القلوب ظاهرة التفجع بينة الحسرة والتلهف والأسف .

ليست هذه المقدمة الوجيزة مكاناً يصلح لذكر سائر الشعراء الذين قاموا بمدح النبي وجمائه وحمائه الصحابة في صدر الإسلام . كان عرب البادية في الجاهلية لا يغزون ولا يتحاربون إلا وشعراؤهم أنشدوا الأبيات في هجاء الأعداء والافتخار ورثاء القتلى وتخليد ذكر الوقائع فسلكت شعراء المسلمين والمشركين هذا المنهج أيضاً في المديح والرثاء والتهاجي . وتناولت شعراء الكفار

(١) ديوان حسان ص ٦١ من طبعة تونس أو ص ٤٨ من طبعة بمبي أو عدد ١٧٥، بيت ١٦ إلى ١٨ من طبعة أوربا [أو ص ٢٥٩ من طبعة مصر] . فليراجع أيضاً سيرة الرسول لابن هشام ص ٦٢١ من طبعة غوتنجن ١٨٥٩ وقال ابن هشام إن « بعض أهل العلم بالشعر ينكرها لحسان وابن الزبير » .

(٢) ديوان ص ٢٤ من طبعة تونس أو ص ١٩ من طبعة بمبي أو قصيدة ١٣٣ من طبعة أوربا [أو ص ٩٧ - ٩٩ من طبعة مصر ١٣٤٧] وسيرة الرسول لابن هشام ص ١٠٢٤ - ١٠٢٥ .

النبيَّ ومَن معه بالهجاء ومُسَوِّه بالأذى؛ فانتصرت شعراء النبيِّ له وأجابوا المشركين عنه . ويُرْوَى أَنَّ النبيَّ قال لحسان بن ثابت اهْجُوهُمْ، يعني قُرَيْشاً فوالله لَهَجَاؤُك عليهم أشدُّ من وقع السهام في غلَس الظلام اهْجُوهُمْ ومعك جبريلُ روحُ القدس^(١) . وفي كتاب الأغاني ما نصه^(٢) : « كان بهجوم يعني قريشاً ثلاثة نفرٍ من الأنصار يُجيبونهم : حسان بن ثابت وكعب ابن مالك وعبد الله بن رواحة . وكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ويعيرونهم بالمثالب، وكان عبد الله بن رواحة يعيرونهم بالكُفْر وينسبهم إلى الكُفْر ويعلم أنه ليس فيهم شرٌّ من الكُفْر فكانوا في ذلك الزمان أشدَّ شيءٍ عليهم قولُ حسان وكعب؛ وأهْوَنُ شيءٍ عليهم قول ابن رواحة فلما أسلموا وفقَّهوا الإسلام كان أشدُّ القول عليهم قول ابن رواحة .»

وربَّما تَفَاخَرَ شعراء الفريقتين وخطباؤهما أمام النبيِّ على جرئى عادة العرب في ذلك الزمان كما اتَّفَق حين وفَدَتْ بنو تميم على النبيِّ في السنة التاسعة للهجرة . قال ابن سعد الكاتب^(٣) المتوفى سنة ٢٣٠ / ٨٤٥ : « فقال الأقرع [بن حابس من رؤساء بني تميم] يا محمد ايدن لي فوالله إن جُهدى لزيئن وإن ذمى لَشَيْن . فقال له رسول الله كذبتَ ذلك اللهُ تبارك وتعالى . ثم خرج رسول الله فجلس وخطب خطيبهم وهو عطارد بن حاجب . فقال رسولُ الله لثابت بن قيس بن شماس أجبه . فأجابه . ثم قالوا يا محمد

(١) العدة لابن رشيح ج ١ ص ١٢ من طبعة مصر ١٣٢٥ وأنظر الأغاني ج ٤ ص ٧ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغاني ج ١٥ ص ٢٩ من طبعة بولاق

(٣) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد في WELLHAUSEN, *Skizzen und*

Vorarbeiten, vol. IV, Berlin 1889, P. ٣١ [الطبقات ج ١ قسم ٢ ص ٤٠ سطر ١٧ - ٢٤ من طبعة ليدن] ونص الخطيبين والشعرين مروى في كتاب الأغاني ج ٤ ص ٨ - ٩ من طبعة بولاق وفي السيرة لابن هشام ص ٩٢٤ - ٩٣٨ من طبعة أوروبا وتاريخ الطبري ج ١ ص ١٧١٠ - ١٧١٧ من طبعة ليدن .

ايذّن لشاعرنا . فأذن له فقام الزبيرقان بن بدر فأنشد . فقال رسول الله
 لحسان بن ثابت أجبه فأجابه بمثل شعره . فقالوا والله اخطيبه أبلغ من
 خطيبنا ولشاعره أشعر من شاعرنا ولهم أحلم منا . ونزل بهم^(١) : « إِنَّ الَّذِينَ
 يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ » . - فتروّن أذ الشعر
 عند أهل المدينة ومكة في غرة الإسلام قد أصبح ذا شأن عظيم كأنه من
 وسائلهم السياسية .

٢- أما شعراء الصنف الثاني أي الذين رثوا القتل من المشركين وهجوا
 النبي والمهاجرين والأنصار وأكثرهم من أهل مكة فأسماؤهم وأبياتهم مروية في
 سيرة الرسول لابن هشام وغيرها من المصنّفات القديمة في المغازي والتاريخ .
 وأشهرهم عبد الله بن الزبيرى وضرار بن الخطّاب الفيهري والمحارث بن هشام
 ابن المخيرة وأبو سفيان بن حرب .

٣- وممن نبغ من شعراء الصنف الثالث أي الذين أسلموا بغير أن يؤثروا
 إسلامهم في شعرهم تأثيراً شديداً جلياً وأغلبهم من أهل البادية متمم بن
 نويرة اليربوعي صاحب المراثي المشهورة في أخيه مالك الذي قتل في جملة
 العرب المرتدين بعد موت النبي في أيام خلافة أبي بكر . فرثاه متمم بأشعار
 تشير الأشجان وتقذح شرر النيران فضربت الشعراء الأمثال به وبأخيه مالك
 في أشعارهم . ومما قال^(٢) :

أبى الصبر آيات أراها وأنى
 أرى كلّ حبلٍ بعد حبلك أقطعا

(١) القرآن سورة ٤٩ (الحجرات) آية ٤ .

(٢) المفضليات ج ٢ ص ٢٢ من طبعة مصر ١٣٢٤ [أر عدد ٦٧ ، بيت ١٧ إلى ٣٥

(ما عدا بيت ١٩) من طبعة أكسفورد ١٩٢١] .

وَأَنْتَى مَنَى مَا أَدْعُ بِأَسْمِكَ لَا تُجِيبُ وَكُنْتَ جَدِيرًا أَنْ تُجِيبَ وَتُسْمِعَا
 وَكُنَّا كَنَدْمَانِيَّ جَذِيمةَ حِقْبَةٍ مَنِ الدَّهْرِ حَتَّى قِيلَ لَنْ يَتَّصِدَعَا
 فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّي وَمَالِكَا لِيَطُولِ اجْتِمَاعٍ لَمْ نَبِتْ لَيْلَةً مَعَا
 فَإِنْ تَكُنِ الْأَيَّامُ فَرَقَنَ بَيْنَنَا فَقَدْ بَانَ مَحْمُودًا أَخِي يَوْمَ وَدَعَا
 أَقُولُ وَقَدْ طَارَ السَّنَا فِي رَبَابِهِ وَغَيْثٌ يُسْحُ الْمَاءَ حَتَّى تَرِيحَا
 سَقَى اللَّهُ أَرْضًا حَلَّهَا قَبْرُ مَالِكِ دِهَابَ الْغَوَادِي الْمُدْجَنَاتِ فَأَمْرَعَا
 وَأَثَرَ سَيْلِ الْوَادِيَيْنِ بِدِيمةِ تُرْشِحُ وَتُشْمِيَا مِنَ التَّبْتِ خِرْوَعَا

ومن النابغين أيضاً أبو ميحجن الثقفي من فرسان العرب شهيد يوم القادسية سنة ١٦/٦٣٧^(١) وقصته فيه مشهورة. وكان مولعاً بالخمير الذي يدور عليه معظم شعره.

ومن بين أبياته الشهيرة^(٢):

إِذَا مِتُّ فَأَذْفِنِي إِلَى أَصْلِ كَرْمَةٍ تَرَوِي عِظَامِي فِي التُّرَابِ عَرُوقَهَا
 وَلَا تَذْفِنِنِي بِالْفَلَاةِ فَإِنِّي أَخَافُ إِذَا مَا مِتُّ أَنْ لَا أَذُوقَهَا

ومنهم جرول بن أوس الحطيطية « من فحول الشعراء ومتقدميهم وفصحائهم متصرف في جميع فنون الشعر من المديح والهجاء والفخر والنسيب مجيد في ذلك أجمع »^(٣) ولكنه دنى الطبع لثيم النفس كثير الطمع^(٤) جعل الشعر متجراً فكان له من الهجاء معاش وكسب لأن الناس كانوا يهدون له الهدايا خوفاً من شره فقال الأضمعي: « كان الحطيطية جشعاً سهوياً

(١) أما تاريخ يوم القادسية فانظر ما قاله فيه WELLHAUSEN, *Prolegomena zur allstien Geschichte des Islam (Skizzen und Vorarbeiten VI)*, Berlin 1899, P. 72-74; GAETANI, *Annali dell'Islam*, III, P. 629-639.

(٢) ديوان ص ١٤ من طبعة ليدن ١٨٨٧ بناية Abel ر ص ٧٢ من طبعة ليدن ١٨٨٦ (في LANDBERG, *Primoirs arabes*, I) ويعيون الأخبار لابن قتيبة ج ١ ص ٣٨ من طبعة مصر ١٣٢٤ [أوج ١ ص ٣٨ من طبعة مصر ١٣٤٣ - ١٣٤٨] .

(٣) كتاب الأغاني ج ٢ ص ٤٣ من طبعة بولاق .

(٤) انظر أيضاً كتاب العملة لابن رشيح ج ١ ص ٥٠ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

مُلْحِفاً دُنِيَءَ النَّفْسِ كَثِيرَ الشَّرِّ قَلِيلَ الْخَيْرِ بَخِيلاً قَبِيحَ الْمَنْظَرِ رَثَّ الْهَيْئَةِ
مَغْمُوزَ النَّسَبِ فَاسِدَ الدِّينِ وَمَا تَشَاءُ أَنْ تَقُولَ فِي شِعْرِ شَاعِرٍ مِنْ عَيْبِ إِلَّا
وَجَدْتَهُ وَقَلَّمَا تَجِدُ ذَلِكَ فِي شِعْرِهِ (١) . فَمِنْ غَرِيبِ الْإِتِّفَاقِ أَنَّ هَذَا الشَّاعِرَ
المُوصُوفَ بِدَنَاءَةِ الْخُلُقِ كَانَ رَاوِيَةً كَعَبِ بْنِ زَهِيرِ بِلْ إِنْ صَحَّ الْخَبَرُ رَاوِيَةً
زَهِيرِ بْنِ أَبِي سُلَيْمَى الَّذِي شِعْرُهُ فِي طَلَبِ الْعَمَلِ وَالْمَكَارِمِ . وَكَانَ الْحَطِيبَةُ قَدْ
ارْتَدَّ فِيهِمْ ارْتِدَّ بَعْدَ وِفَاةِ النَّبِيِّ وَهَجَا حِينَئِذٍ الْخَلِيفَةَ أَبَا بَكْرٍ فِي بَيْتَيْنِ
مَشْهُورَيْنِ (٢) ثُمَّ أَسْلَمَ ثَانِيَةً إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ يَهْجُو أَكْبَارَ النَّاسِ حَتَّى أَمَرَ عُمَرُ
ابْنَ الْخَطَّابِ بِحَبْسِهِ فَقَالَ فِي الْحَبْسِ أَبْيَاتاً أَشَارَ فِيهَا إِلَى حَالِ أَوْلَادِهِ الصِّغَارِ
الْمُقِيمِينَ بِدِي مَرَّخِ (وَهُوَ وَادٍ مِنْ أَوْدِيَةِ الْيَمَنِ) (٣) :

مَازَا تَقُولُ لِأَفْرَاحِ بَدَى مَرَّخِ حُمُرِ الْحَوَاصِلِ لَا مَاءَ وَلَا شَجَرُ
أَلْقَيْتَ كَأَسْبَبِهِمْ فِي قَعْرِ مُظْلَمَةٍ فَاغْفِرْ عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ يَا عُمَرُ
أَنْتَ الْأَمِينُ الَّذِي مِنْ بَعْدِ صَاحِبِهِ أَلْقَى إِلَيْهِ مَقَالِيدَ التَّهْمَى الْبَشَرُ
لَمْ يُؤْتِرُوكَ بِهَا إِذْ قَدَّمُوكَ لَهَا لَكِنْ لِأَنْفُسِهِمْ كَانَتْ بِهَا الْخَيْرُ

فَعَفَا عَمْرُ عَنْهُ . وَلَا يُعْرَفُ تَارِيخُ وِفَاتِهِ الَّذِي جَعَلَهُ أَبُو الْفَدَاءِ سَنَةَ
٦٩ بَدُونِ إِيْرَادِ مَصْدَرِ هَذَا الْخَبَرِ . وَالْمَحْقُوقُ إِنَّمَا هُوَ أَنَّهُ أَدْرَكَ خِلَافَةَ عُمَانَ
عَلَى الْأَقْلِ . وَكَانَ الْحَطِيبَةُ رَقِيقَ الْإِسْلَامِ فَكَثُرَتْ فِي ذَلِكَ الْحِكَايَاتِ .

وَمِنْ مَعَاصِرِيهِ الشَّمَاخُ بْنُ ضِرَارِ الدُّبْيَانِيِّ صَاحِبِ دِيْوَانِ طُبْعِ بَعْمُرِ سَنَةِ
١٣٢٧ هـ بِعِنَايَةِ الشَّيْخِ أَحْمَدَ بْنِ الْأَمِينِ الشَّنْقِيطِيِّ وَقِيلَ إِنَّهُ أَوْصَفَ الشُّعْرَاءَ
لِلْحَمِيرِ وَالْقَوْسِ وَأَرْجَزَ النَّاسَ عَلَى الْبَدِيَّةِ . وَهُوَ كَثِيرُ الْهَجَاءِ أَيْضاً مَاتَ بَعْدَ

(١) كِتَابُ الْأَغَانِي ج ٢ ص ٤٦ مِنْ طَبْعَةِ بُولَاقِ .

(٢) دِيْوَانُ عَدَدِ ٣٤٤ ، بَيْتِ ٥-٦ مِنْ الطَّبْعَةِ بِمِنَايَةِ Goldziher فِي Zeitschrift der deutschen morgen-
ländischen Gesellschaft, 47, 1893, P. 43.

(٣) دِيْوَانُ عَدَدِ ٤٧ مِنْ الطَّبْعَةِ الْمَذْكُورَةِ .

قتل عمر بن الخطاب . وكان له أخوان شاعران أعنى مزردًا وجزءًا اللدّين لم يُنقل إلينا إلا مقطّعات صغيرة من شعرهما .

ومن أشهر الشعراء المخضرمين أيضاً عمرو بن معديكرب الزبيدي من سادات أهل اليمن وأشجع العرب . أسلم في يدى النبي في السنة العاشرة وشهد وقعة القادسية فله فيها أثر . وعلى أرجح الأقوال مات ببلاد العجم في آخر خلافة عمر . وأكثر شعره في الحماسة وذكر الفتوح . ولشجاعته وشهرته كثرت فيه وفي سيفه المسمى الصمصامة وفي كبر سنّه الحكايات المختلفة منها ما روى في كتاب الأغاني^(١) فيه مع عيينة بن حصن في تحريم الخمر وتحليله^(٢) . ومنهم أيضاً هذليان أحدهما أبو خراش خوئيلد بن مرة الذي مات في خلافة عمر بن الخطاب وكان ممن يعدو فيسبق الخيل في غارات قومه وحرومهم^(٣) . والثاني وهو أشعر منه أبو ذؤيب خوئيلد بن خالد الذي غزا إفريقية مع عبد الله بن سعد بن أبي سرح سنة ٢٦/٦٤٧ فأخذه الموت بعد انتهاء الغزاة سنة ٢٨ تقريباً . وله ديوان لم يُطبع بعد^(٤) . ومما يُستجاد من شعره قصيدة طويلة يرويها صاحب كتاب جمهرة أشعار العرب^(٥) رثى بها بنيه

(١) كتاب الأغاني ج ١٤ ص ٣٠ - ٣١ من طبعة بولاق .

(٢) وفي ذلك الخبر ذى الإسناد الضعيف جداً ثرون عمرو بن معديكرب وهينة يتباحثان كأنهما فقهاء ويذكران المتكلف بمراعاة أحكام الدين وهذا لا يعقل في ذلك العهد عند رجلين فارسين في الحرب قليلي الإسلام بعيدين عن الميل إلى البحث عن أمور الدين فظاهر أن الخبر كله من الروايات التي اختوتت في أواخر أيام بنى أمية لما أخذ أهل التق والدين والفقهاء يذلون جهنم في النفي عن المنكر الشائع من شرب الخمر وإهمال الأحكام الشرعية في الحياة العادية فأشاع أولو الأفراس عدة حكايات مصنعة عذراً لأميالم وأعمالهم المكروهة . راجع - GOLDZIJER *Muham* *medanische Studien*, I, P. 90-91.

(٣) كتاب الأغاني ج ٢١ ص ٥٤ . [طبع ديوانه في مدينة ليسانك سنة ١٩٣٣ بناية J. Hell في المجلد *Nas Hudhailiten-Diwan* ج ٢] .

(٤) [طبع ديوانه في مدينة هانوفر سنة ١٩٢٦ بناية J. Hell] .

(٥) جمهرة أشعار العرب ص ١٢٨ - ١٢٣ من طبعة بولاق سنة ١٣٠٨ - ١٣١٠ [وبتفضليات =

الخمسة أو الثمانية الذين قُتلوا له أو هلكوا بالطاعون في عام واحد .
وأولها :

والدهرُ ليس بمُعْتَبٍ مَنْ يَجْزَعُ	أمن المنونِ ورَيْبِهَا تَتَوَجَّعُ
مُنْذِ ابْتَدَأَتْ وَوَمِثْلُ مَا لَكَ يَنْفَعُ	قالت أميمةُ ما لجسمك شاحباً
إِلَّا أَقْضَ عَلَيْكَ ذَاكَ الْمَضْجَعُ	أم ما لجسمك لا يلائم مَضْجَعاً
أَوْدَى بَنِيَّ مِنْ الْبِلَادِ فَوَدَّعُوا	فَأَجَبْتَهَا أَمَا لَجِسْمِي أَنَّهُ
بَعْدَ الرُّقَادِ وَعِبْرَةٌ مَا تُقْلِعُ	أودى بني فاعقبوني حشرة
فَتُخْرِمُوا وَلِكُلِّ جَنْبٍ مَضْرَعُ	سَبَقُوا هَوَى وَأَعْنَقُوا لِهَوَاهِمِ
وَإِخَالِ أَنِي لَأَحِقُّ مُسْتَبِيعُ	فغَبِرَتْ بَعْدَهُمْ بَعِيشٌ نَاصِبِ
وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَقْبَلَتْ لَا تُدْفَعُ	ولقد حَرَصْتُ بِأَنْ أَدَافِعَ عَنْهُمْ
أَلْفَيْتَ كُلَّ تَيْمَةٍ لَا تَنْفَعُ	وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا

ولو أردتُ سرِّدُ أسماء جميع الذين زهوا في ذلك العصر من شعراء الصنف الثالث لضاق المكان . فإن سأل سائل لأي سبب لا يُظهر شعرهم على وفرة تأثير الدين الإسلامي في أفكارهم وعواطفهم وموضوع قريضهم كأن أحوالهم ما تغيرت منذ انتهاء عصر الجاهلية قلتُ إن أهل البادية كانوا من أبعد الناس عن روح الإسلام ولا ميل لهم إلى تأمل أمور الدين وفهمها فصعب دخول الإيمان في قلوبهم فلم يزالوا إلى أيامنا موصوفين بقلَّة عواطفهم الدينية . ونزل فيهم في سورة التوبة (١) : « الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا

عدد ١٢٦ من طبعة أكسفورد سنة ١٩٢١] وتوجد ١٥ بيتاً من هذه القصيدة في شرح شواهد المعنى للسيوطي ص ٩٢ - ٩٣ من طبعة مصر ١٣٢٢ وتروى ثلاثة عشر بيتاً في كتاب الاستيعاب لابن عبد البر ج ٢ ص ٦٦٧ عدد ٢٩١٤ من طبعة حيدر آباد ١٣١٩ وفيه أيضاً ترجمة الشاعر (ص ٦٦٥ - ٦٦٧) و ٧ أبيات من شعر ييكي أبو ذؤيب فيه النبي وفي آخر هذه الأبيات تفاعل يشبه تفاعل الجاهلية .

(١) القرآن ٩ (سورة التوبة) : ٩٧ - ٩٩ فراجع أيضاً ٤٩ (سورة الحجرات) : ١٤ .

يَقْدَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ
يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمْ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ . وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ
عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ وَلَكِنْ قُلْتَ الْأَعْرَابُ

من هذا النوع الثاني فأغلب أهل الوبر لم يُسلموا إلا كارهين أو طامعين
فيما كانوا يرجونه من الربح والمنفعة والغنيمة فلم يعتبروا النبي إلا كأنه ملك
من الملوكة القادرين الأعزاء الذين لا يمكن مُعاداتهم . وحال أكثرهم كحال
بنى عامر بن صعصعة الذين لما وفدوا على النبي قال رئيسهم (١) :

يا محمد ما لي إن أسلمت ؟ قال لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين .
قال أنجعل لي الأمر من بعدك ؟ قال ليس ذلك لك ولا لقومك . قال أفجعل
لي الوبر ولك المدر ؟ قال لا ولكنني أجعل لك أعنة الخيل فإنك امرؤ فارس .
قال أوليست لي ؟ الأملأنها عليك نخيلاً ورجالاً . ثم وثى (٢) . - ومع قطع
النظر عما رأيناه من قلة ميلهم إلى جلاله الدين لا شك في أن لكراحتهم
تلك أسباباً خاصة . قد مر في إحدى الصحائف السابقة أن مراعاة سنة
أجدادهم كانت عند عرب الجاهلية أفضل الفضائل ومُعظم الأدب فظهر
لهم الإسلام بدعةً مكروهة لا يتبعها نيبال الناس كما قالت زوجة العباس
ابن مرداس حين بلغها خبر إسلامه (٣) :

لَعَمْرِي لَسِنُ تَابَعْتَ دِينَ مُحَمَّدٍ وفارقت إخوان الصفا والصنائع
لَبَدَلْتَ تِلْكَ النَّفْسَ ذُلًّا بِعِزَّةٍ غداة اختلاف المُرَهَّفات القواطع

(١) وهو عامر بن الطفيل الشاعر المشهور .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد في ٤٢ ، WELLHAUSEN, *skizzen und Vorarbeiten*,
[الطبقات ج ١ قسم ٢ ص ٥١ سطر ١٩ - ٢٣ من طبعة ليدن] .

(٣) كتاب الأغاني ج ١٣ ص ٦٦ من طبعة بولاق فراجع أيضاً GOLDZIHNER

أو كما قال كعب بن زهير وهو حينئذ وثني يذم أخاه بجيرا حين
أسلم^(١) :
(من الطويل)

ففارقمت أسباب الهدى واتبعته على أي شيء ويب غيرك ذلكا
على مذهب لم تُلغِ أمّا ولا أبّا عليه ولم تعرف عليه أنخا لكا

ففي تمسك العرب بسنن آبائهم نُزلت بضع آيات منها في سورة البقرة^(٢) :
« إِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا » .
وفي سورة المائدة^(٣) : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ
قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا » . وفي سورة الأعراف^(٤) : « وَإِذَا قَعَلُوا
فَاجِسَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا » . وفي سورة الزخرف^(٥) :
« بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهُتَدُونَ » . وفي سورة
لقمان^(٦) : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ
آبَاءَنَا » . - وفي بعض الأشياء أن الشريعة الإسلامية خالفت سنن العرب
القديمة مخالفة شديدة . كانت العرب أفخرَ الناس بأنسابهم محتقرين
من لم يكن منهم أو كان مغموز النسب متكبرين بالحسب الطويل فجاء
القرآن بما يدلُّ على مساواة الناس عند الله^(٧) : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ
مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ
أَتْقَاكُمْ » . - كان العرب يلدُّون من لم يأخذ ثأر أقاربه ولا يرد الشرَّ
بمثلِه أو بأكثر منه كما قال عمرو بن كلثوم في معلقته^(٨) :

(١) انظر شرح بانث سعاد للشيخ جمال الدين ابن هشام الأنصاري ص ٤ من طبعة ليبك
سنة ١٨٧١ - ١٨٧٤ بناية I. Guidi
(٢) القرآن ٢ (سورة البقرة) : ١٧٠ .
(٣) القرآن ٥ (سورة المائدة) : ١٠٤ .
(٤) القرآن ٧ (سورة الأعراف) : ٢٨ .
(٥) القرآن ٤٣ (سورة الزخرف) : ٢٢ .
(٦) القرآن ٣١ (لقمان) : ٢١ .
(٧) القرآن ٤٩ (الحجرات) : ١٣ .
(٨) معلقة عمرو بن كلثوم بيت ٥٣ .

أَلَا لَا يَجْهَلْنَ أَحَدٌ عَلَيْنَا | فَتَجْهَلُ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ

أما الإسلام فنصّح للناس بالعفو والحلم ومدح «الكاذمين الغيظ»
والعافين عن الناس^(١) بل أمر المؤمن : «ادْفَعِ بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ السُّيِّئَةِ»^(٢).
وكان الأعراب مولعين بشرب الخمر ولعب الميسر فجاء القرآن بتحريمها
وأمرهم بالصلاة والصيام وغير ذلك من الأحكام المتعبة لأبناء الفياق . فخلاصة
الأمر أنه كان البون الواسع بين قواعد المروءة على رأى الأعراب وبين كثير
من أحكام الإسلام^(٣) فلا عجب أن أهل البادية لم يعتنقوا الدين الجديد
إلا رغباً عنهم .

٤ - ولإتمام هذا الوصف الإجمالى لأدب العرب في أيام النبي والخلفاء
الراشدين يبقى على أن ألمح إلى نوع خاص من الشعر تليق به تسمية
شعر الفتوحات . قد تقدم أن عرب الجاهلية كانوا يخلدون مآثر قبائلهم
وذكر أيامهم في أبيات توارثها أهل كل قبيلة خلفاً عن سلف . فكذلك لما
فاضت الجيوش الإسلامية بأمواجها على ما هو خارج أنحاء جزيرة العرب وخفقت
ألوية الجنود المظفرة في أطراف النواحي الأعجمية وأقاصى الآفاق ، أخذت الأعراب
الكائنون في جملة المجاهدين يقولون الشعر وينشدون القوافي وضمناً لما قاسوا
من المتاعب وما شهدوا من الوقائع وما قطعوا من البلدان وما كان لهم من
البأس وثبات الجنان . فقال مثلاً قيس بن المكشوح المرادى مفتخرًا بقتله
رستم أمير جيوش الفرس في يوم القادسية سنة ١٦/٦٣٧^(٤) :

حَلَبْتُ الْخَيْلَ مِنْ صَنْعَاءَ تَرْدَى | بِكُلِّ مُدَجِّجِ كَاللَّبِيثِ سَامِ

(١) القرآن ٣ (آل عمران) : ١٢٤ . (٢) القرآن ٢٣ (المؤمنون) : ٩٦ .

(٣) راجع ما قاله الأستاذ Goldziher في المروءة والدين في كتابه *Muhammedanische Studien*

ج ١ ص ١ - ٣٩ .

(٤) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٢٦١ من طبعة ليدن ١٨٦٦ .

إلى وادى القرى قديار كلب
وجئن القادسية بعد شهر
فناهضنا هنادك جمع كسرى
فلما أن رأيت الخيل جالت
فأضرب رأسه فهوى صريعاً
وقد أبلى الإله هناك خيراً
إلى اليوموك فالبالد الشام
مُسومة دوابرها دوام
وأبناء المرازبة الكرام
قصدت لموقف الملك الهمام
بسيف لا أقل ولا كهام
وفعل الخير عند الله نام

فلو جمعنا ما ورد من مثل هذه الأشعار في كتاب فتوح البلدان
للبلاذرى وفي تاريخ الطبرى وفي كتاب معجم البلدان لياقوت الحموى
لألّفنا منها ديواناً .

٥ - ومن الكتب الكثيرة التداول حتى في أيامنا ديوان محتوي على قصائد
ومقطعات دينية منسوب إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب . لكنه كتاب
مختلق وهو مما صنعه أهل الشيعة لأغراضهم الخاصة . وعلى قول بعض أهل
السنة المتأدبين هو تأليف الشريف المرتضى أبي القاسم علي بن طاهر المتوفى
سنة ٤٣٦ / ١٠٤٤ . ونُسبت أيضاً أحياناً إلى الخليفة علي القصيدة الزينية في
الحكم والمواعظ . التي من قريض صالح بن عبد القدوس المقتول في سنة
١٦٧ هـ في أيام المهدي . أما ما روى من شعر علي بن أبي طالب في كتب
التاريخ وفي كتاب العمدة^(١) لابن وشيق فشيء يسير كله في الحماسة
ووصف الحروب .

٦ - أما المنشور المستظرف في عهد النبي والخلفاء الراشدين فلم يخرج عما
كان عليه في زمان الجاهلية من الحكم والمواعظ . والوصايا والحكايات ما عدا
الأحاديث النبوية . ولم يدون في ذلك العصر كتاب وإن كان بعض الناس

(١) كتاب العمدة ج ١ ص ١٤ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

يقيدون في بطون الصحائف شيئاً من أحاديث النبي ومن الحكم . وفن الخطابة لم يزل في رونقه القديم حتى نبغ فيه نفس النبي والخلفاء فمرّ فيما سبق ذكر نص مأخوذ من كتاب ابن سعد دال على ارتفاع منزلة الخطيب البليغ عند عرب القبائل وأهل المدن . ولكن لقلّة استعمال الكتابة لتسجيل المنثور لم يصل إلينا من نخطب ذلك العصر إلا شيء يسير جداً وربما وقع في هذا القليل نقص أو زيادة أو تغيير أو اختلاق . فخطبة الوداع مثلاً على عظيمة شأنها وعلو أفكارها ورفعة قائلها إنما نقلت بروايات مختلفة وعلى قطع متفرقة . وأقبح الأمر ما عرض لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب فإن أصحاب الأهواء من الفيرق الإسلامية اجترءوا على تزوير أقواله وعزّوا إليه جمّاً غفيراً من المواعظ . والحكم التي ليست له البتة . فقال المسعودي في مروج الذهب^(١) إن « الذي حفظ . الناس عنه من خطبه في سائر مقاماته أربعمئة خطبة ونيّف وثمانون خطبة يوردها على البديهة تداول الناس ذلك عنه قولاً وعملاً » ومما نسب إليه أيضاً كتاب نهج البلاغة الذي اختلف فيه بعض أهل السنة أهو للشريف المرتضى أبي القاسم علي بن طاهر المتوفى سنة ٤٣٦ / ١٠٤٤ م لأخيه الشريف المرضي^(٢) ، وعلى كل حال أنه ليس من كلام علي وإنما الذي جمعه ونسبه إليه هو الذي وضعه . وقال أبو عبد الله محمد الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ / ١٣٤٨ في كتاب ميزان الاعتدال^(٣) : « ومن طالع كتاب نهج البلاغة جزم بأنه مكذوب على أمير المؤمنين علي (رضه) فإن

(١) في الباب الرابع والثمانين ج ٤ ص ٤٤١ - ٤٤٢ من الطبعة الباريسية .

(٢) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٤٥٤ من طبعة غوتنجن أو عدد ١٦٦ من الطبقات المصرية .

(٣) كشف القنون لحاجي خليفة ج ٢ ص ٦٢٢ من الطبعة القسطنطينية سنة ١٣١١ في مادة

فيه السبُّ الصريح والحطُّ على السيِّدين أبي بكر وعمر . . - وأحياناً
عُزِيَ إليه كتاب الجفْر والحجاب العظيم وغير ذلك ممَّا هو برىء منه كلياً .
ومن خطباء ذلك العصر سَحْبَانُ بن زُفَرٍ الوائليّ من قبيلة وائل باهلة
وُلِدَ في زمان الجاهليّة ومات مسلماً سنة ٤٤ هـ وضُرب به المثل في البلاغة
والبيان فقليل أخطبُ مِنْ سَحْبَانٍ وَائِلٍ أو أَنْطَقُ مِنْ سَحْبَانٍ . وما رُوي عنه
في كتاب الأمثال للميِّداني وفي شرح الشُّرَيْشِيِّ على المقامات الحريرية
أشهر من أن أحتاجَ إلى ذكره هنا .

الباب الرابع

الشعر في عصر بني أمية

- ١ - الغزل في مدن الحجاز - ٢ - النسيب عند الأعراب - ٣ - الشعر على أسلوب فحولة الجاهلية - ٤ - الأراجيز - ٥ - شعر الجنود - ٦ - شعر الفتن السياسية والدينية - ٧ - شعر أهل الحضر في مدن العراق والشام - ٨ - الشعر القصصي النبوي - ٩ - المراثي .

فلتأني الآن نظرة على الآداب العربية في أيام دولة بني أمية .

لا ريب في أن نقل دار الخلافة من الحجاز إلى دمشق سنة ٦٦١ هـ كان ذا عواقب متنوعة مهمة يصعب تقديرها حقَّ القدر ولكن البحث عنها وبيانها يحقُّ من يعنى بتاريخ الأمم الإسلامية . فأقتصر هنا على ذكر أن ذلك النقل الذي غيّر به مركز السياسة الإسلامية ثم الفتن التي حدثت بين بني أمية وبين أهل الحجاز في أيام الحسين وعبد الله بن الزبير وتوسيع حدود المملكة واشتغال كثير من أهل البادية بالفتوح والقتال في الأنحاء البعيدة كانت سبباً في وقوع اختلاف محسوس بين سير الآداب في جزيرة العرب لاسيما الحجاز وسيرها في الشام والعراق والجزيرة من قبل منتصف القرن الأول إلى أواخره . فلتحصيل الوضوح في هذا البيان المختصر أرى من المناسب تقسيم الشعر في أيام الدولة الأموية تسعة أقسام أو أصناف :

- ١ - الغزل في مدن الحجاز - ٢ - الشعر الغرामी والتشبيب عند الأعراب .
- ٣ - الشعر على الأسلوب القديم المؤلف عند فحول شعراء الجاهلية .
- ٤ - الأراجيز . ٥ - الشعر المتعلق بالاغتراب والفتوح وهو شعر الجنود .

- ٦- الشعر المتعلق بالفتن والخلافات الدينية والسياسية . ٧- الغزل
والخمريات والمدائح بدمشق . ٨- الشعر القصصي اليمني . ٩- المراثي .
١- فأبتدى بالصنف الأول أى الغزل فى المدن الحجازية .

إنَّ محبة إلف النساء وهواهنَّ وفرط الصبابة والشوق كانت فى كلِّ زمن
وعند كلِّ أمة مجالاً واسعاً وميداناً أفبَح لقريض الشعر فلم تخلُ الأمم
السامية عن أشعار معبرة عما فى نفوسهم وقلوبهم من شدة الغرام أو الميل
إلى التشبيب والتغزل بل ضربوا فى ذلك بسهم مُصيب كما يتضح مثلاً
من سفر نشيد الأناشيد المُدرَج فى كتب العبرانيين المقدسة . فمن طالع
أشعار العرب القديمة استغرب قلَّة ما فيها من الأبيات المختصة بالتشبيب
لأنَّ أكثر ما يُروى من هذا الباب أُلِّقَ بتسمية النسب منه بتسمية الغزل
إذا امتثلنا فى تعريفهما قولَ أبى زكرياء يحيى التبريزى فى شرح حماسة
أبى تمام (١) : «النسب ذكر الشاعر المرأة بالحسن والإخبار عن تصرف
هواها به وليس هو الغزل وإنما الغزل الاشتهار بمودات النساء والصبوة إليهنَّ
والنسب ذكر ذلك والخبر عنه» (٢) ومن الجدير بالذكر أنَّ فحول شعراء
الجاهلية لم يُفردوا للنسب أشعاراً طويلة خاصة فاقتصروا على جعله فى
أول قصائدهم يشكُّون فيه شدة الوجد وألم الفراق أو يصفون ما لمعشوقتهم
من الجمال . فإن ذهب أحدهم أحياناً إلى التغزل الحقيقى حصرة فى بيتين
أو ثلاثة من نسب القصيدة ولم يُدرجه فى وسطها إلا بأنذر النادر كما
فعله عنتر بن شداد فى معلقته حين قال نحو أواخرها :

يا شاة ما قنص ليمن حلت له حرمت على وليتها لم تحرم
فبعثت جاريتى فقلت لها أذهبي فتجسسى أخبارها لى وأعلمى

(١) شرح التبريزى على حماسة أبى تمام ص ٥٣٨ من طبعة بن أوج ص ١١٢ من طبعة بولاق .
(٢) راجع أيضاً نقد الشعر لقدامة ص ٤٢ - ٤٣ من الطبعة القسطنطينية سنة ١٣٠٢ .

قالت رأيتُ من ا لأعادي غيرةً والشاةُ مُمكنةٌ لمن هو مُرتَم.
وكأنما ألتفتتُ بجديدِ جدابةٍ رَشَلُ من الغزلانِ حرُّ أرثَم.
وبعد هذه الأبيات الأربعة يرجع موضوعُ المعلقة إلى غير الغزل والنسيب.
أما مقطعات الشعر الجاهليّ المختصةُ بالتشبيب المنقولةُ إلينا في كتب الأدب
واللغة فقليلةٌ جداً وهي كما قلته من باب النسيب لا من باب التغزل^(١).
فلهذا الأمر الغريب على رأي سبباني : الأول أن التعبير عما في القلب
من الهوى والعشق والشوق يستدعي كلاماً ليناً سهلاً المأخذ بعيداً
عن الألفاظ الغريبة قريب المعاني فاستنكفت من جمعه علماء اللغة في القرن
الثاني والثالث للهجرة لأنَّ غرضهم من لَمّ الأشعار القديمة وحفظ شذراتها
كان خصوصاً الغريب من الألفاظ. والمهم من الأخبار . والسبب الثاني وهو
الأخطر أن الشعر في التشبيب المحض كان على ظني عند حرب الجاهلية
نوعاً عامياً تعاطاه أيضاً رعاغُ الناس فأهانته نوابغُ الشعراء وأهملوه وامتنعوا
عن قوله قانعين بوضع أبيات النسيب في أول قصائدهم . ولعل سبباً ثالثاً
أيضاً عَمِلَ في كراهة الشعراء المجيدين المُفْلِقين للغزل وهو علو منزلة النظم
في حياة العرب الاجتماعية لأنَّ غاية الشعر العالي إنَّما كان عندهم تعظيم
الأكابر وتخليد ذكر مآثر القبائل والافتخار بالحماسة أو المكرّمات وهجاء
الأعداء فلذلك لم يكن التشبيب المحض ممّا عُدَّ من مقاصد الشعر السامية .
أما في خلافة عليّ بن أبي طالب وما يتبعها من الزمان فنجدُ بمكة والمدينة
نوعاً جديداً من الشعر أخذ يزهو بهما بَعَثَةً بل يغلب على سائر الأنواع فكاد

(١) كذلك نجد في أبيات عامر بن الحارث النخعي الشاعر الجاهلي الملقب بجبران العود غزلاً يشابه
غزل عمر بن أبي ربيعة الشاعر الأموي الذي سيأتي ذكره، فراجع القصيدة المروية في آخر ديوان
جريد المطبوع بمصر سنة ١٣١٣ ج ٢ ص ١٩٩ - ٢١١ [أو ديوان جبران العود ص ١٣ - ١٩
من طبعة مصر ١٣٥٠] وراجع أبياته المروية في أمالي القالي ج ٣ ص ١٠٣ - ١٠٤ من طبعة
يولاق ١٣٢٤ [أو ج ٣ ص ١٠٢ من طبعة مصر ١٣٤٤] . أما سبب لقبه بجبران العود فانظر
مقاله عبد القادر البغدادي في خزائنه ج ٤ ص ١٩٨ وابن قتيبة في كتاب الشعر ص ٤٥٠ من طبعة ليدن .

أَجْرود الشعراء في مدن الحجاز لا يتعاطون غيره خلافاً لغيرهم فيما قبل . وهذا النوع الجديد هو الغزل ولعل أول من اشتهر به أبو دَهْبَلِ الْجُمَحِي من أشرف الناس بمكة قال الشعر في آخر خلافة علي ومدح معاوية وعبد الله ابن الزبير وغيرهما من الأكابر . وهو له لعمرة مشهور قيل في كتاب الأغاني^(١) « إِنَّه كانت تتحدث به أشرف قريش في مجالسها وسوق الحجاز في أسواقها والسقاة في مواردها » . وما صاغه أبو دَهْبَلِ من الشعر فيها رقيقٌ ظريف بعيد عن أسلوب نسيب أهل البادية المعروف . ويروى أنه نظر عرضاً إلى عاتكة بنت الخليفة معاوية في حجتها وقال فيها أبياتاً شاعت بمكة وشهرت فغنى فيها المغنون فلما صدرت عاتكة عن مكة « خرج معها إلى الشام ونزل قريباً منها فكانت تُعاهدُهُ بالبرِّ واللفظ حتى وردت دمشق وورد معها فانقطعت عن لقاءه^(٢) » . فأنشد شعراً مشهوراً بلغ معاوية الذي أحضر أبا دَهْبَلِ ولامه وقال له : « أَمَا من جهتي فلا خَوْفَ عليك لأنني أعلم صيانة ابنتي نفسها وأعرف أن فتیان الشعر لم يتركوا أن يقولوا النسيب في كل من جاز أن يقولوه فيه وكل من لم يَجُزْ وإنما أكره لك جوار يزيد^(٣) وأخاف عليك وثباتيه . وإنما أراد معاوية أن يهرب أبو دَهْبَلِ . وفي ذلك قصة طويلة وأشعار^(٤) جارية مجرى غير مجرى نسيب الجاهلية . ثم سلك غيره من نوابغ الشعراء بمكة هذا المسلك المتدع فقليل : « كانت العرب تفضل قريشاً في كل شيء إلا الشعر فلما نجم في قريش عمر بن أبي ربيعة والحارث بن خالد المخزومي والعرجي وأبو دَهْبَلِ وعبد الله بن قيس الرقييات أقزمت لها العرب بالشعر أيضاً^(٥) .

(١) كتاب الأغاني ج ٦ ص ١٥٦ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغاني ج ٦ ص ١٥٨ - ١٥٩ من طبعة بولاق .

(٣) وهو ابن معاوية وأخو عاتكة .

(٤) كتاب الأغاني ج ٦ ص ١٥٩ - ١٦١ من طبعة بولاق .

(٥) كتاب الأغاني ج ٢ ص ١٠١ وراجع أيضاً ج ١ ص ٣٥ من طبعة بولاق .

وإن سألتهم عن سبب هذا التقلب الشديد في أساليب الشعر في المدن الحجازية قلت : لا يخفى على أحد أن أكثر رجال السياسة والحرب قد تركوا جزيرة العرب في أواخر خلافة علي بن أبي طالب فبقيت بالمدينة أهل التقى والعبادة والنسك من الأنصار والمهاجرين كأن الدنيا في الشام والدين بمدينة النبي . وكثرت في ذلك العصر ثروة الحرمين ولا سيما مكة لتوسع العلاتق والمصارف التجارية ولزيادة الوافدين عليهما تأدية لفريضة الحج . فبزيادة الثروة والنعمة واتساع العيش زاد أيضاً ما تنزع النفوس إليه من الشهوات والملاذ والتنعيم بأنواع الترف وفسدت أخلاق الشبان من البيوتات الكبيرة الذين لم يكن لهم بالحجاز مجال واسع للاعتناء بأمر السياسة والحرب ولا بالعلوم العقلية التي لم تنزل مجهولة عند العرب في ذلك الزمان فاشتد ميلهم إلى التظرف والتغزل وسماع الغناء وحضور الملاحى . وجلبت إلى مكة والمدينة القينات المغنيات بالرومى أو بالفارسية ثم أخذت الموالى يغنون بالعربية أيضاً فقبل إن أصل الغناء أربعة نفر مكّيّان ومدنيّان فالمكّيّان ابن سريج وابن مخرز، والمدنيّان معبد ومالك [بن أبي السّمح] (١) ومنهم بل أقدمهم طويس المولود يوم وفاة النبي وهو أول من غنى بالعربية بالمدينة وأول من ألقى الخنث بها وكان ظريفاً عالماً بأمر المدينة وأنساب أهلها (٢) ومنهم أيضاً الغرييض المغنى بمكة والمدينة صاحب عمر بن أبي ربيعة

(١) كتاب الأغاني ج ١ ص ٩٨ من طبعة بولاق - وابن سريج كان مولده في خلافة عمر ابن الخطاب وأخذ يغنى في زمن عثمان بن عفان ومات في خلافة هشام بن عبد الملك $\frac{100}{724} - \frac{125}{743}$ وابن مخرز معاصر له - ومعبد بن رهب غنى في أول دولة بني أمية ومات في أيام الوليد بن يزيد $\frac{126}{744} - \frac{158}{775}$ بدمشق - ومالك بن أبي السّمح مات في أيام المنصور $\frac{136}{754} - \frac{158}{775}$.

(٢) كتاب الأغاني ج ٢ ص ١٧٠ من طبعة بولاق - ويقال في كتاب الأغاني ج ٧ ص ١٨٨ أن سائب خاثر أول من غنى بالعربية ولم يكن يضرب بالعود إنما كان يقرع بقضيب وأخذ عنه ابن سريج وجميلة ومعبد وحرمة الميلاء وغيرهم - كان سائب مولد بني ليث وقتل في يوم الحرة $\frac{63}{683}$.

كثرت فيه الحكايات ومات في خلافة سليمان بن عبد الملك (٧١٥ - ٧١٧) ،
ومنهم كثيرون لا أحتاج إلى سرد أسماهم هنا . ومما يدل على سعة العيش
بمكة في النصف الثاني من القرن الأول ما يروى في كتاب الأغاني (١) أن
عبد الحكم بن عمرو بن عبد الله الجمحي قد اتخذ بيتاً فجعل فيه
شطرنجات وتردات (٢) وقِرقات (٣) ودفاتر فيها من كل علم وجعل في الجدار
أوتاداً فمن جاء علق ثيابه على وتد منها ثم جرّ دفتراً فقرأه أو بعض
ما يلعب به فليعب به مع بعضهم . وفي وادي العقيق الذي كان منتزه
أهل المدينة في أيام الربيع والمطر (٤) أو في منى وسائر نواحي مكة كان
المتظرفون من الفتيان لا سيما في موسم الحج ينتظرون ويلتقون النساء
والبنات الحياتر ويحدثون ويتغزلون بهن . فإن أردتم مثلاً مما كان قدر
كريمات النساء عند أكابر مكة والمتغزلين فهاكم ما يروى في كتاب الأغاني
من أخبار الحارث بن خالد بن العاص المخزومي وهو أحد نوابغ شعراء قريش
الغزليين السابق ذكرهم أخو عكرمة بن خالد المخزومي وهو محدث جليل من
وجوه التابعين . إن عبد الملك سنة ٧٥ ولي الحارث إمارة مكة فحج بالناس
وحجّت عائشة بنت طلحة عامته وكان الحارث يهواها فأرسلت إليه أخيراً
الصلاة حتى أفرغ من طوافي . فأمر المؤذنين فأخروا الصلاة حتى فرغت
من طوافها . ثم أقيمت الصلاة فصلى بالناس . وأنكر أهل الموسم ذلك من
فعله وأعظمه فعزله وكتب إليه يؤنبه فيما فعل فقال ما أهون والله غضبه إذا

(١) كتاب الأغاني ج ٤ ص ٥٢ .

(٢) الرد هو ما يعرف اليوم بالطاولة .

(٣) قِرقات جمع قرق وهو لعبة للصبيان فراجع لسان العرب ج ١٢ ص ١٩٨ من طبعة بولاق
١٣٠٠ - ١٣٠٧ وأقرب الموارد لسعيد الشرتوني ص ٩٩٠ من طبعة بيروت ١٨٩٩ .

(٤) كتاب الأغاني ج ٢ ص ١٧٢ سطر ٢٤ فراجع أيضاً ج ١ ص ٦٦ سطر ٧ من طبعة بولاق .

رَضِيَتْ وَاللَّهِ لِيَوْمٍ لَمْ تَصْرُغْ مِنْ طَوَافِهَا إِلَى اللَّيْلِ لِأَخْرَجْتُ الصَّلَاةَ إِلَى اللَّيْلِ» (١) .
 وله في ذلك شعر مشهور (٢) . وربما كان فتیان مكة من الأغنياء الظرفاء
 يرتحلون إلى المدينة لالتقاء ظرفائها وظرائفها ومن هذا القبيل ما روى مُصعب
 الزبيري قال (٣) : « اجتمع نسوة فذكرن عمر بن أبي ربيعة (٤) وشعره وظرفه
 ومجلسه وحديثه فتشوقن إليه وتمنينه فقالت سَكِينَةُ [بنت الحسين بن علي
 ابن أبي طالب] أنا لَكُنُّ به . فبعثت إليه رسولا أن يوافي الصَّوْرَيْنِ (٥) ليلة
 سمَّتها فوافاهن على رواحله فحدثن حتى طلع الفجر وحان انصرافهن . فقال
 لهن والله إنني لمحتاج إلى زيارة قبر النبي (صلى الله عليه وسلم) والصلاة في مسجده
 ولكنني لا أخلط بزيارتكن شيئا ثم انصرف إلى مكة فقال في ذلك شعرا
 معروفا (٦) . ومما يُروى أيضا من هذا الباب (٧) : « واعد عمر بن
 أبي ربيعة نسوة من قريش إلى العقيق ليتحدثن معه فخرج إليهن ومعه الغريض
 فتحدثوا مليا ومطروا فقام عمر والغريض وجاريتان للنسوة فأظلوا عليهن
 بحطرفة (٨) وبردين له حتى استترن من المطر حتى سكن ثم انصرفن »
 فقال عمر في ذلك أحد أشعاره (٩) . - وحسبنا هذا بياناً لأحوال عيشة
 الظرفاء بالحرمين . فإن كان الأمر كذلك فلا عجب في ابتداء نوع جديد
 من الشعر لم يسبق إليه فحول الجاهلية ولا أهل البادية ثم لا عجب أن

(١) كتاب الأغاني ج ٣ ص ١٠٣ وراجع ج ٣ ص ١١٣ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغاني ج ٣ ص ١١٣ - ١١٤ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب الأغاني ج ١ ص ٤٧ . (٤) وهو مقيم بمكة .

(٥) الصوران موضع بجوار المدينة المنورة .

(٦) ديوان عمر بن أبي ربيعة عدد ٢١٨ من طبعة ليبسك ١٩٠٢ .

(٧) كتاب الأغاني ج ١ ص ٦٦ من طبعة بولاق .

(٨) رداء من خزمرين ذو أعلام .

(٩) ديوان عدد ٥٢ من الطبعة المذكورة .

أكثر شعراء المدن الحجازية لم يتجاوزوا الغزل إلى المديح ولا الهجاء وتبركوا أسلوب القصيدة القديمة . ثم شاع حب التشبيب في البلاد البعيدة عن الحجاز وغلب في شعر بعض من أراد حفظ الأساليب القديمة والتكسب بالمديح فيروى في كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة^(١) أن « بعض الرُّجَّاز أتى نصر بن سيار والى خراسان لبني أمية فمدحه بقصيدة تشبيها مائة بيت ومديحها عشرة أبيات فقال نصر : والله ما بقيت كلمة عذبة ولا معنى لطيفاً إلا وقد شغلته عن مديحي بتشبيبك فإن أردت مديحي فاقتصد في النسب . فأتاه فأنشده :

هل تعرف الدارَ لامَ الغمرِ دَعُ ذَا وَخَبْرٌ مِدْحَةٌ فِي نَصْرِ

فقال نصر لا ذلك ولا هذا ولكن بين الأمرين » .

وأشهر شعراء الحرمين في ذلك العصر وأنسبهم عمر بن أبي ربيعة المخزومي المذكور وُلِدَ في ليلة قُتِلَ عمر بن الخطاب أعني في ٢٦ ذى الحجة من سنة ٢٣ ومات على القول الأرجح سنة ١٠١ . أما قول البعض إن عمر بن عبدالعزيز نفاه إلى جزيرة دهلك القريبة من مدينة مصوِّع على سواحل البحر الأحمر الغربية فخطأ نشأ من خلط . وقع بينه وبين صاحبه الأحوص . وكان عمر مفرطاً في التشبيب بالنساء فكلَّ جميلة رآها في الشوارع أو في الحجج وقعت في نفسه فذهب عقله عليها فلم يقل شيئاً من الشعر إلا في النسب والغزل فكثيراً ما أظهر في أبيانه أسماء المحرائر اللواتي هوهنَّ مثل زينب بنت موسى ولُبَّابة بنت عبد الله وكلثوم بنت سعد وفاطمة بنت عبد الملك وثريا بنت عليّ وبغوم وأسماء وغيرهنَّ وربما كاد يشين عرضهنَّ . وفي القرن

(١) ص ١٥ من طبعة ليدن ، وراجع أيضاً كتاب العمدة لابن رُشيق ج ٢ ص ٩٩ من طبعة

الثاني خاف بعض الناس على الفتيات ما يمكن أن يبيجه شعره لقلوبهن فتُنسب في ذلك إلى الزبير بن بكار هذه الرواية^(١) : « قال حدثني ظبية مولاة فاطمة بنت عمر بن مُصعب قالت : مررتُ بِجَدِّكَ عبد الله بن مصعب وأنا داخلةُ منزله وهو بفنائنه وهي دفتر فقال ما هذا معكٍ ودعاني فجثته وقلت شعر عمر بن أبي ربيعة فقال ويحكٍ تدخلين على النساء بشعر عمر ابن أبي ربيعة إن لشعره لَمَوْقِعاً من القلوب ومدخلًا لطيفاً لو كان الشعرُ يسحر لكان هو فارجعي به . قالت ففعلتُ » . ولكن قال أيضاً الزبير بن بكار المتوفى سنة ٢٥٦/٨٧ : « أدركتُ مشيخة من قريش لا يزنون بعمر بن أبي ربيعة شاعراً من أهل دهره في النسب ويستحسنون منه ما كانوا يستحبون من غيره من مدح نفسه والتحلّي بمودته والابتيار^(٢) . وجماعة من الأدباء أثنوا على شعره كلّ الثناء وقالوا إن عمر أشعر قريش لأنه « رَقٌ معناه ولطفٌ مدخلُهُ وسهلٌ مخرجهُ ومتمنٌ حشوهُ وتعطفُ حواشيه وأنارت معانيه وأعرب عن حاجته^(٣) » . وممن بلغ الغاية في الإطراء مُصعب بن عبد الله بن مصعب حيث قال^(٤) : « راق عمر بن أبي ربيعة الناس وفاق نظوائه وبرعهم بسهولة الشعر وشدة الأسر وحسن الوصف ودقة المعنى وصواب المصدر والقصد للحاجة واستنطاق الرُبْع وإنطاق القلب وحسن العزاء ومخاطبة النساء وعفة المقال وقلة الانتقال وإثبات الحجّة وترجيح الشك في موضع اليقين وطلاوة الاعتذار وفتح الغزل ونهج العلل وعطف المسامحة على العُدال وحسن التفجع وبُخل

(١) كتاب الأغاني ج ١ ص ٣٧ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغاني ج ١ ص ٥٢ - ٥٢ من طبعة بولاق وقال صاحب كتاب الأغاني بعد هذا النص « والابتيار أن يفعل الإنسان الشيء فيذكره ويفخر به والابتهار أن يقول ما لم يفعل » .

(٣) كتاب الأغاني ج ١ ص ٤٨ من طبعة بولاق وأمال القائل ج ٢ ص ١٧ من طبعة بولاق ١٣٢٤ [أوج ٣ ص ١٥ من طبعة مصر ١٣٤٤] .

(٤) كتاب الأغاني ج ١ ص ٥٣ من طبعة بولاق .

المنازل واختصار الخبر وصدق الصفاء إن قدح أورى وإن اعتذر أبرى وإن
تشكى أشجى وأقدم عن خبيرة ولم يعتذر بغيره وأسّر النوم وغمّ الطير وأغد
السير وحير ماء الشباب وسهل وقول وقاس الهوى فأرني وعصى وأخلى وحالف
بسمعه وطرفه وأبرص بنعت الرسل وحذروا أعلن الحبّ وأسّر وبطن به وأظهره
وألحّ وأسفت « إلخ . ومن العجربى بالاعتبار أنّ شعر عمر بن أبي ربيعة
وأصحابه الحجازيين مع مداره على الغزل فقط. ومع قربه غير مرة من الخلاعة
لم ينحط. أبداً إلى الفحش والمجون المحض الكثير وجوده في غزل شعراء عهد
العباسيين ولكن ليس هنا موضع إيضاح سبب ذلك . ثمّ من العجدير
بالذكر أيضاً أنّ عمر بن أبي ربيعة وأكثر شعراء الحجاز لا سيما مكّة في زمن
الأمويين إلى أوائل القرن الثاني امتنعوا عن باب الخمريات في شعرهم امتناعاً
تماماً ولم يذكروا الخمر إلا في التشابيه مثل قول عمر بن أبي ربيعة (١) :

تَنَكَّلُ عَنْ وَاضِحِ الْأَنْيَابِ مُتَسِقٍ عَذِبِ الْمَقْبَلِ مَصْقُولِ لَهُ أُشْرُ
كَالْمِسْكِ شَيْبَ بَدْوَبِ النَّحْلِ يَخْلِطُهُ ثَلْجُ بَصْهَاءِ مِمَّا عَتَقَتْ جَدْرُ
أو مثل قوله (٢) :

إِذَا ابْتَسَمْتُ قُلْتُ أَنْكَلَالُ غَمَامَةٍ خَفَى بَرُّقُهَا فِي عَارِضٍ مَتَهَلِّلِ
كَأَنَّ سَحِيقَ الْمِسْكِ خَالَطَ طَعْمَهُ وَرِيحَ الْخُزَامِيِّ فِي جَدِيدِ الْقَرْنَفْلِ
بَصْهَاءِ دِرْيَاقِ الْمُدَامِ كَأَنَّهَا إِذَا مَا صَفَا رَاوَوْقُهَا مَاءُ مَفْصِلِ

وذلك مع أنّ شرب الخمر غير مجهول في ذلك العصر بالمدينة (٣) فكان
مثلاً الوليد بن عثمان بن عفان والوليد بن عتبة بن أبي سفيان وعبد الرحمن

(١) ديوان عدد ٥٠٥، بيت ١٣ - ١٤ من الطبعة المذكورة . وجدر قرية بين حمص وسامية تنسب
إليها الخمر . انظر معجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٣٩ من طبعة أوربا .
(٢) ديوان عدد ١٩٧ بيت ١١ إلى ١٣ من الطبعة المذكورة .
(٣) راجع

LAMMENS, *Etudes sur le règne du calife omayyade Mo'awia Ier, Beirut*, راجع

ابن أُرطاة المعروف بابن سَيْحان وَجُبَيْر بن أَيْمَن وغيرهم من الخواصِّ معاقرين للخمر متنادمين على الشراب . بيد أنه لم يذهب إلى مدحه إلا من ليس من الفحول المشهورين مثل ابن سَيْحان المذكور القائل الشعر في الشراب والغزل والفخر والمديح وله مع ابن عمه في شرب الخمر قصّة غريبة وأبيات (١) أو مثل عبد الله بن أبي مَعْقِل بن نَهَيْك بن إساف الأنصاريّ القائل (٢) :

فلولا ثلاثٌ هُنَّ من عيشة الفتي وجدك لم أحفل متى قام رامس
فمنهنَّ سبقي العاذلاتِ بشربة كأنَّ أخواها مَطْلِعَ الشمسِ ناعس
ومنهنَّ تجريدُ الكواعبِ كالدمي إذا أبتزَّ عن أكفاليهنَّ الملابس
ومنهنَّ تقريظُ الجوادِ عِنانهُ إذا استبقَّ الشَّخصَ الخفيّ الفوارس

ويروى محمد بن سلام الجُمحيّ ما نصه (٣) : « وكان السريّ بن عبد الرحمن ينادم [بالمدينة] عتير بن سهل بن عبد الرحمن بن عوف وَجُبَيْر بن أَيْمَن بن أمّ أيمن مولى النبيّ (صلعم) وخالد بن أبي أيوب الأنصاريّ وكانوا يشربون النبيذ وكلّهم كان على ذلك مقبول الشهادة جليل القدر مستورا فقال السريّ :

إذا أنت نادمت العتير وذا الندي جبيرا ونازعت الزجاجة خالدا
أمنتَ بإذن الله أن تُقرَعَ العصا وأن يُنْبِهُوا من نومة السكر راقدا
فقالوا قبّحك الله ماذا أردت إلى التنبيه علينا والإذاعة لِسِرِّنا إنك لحقيق
أن لا ننادمك . قال والله ما أردت بك سوا ولا ولكنه شعر طَفَحَ فَعُقَّتْهُ عن
صدرى . قال وخالد بن أبي أيوب الذي يقول :

(١) كتاب الأغاني ج ٢ ص ٨٦ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٩٣ من طبعة ليدن ، وراجع كتاب الأغاني ج ٢ ص ١١٨ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب الأغاني ج ١٨ ص ٦٦ من طبعة بولاق .

أَلَا سَقَى كَأْسِي وَدَغَ قَوْلَ مَنْ لَحَى وَرَوَّ عِظَامًا قَصْرَهْنَ إِلَى بَيْتِي
فَإِنَّ بَطَاءَ الْكَاسِ مَوْتُ وَحَبَسَهَا وَإِنَّ دِرَاكَ الْكَاسِ عِنْدِي هُوَ الْحَيَا
فلنرجع إلى سياق الكلام . لو أردنا ذكر شيء من أخبار جميع الذين
ذهبوا مذهب عمر بن أبي ربيعة في مدن الحجاز في العصر الأموي لاحتجنا
إلى استغراق مدة دروس . فحسبنا ذكر أسماء بعضهم منهم الأخوص المدني
الأنصاري الذي مات جده شهيداً يوم الرجيع في السنة الرابعة للهجرة ونحوه
يوم أخذ فلماً سمع يوماً سُكَيْنَةَ بنت الحسين تفتخر بقرايتها بالنبي قال (١) :

فَخَرَّتْ وَانْتَمَتْ فَعَمَلْتُ ذَرِينِي لَيْسَ جَهْلٌ أَتَيْتِهِ بِبَدِيعِ
فَأَنَا ابْنُ الَّذِي حَمَتُ لَحْمَهُ الدُّبُّ رُ قَتِيلِ اللَّحْيَانِ يَوْمَ الرَّجِيعِ
غَسَلَتْ خَالِيَّ الْمَلَائِكَةُ الْأَبْرَ رَارٌ مَيْتًا طُوبَى لَهُ مِنْ صَرِيعِ

ولكن إن قطعنا النظر عن ميراثه لمعاوية التي قال فيها (٢) :

مَلِكٌ تَدِينُ لَهُ الْمَلُوكُ مَبَارِكٌ كَادَتْ لَهَيْبَتِهِ الْعِبَالُ تَزُولُ
تُجَبِّي لَهُ بَلْخٌ وَدَجَلَةٌ كُلُّهَا وَهِيَ الْفِرَاتُ وَمَا سَتَى وَالذَّيْلُ

وعن أبيات يعاتب بها عمر بن عبد العزيز (٣) ، لم يكن عيشه وشعره إلا
في الغزل . فمن المعروف أن عمر بن عبد العزيز نفاه إلى جزيرة دهلوك لفرط
تشبيهه بالنساء ذوات الأخطار من أهل المدينة . ثم عُفِيَ عنه . ومات بدمشق
بعد المائة بسنين قليلة . ولسان حال عيشته ما قاله في أحد أشعاره (٤) :

أَلَا لَا تَلُمُّهُ الْيَوْمَ أَنْ يَتَبَلَّدَا فَقَدْ غَلِبَ الْمَحْزُونُ أَنْ يَتَجَلَّدَا

(١) كتاب الأغاني ج ٤ ص ٤٣ من طبعة بولاق .

(٢) مروج الذهب للمسعودي في الباب الثاني والتسعين ج ٥ ص ١٥٨ من الطبعة الباريسية .

(٣) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣٣٠ - ٣٣١ من طبعة لندن .

(٤) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٣١ وكتاب الأغاني ج ١٣ ص ١٥٩ من طبعة بولاق .

وما العيشُ إلا ما تلذُّ وتشتهي وإن لام فيه ذو الشنانِ وفندا
بكييتُ لصبأ جهداً فمن شاء لآني ومن شاء وآسى في البكاء وأسعدا
ولآني وإن عيرتُ في طلبِ الصبأ لأعلمُ أني لستُ في الحبِّ أوحدًا
إذا كنتَ عزهاةً عن اللّهُو والصبأ فكُن حَجْرًا من يابس الصخرِ جلمدًا

ومن شعراء قريش بمكة المشهورين بالغزل الناحين نحو عمر بن أبي ربيعة في ذلك المُجيدين العرَجِي^(١) وهو عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان من نسل عثمان أمير المؤمنين وهو أيضاً ممن ذكروا نساء قريش في شعرهم وشببوا بالحاجات كما قال^(٢) (من بحر الطويل) :

أماطت كساء الخَزَّ عن حُرِّ وجهها وأذنتُ على الخدين بُردًا مهلهلاً
من اللاء لم يحججن يَبغين حِسبة ولكن ليقتلن البرىء المغفلاً
أو كما قال^(٣) في جيِّدائه أمَّ محمد بن هشام أعني أم خال الخليفة هشام بن عبد الملك (٧٢٤ - ١٢٥) :

عُوجي علينا ربَّة الهودج إنكِ إلا تفعلِي نخرَجِي
أنى أربحتِ لي يعانِية إحدى بنى الحرثِ من مدحجِ
نلبتُ حولاً كاملاً كلُّه ما نلتني إلا على منهجِ
في الحجِّ إن حجتِ وماذا مِنِّي وأمله إن هي لم تحججِ

وذكرُ النساء في الحجِّ كثير في أشعار أهل الحجاز أيام بنى أمية فمن

(١) مات بمكة في أيام هشام بن عبد الملك .

(٢) كتاب الأغاني ج ١ ص ١٦١ من طبعة بولاق - ماط : أبعد . وحر الوجه : ما بدا من الوجنة . وحسبة الأجر والثواب .

(٣) كتاب الأغاني ج ١ ص ١٦٢ وج ٣ ص ١١٦ من طبعة بولاق وفي الكامل للمبرد ص ٣٩١ من طبعة ليسانس سنة ١٨٦٤ إلى ١٨٩٢ أوج ٢ ص ٢٥ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٤ الأبيات مروية بغير اسم الشاعر .

هذا القبيل شعر مشهور لمحمد بن عبد الله النعميري من أهل الطائف قاله^(١) في زينب بنت يوسف بن الحكم أخت الحجاج بن يوسف فاستحسنه الناس في ذلك الزمان ف قيل إن سعيد بن المسيب أحد الفقهاء السبعة بالمدينة المتوفى في أواخر القرن الأول مر في بعض أزقة مكة فسمع رجلاً يغني بذلك الشعر فلما وصل الغناء إلى البيت :

تَضَوَّعَ مِسْكَاً بَطْنُ نَعْمَانَ إِذْ مَشَتْ بِهِ زَيْنَبُ فِي نِسْوَةٍ عَطِرَاتِ

ضرب برجله وقال : هذا والله مما يلدُّ استماعه^(٢). وللنعميري أشعار كثيرة في زينب يتشبه بها وله قطعة يرثيها فيها فلم يُعرَف له مما غير هذا الغزل إلا أبيات وصف فيها خوفه من الحجاج بن يوسف وهروبه منه إلى اليمن^(٣). ومن شعراء المدينة المشهورين بالغزل عبد الله بن مسلم بن جندب الهذلي وتروى له قصائد لغزال يراه « ياؤى » إلى مسجد الأحزاب منتقياً وفيها أيضاً افتخار^(٤). ومن الحرى بالذكر أن الكلف بالنسيب وسماح الغناء قد عمَّ كلَّ أجناس الناس بمدن الحجاز فمن المشغوفين بهما غير واحد من الفقهاء الموصوفين بالعلم والفضل والنسك. فيُنشد لعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الشهير بعبيد الله بن مسعود أحد الفقهاء السبعة بالمدينة من أعلام التابعين المتوفى سنة ١٠٢ وقيل ٩٩ وقيل ٩٨ هذه الأبيات المروية في حماسة

(١) كتاب الأغاني ج ٦ ص ٢٥ - ٢٦ و ٣٠ من طبعة بولاق والمقد لابن عبد ربه ج ٣ ص ١١٣ من طبعة مصر ١٣٠٥، ويوجد الشرح تمامه في NOELDEKE, *Dialectus veterum carminum arabicorum*, p. 21-22.

(٢) كتاب الأغاني ج ٦ ص ٣٠ من طبعة بولاق ومعجم البلدان لياقوت ج ٣ ص ٦٤٧ - من طبعة ليبسك ١٨٦٦ - ١٨٧١ في مادة عرفات. أعجب هذا الشعر عائشة بنت طلحة (الأغاني ج ٦ ص ٣٠ وج ١٠ ص ٦١) وأهز هارون الرشيد طرباً عند سماعه (الأغاني ج ٦ ص ٣١) .

(٣) كتاب الأغاني ج ٦ ص ٢٨ من طبعة بولاق .

(٤) القصائد مروية في ديوان الملليين عدد ٢٤٦ و ٢٤٧ و ٢٤٨ و ٢٤٩ من طبعة برلين ١٨٨٤ .

أبي تمام^(١) وفي كتاب الأغاني^(٢) وفي وفيات الأعيان لابن خلكان^(٣) :

شَقَقْتُ الْقَلْبَ ثُمَّ ذَرَرْتُ فِيهِ هَوَاكِ فَلَئِمَ فَالْتَمَّ الْفُطُورُ
تَغْلَغَلَ حُبُّ عَثْمَةَ فِي فُوَادِي فَبَادِيهِ مَعَ الْخَافِي يَمِيرُ
تَغْلَغَلَ حَيْثُ لَمْ يَبْلُغْ شَرَابُ وَلَا حُزْنٌ وَلَمْ يَبْلُغْ سُرُورُ

وله في عثمة هذه التي تزوجها أشعار كثيرة ، وله أيضاً في امرأة من هذيل غاية في الجمال أتت المدينة وكادت تذهب بعقول أكثر الرجال أبيات يذكر فيها أسماء أشهر فقهاء المدينة ويستشهدهم على وفرة مودته لها^(٤) .
ونستفيد من عدة روايات قديمة نقلت في كتاب الأغاني أن سعيد بن المسيب السابق ذكره الذي قال فيه ابن خلكان^(٥) إنه كان « سيد التابعين من الطراز الأول جمع بين الحديث والفقہ والزهد والعبادة والورع » أحب سماع الغناء وإنشاد أبيات الشعراء الغزليين والحكم في جودتها فقال جامع بن مرنجة الكلابي فكاهة^(٦) :

سَأَلْتُ سَعِيدَ بْنَ الْمَسِيْبِ مُضَى الْمَدِينَةَ هَلْ فِي حُبِّ ظَمِيَاءٍ مِنْ وَزِيرٍ
فَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمَسِيْبِ إِنَّمَا تُلَامُ عَلَى مَا تَسْتَطِيعُ مِنَ الْأَمْرِ
وَعُرْوَةَ بِنَ أَدِيْنَةَ مِنْ أَعْيَانِ فُقَهَاءِ الْمَدِينَةِ وَالْمُحَدِّثِينَ رَوَى عَنْهُ مَالِكُ بْنُ
أَنْسٍ وَغَيْرِهِ كَانَ أَيْضاً مِنْ شُعْرَاءِ غَزَلٍ مُقَدِّمِينَ وَلَهُ الْأَشْعَارُ الرَّائِقَةُ غَنَّى فِيهَا

(١) كتاب الحماسة ص ٥٩٤ من طبعة بن أوج ٣ ص ١٦٧ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغاني ج ٨ ص ٩٨ من طبعة بولاق وقلها ثلاثة أبيات أخرى .

(٣) كتاب وفيات الأعيان عدد ٢٦٣ من طبعة غوتنجن أو ٣٢٩ من الطبعات المصرية . - ومن الغريب أن البيت الأول (وفيه صدحت بدلا من شققت) والثالث ينسبان إلى قيس بن ذريح في كتاب الأغاني ج ٨ ص ١١٧ .

(٤) كتاب الأغاني ج ٨ ص ٩٦ - ٩٧ من طبعة بولاق . روى له ابن عبد ربه في عقده ج ٣ ص

١٠٠ بعض الأبيات في الغزل .

(٥) وفيات الأعيان عدد ٢٦١ من طبعة غوتنجن أو ٢٤٨ من الطبعات المصرية .

(٦) كتاب الأغاني ج ٨ ص ٩٦ .

المغنون ولم يقل في غير الغزل شيئاً سوى مرثية لأخيه بكر^(١) .

ومن المفتونين بسماع الغناء والأشعار في التشبيب أبو السائب المخزومي من أهل المدينة قيل إنه كان « رجلاً صالحاً زاهداً متقلاً يصوم الدهر وكان أرق خلق الله وأشدّهم غزلاً »^(٢) وقيل أيضاً إنه « كان يصلي في كل يوم ليلة ألف ركعة »^(٣) وعلى ذلك له مع الشعراء والمغنين والمغنيات عدّة نوادر وروايات يطول ذكرها هنا فيكفيها ما روي عن مصعب بن عبد الله بن مصعب^(٤) : « قال حضر أبو السائب المخزومي مجلساً فيه بصبص جارية يحيى بن نفيس فغنت :

قلبي حبيس عليك موقوفٌ والعينُ عبّري والدمع مذروفٌ
والنفس في حسرة بغضتها قد شفّ أرجاءها التساويرُ
إن كنتِ بالعُسن قد وُصفتِ لنا فإنني بالهوى لعموصوفُ
يا حسرتاً حسرة أموتُ بها إن لم يكن لي المديك معروفُ

قال فطرب أبو السائب ونعر وقال لا أعرف الله قدره إن لم أعرف لك معروفك ثم أخذ قناعها عن رأسها وجعل يلطم ويبكي ويقول لها : بأبي والله أنتِ إمتى لأرجو أن تكوفي عند الله أفضل من الشهداء لِمَا تُولِينَاهُ من السرور

(١) راجع كتاب الأغاني ج ٢١ ص ١٦٢ - ١٧٢ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٦٧ - ٣٦٨ من طبعة ليدن وحماة أبي تمام ص ٥٦٩ من طبعة ابن أوج ٣ ص ١٤٣ من طبعة بولاق ووفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٢٦٧ من طبعة غوتجن أو عدد ٢٥٤ من الطبقات المصرية (ترجمة سكية بنت الحسين) والقدر لابن عبد ربه ج ٣ ص ١٠١ من طبعة مصر ١٣٠٥ .
[وكتاب المؤلف للامدي ص ٥٤ - ٥٥ من طبعة مصر ١٣٥٤ والبيان للجاحظ ج ٣ ص ١٣٠ من طبعة مصر ١٣٥١] .

(٢) كتاب الأغاني ج ٧ ص ٣٠ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب الأغاني ج ١ ص ١٠٩ سطر ٨ .

(٤) كتاب الأغاني ج ١٣ ص ١١٨ من طبعة بولاق - سوف : مطلقه وقال له مرة بعد مرة

سوف أفعل نمر : صاح وصوت بجيشويه - لطم : ضرب خده أو صفحة جسده بالكف مفتوحة .

وجعل يصيح واغوثاه يا لله لِمَا يَلْقَى العاشقون . - وكذلك عطاء بن
 أبي رباح المتوفى سنة ١١٤ أو ١١٥ من أجلاء الفقهاء والزهاد بمكة كان يهتزُّ
 طرباً حين سمع غناء ابن سُرَيْج والغريص في الأشعار الغزلية^(١) فلم يستقبح
 إلا ما ورد أحياناً فيها من قلة احترام مناسك الحج^(٢) . ومن المشهور أن
 عبد الرحمن بن أبي عمار الجشمي من قراء أهل مكة الملقب بالقس لعبادته
 لما سمع غناء سلامة من المولدات القيان افتتن وشغف بها وقال فيها الأبيات
 والقصائد^(٣) . - وخلاصة القول أن سكان المدن الحجازية في أيام بني
 أمية إنما أرادوا من الشعر الغزل فلا عجب فيما رواه عبد الله بن مسلمة بن
 أسلم « قال لقيت جريراً فقلت له يا أبا حزرة إن شعرك رُفِع إلى المدينة وأنا
 أحب أن تُسمِعني منه شيئاً . فقال إنكم يا أهل المدينة يُعجبكم النسب
 وإن أنسب الناس المخزومي يعني عمر بن أبي ربيعة »^(٤) .

٢- وهذا أوان الشروع في الكلام على الصنف الثاني من الشعر في أيام
 بني أمية وهو النسب عند الأعراب . قد تقدّم أن فحول شعراء الجاهلية لم
 يُفردوا للنسب والغزل أشعاراً خاصة وإنما أدرجوهما في ضمن قصائدهم
 ولم يُطيلوهما . أمّا نحو أواسط القرن الأول للهجرة وفيها يلها فأخذت بعض
 شعراء أهل الوبر المعدودين يقولون القصائد في مجرد النسب بل لا يتعاطون
 غيره وصناعتهم بعيدة عن أسلوب أشعار الجاهلية وعن منهج الغزليين

(١) كذلك كتاب الأغاني ج ١ ص ١٠٠ و ١٠٩ - ١١٠ و ١٢٦ إلخ من طبعة بولاق .

(٢) انظر بيتاً للعرجي في الأغاني ج ١ ص ١٦٢ وج ٢ ص ١٢٢ وج ٢ ص ١١٦ من
 طبعة بولاق .

(٣) كتاب الأغاني ج ٨ ص ٦ - ٩ من طبعة بولاق - ومن الفقهاء الناسكين الشعراء
 الذين كان نسبهم رقيقاً وتشبيهم عجبياً عبد الله بن مبارك وشريح الذي كان قاضياً في أيام علي بن
 أبي طالب ومما روي فأنظر المقد ل ابن عبد ربه ج ٢ ص ١٠١ من طبعة مصر ١٣٠٥ .

(٤) كتاب الأغاني ج ١ ص ٣٦ من طبعة بولاق .

من أهل المدر فإنهم لا يعشقون إلا امرأة واحدة جعلوا عيشتهم فداءها ولا يتغزلون ولا يفتخرون بنيل وصلها وإنما يظهرون في شعرهم رقة القلب وشدة الحنو ويكثرون في بيان الصبابة وتوجع الكآبة وقلق الأشواق وألم الفراق وفرط الحزن والغم واليأس وكل ذلك مصوغ في قالب رشيق مترجم بلفظ رقيق وكلام لطيف عفيف لا يدخل فيه شيء من الخلاعة والشهوة الدنية .
ومما أستلفت أنظاركم إليه أن هولاء الشعراء جميعهم من قبائل قاطنة في الحجاز أو شمالي اليمن ليست منازلها بعيدة عن أحد الحرمين فكانت مثلاً بنو عقييل مقيمين بالتهامة عن جنوبي مكة وبنو ليث من كنانة بظاهر المدينة وكانت بنو عذرة يسكنون وادي القرى وما يليه في الطريق من المدينة إلى الحجر وتبوك . ثم مما يجب تنبيهكم إليه أن تلك القبائل إما كانت بنواحي اليمن مقيمة أو من اليمن متأصلة كأن رقة القلب أكثر في أهل اليمن منها في غيرهم^(١) فورد في كتاب الأغاني^(٢) عن المدائني ما نصه :
« قال ابن دأب قلت لرجل من بني عامر أتعرف المجنون وتروى من شعره شيئاً . قال أوقد فرغنا من شعر العقلاء حتى نروى أشعار المجانين إنهم لكثير . فقلت ليس هؤلاء أعني إنما أعني مجنون بني عامر الشاعر الذي قتله العشق . فقال هيئات بنو عامر أغلظ . أكباداً من ذلك إنما يكون هذا في هذه اليمانية الضعاف قلوبها السخيفة عقولها الصلعة^(٣) رموشها ، فأما نزار فلا . فني بعض الأشعار تلميحاً إلى رقة قلب أهل اليمن ، فني قصيدة

(١) قال ابن الفقيه الحمذاني في كتاب البلدان ص ٣٣ من طبعة ليدن ١٣٠٢ ما نصه : « ولما جاء أهل اليمن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جاءكم أهل اليمن أرق قلوباً منكم وهم أول من جاءنا بالمصافحة » .

(٢) كتاب الأغاني ج ١ ص ١٦٧ من طبعة بولاق وراجع أيضاً ج ١ ص ١٦٩ .

(٣) [مكلاً في طبعة بولاق وفي طبعة دار الكتب المصرية ج ٢ ص ٣ : صلعة وهو الأصح] .

منسوبة إلى معجون كَيْلَى العاشق الساكن في نجد^(١) :

وإِنِّي بِمَانِي الْهَوَى مُنْجِدُ النُّورِ سِبِيلَانِ أَلْقَى مِنْ خِلَافِهِمَا جَهْدًا

ولعل من أقدم من أشتهر من هؤلاء الشعراء العشاق الذين ضربت بهم الأمثال وكثرت فيهم الحكايات والروايات الخيالية في كتب الأدب توبة ابن الحمبر من قوم بني عَقِيل (وهي فرع من ربيعة بن عامر بن صعصعة) كان كثير الغارات على أعداء حِيَه فقتل في إحدى غاراته في مدة خلافة معاوية (٤١ - ٦٠). وعشقه للكَيْلَى الأَخِيلِيَّة وشعره فيها مشهوران. ومن مُستجد شعره هذان البيتان^(٢) :

لَوْ أَنَّ كَيْلَى الأَخِيلِيَّةَ سَلَّمَتْ عَلَيَّ وَدُونِي تُرْبَةٌ وَصَفَائِحُ

لَسَلَّمْتُ تَسْلِيمَ البَشَاشَةِ أَوْ زَقَا إِلَيْهَا صَدًّا مِنْ جَانِبِ القَبْرِ صَائِحُ

ومن أجود ما قاله قصيدة أولها^(٣) :

نَأْتُكَ بِكَيْلَى دَارِهَا لَا تَزُورُهَا وَشَطَطُ نَوَاهَا وَأَسْتَمِرُّ مَرِيرُهَا

(١) كتاب الأغاني ج ٢ ص ١١ من طبعة بولاق. - وكان بنو عامر نزاريين وسكنوا في جبل السراة بأرض نجد.

(٢) البيتان مرويان في حماسة أبي تمام ص ٥٧٦ من طبعة بن أوج ٣ ص ١٥٠ من طبعة بولاق وفي الأغاني ج ١٠ ص ٨٢ من طبعة بولاق وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٧٠ من طبعة ليدن وفي الأغاني والحماسة يليهما بيت ثالث لا يتصل معناه بما تقدم اتصالاً تاماً جلياً ويوجد في مكانه في كتاب ابن قتيبة وكتاب المحاسن والأضداد المنسوب إلى الجاحظ (ص ١٨٩ - ١٩٠ من طبعة ليدن ١٨٩٨) البيت :

ولو أن ليل في السماء لأصعدت بطرفي إلى ليل العيون التوامع

صدي: طائر تقول عرب الجاهلية إنه يخلق من رأس المقتول ولا يزال يصيح في رأسه إذا لم يؤخذ بثأره يقول « اسقوني اسقوني» حتى يقتل قاتله.

(٣) أول القصيدة (٧ أبيات) في كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٢٦٩ - ٢٧٠ من طبعة ليدن والباقي في كتاب الأغاني ج ١٠ ص ٦٩ من طبعة بولاق وبيتان في حماسة أبي تمام ص ٥٩٤ من طبعة بن أوج ٣ ص ١٦٦ من طبعة بولاق وكل الأبيات في NOELDEKE, *Delectus veterum carminum arabicorum*, P. 5-6.

إلا أنه ختمها بأبيات تخرج عن النسب وتدل على كثرة قطعه الفيا في
 الهائلة وعلى اقتحامه الأخطار فهي على أسلوب شعر أهل البادية من الجاهلية (١) :
 وأدما من حرّ المهاري كأنها مهاة صحارٍ غير ما مس كورها
 قطعت بها أجواز كل تنوفة مخوف رداها كلما استن مورها
 ترى ضعفاء القوم فيها كأنهم دعاميض ماء جف عنها غدیرها

أما سائر الذين اشتهروا من شعراء هذا الصنف فتركوا كل شيء من
 الحماسة ووصف الناقة والقفار وامتنعوا في قصائدهم عن كل ما هو غير وصف
 حال المتيم وذكر حرّ الشوق واللوعة . ومنهم قيس بن ذريح الكِنَانِي اللَّيْثِي
 رضيع الحسين بن علي بن أبي طالب مات سنة ٦٨ وكان منزل قومه في
 ظاهر المدينة . ومن المشهور أن لُبْنَى من بني كعب بن خزاعة وهم قوم
 أصلهم من اليمن وسكنهم في بطحاء مكة بسرف (٢) (بين مكة وبطن مر)
 وقعت في نفسه فتزوجها وبعد مدة طلقها كارها فذاب كبده وجدا عليها
 وصباة بها فقال فيها القصائد المشجية . فعلى ما يروى (٣) « شهر أمر
 قيس بالمدينة وغنى في شعره الغريض ومعبد ومالك وذو وهم فلم يبق شريف
 ولا وضيع إلا سمع بذلك فأطربه وحزن لقيس » . - ومن عشاق العرب
 الذين قتلهم الهوى عروة بن حزام العُدْرِي لا يُعْرَف له شعر إلا في عفرأة وهي

(١) كتاب الأغاني ج ١٠ ص ٦٩ . آدم : أسمر - مها : نوع من البقر الوحشي - كور رجل -
 أجواز جمع جوز وهو وسط الشيء - تنوفة المغازة الواسعة - ردى يردى ردى هلك - استن اضطرب -
 المور الغبار المتردد والتراب تثيره الريح - دعاميض جمع دعومس دويبه أو دودة سوداء تكون في الغدران .
 (٢) سرف بفتح السين المهملة وكسر الراء موضع على ستة أميال من مكة (انظر معجم البلدان
 لياقوت ج ٣ ص ٧٧ - ٧٨ من طبعة ليبسك ومعجم ما يستعجم البكري ص ٧٧٢ - ٧٧٣ من طبعة
 غوتنجن ١٨٧٦) وقيل في الأغاني ج ٨ ص ١١٣ من طبعة بولاق [وكذا أيضا في ج ٩ ص ١٨١ حاشية ١
 من طبعة دار الكتب المصرية] إن سرفا على ستة أيام من مكة وهو تعريف .
 (٣) كتاب الأغاني ج ٨ ص ١٢٨ من طبعة بولاق .

بنت عمه كان تألفها إلفاً شديداً وهما صغيران يلعبان معاً فلما شباً خطبها ولكن عمه زوجها برجل من البلقاء تحملها إلى بلده عن شرقى بحيرة لوط فتبعتها نفسه واشتدَّ وجداً بها حتى جُنَّ فكان ذلك في أيام خلافة عثمان ابن عفان (٢٣٤ - ٢٥٦) إن صحَّ خبرُ مرتقى إلى الهيثم بن عدى^(١) المتوفى سنة ٢٠٦ أو ٢٠٧ أو ٢٠٩ فإذا كان عروة بن حزام أقدم الشعراء المتيمين المعروفين . وشعره لطيف ظريف لكننا لم نعثر على ذكره من غنى فيه من المغنين قبل عهد بني العباس كأنه لم ينتشر صيته إلا نحو أواسط القرن الثاني .

ومن العذريين أيضاً جميل بن عبد الله بن معمر وهو المقدم على سائر شعراء النسيب من أهل البادية وقصته مثل قصة عروة بن حزام أعنى أنه «عشق بثينة [العذرية] وهو صغير فلما كبر خطبها فرد عنها فقال الشعر فيها»^(٢) . وكان سكناه بنواحي تيماء ووادي القرى وقيل إنه مات سنة ٨٢^(٣) وأشعاره مشهورة لحسن اللفظ وصفااته وتديج أجزائه ودقة المعنى وهي صادرة عن قلب صادق الصباية والعشق . فمن أشهر أبياته قوله^(٤) :

(١) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣٩٧ من طبعة ليدن وكتاب الأغاني ج ٢٠ ص ١٥٧ سطر ٢ من طبعة بولاق ومروج الذهب للمسعودي في الباب التاسع عشر بعد المائة (ج ٧ ص ٣٥٣ من الطبعة الباريسية) .

(٢) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٦٠ من الطبعة الالمانية .

(٣) قال ابن خلكان إن جميلاً توفي سنة ٨٢ هجرية في مصر (وفيات الأعيان عدد ١٤١ من طبعة فرونجنج أو عدد ١٣٨ من الطبقات المصرية) وراجع حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة للسيوطي ج ١ ص ٢٥٦ من طبعة مصر المطبوعة على الحجر - فاعتنى المستشرق الإيطالي Francesco Gabrieli بجمع أبيات جميل العذري المتبددة في كتب الأدب وغيرها وبضبطها وانتقادها (انظر مقالته *Giamil al-'Udhri; studio critico e raccolta dei frammenti*, Rivista degli Studi Orientali, XVII, 19947, P. 40-71 et 199-172; *Contributi alla interpretazione di Giamil*, Riv. degli Studi Orientali, XVIII, 1999, P. 173-198. جميل في بيروت سنة ١٣٥٢) .

(٤) كتاب الأغاني ج ١ ص ٥١ و ج ٣ ص ١٤٨ و ج ٧ ص ٧٩ و ١٠٢ و ١٠٣ من طبعة بولاق وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٦٨ من طبعة ليدن .

خَلِيلِيَّ فَمَا عِشْتُمَا هَلْ رَأَيْتُمَا قَتِيلًا بَكَى مِنْ حُبِّ قَاتِلِهِ قَبْلِي

الذي أخذه أبو العتاهية حين قال :

يَا مَنْ رَأَى قَبْلِي قَتِيلًا بَكَى مِنْ شِدَّةِ الْوَجْدِ عَلَى الْقَاتِلِ

ومن الغريب أن صبايته كانت سبب نشوب عداوة بينه وبين بني الأحمب من عذرة وهم رهط. بشينة فهجاهم فهجوه^(١) وهذا منهج لم يذهب إليه غيره من شعراء هذا الصنف. ولما أشد التهاجي بينه وبين جواس بن قُطبة أحد بني الأحمب تنافرا إلى يهود تيماء في قصة تجدونها في كتاب الأغاني^(٢).

أما من نال في الشهرة الغاية القُصوى من قتلى الهوى وذلك لوفرة ما روى فيه من القصص المتصلة والمنقطعة ومن الأخبار المنشورة والمنظومة قيس ابن المذوح العامري الملقب بالمجنون أو مجنون بني عامر أو مجنون ليلى لذهاب عقله بشدة عشقه ليلي العامرية التي كره أبوها أن يزوجه إياها فزوجه رجلاً آخر. ولا يخفى على أحد أن الرواة ذهبوا كل مذهب في نقل رواياته وأخباره وفي وصف شدة وجده الذي أصفر بسببه وشحب وهزل وأخذ يهيم في القفار مع البهائم ويتمشش مع الوحش في البراري وغير ذلك من الحكايات المتعددة. فزعم بعض الناس أنه رجل لم يكن قط. ولا عرف في الدنيا إلا باسم المجنون لأنه وضعه الرواة فيعزى إلى ابن الكلبي النسابة الشهير المتوفى سنة ٢٠٤ أو ٢٠٦ هذا القول: ^(٣) «حدثت أن حديث المجنون وشعره وضعه فتى من بني أمية كان يهوى ابنة عم له وكان يكره أن يظهر ما بينه وبينها فوضع حديث المجنون وقال الأشعار التي يروونها الناس للمجنون ونسبها

(١) كتاب الأغاني ج ٧ ص ٩٣ و ٩٤ و ١٠١ من طبعة بولاق.

(٢) كتاب الأغاني ج ١٩ ص ١١٢ - ١١٣ وقيل في كتاب الشعر لابن قتيبة (ص ٢٦١ من طبعة ليدن) إن جواساً كان أخا بشينة وأحب أخت جميل وهذا على الأرجح غير صحيح.

(٣) كتاب الأغاني ج ١ ص ١٦٧ من طبعة بولاق.

إليه . وفي قول يرتقى سندهُ إلى عَوَانة بن الحَكَم الكَلْبِي^(١) المتوفى سنة ١٤٧ :
« المجنون اسم مستعار لا حقيقة له وليس له في بنى عامر أصل ولا نسب .
فسئل مَنْ قال هذه الأشعار فقال فتى من بنى أمية » . أما غيرهما من علماء
اللغة والأدب فما شكوا في وجود المجنون فقال الأصمعي^(٢) المتوفى نحو سنة
٢١٦ : « لم يكن مجنوناً ولكن كان فيه لُوثة كلوثة أبي حبة النُمَيْرِي » .
وزاد فيه ابن قتيبة^(٣) : « هو من أشعر الناس على أنهم قد نحلوه شعراً
كثيراً رقيقاً يُشبه شعره » . فهذا أيضاً رأى الجاحظ . حيث قال^(٤) :
« ماترك الناس شعراً مجهول القائل قيل في ليلي إلا نسبوه إلى المجنون ولا شعراً
هذه سبيله قيل في لُبْنَى إلا نسبوه إلى قيس بن ذريح » . فلذلك قال
صاحب كتاب الأغاني في ترجمة مجنون ليلي^(٥) : « وأنا أذكر مما وقع إلى
من أخباره جُملاً مستحسنة متبرئاً من العُهدة فيها فإن أكثر أشعاره المذكورة
في أخباره ينسبها بعض الرواة إلى غيره وينسبها من حكيت عنه إليه وإذا
قدمت هذه الشريطة برئت من عيب طاعنٍ ومتبعٍ للعيوب » . وعلى كل حال
لا شك أن شهرة المجنون وشعره قد ذاعت بعد منتصف القرن الأول للهجرة
إذ غنى في شعره ابن مُحَرِّز والأخضر الجدي من مُغَنِّي المدينة في ذلك العصر
فكان المجنون معاصراً لقيس بن ذريح إن صححت الرواية المذكورة عن الهيثم
ابن عدى في كتاب الأغاني^(٦) وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة^(٧) وكتاب

(١) كتاب الأغاني ج ١ ص ١٦٩ .

(٢) كتاب الأغاني ج ١ ص ١٦٧ وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣٥٥ من طبعة
ليدن . لوثة : من الجنون .

(٣) كتاب الشعر ص ٣٥٥ من الطبعة المذكورة .

(٤) كتاب الأغاني ج ١ ص ١٦٩ من طبعة بولاق .

(٥) كتاب الأغاني ج ١ ص ١٧٠ من طبعة بولاق .

(٦) كتاب الأغاني ج ٢ ص ١٤ - ١٥ وأصح ج ٢ ص ١٧ (لقاءه لقيس بن ذريح) .

(٧) كتاب الشعر ص ٣٦٠ - ٣٦٣ من طبعة ليدن .

مروج الذهب للمسعودي^(١) ثم من المشهور أن أهل التصوف بعد القرن الخامس أحبوا قصة المجنون وليلى لما رأوا فيها من أسنى الكناية عن أسرار النفس البشرية ومن الرمز إلى اشتياق النفس الخالية عن الأهواء الدنية إلى الرجوع إلى الله والاقتران بذاته . فبقيس بن الملوّح المجنون وهواه مثلوا الذي وصل إلى أسنى منزلة من الطهر والعفاف وأشاروا إلى شدة حبه لله وشوقه إلى وصله . أما ليلي الطاهرة الموصوفة بغاية الرونق كأن جمالها لا يمثل وكمالها منقطع النظر فصارت عندهم إشارة إلى بهاء اللاهوت ولألاء النور الأزلي فكثرت ذكر ليلي العامرية وعوالى نجد في ديوان عمر بن الفارض وذهبت شعراء الفرس والترك إلى نظم الأناشيد الطويلة المحتوية على ألوف أبيات بلغتهم يقصّون فيها قصة أخبار ليلي والمجنون إشارة إلى أسرار الطرُق الصوفية .

ومن شعراء أهل القبائل المقدمين المشتهرين بهذا النوع من النسب أبو صخر الهذلي وكثير عزة ولكن بما أنهما ذهبا أيضاً إلى قول الشعر في المديح والهجاء والسياسة والمباحث الدينية وجالسا بنى أمية بدمشق أرى من المناسب عدّهما من غير هذا الصنف .

٣ - فلننتقل إلى الكلام على شعر الصنف الثالث أعنى الشعر على أسلوب فحول الجاهلية .

قد تقدّم وصف كلف أهل المدن الحجازية في القرن الأول بنوع من الشعر كاد لم يسبق إليه مشاهير القدماء وهو الغزل الذي لم يتعاطوا غيره شعراء مكة والمدينة والطائف في ذلك العصر . وتقدّم أيضاً أن شعراء أهل القبائل في الحجاز وما يليها من أراضى نجد واليمن اختصوا بالنسب وأفردوا له

(١) في الباب التاسع عشر بعد المائة ج ٧ ص ٣٥٦ - ٣٦٠ من الطبعة الباريسية .

القصاصد الرائقة الطويلة خلافاً لعرف نوابغ الشعراء قبل الإسلام . فبالجملة وجدنا في الحجاز للشعر انقلاباً شديداً وانحرافاً ظاهراً عن أساليبه القديمة . ولكن إذا التفتنا إلى الشام وأمعنا النظر في حال الشعر بدمشق عند بني أمية إلى آخر القرن الأول تعجبنا من وجود قريض الشعر هناك جارياً مجرى فنون الشعر الجاهليّ وكون أكثر الشعراء الوافدين على الخلفاء الأمويين النائلين منهم الجوائز البهية الجزيلة مقتدين في نظمهم الجيد بمن سبقهم قبل ظهور الإسلام . وحسبنا ذكر الأخطل وجريير والفرزدق وذو الرمة . وما سبب بقاء الأساليب القديمة في نفس عاصمة الشام على تقلبها بأرض الحجاز؟

أوضحت فيما تقدّم تغير أحوال مدن الحجاز الاجتماعية بعد ظهور الإسلام وزيادة الثروة والرفاهية والترّف فيها وقلة اشتغال أبنائها الأغنياء بأمر الحرب والسياسة وعدم اعتنائهم بالعلوم النظرية العقلية المجهولة إذ ذلك للأمة العربية . فرأيت أن تلك الأحوال الخاصة كانت سبباً لحضّر شعراء المدن الحجازية شعراًهم في النسيب والغزل ونهجهم في ذلك طرُقاً غير مألوفة عند نوابغ شعراء الجاهلية الذين كانوا جميعهم يسكنون بعيداً عن تلك المدن . أمّا أحوال الشام في القرن الأول فإنها مختلفة عن أحوال الحرمين . كان مُعظّم أهل الشام من غير الناطقين بالضاد فلم يمكنهم تعاطي الشعر العربيّ ولا فهم محاسنه فمن الضروري أن ينفرد به هناك العرب المقيمون ببادية الشام من زمان قديم أو المرتحلون عن الأنحاء الشامية في عهد الفتح وبعدها . ومن جمع الأخبار المتفرقة في كتب العرب والروم وأعمل فيها الفكر تلقى أن مدن الشام الكبيرة مثل دمشق والقُدس وحمص وأنطاكية بقيت إلى أواخر القرن الأول على ما كانت عليه قبل الفتح الإسلامي تقريباً

لقلّة من استوطنها من العرب فإنّهم اختاروا السُّكنى في المدن الصغيرة والقُرى لا سيّما فيما يلي أطراف البادية مثل الرُّصافة وتدمر وحرّارين وجابية^(١). ثمّ إن قطعنا النظر عن رجال السياسة وروّساء الجنود وهم كما تدرون أغلبهم من قُرَيْشٍ مثل بنى أميّة وجدنا أنّ الذين أقاموا بالشام من العرب إنّما كانوا من أهل البادية والقبائل لا سيما من نجد واليمن لأنّ سكان مكّة والمدينة والطائف والمدن اليمينية الكبرى لم يفارقوا أوطانهم ذات ثروة ورخاء للاستقرار في بلاد بعيدة. ولعلّ اليمينيين والذين انتسبوا إلى قحطان فاقوا في الشام القيسيين عدداً فإليهم خصوصاً استند الأمويون لتأييد ملكهم^(٢). ثمّ زيدوا على ذلك أن الأوّل من خلفاء بنى أميّة لأغراضهم السياسية أحبّوا المصاهرة في كلب وهم قبيلة عظيمة من أولاد قحطان القُضاعيّين سكنوا المفاوز الواسعة الواقعة بين نجد والعراق والشام فلهم تدمر وسليمة وتبوك ودومة الجندل وبادية السماوة فتزوّج معاوية بن أبي سفيان امرأتين كلبيتين أعنى نائلة بنت عمّار وميسون بنت بحدل فولدت له ميسون يزيد الذي لما شبّ تزوّج امرأة كلبية أيضاً^(٣). فكانت أهل البدو يفدون إلى بنى أميّة أفواجاً فلاطفهم الخلفاء وأنعموا عليهم ومن الجدير بالذكر أيضاً أنّ عبشة الصريان والروم القاطنين بالمدن الشامية لم تنزل قليلة التأثير في أميال العرب وعوائلدهم إلى نحو أواخر القرن الأوّل ولا فتنّتهم ولا أخذت بمجامع قلوبهم كأنّ حبّ البادية أشدّ من

H. LAMMENS, *Etudes sur le règne du calife omayyade Mo'awia Ier*, Beyrouth (١) 1908, P. 8; H. LAMMENS, *La Bâdia et la Hira sous les Omayyades*, Mélanges Faculté Orientale, Beyrouth 1910, IV, P. 91 n. 1 [*Etudes sur le siècle des Omayyades*, Beyrouth 1990, P. 325].

A. VON KREMER, *Kulturgeschichte des Orients unter den Califen*, Wien 1875-77, (٢) II, P. 141; LAMMENS, *Etudes sur ... Mo'awia Ier*, P. 8-9, 50-54.

(٣) أما مصاهرة معاوية ويزيد في بنى كلب فانظر ما قاله الأب لامنس في كتابه :

Etudes sur ... Mo'awia Ier, P. 309-312, 418.

الرغبة في سعة العيش والترّف ولذات المدن . وعلى ذلك دلائل متعددة اعتنى حديثاً بجمع أهمها الأب هنرى لامنس^(١) فقال إن العرب بعد الفتح عند احتلالهم البلاد الممصرة « رأوا فيها أنفسهم كالغريب الذي اعتاد سُكنى وطنه فلا يُطبق العيشة في غيرها . وكذلك العرب فإن مدن الشام مع سعتها ضاقت عليهم بعد توطنهم في البوادي يتجولون فيها كيف شاؤوا . وكان عمر بن الخطاب شعرَ بما لقيه العرب من الجهد والعناء في سكنى المدن فأراد أن ينشئ لهم في العراق على طَرف الصحراء دساكر^(٢) يقطنونها ليعتادوا التمسير والعيشة المدنية تدريجاً كما يؤخذ من روايات فتوح البلدان للبلاذري [المتوفى سنة ٢٧٩] . وليس البصرتان في العراق أي البصرة والكوفة كما الفسطاط في مصر سوى مقامات كهذه متوسطة بين الحضر والبدو . والحق يقال إن العرب الأولين بعد خروجهم من مواطنهم البدوية واحتلالهم الأمصار كانوا يهيمون إلى البادية ويحنون إلى نوقها ليرتووا من ألبانها ، وذلك ما كانوا يدعونهُ بالعيمة أي شهوة اللبن وأن لا يصبر عنه الإنسان . . . فكانت العيمة كالداء المعروف في أيامنا بداء الوطن . (nostalgie) ولنا على ذلك شواهد عديدة » . منها مثلاً ما يروى في مُسند أحمد بن حنبل^(٣) أن النبي خاف على أمته أنهم « يُحبون اللبن فيدعون الجماعات والجمع ويبدون » . ومما يروى في الشاعر الصباحي النابغة الجعدي أنه بعد قضاء أعوام في المدينة أزداد الرجوع إلى قومه فدخل على عثمان بن عفان « فقال أستودعك الله يا أمير المؤمنين قال وأين تريد يا أبا ليلى قال أَلْحَقُ بِإِبْلِ فَأَشْرَبُ مِنْ أَلْبَانِهَا

(١) LAMMENS, *La Bâdia et la Hira sous les Omayyades*, P. 91-119 [Etudes sur le siècle des

[Omayyades, PP. 925-950.] وراجع ملخص هذه المقالة في المشرق ج ١١ سنة ١٩٠٨ ص ٧٦٥-٧٧٢ .

(٢) الدسكرة : القرية العظيمة .

(٣) مسند ابن حنبل ج ٤ ص ١٥٥ من طبعة مصر ١٣١٣ .

فلما منكر لنفسى فقال أتعرّبياً بعد الهجرة يا أبا ليلى؟ ! أما علمت أن ذلك مكروه؟ قال ما علمته وما كنت لأخرج حتى أعلمك. قال فأذن له وأجل له في ذلك أجلاً^(١). قال الأب لأمّس : «ففى إنكار عثمان على النابغة فعلة نظر لأن الخليفة كان يجد فى شوق العرب إلى باديتهم خطراً على الدولة إذ أنّهم لو رجعوا إلى مضاربهم لعدلوا عن ضبط الأمصار وأنفوا الجهاد فيقوى عليهم أعداؤهم ويسترجعون منهم الأمصار التى فتحوها بعد الحروب الطويلة والمشقات المصنّية . فملافاة لهذا الخطر أمر الخلفاء الراشدون بالأى يدفع العطاء لغير المهاجرين . وفى صحيح البخارى (١٨٥ : ٤) أن الحجّاج أخذ على بعض الصحابيين فى زمانه اعتزالهم عن المدن . والكتابة الأولون كانوا يفرقون بين العرب والمهاجرين فيدعون ساكنى المدن بالمهاجرين وسكنة البادية بالعرب ومنه قول القُطامى فى اتفاق العرب على تسويد ربيعة :
فليس من الأحياء إلا مسودّ ربيعة أعرابيه ومهاجرة
لاولنا فى تفضيل العرب للبادية على الحضرة عدّة شواهد فى تاريخ النهضة الإسلامية فمن ذلك أن بنى كلب لما طردتهم قيس من مفاوز السماوة وألجأهم إلى سكنى سواحل الشام كانوا يعدّون أنفسهم هناك كالمخفيين يتوقون إلى مواطنهم البدوية . قال زفر بن الحارث^(٢) :

يا كلبُ قد كلب الزمان عليكمُ وأصابكم منى عذاب مرسلُ
إنّ السماوة لا سماوة فالحقى بالغور فالأفحاص بئس الموقلُ
فجنوب عكا فالسواحل إنّها أرض تدوب بها اللقاح ونهزلُ

(١) كتاب الأغاني ج ٤ ص ١٣١ من طبعة بولاق [راجع مقالة مريم نلينو *an-Nabighah*

al-Gla'di e la sua poesia فى *Rivista degli Studi Orientali*, XIV, 1934, P. 983-984.

(٢) كتاب الأغاني ج ٢٠ ص ١٢٤ . لقاح جمع لقحة وهى الناقة الحلوب الغزيرة اللبن .

«وكانت هذه القبائل تُعدُّ واحة دومة الجندل الغنَاء وعاصمة الشام
نفسها لقربها من الغوطة كمنازل وبيئة تنهك حُمياتها قواهم» وذلك سبب
قول الأخطل^(١):

كِرِهْنُ ذُبَابِ دُومَةِ إِذْ عَفَاها غَدَاةٌ تُثَارُ لِلْمَوْتَى الْقُبُورُ
وقوله^(٢):

سقى الله منه دارَ سَلَمَى بَرِيَّةٍ على أن سَلَمَى لَيْسَ يُشْفَى سَقِيمُها
من العرييات البوادي ولم تكن تُلوْحُها حُمَى دَمَشَقَ وَمُومِها
وفي دُرَّةِ الْغَوَاصِ لِلْحَرِيرِيِّ وشرحها للخفاجي ومُعْجَمُ الْبَلْدَانِ لِيَاقُوتِ عَدَّةِ
أشعار من نسيج أهل البادية تصف كراحتهم للإقامة بالمدن مغتربين وشدة
شوقهم إلى البراري^(٣) فمن أشهرها شعر يُنسب إلى مَيْسُونِ بِنْتِ بَحْدَلِ الْكَلْبِيَّةِ
قالت لما تزوجها معاوية وهو والي الشام وقيل إنه ليسون بنت جندل الفزاريَّة^(٤).
وما كان هذا الاستنكاف من عيشة المدن ممَّا اختصَّت به العوام بل إننا
نجد في كل طبقات الناس حتى عند الأمراء والوجوه .

قال الأب لامنس : «ولمَّا جعل معاوية كرمي ملكه في الفيحاء وترتب
على الأمويين أن يتخذوها كالمنبر الغربي لم يزالوا يحضنون إلى مفاوز البادية
ولعلمهم لم يسكنوها مطلقاً لولا بيعة الخلافة . وفي واقع الحال لا ترى من بني
أمية أحداً أطل الإقامة في دمشق إلا معاوية وعبد الملك . أمَّا الآخرون فكانوا

(١) ديوان الأخطل ص ٢٠٣ سطر ٤ من طبعة بيروت سنة ١٨٩١ [إك ١٩٢٥] .
الذباب : الطامون .

(٢) ديوان الأخطل ص ١٢١ سطر ٥ - ٦ من الطبعة المذكورة - لوح السفر أو العشر
فلاناً غيره وسفع وجهه - الموم البرسام pleurésie

(٣) بعض هذه الأشعار مروية في NOELDEKE, *Delectus veterum carminum arabicorum*,

(٤) الأبيات مروية في كتاب درة الغواص للحريري ص ٢٤ من الطبعة القسطنطينية سنة ١٢٩٩ .

يأنفون السكني فيها فيُسرعون إلى البَيْداء ولا سيّما الوليد بن يزيد قال ابن عبد ربّه (١) : « فلما وليّ الأمر جعل يكره المواضع التي يراه الناس فيها فلم يدخل مدينة من مدائن الشام حتى قتل ولم يزل يتنقل ويتصيد . وكان الأمويّون يقصدون البادية أيضاً ليحافظوا على فصاحة العربيّة فلا يفسد لسانهم برطانة أهل المدين . وقد اختبر عبد الملك الأمر بابنه الوليد فإن ابن عبد ربّه (٢) روى عنه أنّه تراخى في تأديب ولده فكان لحاناً . وقال عبد الملك : أضربنا في الوليد حيناً له فلم نوجّهه إلى البادية . ولما خلف الوليد أباه لم يشأ أن يكون ابنه رّوح مثله فأنزله بين القبائل « فنشأ في البادية فكانّه أعرابي » . وعلى هذا المنوال صارت البادية كمدرسة للأمرء . وبالإجمال يمكن القول بأنّ الطبع الغريزيّ والوراثة الجديّة كانا يحولان العرب على الرجوع إلى منشئهم فيخرجون إلى البادية غاية إمكانهم وذلك في الشام كما في العراق وفي مصر كما في الحجاز فإنّ عبد العزيز [وهو أمير من بني أمية] اتخذ له في مصر باديةً فجعلها في حلوان وكذا كان يفعل العلويّون في الحجاز بخروجهم إلى المساكن البدوية . »

كانت العرب تعني بلفظ التّبديّ خروج أشرفها إلى البريّة بعد انتهاء هطل الأمطار وإقامتهم بالصحارى بقيّة سنتهم كأنّ البرارى مصيف يعتزلون فيه عن ضوضاء المدن ويرتاحون ويتنزّهون . فكانت هذه أيضاً عادة الأمويّين . قال الأب لامنس : « أمّا النّواحي التي كانوا يجلدون فيها فكانت غالباً في بادية الشام أو ما كان بجوارها فإنّ معاوية كان يشتر

(١) كتاب العقد ج ٢ ص ٢٧٢ من طبعة مصر ١٣٠٥ عن أبي الحسن علي بن محمد المدائني المتوفى سنة ٢١٥ وقيل ٢٢٥ وقيل ٢٣١ .

(٢) كتاب العقد ج ٢ ص ٢٥٨ من طبعة مصر ١٣٠٥ وانظر أيضاً ج ١ ص ٢٢٤ .

بالصنبرة^(١) في الأردن . . وكذلك عبد الملك سكن الصنبرة مدة . إلا أن أكثر الأمويين اتخذوا لهم منازل في بادية الشام كما روى صاحب الأغاني والطبري وابن عساكر فإن هؤلاء المؤرخين وغيرهم أيضاً لا يكادون يذكرون خليفة منهم إلا ذكروا أيضاً تبدييه . فإن يزيد بن معاوية كان يقضى معظم سنته في حوارين^(٢) . وسكن ابنه خالد في البلقاء في قصر فدين حيث كان أيضاً سعيد أحد أقاربه . وكان عبد الملك بعد رجوعه عن الصنبرة يقضى شهر آذار في الجابية وكان له منتزه آخر في دومة الجندل . وكان خلفاء عبد الملك مواظبين على التبديي إلا عمر بن عبد العزيز [٧١٧ - ٧٢٠] الذي سكن بلدة خناصر - أما منزل الخلفاء في البادية فكان يختلف فمنهم من كان يكتفي بضرب الخيم والسكن في المضارب كما أخبر . . عن هشام ابن عبد الملك [٧٢٤ - ٧٤٣] . . لكن تلك المنازل إنما كانت مؤقتة فلم يوضع بها الخلفاء فأثروا ببناء الدور الرخبة والقصور الجميلة . والمرجح أن بعضهم لم يعمدوا إلى أبنية جديدة واكتفوا بأن أصلحوا ما وجدوه من الأبنية القديمة في طرف البادية حيث كانت تخوم الرومان . . ولما احتلوا تلك المباني التي سبقهم إلى تشييدها الروم زادوها جمالاً بما ألحقوا بها من المقاصير وزينوها بالزخارف والمحسنات فاتخذوا الحمامات وجعلوا فيها الأحواض وشيدوا لها المشارب^(٣) والعُلبيات وازدادوا المعاهد بالثقوش والتصاوير .

ليس هذا موضع وصف قصور بني أمية في البادية لاسيما في البلقاء عن شرقي بحيرة لوط التي اكتشفها في العشر السنين الأخيرة علماء المشرقيات وألفوا فيها الكتب الضخمة النفيسة . وبعض تلك الأبنية والقصور ورد

(١) الصنبرة موضع بين طبرية ونهر الأردن عند محل خروج النهر من بحيرة طبرية .
 (٢) حوارين موضع بين دمشق وتدمر على مرحلتين من تدمر وبها مات يزيد بن معاوية سنة ٦٤ هـ .
 (٣) مشارب جمع مشربة وهي العروة العلية .

أسمائها في نفس تأليفات العرب القديمة وأشعارهم مثل الموقر والقسطل والزيزاء
 وفديين وأبائر والنجزاء والأزرق والأغذف وبعضها لا نعرف إلا أسماءها المتداولة
 في أيامنا عند أهل تلك البراري وأقخرها وأفخمها قصير عمرة المزخرف
 حيطانها بالتصاوير الملونة العجيبة وهو مما بناه الوليد بن عبد الملك
 (٨٦٠ - ٧١٥) والمشتى (أو المشتى على نطق الأعراب) ذو النقوش
 البديعة المحفوظة الآن في أحد متاحف برلين وهو على الرأي المرجح
 المقبول قصر بناه يزيد بن عبد الملك (٧٢١ - ٧٢٤) ليعيش فيه مع جاريتيه
 حباة ولم يتيمه لموت عشيقته الذي سبق قتله ببسير^(١). فمن اعتبر تلك
 الأبنية استجاد قول عثمان بن الوليد بن عمارة القرشي بعدما ذكر فعل الدهر
 بملوك بني أمية^(٢).

فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم قفراً سوى الذكر والآثار إن ذكرُوا

استطردت قليلاً بهذا البيان لأهميته ولا أرى في ذلك ضرراً لأنني في
 هذا المختصر الصغير السابق للبحث المستقصى عن بعض المسائل الخاصة
 أحب إيجاز الكلام فيما هو معروف والإطناب فيما هو غير متداول وإن عديمت
 موازنة أجزاء البيان . - أما خلاصة ما شرحته في الصحف السابقة فإثبات
 ما هو آت: ١ أن معظم الذين انتقلوا من جزيرة العرب إلى بلاد الشام للإقامة
 بها في زمان الفتح وبعده كان من أهل القبائل لا سيما اليمانية أو المنسوب
 أصلها إلى اليمن . ٢ إن رجال قريش المرتحلين إلى أنحاء الشام كانوا من

(١) خطأ جرجي أفندي زيدان حين نسب بناء المشتى والقسطل وقصور غيرهما إلى بني هسان
 (كتاب العرب قبل الإسلام ج ١ ص ١٩٥ من طبعة مصر ١٩٠٨ ثم في مقاله في حوران المدرجة
 في مجلة الهلال السنة التاسعة عشرة عدد ديسمبر ١٩١٠ ص ١٤٣ - ١٤٤) وإنما اخطأ برجم رجمه
 دوسو (Dumaud) في أول اكتشاف تلك المباني وهو ظن فاسد كما أظهره بعد روسو علماء المشرقيات .
 (٢) حماسة البحتري ص ١٣٤ سطر ١ من طبعة ليدن أو ص ٨٩ عدد ٤٠٠ من طبعة بيروت .

أهل العقد والحلّ مشغولين بأمر السلطان والسياسة والحرب لا يتعاطون الشعر على محبتهم له وتعظيمهم لقائليه . ٣ إنَّ سكَّانَ المدن الشامية الكبرى وهم سريان وروم لم يزلوا مدَّةً طويلة بعد الفتح قليلى المعرفة باللغة العربيَّة غيرَ معتنين بشعرها وعلى مثل ذلك فى العراق إلاَّ أنَّ سكَّانها الأصليين فرس وآراميون . ٤ إنَّ الأعراب المهاجرين إلى الشام والعراق سواء كانوا من الخواصَّ أم من العوامِّ لم يزلوا هائمين ببوادي أوطانهم كارهين عيشة المدن والإقامة بها . - فإن كان الأمر كذلك لم نتعجب أنَّ الشعراء الوافدين إلى خلفاء بنى أمية وأمراءهم فى القرن الأوَّل صاغوا نظمهم فى قالب شعر من سلف من فحول شعراء الجاهليَّة ونهجوا طرُقهم فى عمل القصائد على الأسلوب القديم فى المديح والافتخار والحماسة والنسيب والهجاء وذكر الخمر .

أجمع علماء اللغة والأدب على أنَّ الذين أدركوا أسمى منزلة فى الشعر العربى فى أيام بنى أمية ثلاثة : الأخطل والقورزديق وجريير وهم من أهل القبائل ومن شعراء الصنف الثالث الذى نحن بصددده . وأقدمهم سناً الأخطل (١) الذى لا نعرف سنة ولادته ولا سنة موته على وجه التحقيق (٢) وما يُستخرج من المصادر القديمة الموثوق بها إنَّما هو أنَّ الأخطل أخذ يشتهر فى الشعر وهو شابٌّ على عهد معاوية (٤١ - ٦٠) كما يظهر أيضاً من ديوانه وأنَّه مات فى خلافة الوليد بن عبد الما الذى تولَّى الأمر من سنة ٨٦ إلى سنة ٩٦ . وكان نصرانياً كمُعظم بنى تغلب (٣) وهم قبيلة عظيمة

(١) واسمه غياث بن غوث بن الصلت التغلبى .

(٢) قال الأب صالحانى فى مقاله التى سماها الأخطل ومصقلة بن هبيرة (فى مجلة المشرق ج ١٤ سنة ١٩١١ ص ٨٢٣ - ٨٤٣) إنَّ الأخطل ولد فى سنة ٦٢٩ - ٦٣٠ بالتقريب ومات سنة ٧١١ تقريباً وفى هذه المقالة أيضاً بحث نقدى فى فن الأخطل .

(٣) وهم من الذين وصفوا المسيح بالطبيعة الإلهية فقط (Monophysites)

من ربعة سكنت في القرن الأول قسماً كبيراً من برية الجزيرة أعنى القسم
المحدود بحدار الموصيل وسنجان شمالاً ونهر دجلة شرقاً ومدار تكريت وعانة
ونهر الفرات جنوباً ونهر الخابور غرباً وهي برية متسعة جداً يقطعها نهر
الثرثار . ولكن لولا ما يُروى في كتاب الأغاني من تمسكه يدينه ومن احترامه
ونخضوعه التام لرؤساء ديانته^(١) ولولا الأبيات الثلاثة التي قالها إنكاراً لدُعاء
عبد الملك إياه إلى الإسلام^(٢) ثم لولا ما قال فيه جرير معرضاً به^(٣) هاجياً
له لتشككنا فيه بعد مطالعة ديوانه أهو مسلم أم نصراني . فإنه مزج أحياناً
الديانتين فقال^(٤) :

إِنِّي وَرَبُّ النِّصَارِيِّ عِنْدَ عِيَدِهِمْ وَالْمُسْلِمِينَ إِذَا مَا ضَمَّهَا الْجُمُعُ
وَرَبُّ كُلِّ حَبِيسٍ فَوْقَ صَوْمَعَةٍ يُمَسِّي وَلَا هَمَّهُ الدُّنْيَا وَلَا الطَّمَعُ
لَقَدْ مَدَحْتُ قُرَيْشًا وَاسْتَعْنْتُ بِهِمْ إِذَا مَا أَنَامُ إِذَا مَا صُحْبَتِي هَجَعُوا

وقال يهجو بني أسد^(٥) :

فَأَمَّا تَمَنِّيكُمْ قُرَيْشًا فَإِنَّهَا مَصَابِيحُ يَرْمِيهَا بَعِينِيهِ نَاطِرُ
فَمَا أَنْتُمْ مِنْهَا وَلَكِنَّكُمْ لَهَا عَبِيدُ الْعَصَا مَا دَامَ لِلزَّيْتِ عَاصِرُ
فَمَا خُتِمَتْ أَكْتَانُكُمْ لِنُبُوءَةٍ وَأَسْتَاهُكُمْ قَدْ أَنْكَرَتْهَا الْمُنَابِرُ

(١) كتاب الأغاني ج ٧ ص ١٧٩ و ١٨٢ و ١٨٣ من طبعة بولاق .

(٢) ديوان الأخطل ص ١٥٤ سطر ٢ - ٤ من طبعة بيروت سنة ١٨٩٢ [١٩٢٥] .

(٣) ديوان جرير ج ١ ص ١١ سطر ٤ و ص ١١٧ و ١٣٤ ج ٢ ص ٢٩ و ٥٦ و ٨٠

و ١٤٩ من طبعة مصر ١٣١٣ [أو ص ٢١ سطر ٢ و ص ٢٦٢ و ٢٩١ - ٢٩٢ و ٤١٤

و ٤٥٠ و ٤٧٤ و ٥٧٦ من طبعة مصر ١٣٥٤] .

(٤) ديوان ص ٧١ - ٧٢ من الطبعة المذكورة .

(٥) ديوان الأخطل ص ٣١٦ وانظر أيضاً حواشي الأب صالحاني ص ٥٠٠ . أما الشطر الثاني

من البيت الثاني فراجع بيت جرير :

يا خزر تغلب إن اللزوم حالفكم ما دام في مارددين الزيت يتنصر

في ديوانه ج ١ ص ١١٧ من طبعة مصر ١٣١٣ [أو ص ٢٦٣ من طبعة مصر ١٣٥٤] .

وقال أيضاً^(١) .

إِنِّي حَلَفْتُ بِرَبِّ الرَّاغِصَاتِ وَمَا
وَبِالْهَدْيِ إِذَا أَحْمَرْتُ مَذَارِعَهَا
وَمَا بِزَمْزَمَ مِنْ شُمَطٍ مُحَلَّقَةٍ
لَأَلْجَأَنَّ قُرَيْشٌ خَائِضًا وَجِلًّا
أُضْحَى بِمَكَّةَ مِنْ حُجْبٍ وَأَسْتَارِ
فِي يَوْمِ ذَبْحٍ وَتَشْرِيقِ وَتَنْحَارِ
وَمَا بِبَيْتِ رَبِّ مِنْ عُونٍ وَأَبْكَارِ
وَوَلَّتْنِي قُرَيْشٌ بَعْدَ إِقْتَارِ
وقال أيضاً^(٢) :

وَقَدْ حَلَفْتُ بِمَيْمَنًا غَيْرَ كَاذِبَةٍ
وقال في الوليد بن عبد الملك^(٣) :
خَلِيفَةُ اللَّهِ يُسْتَسْقَى بِسُنَّتِهِ
وقال حالفاً^(٤) :

حَلَفْتُ بِمَنْ تُسَاقُ لَهُ الْهَدَايَا
وَمَنْ حَلَّتْ بِكَعْبَتِهِ النُّذُورُ
ولعلَّ لسانَ حالِ هذه الأبيات في شعر الأخطل قولُ القاضي عبد الوهاب
ابن عليّ البغداديّ في مدينة بغداد^(٥) :

ظَلِمْتُ حَيْرَانَ أَمْشَى فِي أَزْقَتِهَا
كَأَنِّي مَصْحَفٌ فِي بَيْتِ زَنْدِيقِ
ولكنّها وإن كاذبت من أغرب الغرائب باديّ نظر تُعْقَلُ إِذَا تَدَكَّرْنَا مَا
شَرَحْتُهُ فِي إِحْدَى الصِّحَافِ السَّابِقَةِ مِنْ قَلَّةِ الْعَوَاطِفِ الدِّينِيَّةِ عِنْدَ أَهْلِ الْوَبْرِ

(١) ديوان ص ١١٩ - هدى ما أهدى إلى الحرم من النعم وقيل هو جمع هدى - مدارع قوائم
- أشمط الذي شعر رأسه أبيض وأسود - العون جمع العوان وهي المرأة النصف في سنها والتي كان لها زوج .

(٢) ديوان ص ١٨٤ .

(٣) ديوان ص ١٨٥ - بسنته بوجهه وطرائفه - مولى العلم معطيه - منتخب يعني الله .

(٤) ديوان ص ٢٠٤ .

(٥) المتوفى سنة $\frac{427}{1045}$ - البيت مروى في وفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٤١١ من طبعة غوثيين

أو ٣٧٣ من الطبقات المصرية وفي فاكهة الخلفاء لابن عربشاه ص ٢٠٨ من طبعة موصل سنة ١٨٦٩ .

ثم إذا افتكرنا في ورود مثل تلك العبارات والأيمان في شعر الأقدمين الذين أراد الأخطل أن ينهج مناهجهم ويحذو حذوهم ثم إذا لاحظنا أن جميع تلك الأبيات الإسلامية المذكورة وردت في قصائد في مدح بني أمية، ومن الجدير بالذكر أيضاً أن عدى بن زيد العبادي النصراني الذي عاش في عهد الجاهلية حسب ما مر ذكره قد سبق الأخطل في مزج ديانتين حيث قال^(١) :

سعى الأعداء لا يألون شراً عليك ورب مكة والصليب

ويروي أبو الحسن علي بن محمد المدائني المتوفى سنة ٢١٥ وقيل ٢٢٥ أو ٢٣١ أن بني بكر بن وائل بالكوفة كانت إذا تشاجرت في شيء رضيت بالأخطل وكان يدخل المسجد فيقدمون إليه^(٢). فمن هذا القبيل أيضاً قصة الأخطل مع عكرمة بن ربيع الفياض في مسجد الكوفة رواها صاحب الأغاني عن نفس المدائني^(٣)، وليس ذلك بغريب في ذلك العصر لأن من أدمن الفكر في النصوص والشواهد القديمة عرف أن المساجد لم تُخصَّص أولاً بالأمور الدينية بل كانت أيضاً مجالس للقوم وأندية يتباحث فيها الناس عن مصالح الجماعة السياسية وغيرها من الأمور الدنيوية فلم يُمنع النصراني عن المرور والوقوف بها^(٤). أما تخصيص المساجد بالصلاة وما يتعلق بالدين فابتدأ في أيام بني العباس وهو أيضاً زمان حضر الخطبة على المنبر في أمور الدين^(٥).

(١) كتاب الأغاني ج ٢ ص ٢٤ من طبعة بولاق أو شعراء النصرانية ص ٤٥١ .

(٢) كتاب الأغاني ج ٧ ص ١٧٩ . (٣) كتاب الأغاني ج ٧ ص ١٨٧ .

(٤) راجع LAMMENS, *Etudes sur ... Mo'awia ler*, P. 8 n., 19 n., 58 n., 205 n., 372, 435-436

(٥) راجع GOLDZIEHER, *Der Chatib bei den alten Arabern* (Wiener Zeitschr. der Kunde des Morgenlandes VI, 1892) P. 99-101; G.H. BECKER, *Die Kanzel im kultus des alten Islam* (Orientalistische Studien Th. Noldeke gewidmet, Giessen 1906) p. 331-351.

أما اتصال الأخطل بخلفاء بني أمية وأمرائهم فأشهر من أن أحتاج إلى وصفه في هذا المختصر فأقتصر على ذكر سبب ابتداء ذلك الاتصال لما فيه من الدلالة الواضحة على بقاء كثير من عوائد القدماء وأميالهم عند العرب المهاجرين إلى بلاد الشام في القرن الأول . قد تشبب عبد الرحمن بن حسان بن ثابت، الأنصاري أو بالأحرى أظهر أن يتشيب برملة بنت الخليفة معاوية وقال فيها شعراً مروياً في كتاب الأغاني^(١) كاد يهتك به عرشها والمرجح أنه فعل ذلك لبغضه للأمويين . فغضب يزيد بن معاوية وطلب من كعب بن جعيل التغلبي أن يهجو الأنصار كلهم فأبى خوفاً منهم ودل على الأخطل . فأحضره يزيد وأمره بهجاء الأنصار فقال فيهم الأبيات المشهورة^(٢) . وإن في ذلك لنظراً لأنكم لو سمعتم هذا الخبر مجرداً عن أسماء أصحابه لظنتم أنه من روايات عرب الجاهلية لما فيه من استعمال الهجاء مدافعة عن العرض بل من عم قوم الخصم قاطبة بالهجاء والإقذاع . وفي ديوان الأخطل أبيات أخرى يهجو بها الأنصار والسبب في ذلك سياسي لأن الأنصار سوى نضر قليلين تحزبوا لعلي بن أبي طالب وقاتلوا معاوية في يوم صفين ثم لم يزاوا مبيغضين بني أمية إلى أواخر القرن الأول .

إن الأقطاب التي يدور عليها ديوانه هي مدح الخلفاء والأمراء من بني أمية وهجاء أعدائهم من العلويين والأنصار وأصحاب عبد الله بن الزبير والافتخار بحروب جرت بين قومه وقوم القيسيين وذكر الخمر وما في شرها من اللذات . أما المراثي فلا يوجد منها في ديوانه إلا قطعة واحدة وهي أربعة

(١) كتاب الأغاني ج ١٣ ص ١٤٨ و ج ١٤ ص ١٢٢ من طبعة بولاق .

(٢) ديوان الأخطل ص ٣١٤ وبسبب المراقبة العنانية ألغيت الأبيات في نسخ الديوان المطبوع غير المرسلة إلى أوروبا مع ورودها في الأغاني ج ١٣ ص ١٤٨ و ج ١٤ ص ١٢٢ وفي كتاب العقد الفريد ج ٣ ص ١١٢ من طبعة ١٣٠٥ فنقلها الأب لامنس إلى اللغة الفرنسية في مقاله *Le chantre des Omindas (Journal Asiatique, sér. IX, t. IV, 1894) P. 195.*

أبيات يروى بها يزيد بن معاوية وهذا عجيب^(١) . ومن مدائحه الشهيرة القصيدة التي مطلعها^(٢) :

خَفَّ القَطِينُ فراحوا منك أو بكرُوا وَأزعجتهم نَوَى في صَرَفِهَا غَيْرُ
وهي أفخر ما قيل من الشعر باللغة العربية .

من المشهور أن الأخطل كان معاقراً للخمر كأنه رأى أنها تجود قريحة الشاعر فقال مرة للمتوكل الليثي الشاعر : « لو نبحت الخمر في جوفك كنت أشعر الناس » . وفي ديوانه ما نصه^(٣) : « قال له عبد الملك وما بلغ منك الشراب . قال يا أمير المؤمنين إذا شربتها فالموت أهون علي من شسع نعل . فقال له قل فيه شعراً وإلا ضربت عنقك » . فقال^(٤) .

إذا ما ندمي عَلى ثم عَلى ثلاث زُجاجاتٍ لهن هديرُ
جعلتُ أجْرُ الذَّيْلِ مني كأنني عليك أمير المؤمنين أميرُ

أما على ظني فالمرجح أنه لم يتعاط الخمريات لمحض حبه للخمر وأن غرضه في نعوت الحميا وأوصافها كان أيضاً الاقتداء بكثير من شعراء الجاهلية

(١) ديوان ص ٢٨٩ ونقلها الأب لانس في مقاله المذكورة سابقاً ص ١٣٩ - ١٤٠ وأول من نبه إلى ذلك هو الأب أ . صالحاني ص ٣٤٥ في ترجمة الأخطل .

(٢) ديوان ص ٩٨ - ١١٢ . (٣) ديوان ص ١٥٤ .

(٤) ديوان ص ١٥٤ . والبيتان مرويان أيضاً في الأثافي ج ٢١ ص ٤ سطر ٢٢ - ٢٣ وفي زياد (يعني زياد ابن أبيه المثنوي سنة ١٥٦ و ١٥٧) بدلا من ندمي وزهواً بدلا من مني وخرجت بدلا من جعلت و ص ٥ سطر ٨ - ٩ بروايتي خرجت وزهواً - ويوجد معنى مثل معنى الشطر الأخير في بيتي المنخل اليشكري من شعراء الحيرة (كتاب البيان للجاحظ ج ٢ ص ١٤٨ - ١٤٩ من طبعة مصر ١٣١٣ وشعراء النصرانية ص ٤٢٤ والشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٣٩ من طبعة ليدن وحماصة أبي تمام ص ٢٦٦ - ٢٦٧ من طبعة بن أوج ج ٢ ص ٤٨ من طبعة بولاق) :

فإذا سكرت فإني رب الخورنق والسدير
وإذا صحوت فإني رب الشوية والبعر

أما جر ذيل المطرف فهو دليل على القضب والافتخار فراجع ما يروى في كامل المبرد ص ٢٧ من طبعة ليسك أوج ١ ص ٢٢ - ٢٣ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٤ من الأبيات والأحاديث النبوية [وغير ذلك ما أورده الأستاذ نلينو في *Raccolta di scritti* ج ٢ ص ٢٦٠ حاشية ١] .

البارعين كما اقتدى بهم في سائر أفانين شعره . ولعلّه إلى ذلك أشار بقوله في
أوّل إحدى خمريّاته (١) :

شربنا فمئنا ميتةً جاهليّةً مضي أهلها لم يعرفوا ما محمدٌ
وعلى منوال القدماء النوايغ لم يأت بالنسب إلا في أوائل القصائد غير
أنّه في نسبه سلك أحياناً مسلكاً غير المألوف في قصائد الجاهليّة البارعين
فبدلاً من أطلال قوم معشوقته ذكر فيه الفتيات ذوات شكل ودلال مثل قوله
في قصيدة هجاها جريراً وافتخر على قيس (٢) :

وتغولت لثرونا جنيّةً والغانيات يُرينك الأهوالاً
يمدّدن من هفواتهنّ إلى الصبى سبباً يصدّن به الغواة طوالاً
ما إن رأيت كمْكرهنّ إذا جرى فينا ولا كحباليهنّ حبالاً
المهديّات لمن هوين مَسْبَةٌ والمُحسِنات لمن قلّين مقالاً
يرعّين عهدك ما رأيتك شاهداً وإذا ملّدت يصيرنّ عنك مِذالاً ...

ثم من الحرى بالاعتبار قول عمر بن شبّة المتوفى سنة ٢١٢/٨٧٦ : كان ممّا
يقدم به الأخطل أنه كان أخبثهم هجاء في عفاف من الفحش . وقال
الأخطل ما هجوت أحداً قط بما تستحي العذراء أن تُنشدّه أباهاً (٣) . وهذا
القول صحيح إن تركنا أربعة أو خمسة أبيات من هجائه فخالف
الأخطل في عفافه هذا أساليب كثير من السلف ومعاصريه الشهيرين جرير
والفرزدق والذين ملّوا هجاءهم ما يستنكف ذو أدب من إنشاده وتنبو
عنه الآذان .

(١) ديوان ص ٣٢١ .

(٢) ديوان ص ٤٢ - ٤٣ وانظر أيضاً ص ٩٩ - ١٠٠ في القصيدة التي قالها يملح بنى أمية .

(٣) كتاب الأغاني ج ٧ ص ١٧٨ من طبعة بلاق .

قد سبق تلميح إلى نقائص الأخطل وجرير وكان سبب اضطرام نار
العداوة بينهما مناضلة الأول عن الفرزدق لما أخذ جرير يهجو . والفرزدق
واسمه همام بن غالب كان من بني دارم حى من تميم أقامت بنواحي البصرة
بعد الفتح الإسلامى فولد في أواخر خلافة عمر بن الخطاب المتوفى سنة $\frac{22}{644}$
أما سنة مماته بالبصرة فاختلفت فيها الرواة فقال بعضهم سنة ١١٠ وبعضهم
سنة ١١١ أو ١١٢ أو ١١٤^(١) . وكان كأكثر أهل البادية رحالاً ينتقل
من موضع إلى موضع ويكره الإقامة الطويلة بمحل ؛ فنجده تارة بالبصرة وتارة
بالكوفة ومرّة بالمدينة ومرّة في أرض البلقاء من الشام وافداً على خلفاء بني أمية
مثل الوليد وسليمان ابني عبد الملك وعمر بن عبد العزيز . ويلوح مما جآنا
من أخباره وأشعاره العديدة أنه كان على جيد شعره دفة النفس فمدح
من نال منه الجوائز وهجا من لم يشدّف منه ما رجا فربّما بعد الثناء الوافر
على أحد الكبار في قصيدة أخذ يشتمه شتماً قبيحاً في قصيدة أخرى . فأطراً
مرّة عمر بن هبيرة الفزاريّ وإلى العراق بعد موت الحجاج بن يوسف وعدّ
مفاخر قومه ثم بدّل المدح سباً فقال فيه وفي بني فزارة شعراً بشعاً^(٢) وهجا

(١) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٧٨٨ من طبعة غوتنجن أو عدد ٧٥٥ من الطبقات
المصرية وقال صاحب كتاب الأغاني (ج ١٩ ص ٦) في رواية عن أبي زيد النحوي : « وتوفى
الفرزدق في سنة عشر ومائة في خلافة هشام ($\frac{105}{734} - \frac{125}{734}$) وجرير والحسن وابن سيرين في ستة أشهر .
وحكى ذلك عن جماعة منهم الفلاب عن ابن عائشة عن أبيه » وقال في نفس الجزء (ص ٤٥) « وقال أبو زيد
مات الحسن وابن سيرين والفرزدق وجرير في سنة عشر ومائة . . . وهذا غلط من أبي زيد وابن شبة لأن
الفرزدق مات بعد يوم كاظمة وكان ذلك في سنة اثني عشرة ومائة وقد قال فيه الفرزدق الشعر وذكره في
مواضع من قصائده ويقوى ذلك أيضاً ما أخبرنا به وكيع قال : حدثنا عمر بن محمد بن عبد الملك الزيات
قال : حدثني ابن النطاح عن المدائني عن أبي اليقظان وأبي همام المهاشمي أن الفرزدق مات سنة أربع عشرة
ومائة » ثم قال في ص ٤٦ : « وقال ابن زكرياء الفلاب عن ابن عائشة قال : مات الفرزدق وجرير في سنة
عشرة (كذا) ومائة ومات جرير بعده بستة أشهر ومات في هذه السنة الحسن البصري وابن سيرين »
وفي ص ٤٨ : « قال أبو عبيدة ومات الفرزدق في سنة عشر ومائة » . ويقال في كل الروايات إن جريراً
توفى بعد خصمه .

(٢) في المدح : ديوان ص ١٧٨ - ١٧٩ من طبعة باريس ١٨٧٠ بعناية Boucher الذي
نقل أيضاً القصائد إلى اللغة الفرنسية [أو ص ٢٨٠ - ٢٨٢ من طبعة مصر ١٢٥٤] ولا توجد
هذه القصيدة في طبعة مصر ١٢٩٣ - في الهجاء : ديوان ص ١٧٩ - ١٨١ من طبعة باريس [أو ص
٢٨٢ - ٢٨٦ من طبعة مصر ١٢٥٤] ولا توجد في طبعة مصر ١٢٩٣ . وروى التبريزي في شرحه على =

في بضع قصائد آل المهلب بن أبي صفرة الأزدي من أشهر بيوتات البصرة
وقال مثلاً^(١) .

وَجَدْنَا الْأَزْدَ مِنْ بَصَلٍ وَثُومٍ وَأَذْنَى النَّاسِ مِنْ دَتْسٍ وَعَارٍ
صَرَارِيُونَ يَنْضِحُ فِي لِحَاهِمُ نَفْيُ الْمَاءِ مِنْ خَشَبٍ وَقَارٍ

مع ما يليها من الكلام القدير الذي يستقبح إيراده هنا . ولكن لم يمنع
هذا وهجاء آخر مثله عن الثناء على آل المهلب حين تغيرت منزلته عندهم
فقال مثلاً^(٢) :

لَأَمْلَحَنَّ بَنِي الْمَهْلَبِ مِدْحَةً غَرَاءَ ظَاهِرَةً عَلَى الْأَشْعَارِ
مِثْلَ النُّجُومِ أَمَامَهَا قَمَرٌ لَهَا يَجْلُو الدُّجَى وَيُضِيءُ لَيْلَ السَّارِ
وَرِثُوا الطَّعَانَ عَنِ الْمَهْلَبِ وَالْقِرَى وَخَلَاتِقًا كَتَدْفُقُ الْأَهَارِ
كُلَّ الْمَكَارِمِ عَنِ يَدَيْهِ تَقَسَّمُوا إِذْ مَاتَ رِزْقُ أَرَامِلِ الْأَمْصَارِ
كَانَ الْمَهْلَبُ لِلْعِرَاقِ سَكِينَةً وَحَيَا الرَّبِيعِ وَمَعْقِلَ الْفُرَارِ

وكان علويًا قلما حج هشام بن عبد الملك في أيام أبيه والتقى في الطواف
زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وقال هشام لا أعرفه

= حساسة أبي تمام (ص ١٩٢ من طبعة بن أوج ١ ص ٢٠٥ من طبعة بولاق) يتبين من هذه القصيدة التي
تحتوي على ٣٧ بيتاً .

(١) ديوان ص ٨٥ - ٨٦ من طبعة باريس أو ١٧٥ - ١٧٦ من طبعة مصر ١٢٩٣
[أو ص ٢٥٢ - ٢٥٤ من طبعة ١٣٥٤] وانظر HELL, *al-Farzadak's Lieder auf die Muhallabiten* (*Zeitschrift der deutschen morgenlaendischen Gesellschaft*, 59, 1905, P. 595-600)
et SCHWARZ, *al-Farzadak's Lieder auf die Muhallabiten* (*Zeitsch. d. deutschen morgenlaend.*
Gesell., 74, 1919 P. 80-85). - الصراري الملاح - أما الأزدي فهم ماكنون على شاطئ البحر في عمان .
(٢) ديوان ص ٤٦٥ من طبعة ليدن ١٩٠١ بعناية Hell [ص ٣٧٤ - ٣٧٥ من طبعة
مصر ١٣٥٤] ولا تروى هذه القصيدة في الطبعين الآخرين . ويجمع J. Hell كل القصائد التي
يمدح الفرزدق فيها آل مهلب أو يهجوهم في المقالة المسماة *al-Farzadak's Lieder auf die Muhallabiten*
المطبوعة في المجلة *Zeitschrift der deutschen morgenlaendische Gesellschaft* ج ٩٥ ص ٥٨٩ - ٦٢١
وج ٦٠ ص ٤٨ - ٤٩ . [وقد أعتنى P. Schwarz بتصحيح هذه المقالة في المجلة نفسها ج ٧٣ سنة ١٩١٩
ص ٨٠ - ١٢٦] .

مخافة أن يرغب فيه أهل الشام ، قال الفرزدق وهو كبير السن قصيدة
غراء مدح بها زين العابدين وأولها^(١) :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم هذا التقي النقي الطاهر العلم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله بجده أنبياء الله قد ختموا
وليس قولك من هذا بضائره العرب تعرف من أنكرت والعجم

ومنها :

إذا رآته قريش قال قائلها إلى مكارم هذا ينتهي الكرم
يغضي حياءً ويغضي من مهايته فما يكلم إلا حين يبتسم

فغضب هشام وحبس الفرزدق بين مكة والمدينة . بيد أن ميله هذا إلى
العلويين وعبد الله بن الزبير لم يمنعه عن سبك الأشعار الرائقة في مدح
الأمويين ووصفهم أحياناً فيها بعبارات دينية أصبحت كأنها ضالّة في أثناء
مثل تلك القصائد المنسوجة على أساليب عرب الجاهلية . فقال في سليمان

(١) ديوان ص ١٩٨ - ١٩٩ من طبعة مصر ١٢٩٣ (٢٧ بيتاً) [أو ص ٨٤٨ - ٨٤٩
من طبعة سنة ١٣٥٤ (٦ أبيات)] ولا توجد هذه القصيدة في طبعة باريس فالنظر أيضاً كتاب الأغاني
ج ١٩ ص ٤٠ - ٤١ (٢٠ بيتاً) ووفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٧٨٨ من طبعة غوثنجن أو ٧٥٥
من طبعات مصر (٢٧ بيتاً وترتيبها غير ترتيب أبيات الديوان) ومن الغريب أن هذه القصيدة منسوبة إلى
الحزبن الليثي (وهو عمرو بن عبد بن وهيب) الذي « قالها في علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب » في
حماسة أبي تمام ص ٧١٠ - ٧١١ من طبعة بن أو ج ٤ ص ٨٢ - ٨٣ من طبعة بولاق (٦ أبيات)
وكتاب الأغاني ج ١٤ ص ٧٧ (٣ أبيات) ولكن صاحب الأغاني في نفس هذا الجزء ص ٧٨ يقول إنها
للفرزدق ويروي ٧ أبيات فقال التبريزي في شرحه على الحماسة : « ويقال إنها للفرزدق » .

وروي بيتان منها في كتاب الشعر لابن تينة (ص ٧ من الطبعة الليديّة) هكذا : « كقول
القائل » وقيل في بعض النسخ : « في بعض بني أمية » والأبيات مروية أيضاً لداود بن سلم أو خالد
ابن يزيد في قم بن العباس أو علي بن الحسين (كتاب الأغاني ج ١٤ ص ٧٨ - ٧٩) وروي الجاحظ في
كتاب الحيوان ج ٣ ص ٤٦ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٥ أربعة أبيات قالها « الشاعر في بعض بني
مروان » .

ابن عبد الملك ($\frac{96}{717} - \frac{99}{720}$) (١) :

وبالمسجد الأقصى الإمام الذي أهدى به من قلوب الممترين ضلالها
به كشف الله البلاء وأشرقت له الأرض والآفاق نحس هلالها
ومنها :

وجدنا بني مروان أوتاد ديننا كما الأرض أوتاد عليها جبالها
وأنتم لهذا الدين كالقابلة التي بها أن يضل الناس يهدى ضلالها

وقال يمدح هشام بن عبد الملك ($\frac{105}{724} - \frac{125}{743}$) (٢) :

وما تركت كفاً هشام مدينة بها عوج في الدين إلا تقوماً
يودى إليه الخرج من كان مشركاً ويرضى به من كان لله مسلماً

وقال في يزيد بن عبد الملك ($\frac{101}{720} - \frac{105}{724}$) (٣) :

ورثت ابن حرب وابن مروان والدي به نصر الله النبي محمداً
تري الوحش يستخيبه إذ عرفته له فوق أركان الجرائم سجداً
ومنها :

ولو صاحبت الأنبياء ذور النهي رأوة مع المالك العظيم المسوداً

وقال يمدح هشام بن عبد الملك (٤) :

رأيت بني مروان يرفع ملكتهم ملوك شباب كالأسود وشيبيها

(١) ديوان ص ١٣ و ص ١٦ سطر ٩ - ١٠ من طبعة باريس أو ص ١٤٣ و ١٤٤ من طبعة مصر ١٢٩٣ [أو ص ٦١٩ و ٦٢٣ من طبعة ١٣٥٤] .

(٢) ديوان ص ٣٢ من طبعة باريس [أو ص ٧٥١ من طبعة ١٣٥٤] ولا توجد القصيدة في طبعة ١٢٩٣ .

(٣) ديوان ص ١٨٤ من طبعة باريس [أو ص ١٦٩ - ١٧٠ من طبعة ١٣٥٤] والقصيدة غير موجودة في طبعة ١٢٩٣ .

(٤) ديوان ص ١٥٤ من طبعة باريس [أو ص ٦٣ من طبعة ١٣٥٤] العودان منبر النبي

بِهِمْ جَمَعَ اللهُ الصَّلَاةَ فَاصْبَحَتْ قَدْ اجْتَمَعَتْ بَعْدَ اخْتِلَافِ شَعُوبِهَا
وَمَنْ وِثُّ الْعُودِينَ وَالخَاتَمِ الَّذِي لَهُ الْمَالِكُ وَالْأَرْضُ الْفَضَاءُ رَحِيْبُهَا

أما سائر مدائحه ابني أمية فجارٍ في قالب المدح الجاهلي الخالص وربما
اجترأ الفرزدق بهجاء نفس الخلفاء مثل قوله حين أعطى معاوية الحنات بن
يزيد المجاشعي من أصدقاء الشاعر أربعين ألف درهم فلم يخرج الحنات من
دمشق حتى مات فرد المال إلى بيت المال فقال الفرزدق (١) :

أَتَأْكُلُ مِيرَاثَ الْحُنَاتِ ظَلَامَةً وَمِيرَاثَ حَرْبِ جَامِدٍ لَكَ ذَائِبَةٌ
أَبُوكَ وَعَمِي يَا مَعَاوِيَ أَوْرَثَنَا تَرَاثًا فَبَحْتَازُ التُّرَاثِ أَقَارِبُهُ
فَاوْ كَانَ هَذَا الْمَدِينُ فِي جَاهِلِيَّةٍ عَرَفْتَ مِنَ الْعَوَالِي الْقَلِيلُ حَلَابَةٌ
وَلَوْ كَانَ هَذَا الْأَمْرُ فِي غَيْرِ مُلْكِكُمْ لِأَبْنَدِيَّتُهُ أَوْ غَضَّ بِالْمَاءِ شَارِبُهُ
وَكَمْ مِنْ أَبِي لِي يَا مَعَاوِيَ لَمْ يَكُنْ أَبُوكَ الَّذِي مِنْ عَبْدِ شَمْسٍ يُقَارِبُهُ

إن هذا الكلام السفيف غريب جداً من رجل جعل شعره مكسباً وطعم في
هدايا الملوك والأكابر ولكنه على ذلك معقول إذا تأملنا أحوال الملك
والمسلمين المنتقلين إلى أراضي الشام والعراق بعد الفتح . كان معظم العرب
المسلمين في تلك الأنحاء من أهل القبائل فلم يزالوا هناك على ما كانوا اعتادوه
منذ الزمان القديم من العوائد والأخلاق والأفكار والآراء سوى الدينية
فما برح ينبض عنهم عرق العصبية فما فتئوا مولعين بالحرية والاستقلال
التام قليلي الطاعة غير منقادين لا يفهمون وجوب قوة شديدة وحيدة وأمر

(١) ديوان ص ٧٠ من طبعة باريس أو ص ١٦٧ - ١٦٨ من طبعة ١٢٩٣ [أو ص ٤٩
من طبعة ١٣٥٤] وراجع أيضاً كتاب الأغاني ج ١٩ ص ٣٧ وتاريخ الطبري ج ٢ ص ٩٧ من
طبعة لندن . ويروي في ديوان ص ١٢٤ من طبعة باريس أو ص ١٩٢ من طبعة مصر ١٢٩٣
[أو ص ٧٨١ من طبعة ١٣٥٤] بيتان يهجو بهما هشام بن عبد الملك الذي تولى الأمر وهو ابن أربع
وثلاثين سنة ولذلك قال الشاعر إنه « غلام » .

متين مطاع لإثبات مملكة واسعة محتوية على أمة مختلفة ولدفاع سطوات العدو عنها . إنهم كانوا يعتبرون منزلة الخليفة في جملة الأمة الإسلامية كمنزلة السيد البدوي في قومه أعنى أن أمير المؤمنين على رأسهم إنما كان رجلاً وكتلة الجماعة به بالسؤدد وتولى مصالحها فلا يطاع إلا بما رضيت الجماعة به . فلو أراد الخليفة إلزامهم مثل ما ألزم أهل الحضرة المتمدينين لما بلغ مرامه بل أثار الفتن والعصيان وعرض المملكة على خطر عظيم . وفطن بذلك معاوية لما جُبل له من البراعة والحيلة في أمور السياسة فتحمل من أعرابه ما لم يتحمّله من غيرهم كما يتضح من عدة أخبار متفرقة في كتب قديمة مثل تأليفات الجاحظ . وعيون الأخبار لابن قتيبة والعقد الفريد لابن عبد ربه وتاريخ الطبري وغيرها . فجعل الحلم والصبر أساس معاملته الأعراب كأنَّ حكمة سيرته القول المنسوب إلى علي بن أبي طالب : «حلمك على السفيه يُكثِر أنصارك عليه»^(١) . ولكنَّ حلمه ذلك الذي وُصف به في القصائد والكتب لم يكن عنده الشفقة والرحمة بل إنما كان العقل وقهر الغضب كلما صلح له قهره فلماذا السبب لم يكن يحقُّ إن مخاطبه أحد الأعراب قائلاً يا ابن عمي مكان يا أمير المؤمنين لمصاهرة معاوية في قبائل قيس وكنب ولا غضب إذا ردَّ كلامه بما يُحمَل على قوانين أدب أهل البادية وإن لم يُحمَل على مقتضى أدب المتمدينين . وكان معاوية يقول : «إني لا أحملُ السيفَ على مَنْ لا سيفَ معه وإن لم تكن إلا كلمةً يشتفي بها مشتفٍ جعلتها تحت قدمي ودبر أذني»^(٢) . والحق يقال إن هذا النوع من الحلم كان له أوثق الوسائل وأنفعها لاستمالة أهل القبائل وقيادتهم والنجاح

(١) انظر العقد لابن عبد ربه ج ١ ص ١٦٥ من طبعة مصر ١٣٠٥ .

(٢) كتاب الكامل للمبرد ص ٤٠ من طبعة ليبسك أوج ١ ص ٣٣ من طبعة مصر ١٣٢٢ -

فبما لم ينجح فيه قبله علي بن أبي طالب^(١) . فاقتدت به كثير من الخلفاء
والأمراء الأمويين فقال عبد الله بن الزبير الشاعر في بشر بن مروان^(٢) :
وطأنت لنا دين النبي محمد
بجلمك إذ هرت سفاهاً كلابها
وقال أيضاً^(٣) :

أقام لنا الدين القويم بجلمه ورأي له فضل علي كل قائل
فإذا يعتل إمكان قول الفرزدق المذكور سابقاً ويعقل أيضاً قول الأخطل
لما شكنا إلى عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦) إغارة سليم على تغلب يوم
البشر^(٤) :

لقد أوقع الحجاف بالبشر وقعة إلى الله منها المشتكى والمعول
فسائل بني مروان ما بال ذمة وحبل ضعيف لا يزال يوصل ..
فإن لا تغيرها قريش بملكها يكن عن قريش مستماز ومزحل
فلنرجع إلى الفرزدق . ومن الجدير بالذكر من شعره لندرة ورود مثله
في قصائد شعراء هذا الصنف أبيات دينية أدرجها في قصيدة مدح بها الوليد
ابن عبد الملك (٨٦ - ٩٦) وذكر هدمه بيعة النصاري بدمشق وجعله
إياها مسجداً^(٥) :

فرقت بين النصاري في كنائسهم ، والعابدين مع الأسحار والعتم
وهم معاً في مصلاهم وأوجههم شتى إذا سجدوا لله والصنم
وكيف يجتمع الناقوس : يضربه أهل الصليب مع القراء لم تنم

(١) راجع LAMMENS, *Etudes sur ... Mo'avia lor* . chap. V, P. 66-108.

(٢) كتاب الأغاني ج ١٣ ص ٤٥ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب الأغاني ج ١٣ ص ٤٥ .

(٤) ديوان الأخطل ص ١٠ - ١١ ، الحجاف شاعر بني سليم ورئيسهم - يرجع الضمير
في يديرها إلى حال محذوف - استأذ انتقل من مكان إلى مكان .

(٥) ديوان ص ١٠٨ من طبعة باريس أو ص ١٨٥ من طبعة مصر ١٢٩٣ [أو ص ٧٦٨
من طبعة مصر ١٣٥٤] - الملك المهدي هو سليمان (عم) فراجع القرآن سورة ٢١ (الأنبياء) ٧٨ - ٧٩ ..

فُهَمَّتْ تحويلها عنهم كما فهما إذ يحكمان لهم في الحرث والقنم
 داود والملِكُ المهديُّ إذ حكما أولادها واجتزاز الصوفِ بالجَم
 فهَمَك اللهُ تحويلاً لبيعتهِم عن مسجدٍ فيه يُتلى طيبُ الكلمِ
 وخلافاً للأخطل قد تعاطى الفرزدق الرثاء وسبك فيه عدّة قصائد . وعذله
 جرير^(١) لحبّه لشرب الخمر ولكنه لم يقل فيها إلا شعراً قليلاً جداً أعنى
 ثلاثة أبيات وردت في ديوانه^(٢) وتُشبه خمريات أبي نواس ثم أربعة أبيات
 رويت في كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة^(٣) وخرزانه الأدب لعبد القادر
 البغدادي^(٤) . أما الغزل فله فيه قصيدة طويلة^(٥) ومقطعتان^(٦) غير أنها
 جميعها في غاية الخلاعة والفسق لا سيما المقطعتان الشبيهتان بمجون
 أبي نواس . فحتم القصيدة قائلاً^(٧) :

فيا ربُّ إن تغفِرْ لنا ليلة النقا فكلُّ ذنوبِ أنتَ ياربُّ غافِرُهُ

(١) ديوان ج ١ ص ١٢٢ سطر ٢٠ من طبعة مصر ١٣١٣ [أو ص ٢٧١ سطر ٢ من طبعة ١٣٥٤] والنقائض ص ٥٤٣ سطر ١٥ من طبعة ليدن .

(٢) ديوان ص ٦٦ من طبعة باريس أو ص ١٦٥ - ١٦٦ من طبعة مصر ١٢٩٣ [أو ص ١٥ من طبعة ١٣٥٤] وهذا نص الأبيات :

وإجانة ربي الشروب كأنها إذا اغتمسبت فيها الزجاجة كوكبُ
 مختمة من عهد كسرى بن هرمز بكرنا عليها والفراريج تنعبُ
 سبقت بها يوم القيامة إذ ذنا وما للصبأ بعد القيامة مطلبُ
 (٣) ص ٢٩٤ من طبعة ليدن .

(٤) ج ٢ ص ٩٠ من طبعة بولاق ١٢٩٩ . وراجع أيضاً لسان العرب ج ١٨ ص ٦ من طبعة بولاق .

(٥) ديوان ص ٩٩ - ١٠٢ من طبعة باريس أو ١٨٢ - ١٨٤ من طبعة مصر ١٢٩٣ [أو ٢٥٥ - ٢٦٢ من طبعة مصر ١٣٥٤] .

(٦) ديوان ص ٢٢٩ - ٢٣٠ من طبعة باريس [أو ٣٠٨ - ٣٠٩ و ٨٩٤ - ٨٩٥ من طبعة مصر ١٣٥٤] ولا توجد المقطعتان في طبعة مصر ١٢٩٣ .

(٧) ديوان ص ١٠٢ سطر ٥ من طبعة باريس [أو ص ٢٦٢ من طبعة مصر ١٣٥٤] وهذا البيت غير موجود في طبعة مصر ١٢٩٣ .

وربما افتخر بقبيلته وهي تميم فجعلها فوق سائر الناس حتى قال (١) :
وأفضل من يمشى على الأرض حيناً وما ضمنت في الداهيين قبورها ...
ولو أن أرض المسلمين يحوطها سوانا من الأحياء ضاعت ثغورها
لنا الجن قد دانت وكل قبيلة يدين مصلوها لنا وكفورها
وأراد أيضاً الفخر بنفسه فحيث إنه كان من أجبن الناس لم يقدر
على تخليد ذكر مآثره في الحرب فاكتفى بوصف ذبحه الغنم للقري كأنه
واصف قتالاً شديداً وملحماً هائلاً مرعباً (٢) . وكان الفرزدق من أهجى
الشعراء فكاد الهجاء يملاً نصف ديوانه وهو هجاء بشيع قبيلح كله شتم سافل
وتعيير وابتهار في الأخوات والأمهات وقذف للمحصنات الغافلات توافق
بذاعة ألفاظه دناءة معانيه . ولعله تاب إلى الله أحياناً وهو ميسر في سوء هجائه
فيروى في ديوانه أن رجلاً من موالى باهلة يقال له حمام أعطى الفرزدق
نجياً من سجن بشرط أن يهب له أعراض قومه ففعل الفرزدق وهجا إبليس
في قصيدة كأنه (٣) ملهم ما قد مر من أهاجيه . ومن هذه القصيدة :

ألم تركى عاهدت ربي وإننى لبين رتاج قائم ومقام
على قسم لا أشتم الدهر مسلماً ولا خارجاً من في سوء كلام
ألم ترنى والشعر أصبح بيننا ذروة من الإسلام ذات حوام ...

(١) ديوان ص ١٦٧ من الطبعة الباريسية [أوص ٢٧٣ من طبعة مصر ١٣٥٤] ولا تروى القصيدة في طبعة مصر ١٢٩٣ .

(٢) ديوان ص ٥٨ من طبعة باريس أوص ١٦٣ من طبعة مصر ١٢٩٣ [أوص ٨٩٢ من طبعة مصر ١٣٥٤] .

(٣) ديوان ص ١٠٩ - ١١١ من طبعة باريس أوص ١٨٦ - ١٨٧ من طبعة مصر ١٢٩٣ [أوص ٧٦٩ - ٧٧١ من طبعة مصر ١٣٥٤] ويروى البيت الأول والثاني والثالث في ديوان جرير (ج ٢ ص ٦٩ من طبعة مصر ١٣١٣) وفي شرح اليزيدي على النفاث ج ١ ص ١٢٦ من طبعة ليدن أما الأحوال التي قال الشاعر فيها هذه القصيدة لما يحكى فيها في الديوان مختلف عما يحكى في النفاث . - الرتاج الباب العظيم وهنا باب الكعبة ومقام إبراهيم - دروه جمع دره وهو نادر يندر من الجبل - حوام جمع حامية ، ونحى زق السن .

ومنها :

لعمري لنعم النحى كان لقومه
بتوبة عبدٍ قد أناب فإِذْهُ
أطعْتُك يا إبليس سبعين حِجَّةً
فررتُ إلى ربِّي وأيقنتُ أنّي
عَشِيَّةً غَبَّ البَيْعِ نِحْيُ حُمَامٍ
وما كان يُعْطَى النَّاسَ غيرَ ظَلَامٍ
فلَمَّا انتهى شَيْبِي وتمَّ تَمَامِي
مُلاقٍ لِأَيَّامِ المَنُونِ حِمَامِي...

ومنها :

ألا طال ما قد بيتٌ يُوضِعُ ناقِي
يُظَلُّ يُمْنِي على الرَّحْلِ فارِكاً
يبشُرِي أن لَنْ أَموتَ وَأَنَّهُ
ولكن لا شكَّ أنَّ إبليس عاد يزور الشاعر بعد مدة قليلة لأنَّه لم يزل
يهجر الناس إلى مماته .

قال يونس بن حبيب التحوي المتوفى سنة ١٣٢ أو ١٣٣ : «لولا شعر
الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب» (١) . والحق يقال إنَّ شعره أوفر ألفاظاً من
شعر الأخطل (٢) . إلا أنَّ الفرزدق كان أيضاً أكثر الشعراء تنحلاً فسرق
أبيات السابقين والمعاصرين . بدون حياءٍ بل اضطرَّ أحياناً بعض الشعراء إلى
ترك شيء من شعرهم له (٣) كأنَّه أحقُّ به .
لا يُتصوَّر الكلام على الأخطل والفرزدق بدون ذكر معاصرهما ونخصمهما

(١) كتاب الأغاني ج ١٩ ص ٤٨ .

(٢) راجع J. HELL, *al-Farazdaq's Lieder auf die Muhallabiten* (Zeitschrift der deutschen morgenlandischen Gesellschaft, 59, 1905) p. 590,2.(٣) انظر كتاب الأغاني ج ١٦ ص ١١٦ وج ١٩ ص ٢٢ - ٢٣ (فيه أربعة أبيات للي الرمة)
وج ١٩ ص ٣٦ (بيت لشمرل) وج ١٩ ص ٧ (بيتان لابن ميادة) والعمدة لابن رثيق ج ٢
ص ٢١٨ - ٢١٩ من طبعة مصر ١٣٢٥ (الفرزدق وجميل) .

الشهير أعنى جريراً . وهؤلاء الثلاثة كلهم من شعراء الصنف الثالث على ترتيبنا وهم الذين حكم لهم إجماع أهل الأدب بحوز قصب السبق في أيام بني أمية . وجرير بن عطية بن الخطفي من بني كليب حتى من تميم كان على المحتمل من أهل اليمامة^(١) وبها مات وقبره ولكنه عاش على الغالب بالبصرة وغيرها من مدن العراق ولازم الحجاج بن يوسف وكان من جملة الشعراء الذين أكثروا الثناء عليه . وأختلف في تاريخ مماته فقيل إنه توفي سنة ١١٠ وقيل سنة ١١١ وقيل أيضاً إنه مات بعد الفرزدق بشهور قليلة^(٢) . ومن المثبت^(٣) أنه قد صاغ أشعاره الأولى في مدة خلافة معاوية بن أبي سفيان (٤١ - ٦٠) في قصيدة نسجها في هذه المدة وصف نفسه كأنه قد أدرك آخر الشباب^(٤) :

لقد خبرتني النفس أني مُزِيلٌ شَبَابِي وَوَضَلَ المُنْفِسَاتِ الأَوَانِسِ
وموضوع جميع ديوانه ثلاثة : الهجاء والمديح والرثاء . والرثاء يسيرٌ وكلّ مقطعة منه لا تشتمل إلا على أبيات قليلة لا تتجاوز أحياناً عدد اثنين أو ثلاثة^(٥) . والمديح في الحجاج بن يوسف حين كان والياً على العراق بعد أن

(١) كتاب الأغاني ج ١٩ ص ٤٦ : « ونسبت جريراً إلى البصرة لكثرة قدومه إليها من اليمامة وقبر جرير باليمامة وبها مات » .
(٢) كتاب وفيات الأعيان عدد ١٢٩ من طبعة غوتنجن أو ١٢٧ من الطبقات المصرية وكتاب الأغاني ج ١٩ ص ٦ و ٤٥ و ٤٦ وأنظر أيضاً ما قلته في تاريخ موت الفرزدق ص ١٥٨ حاشية ١ .
(٣) كتاب الأغاني ج ٧ ص ٥٩ من طبعة بولاق ومقدمة الأستاذ Bevan للنقائض ص ١٧ حاشية ١ .
(٤) للنقائض عدد ١٦ بيت ٢ (ج ١ ص ٢٦) وديوان جرير ج ١ ص ١٥٣ سطر ٤ من طبعة مصر ١٣١٣ [أو ص ٣٢٨ من طبعة مصر ١٣٥٤] - النفس كل شيء له قدر وخطر وقال شارح النقائض إن المنفسات هي العظايا الأقدار .
(٥) ديوان ج ١ ص ٨٢ و ٩٢ - ٩٣ و ٩٦ و ٩٨ و ١٢٥ و ١٣٧ و ١٤١ و ١٥١ - ١٥٢ و ١٦٩ - ١٧٠ و ج ٢ ص ٢١ - ٢٢ و ٣٩ و ٤١ و ١٠١ و ١١٣ من طبعة ١٣١٣ [ورويت في طبعة مصر ١٣٥٤ اثنتان وعشرون مرثية فانظر ص ٥ من الفهرست] .

أطفأ لهيب الفتن هناك فقال فيه جرير مثلاً^(١) :

دعا الحجاجُ مثلَ دعاءِ نوحٍ فأسمعَ ذا المعارجِ فاستجابا...
ولو لم يرَضَ ربُّك لم يُنزلْ مع النصرِ الملائكةَ الغضابا
إذا سَعَرَ الخليفةُ نارَ حربٍ رأى الحجاجَ أنقَبها شهابا
ترى نصرَ الإمامِ عليك حقاً إذا لبسوا بدينهم ارتيابا...
عفاريتُ العراقِ سُفِيتَ منهمُ فأمسوا خاضعينَ لك الرقابا

وأعاد تشبيه الحجاج بأحد الأنبياء المنذرين في قصيدة أخرى قال فيها^(٢) :

رأى الحجاجُ عافيةً ونصراً على رغمِ المنافقِ والحسودِ
دعا أهلَ العراقِ دعاءَ هودٍ وقد ضلُّوا ضلالةَ قومِ هودِ
كأنَ المرَّجفينَ وهمُ نشاوى نصارى يلعبون غداة عيدِ
وظنُّوا في اللقاءِ لهمُ رواحاً وكانوا يصعقون من الوعيدِ

ومدح عبد الملك بن مروان $(\frac{75}{785} - \frac{86}{715})$ ومَنْ خَلَفَهُ مِنْ خَلْفَاءِ بَنِي
أُمِيَّةٍ إِلَى هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ $(\frac{125}{743} - \frac{115}{724})$ فَأَدْرَجَ فِي تِلْكَ الْمَدَائِحِ أحياناً
عباراتٍ دينيةً وإشاراتٍ قرآنيةً مثل ما فعل الفرزدق فمن هذا القبيل ما قال
في عمر بن عبد العزيز^(٣) :

خليفةَ اللهِ ماذا تُأمرون بنا لسنا إليكم ولا في دارٍ منتظر
أنتَ المباركُ والمهدى سيرتهُ تعصى الهوى وتقوم الليلَ بالسور
أصبحتَ للمنبرِ المعمورِ مجلسهُ زيناً وزينَ قبابِ المُلِكِ والحجرِ
نالَ الخلافةَ إذ كانت له قَدراً كما أتى ربُّه موسى على قَدَرٍ

(١) ديوان ج ١ ص ٩ من طبعة مصر ١٣١٣ [أوص ١٦ من طبعة ١٣٥٤].

(٢) ديوان ج ١ ص ٤٦ من طبعة ١٣١٣ [أوص ١٢٠ من طبعة ١٣٥٤].

(٣) ديوان ج ١ ص ١٢٥ من طبعة ١٣١٣ [أوص ٢٧٥ من طبعة ١٣٥٤].

وقال يمدح الوليد بن عبد الملك^(١) :

فَأَنْتَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ خَلِيفَةٌ وَبِئْسَ نَعْدُ لِلَّهِ بِالْحَقِّ عَارِفٌ
 هَذَا الَّذِي يَهْدِي الْخَلَائِقَ لِلتَّقَى وَأَعْطَيْتَ نَصْرًا لَمْ تَنْلُهُ الْخَلَائِفُ
 وَأَدَّتْ إِلَيْكَ الْهِنْدُ مَا فِي حَصُونِهَا وَمِنْ أَرْضِ صِيْنِيسْتَانَ تُجْبَى الطَّرَائِفُ
 وَأَرْضَ هِرَقْلٍ قَدْ قَهَرْتَ وَدَاهِرًا وَتَسَعَى لَكُمْ مِنْ آلِ كَسْرَى النَّوَاصِفُ
 وَذَلِكَ مِنْ فَضْلِ الَّذِي جُمِعَتْ لَهُ صَفُوفُ الْمُصَلَّى وَالْهَيْدِيُّ الْعَوَاكِفُ

وفي قصيدة أخرى يمدح الوليد بن عبد الملك أيضاً قال^(٢) معرضاً بهدم

كنيسة النصارى بدمشق الذي تقدم قول الفرزدق فيها :

وَلَقَدْ سَمَرْتُ إِلَى النَّصَارَى سَمَوَةً رَجَفَتْ لَوَقَعَتِهَا جِبَالُ الدَّيْلَمِ
 إِنَّ الْكَنِيسَةَ كَانَ هَدْمٌ بِنَائِهَا نَصْرًا فَكَانَ هَزِيمَةً لِلْأَحْرَمِ
 فَارَأَيْتَ رَبُّكَ إِذْ كَسَرْتَ صَلِيْبَهُمْ نَوْرَ الْهَيْدِيِّ وَعَلِمْتَ مَا لَمْ تَعْلَمِ

ولكن أكثر مدائحه لا تنفك أن تجرى مجرى شعر الجاهلية في مدح

سادة القبائل والأشراف . ومما نتعجب منه في نظم شاعر مثل جرير هو نوع
 الافتخار الوارد في إحدى قصائده بعد ما ذكر فخر الفرس والروم بملوكهم
 السالفين فقال وهو افتخار إسلامي محض فريد في ديوانه المصوغ في قالب
 القدماء^(٣) :

(١) ديوان ج ٢ ص ١٣ - ١٤ من طبعة ١٣١٣ [أوص ٢٨٤ - ٢٨٥ من طبعة ١٣٥٤]

ويجد مثل هذه العبارات الدينية في قصائد قالها في الخلفاء وأمرائهم (راجع ديوان ج ١ ص ٦١ و ٦٥ و ٧٣ و ١٠٧ من طبعة ١٣١٣ [أوص ١٥٣ و ١٥٩ و ١٧٦ و ٢٤٣ من طبعة مصر ١٣٥٤] .

(٢) ديوان ج ٢ ص ٨٥ من طبعة ١٣١٣ [أوص ٤٩٣ من طبعة ١٣٥٤] - أكرم الذي شق

وترة أنفه وهو لقب ملك من ملوك الروم واسمه Justinianus الثاني فليراجع ما يحكى المسعودي في الباب السادس والتسعين من مروج الذهب (ج ٥ ص ٣٨١ - ٣٨٢ من طبعة باريس) في هدم البيعة والأخرم .

(٣) ديوان ج ١ ص ١٠٧ من طبعة مصر ١٣١٣ [أوص ٢٤٣ من طبعة ١٣٥٤] أو النقااض

عدد ١٠٤ بيت ٢٧ - ٢٤ ج ٢ ص ٩٩٤ - ٩٩٥ من طبعة لندن .

أبونا أبو إسحاق يجمع بيننا
ومنا سليمان النبي الذي دعا
وموسى وعيسى والذي خرّ ساجداً
ويعقوبُ منا زاده الله حكمةً
فيجمعنا والغرُّ أبناء سادة
أبونا خليل الله والله ربنا
بنتى قسلة الله التي يهتدى بها

أبٌ كان مهدياً نبياً مطهراً
فأعطى تبياناً ومُلْكاً مسخراً
فأنبت زرعاً دمع عينيه أخضرا
وكان ابنُ يعقوب أميناً مصوراً
أبٌ لا نبالي بعده من تعذراً
رضينا بما أعطى الإله وقدرنا
فأورثنا عزاً ومُلْكاً معمرنا

وشتان ما بين هذا القول وبين الافتخار المعتاد في سائر أشعار جرير المقتضى

أثر الأقدمين مثل أبياته في الأخطل^(١) :

إن الذي حرّم المكارم تغلباً
مُضراً أبي وأبو الملوك فهل لكم
هذا ابن عمي في دهشني خليفة
لو شئتُ ساقكم إلى قطينا

جعل النبوة والخلافة فينا ...
يا خزر تغلب من أب كآبينا

وكمثل الأخطل لم يصنع جرير الشعر في الغزل أبداً لبعده عن أساليب

أهل القبائل فيروى في كتاب الأغاني^(٢) أنه قال في شعر عمر بن أبي ربيعة :

شعرٌ تهاجى إذا أنجد وجد البرد . وسمع مرة بعض الأبيات لعمر بن أبي ربيعة
فأعجبته فقال : ما زال هذا القرشي يهتدي حتى قال الشعر . وهذا يوافق

ما أوضحت في إحدى الصفحات السابقة من الفرق بين شعر المدن الحجازية وشعر

أهل الوبر في القرن الأول للهجرة . - أما النسب في أوائل القصائد

فعاطاد جرير في الأغلب على منوال أشعار الجاهلية وذكر الأطلال والدن

(١) ديوان ج ٢ ص ١٥١ من طبعة مصر ١٣١٣ [أرص ٥٧٨ - ٥٧٩ من طبعة ١٣٥٤] وانظر أيضاً الكامل للمبرد ص ٥٢٦ من طبعة ليبسك أوج ٢ ص ١١٩ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٤ .

(٢) كتاب الأغاني ج ١ ص ٣٨ و ٧٢ من طبعة بولاق وراجع المقدم لابن عبد ربه ج ٣ ص ١٣٣ سطر ٢ - ٤ من طبعة مصر ١٣٥٥ وفيه تحريف - تهاجى يعنى مكيا ومن المشهور أن مكة في التهامية ، وهنئ تكلم بغير معقول لمرض أرغيره .

والأسمى والعاذلات ولكنّه ربّما عدل عنه كأنّه مقتد ببعض قصائد الأنخل
فجاء بذكر الغواني الفاتنات ذوات دلال وجمال . ومن هذا القبيل^(١) :

إنّ الغواني قد قطعن مودتي بعد الهوى ومنعن صفو المشرب
وإذا وعدتك نائلاً أنخلفنه وجعلن ذلك مثل برق الخلب
يُبديين من خلل الحجال سوافاً بيضاً تُزين بالجمان المذهب
أعناق عاطية الغصون جوازي يبحثن بالأذى عروق الخلب

ولعلّ ثلثي شعر جرير في الهجاء وهو في الأغلب هجاء لاذع جداً
لا تخلو إحدى مقطعاته أو قصائده عن قذف النساء بالقواحش وعن الكلام
السافل البذيء المستقبح مثل الوارد في أهجى الفرزدق . قال ابن رشيق
القيرواني في كتاب العمدة^(٢) : «وأنا أرى أنّ التعريض أهجى من التصريح
لاتّساع الظنّ في التعريض وشدة تعاق النفس به والبحث عن معرفته وطلب
حقيقته فإذا كان الهجاء تصريحاً أحاطت به النفس علماً وقبائته يقيناً
في أوّل وهلة فكان كلّ يوم في نقصان لِنسيان أو ملل » . ولكن لم يكن
هذا رأى شعراء الصنف الذي نحن بصدده فقال نفس ابن رشيق : «وجميع
الشعراء يرون قصر الهجاء أجود وترك القحش فيه أضوب إلاّ جريراً فإنه
قال لبنيه إذا مدحتم فلا تُطيلوا المادحة وإذا هجوتهم فخائفوا » . ومن المشهور

(١) ديوان ج ١ ص ١٠ من طبعة ١٣١٣ [أوص ١٨ - ١٩ من طبعة ١٣٥٤] - الخلب
السحاب لا مطر فيه كأنه يخدع الشائم ويقال لمن يعد ولم ينجز : إنما أنت كبرق خلب (كبرق الخلب)
خلل جمع خلة وهي الثقب - حجال جمع حجلة وهي ستر العروس في جوف البيت وفي الصحاح :
«بيت يزين بالثياب والأسرة والستور» - سواف جمع سالفة وهي صفة العنق وقيل ناحية مقدمها من
لذن معلق القرط إلى قلت الترقوة وهما سالفتان - الجوازي الوحش بأمره لاستغنائها بالكاذب عن كثرة الماء -
الأدى موضع في أواسط جزيرة العرب - حلب نبت ينبت في القبط بالقيعان وشطآن الأودية ويلزق بالأرض
حتى يكاد يسوخ وإنما يأكله الشاء والظباء ويدبغ بها . وفي البيت الثالث قرأت « بالجمان » بدلا من
« بالجمال » كما في الديوان - فانظر نسياً ثانياً في ديوانه ج ١ ص ١١٣ من طبعة ١٣١٣ [أوص ٢٥٤
من طبعة ١٣٥٤] .

(٢) كتاب العمدة ج ٢ ص ١٤٠ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

أَنَّ جَرِيرًا لَمْ يَنْفَكْ يَهْجُو غَيْرَهُ مِنَ الشُّعْرَاءِ وَعَشَائِرِهِمْ طَوِيلَ عَمْرِهِ فَقَالَ
الْأَصْمَعِيُّ (١) : « كَانَ يَنْهَشُهُ ثَلَاثَةَ وَأَرْبَعُونَ شَاعِرًا فَيَنْبِذُهُمْ وَرَاءَ ظَهْرِهِ
وَيُرِي بِهِمْ وَاحِدًا وَاحِدًا وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَنْفُخُهُ (٢) فَيُرِي بِهِ وَثَبِتَ لَهُ الْفَرَزْدَقُ
وَالْأَخْطَلُ . فَذَكَرَ بَضْعَ أَنْصَابِهِ مِنَ الشُّعْرَاءِ فِي قَصِيدَةٍ قَالَ فِيهَا (٣) :

خَزْرِي الْفَرَزْدَقُ وَالْأَخْطَلُ قَبْلَهُ وَالْبَارِقُ وَرَاكِبُ الْقَصْوَاءِ
وَالْأَعْوَزِيُّ نَبْهَانَ كَأْسٍ مَرَّةً وَلَتَيْمٍ بَرَزَةَ قَدْ قَضَيْتُ قَضَائِي
وَلَقَدْ تَرَكْتُ أَبَاكَ يَا أَبْنَ مَسْحَبٍ حَطَمَ الْقَوَائِمَ دَائِي السُّيَّاءِ
وَالْمُسْتَشِيرَ أَجِيرُ بَرَزَةَ عَائِلًا أَمْسَى بِالْأَمِّ مَنْزِلَ الْأَحْيَاءِ
وَبَنُو الْبَيْعِثِ ذَكَرْتُ حُمْرَةَ أُمِّهِ فَشَفَيْتُ نَفْسِي مِنْ بَنِي الْحَمْرَاءِ

وإذا تأملنا حكاية ابتداء التحام التهاجي بين جرير والفرزدق خلطناها
من روايات زمان الجاهلية . فهي أَنَّ الْأَهْجِيَّ كَانَتْ تَدُورُ بَيْنَ جَرِيرِ وَالْبَيْعِثِ
مِنْ بَنِي مَجَاشِعِ رَهْطِ الْفَرَزْدَقِ فَلَمَّا أَحْسَسَتْ بَنُو مَجَاشِعِ بَغْلِيَّةَ جَرِيرِ عَلَى
شَاعِرِهِمْ وَبَلَّغَهُمْ فُحْشُ جَرِيرِ بِنَسَائِهِمْ اضْطَرُّوا الْفَرَزْدَقِ إِلَى الدُّخُولِ بَيْنَهُمَا
فَفَعَلَ كَارَهَا فَاكْتَنَى أَوْلًا بِالِدِفَاعِ عَنْ عَشِيرَتِهِ بَدُونَ ذِكْرِ جَرِيرِ وَلَا شَتْمِ
بَنِي كَلْبِيبِ فَأَجَابَهُ جَرِيرٌ وَصَاوَلَهُ وَعَشِيرَتَهُ صَوْلَةً شَدِيدَةً فَالْتَهَبَ نِيرَانُ

(١) كتاب الأغاني ج ٧ ص ٤٠ من طبعة بولاق .

(٢) وفي طبعة دارالكتب المصرية ج ٨ ص ٨ يتفخه بالخاء المهملة بدلا من ينفخه بالخاء المعجمة
وهو على ظني الأصح .

(٣) ديوان ج ١ ص ٦ من طبعة ١٣١٣ [أر ص ١١ من طبعة ١٣٥٤] . - البارقي هو سراقه
ابن مرداس البارقي - القصواء ناقة للمرار بن منقلد من بني العلوية (انظر كتاب الأغاني ج ٧ ص ٤٦) -
أهور نهبان اسمه نعيم بن شريك وقيل حريث بن عناب وقيل سحمة بن نعيم وقيل سحيم بن شريك
(انظر النقاظ ج ١ ص ٣١ - ٣٢ والاشتقاق لابن دريد ص ٢٣٦ سطر ٦ ولسان العرب ج ١٧ ص
٢١٥) - تيم برزة يعني صمر بن بختا التيمي وبرزة اسم أمه (انظر لسان العرب ج ٧ ص ١٧٤ سطر ٦) -
المستشير بن صبرة العبدي - البيعث الهاشمي ويقال له ابن حمراء العجان (انظر نقاظ عدد ٣٣ بيت ٢٩
و ٣١ و ٣٦ و ٦٣ و ٦٥ مثلا) .

شرَّ العداوة بين الشعاعين . ومن بعض الأخبار ونفس القصائد يُستخرج أن ابتداء ذلك كان بعد موت يزيد بن معاوية $\frac{64}{683}$ بقليل وقد مضى لكليهما عُقُورَان الشَّباب^(١) . أمَّا مدَّة هذا التهاجي بينهما فأطوَّل من أربعين سنةً لأننا نَعثر في إحدى قصائد الفرزدق فيه على ذكر خلافة هشام بن عبد الملك الذي ابتداءً يتربَّى الأمر سنة $\frac{105}{721}$ ^(٢) .

من المشهور أن نقائض جرير والفرزدق قد جُمعت بعناية أبي عبيدة معمر بن المثنى النسيّ المتوفى سنة ٢٠٧ ثم انكبَّ على شرحها غيره من علماء اللغة حتى وصلت إلينا بشرح أبي عبد الله محمد بن العباس اليزيدي المتوفى سنة ٣٠٠ رواية عن الحسن بن الحسين السُّكَّري المتوفى سنة ٢٧٥ عن أبي جعفر محمد بن حبيب المتوفى سنة ٢٤٥^(٣) . فلا أحد يجهل أن النقيضة في اصطلاح علماء اللغة والأدب هي قصيدة ينسجها شاعر نقضاً لما قاله شاعر آخر بشرط أن يحفظ. بَحَرَ وروى القصيدة التي يخالفها ويعارضها . ونقائض جرير والفرزدق بالرواية المذكورة عبارة عن كتاب ضخيم يتضمَّن ١١٣ قصيدةً منها ٦٢ لجرير و ٣٨ للفرزدق و ٦ للمبغيث المجاشعي و ٥ لغسان بن ذُهَيْل وواحدة لعُقبَة بن مُلَيْص وواحدة لنُعَيْم بن شريك ، وذلك ما عدا الأشعار العديدة المروية في الشرح الوافي الوافر الآتي بقبصص الحوادث وأيام العرب الوارد ذكرها في متن النقائض . وأكثر هذه النقائض لا توجد في ديواني الشعاعين . وأهميتها تتجاوز حدود علم الآداب لأن الشاعر في مثلها دفاعاً عنه وعشيرته وهجوماً على أخصامه « يضطرُّ إلى

(١) انظر مقاله الأستاذ Bevan في مقدمته للنقائض ص ١٧ .

(٢) انظر مقدمة النقائض ص ١٨ - ١٩ .

(٣) انظر مقدمة النقائض ص ١١ - ١٣ . وأدخلت بعض النقائض في ديوان جرير المطبوع

بمصر سنة ١٣١٣ فراجع مقاله Bevan في ص ١٩-٢٠ من مقدمته [وأدخل محمد إسماعيل عبد الله الصاوي كل نقائض جرير والفرزدق الشعاعين في ديوانيهما اللذين اعنى بطبعهما سنة ١٣٥٤] .

تعداد مساوي أعدائه وذكر الأبيام التي توالى بين قومه وقبائل الذين يهجمهم
موضحاً ما آلت إليه أمورهم من التضعضع . فمثل هذه القصائد هي كتاريخ
منها نعلم أحوالهم ونطلع على أخبارهم ونعرف رجالهم المشهورين وقرانهم
المذكورين ونتحقق الأزمنة والأمكنة التي عاشوا فيها . فكم من الأماكن
والبلدان والجبال والوديان والمياه والقرى ورد ذكرها في تلك القصائد وكم من
الأبطال لم نكن نعرف أسماءها لو لم نُعلمهم لنا النقائض (١) .

وفي مكتبة جامع بايزيد بالقسطنطينية نسخة خطية من نقائض الأخطل
وجريير جمعها وشرحها شرحاً صغيراً أبو تمام صاحب الحماسة المتوفى على
القول المرجح سنة ٢٢٨ (٢) . ولكن خلافاً لمجموعة نقائض الفرزدق وجريير
لا يتضمن هذا الكتاب إلا قصائد مثبتة في ديوانى الشاعرين لم يتضح أنها من
النقائض إذا راجعنا كل ديوان على حدة . - ومما يجدر ذكره أن جرييراً
في نقائضه للأخطل كثيراً ما استعمل عبارات وإشارات إسلامية كأنه من
أتقى الناس وسب دين النصارى فقال مثلاً (٣) :

لَعَنَ الْإِلَهَ مِنَ الصَّلِيبِ إِلَهَهُ وَاللَّابِسِينَ بِرَأْسِ الرَّهْبَانِ

(١) قاله الأب أنطون صالحان في مجلة المشرق السنة الثالثة عشرة ١٩١٠ ص ٩٧ :

(٢) راجع ما قاله فيها N. RHODOKANAKIS, über einige Handschriften der öffentlichen Bibliotheken in Konstantinopel (Orientalische Studien Th. Noeldke...gewidmet, Giessen 1906, P. 985-992) والأب صالحان في مقاله المسماه بنقائض جريير والأخطل في المشرق السنة الثامنة ١٩٠٥ ص ٩٧ - ١٠٧ [وطبعت نقائض جريير والأخطل عن نسخة الأستانة الوحيدة في بيروت سنة ١٩٢٢] .
(٣) ديوان ج ٢ ص ١٤٩ من طبعة ١٣١٣ [أو ص ٥٧٦ من طبعة ١٣٥٤] . أما مارسرجس المذكور في البيت الأخير فهو قديس أكرمه بنو تغلب انظر ديوان جريير طبعة ١٣١٣ ج ١ ص ١٣٤ سطر ١٧ و ص ١٣٥ سطر ٨ (حج بنى تغلب لمارسرجس) و ص ١٤٣ سطر ١٥ (استنصر بنو تغلب بمارسرجس وابنه) ثم ج ٢ ص ٢٩ سطر ١٠ (استنصر التغلبيون بمارسرجس) و ص ٥٦ السطر الأخير (دعا الأخطل مارسرجس) [وهذه الأبيات كلها موجودة في طبعة ١٣٥٤ ص ٢٩٢ سطر ١ و ص ٢٩٣ سطر ٢ و ص ٣٠٨ سطر ٣ . و ص ٤١٤ سطر ٣ و ص ٤٥١ سطر ٢] . و راجع أيضاً بيت الأخطل في ديوانه ص ٣٠٩ :

والدابعين إذا تقارب فضحهم
من كل ساجي الطرف أعصل نابه
تغشى الملائكة الكرام وفاتنا
يُعطي كتاب حساب بهياله
أيصدقون بما سرجس وابنه
شهب الجلود نحيسة الأثمان
في كل قائمة له ظلفان
والتغلي جنازة الشيطان
وكتابتنا بأكفنا الإيمان
ويكذبون محمد الفرقان

وغير مرة عيب الفرزدق لما كان
من الكفار على أنه مسلم (١) :

إن الفرزدق حين يدخل مسجداً
إن الفرزدق لا يبالي محرماً
إن الفرزدق في جلاجل كرج
رهط الفرزدق من نصارى تغلب
حجوا الصليب وقربوا قربانكم
رجس فليس طهورة بطهور
ودم الهدى بأذرع ونحور
بعد الأخطل ضرة لجريز
أو يدعوا كذباً دعاوة زور
وتخفوا نصيبكم من الخنزير

ومن هذا الضرب أيضاً (٢) :

ألا قبح الله الفرزدق كلما
فلا يقربن المروتين ولا الصفا
فإنك لو تعطي الفرزدق درهماً
أهل مصل للصلاة وكبراً
ولا مسجد الله الحرام المطهراً
على دين نصرانية لتنصراً

— لا رأونا والصليب طالما وما سرجس وما ناقما

فيص جريد دين النصارى أيضاً في أبيات أخرى فراجع ديوانه ج ١ ص ١١ و ١١٦ و ١١٧ و ١٣٤ و ١٣٥ و ج ٢ ص ٥٦ و ٨٠ و ٨١ من طبعة ١٣١٣ [أر ص ٢١ و ٢٦١ و ٢٦٢ و ٢٩١ و ٢٩٣ و ٤٥٠ و ٤٧٤ و ٤٧٦ من طبعة ١٣٥٤] . وكل الأبيات موجودة في قصائد يهجو فيها الأخطل .

(١) ديوان ج ١ ص ٨١ من طبعة ١٣١٣ [أر ١٩٣ - ١٩٤ من طبعة ١٣٥٤] .

(٢) ديوان ج ١ ص ١١٠ من طبعة ١٣١٣ [أر ص ٢٤٨ من طبعة ١٣٥٤]

وقوله (١) :

وقد لحق الفرزدق بالنصارى لِيَنْصُرَهُمْ وليس به انتصارٌ
ويسجد للصليب مع النصارى وَأَفْلَجَ سَهْمُنَا فلنا الخيارُ
ولكن واضح أن مثل هذا الكلام عند جرير تعصب قومي في الحقيقة
لا تعصب ديني .

اختلفت العلماء في تفضيل بعض هؤلاء الثلاثة على بعض وفي أيهم
المتقدم وأغزرهم بحرًا وأرقهم شعرًا وأهتكهم لعدوّه، فلو أردت إيراد جميع
أقوالهم لأحتجت إلى أفراد درس لهذا الموضوع بغير أن نحصل بعده على
نتيجة لا تنازع في صحتها (٢) . والذي يجتمع على رأي من مراجعة دواوينهم
ونقائضهم أن الأخطل فاق معاصريه في التصرف في النسب الخالي عن
التكلف الصادر عن القلب ثم في فخر المدائح وفي العفاف عن الفحش .
وهو انفرد بتعاطي الخمريات لأن ما للفرزدق من هذا الضرب إنما شيء قليل
جدًا كاد لا يُذكر ، وله الفضل أيضًا في وصف المناظر الطبيعية بصورها
بغاية الإتقان والقوة في التعبير مع وجيز الكلام فيخال القارى أن يشاهدها
فلم يدرك الفرزدق ولا جرير براعته في ذلك (٣) . والفرزدق فاق سائر الثلاثة
في وفرة المراثي وجودتها ورشاققتها ثم في التصرف في اللغة لكنه أحبهم فيما
يُمجّه الذوق السليم من الكلام القدير وأوقحهم تنحّل أبيات غيره ؛ أما هجاء
الفرزدق وجرير فقيل إن أهاجى جرير كلها تدور على أربعة أشياء هي

(١) ديوان ج ١ ص ١٠٥ من طبعة ١٣١٣ [أر ص ٢٣٨ من طبعة ١٣٥٤] .

(٢) راجع الحكاية القريبة عن تشاجر الناس في عسكر المهلب بن أبي صفرة (حين كان يقاتل
الأزارقة بفارس) في مسألة أجرير أشعرام الفرزدق (كتاب الأغاني ج ٧ ص ٣٩ و ٥٥ من طبعة بولاق) .

(٣) انظر في الديوان ص ١٥ مثلا وصف الأذن الوحشية تشرب من مجرى المياه العذبة وأحاطها
إلى الفيضة حيث تخشى الصياد متواريا يترصد لها وفي ص ٢٣٥ سطر ٢ إلى ٢٣٦ سطر ١ وصف الحبير
الوحشية وفي ص ٢٣٠ سطر ٢ إلى ٢٣١ سطر ٧ وصف رحلة الثور في الليل وقتاله للفراء .

القَيْن (١) والزناء وضرب الرومى بالسيف (٢) والنَّفَى من المسجد (٣) ولا يهجو الفرزدق بسوى ذلك . فهو حكمٌ غير منصفٍ قد سبق إلى إبطاله ضياء الدين نصر الله بن الأثير الجزرى وإن بالغ قليلاً في مدافعتة عن جرير (٤) .

ومن الشعراء المُجيدين من هذا الصنف الثالث غيلان بن عُقبَة الشهير بذى الرِّمَّة الذى حُكِمَ له فى الشعر بمنزلة لا تنحط. عن منزلة الثلاثة المتقدمين إلا بشيء يسير . والمعروف من أحوال حياته قليل جداً أعنى أنه كان من قبائل أواسط جزيرة العرب وكان يأتى الحضر فيقيم بالكوفة والبصرة ومدح بلال بن أبى بُردة بن أبى موسى الأشعري وشبب فى شعره بميَّة وخرقاء . أمَّا موته فقال صاحب كتاب الأغاني (٥) إنَّ ذا الرِّمَّة توفى فى خلافة هشام ابن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ / ٧٢٤ - ٧٤٣) وهو ابن أربعين سنة وقال ابن خلكان (٦) إنَّه مات سنة ١١٧ . ودُفِنَ بِرِمَالِ حُزْوَى فى وسط الدهناء بأرض اليمامة . وله ديوان وصل إلينا بروايتين كبيرى وصغرى وكتاهما غير مطبوعتين (٧) والكبرى عبارة عن نحو ثمانين قصيدة ومقطعة وعشر منها أراجيز .

(١) لقب جرير الفرزدق وأصحابه بالقين أى الحداد احتقاراً لهم وفى النقاظص عدد ٣٣ بيت ٤٩ اتقن العراق هو البعث المجاشى .

(٢) أشار إلى الحكاية المروية فى كتاب الأغاني ج ١٤ ص ٨٥ - ٨٨ من طبعة بولاق حين ضرب الفرزدق أسيراً رومياً ضربات بالسيف فلم يصنع شيئاً : انظر أبيات جرير والفرزدق فى حماسة البحرى ص ٧١ من طبعة ليدن أو ص ٤٤ - ٤٥ من طبعة بيروت (عدد ٢٠٣ و ٢٠٥) والنقاظص ص ٤١٣ من طبعة ليدن وفتحاح العلوم لسكاكى ص ٣٠٤ من طبعة مصر ١٣١٧ .

(٣) ديوان ج ١ ص ٥٠ من طبعة ١٣١٣ [أو ص ١٢٨ من طبعة ١٣٥٤] .

(٤) المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ص ٤٩٠ - ٤٩١ من طبعة بولاق ١٢٨٢ أو ص ٣١٥ - ٣١٧ من طبعة مصر ١٣١٢ .

(٥) كتاب الأغاني ج ١٦ ص ١٢٦ من طبعة بولاق .

(٦) وفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٥٣٥ من طبعة غوتنجن أو ٤٩٦ من الطبقات المصرية .

(٧) طبعت رواية الديوان الكبرى فى مدينة Cambridge سنة ١٩١٩ بعناية G.H.M. Macartney

وطبع أيضاً الديوان فى بيروت سنة ١٣٥٢ بعناية بشير يموت .

قال أبو عمرو بن العلاء النحوي^(١) المتوفى سنة ١٥٤ : «إِنَّ الشعرُ
فُتِحَ بِأَمْرِ الْقَيْسِ وَخُتِمَ بِذِي الرِّمَّةِ» وَيُنْسَبُ أَيْضاً إِلَى أَبِي عَمْرٍو بْنِ الْعَلَاءِ
هَذَا الْقَوْلُ^(٢) : «إِنَّمَا شَعْرُهُ نُقِطٌ عَرُوسٌ تَضْمِحِلُ عَمَّا قَالِي وَأَبْعَارٌ ظِبَاءٌ
لَهَا شَمٌّ فِي أَوَّلِ شَمِّهَا ثُمَّ تَعُودُ إِلَى أَرْوَاحِ الْأَبْعَارِ»^(٣) . وَلِعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ
كَيْفَ يَجْتَمِعُ هَذَانِ الْقَوْلَانِ مَعَ مَا فِيهِمَا مِنَ التَّنَاقُضِ الظَّاهِرِ . فَأَقُولُ :
الوَاضِحُ عَلَى ظَنِّي أَنَّ أَبَا عَمْرٍو بِقَوْلِهِ الْأَوَّلِ إِنَّمَا أَرَادَ الشَّعْرَ عَلَى مَنْوَالِ قِصَائِدِ
الْأَعْرَابِ فِي أَيَّامِ الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّ كَانَ هَذَا مِرَادَهُ أَصَابَ قَوْلَهُ لِأَنَّ ذَا الرِّمَّةَ آخِرَ
النَّبَائِغِ الَّذِينَ تَمَسَّكُوا بِأَسَالِيبِ الْقَرِيضِ الْقَدِيمِ لُغَةً وَمَعْنَى وَمَوْضِعاً . فَلَوْ قَرَأَ
مِثْلًا أَحَدٌ قَصِيدَتَهُ الشَّهِيرَةَ الَّتِي مَطَّلَعَهَا^(٤) :

مَا بَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا الْمَاءُ يَنْسَكِبُ كَأَنَّهُ مِنْ كَلِي مَقْرِيَّةٍ سَرَبُ
وَفَرَاغِيَّةٍ غَرْفِيَّةٍ أَثْنَى خَوَارِزَهَا مِثْلُشَلِّ ضَبِيعَتُهُ بَيْنَهَا الْكُتَبُ

وَلَمْ يَعْرِفْ اسْمَ قَائِلِهَا لِخَالَهَا مِنْ نَسِجِ فُحُولِ الْجَاهِلِيَّةِ . فَبَيْنَ شَعْرِ ذِي الرِّمَّةِ
وَبَيْنَ شَعْرِ الْأَخْطَلِ وَالْفَرَزْدَقِ وَجَرِيرِ فَرَقٍ لَا يُنْكَرُ ، فَإِنَّ هَوْلَاءِ الثَّلَاثَةِ
مَتَوَسِّطُونَ بَيْنَ مَسَلِكِ الْقَدَمَاءِ الْمَشْهُورِ وَطَرِيقَةِ الَّذِينَ عَاشُوا بَعْدَ ابْتِدَاءِ
الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ ، وَعَلَى أَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الْقَبَائِلِ أَخَذُوا مِنْ عَوَاطِفِ أَهْلِ الْحَضَرِ
شَيْئاً فَأَتَوْا أحياناً بِعَمَانٍ لَمْ يَسْبِقْ إِلَيْهَا شُعْرَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ وَوَصَفُوا مَا لَمْ يَصِفْهُ
الْقَدَمَاءُ لِعَدَمِ مَعْرِفَتِهِمْ بِهِ ، وَعَدَلُوا عَنْ أَنْوَاعِ التَّوَحُّشِ فِي كَثِيرٍ مِنْ

(١) كتاب البيان للجاحظ ج ٢ ص ١٨٤ من طبعة مصر ١٣١٣ (أوج ٢ ص ٢٧٢ من طبعة
مصر ١٣٥١) والوفيات لابن خلكان في الموضوع المذكور سابقاً .

(٢) كتاب الأغاني ج ١٦ ص ١١٥ (مرتين) وفي الوفيات لابن خلكان في الموضوع المذكور .

(٣) قال صاحب خزائن الأدب ج ١ ص ٥٢ من طبعة بولاق : «قال المبرد معنى قوله فقط عروس
أنها تبقى أول يوم ثم تذهب وبعبر الظباء إذا شمته من ساعته وجدت فيه كرائمه المسك فإذا غب ذهب ذلك
منه . . . وقال الأصمعي إن شعري الرمة حلوارل ما تسمعه فإذا كثر إنشاده ضعف ولم يكن له حسن » .

(٤) جمهرة أشعار العرب ص ١٧٧ - ١٧٨ من طبعة بولاق ١٣٠٨ .

أبياتهم ولينوا كلامهم وإن كانت معظم أشعارهم تدور على المدار القديم. أما ذو الرمة فلم يزل بدويًا محضًا فأفكاره وأمياله وأنواع وصفه ومواقع كلامه جارية مجرى أمثالها عند أعراب الجاهلية لا غير فتعثرون في شعره على كثير من الوحش وغريب الألفاظ. وتجدون فيه أحياناً التراكيب الصعبة الفهم لما فيها من التقديم والتأخير مثل قوله (١):

كأننا على أولادٍ أحقَبَ لاحها ورى السفا أكفأها بسهام
دبورٌ ذوتٌ عنها التناهى وألحقت بها يوم ذبات السبب صيام
وتعاطى الأراجيز مع القصائد وذلك دلالة أخرى على سلوكه مسلك القدماء
حسباً يأتي بيانه عند الكلام على شعراء الصنف الرابع. وكل قصيدة له
لا تخلو عن الوقوف على المنزل الدائر والرسم العاقى وعن ذكر الأسى على ذهاب
القوم بعشوقه الشاعر وانسجام الدموع لذلك ثم عن الكلام على السفر
الشاق الطويل في الرمال والكثبان والمفاوز الهائلة مع الإطناب في وصف المهامه
والليل المرعب وعزيف الجن (٢) في البوادي والحمير الوحشية والصيد والناقة
والأنساع والأزمة وهلم جرا؛ فبعد ذلك يبتدئ الشاعر بالمديح أو الهجاء.
وخلاصة القول أنه لم يخرج عن مناهج فحول الشعراء الوثنيين إلا في النادر

(١) البيتان مرويان في شرح التبريزي على حماسة أبي تمام ص ١١١ من طبعة بن أوج ٣ ص ٨٧ من طبعة بولاق - أما معناها فكان الشاعر قال: « كأننا على أولادٍ أحقَبَ لاحها دبورٌ ذوتٌ عنها التناهى ورى السفا أكفأها بسهام وألحقت بها يوم صيام ذبات السبب » - لاحه غيره - ذوى ذبل - تناء جمع التنية من الوادى حيث ينتهى إليه الماء من حروفه - سفا شوك البهي والبهى نبت يشبه الشعير - سهام حر السموم - أكفأل جمع كفل وهو الردف أو العجز - سبب شعر الذنب والعرف - ويوجد أحياناً مثل هذا التركيب الغريب في شعر الفرزدق فراجع ما قاله Noeldeke في كتابه *Zur Grammatik der classischen Arabisch*, Wien 1896, P. 86-87

(٢) جمع الجاحظ في كتابه الحيوان (ج ٦ ص ٥٤ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٥) أبياتاً قالها ذو الرمة في عزيف الجن وانظر أيضاً GOLDZIEHER, *Adhandlungen Zur arabisch Philologie*, Leiden 1896, I.P. 211.

حين قال مثلاً في آخر أرجوزة (١) :

فقلت لا والمُبْدِي المَعِيدِ اللهُ أَهْلِ الحَمْدِ والتَّحْمِيدِ
 ما دون وقتِ الأَجَلِ المَعْدُودِ موعودِ ربِّ صادقِ الوَعْدِ
 هل أَغْدُونَ في عِيشَةٍ رَغِيدِ وَاللَّهِ أَذْنَى لِي مِنَ الوَرِيدِ
 والموتُ يَلْقَى أَنفُسَ الشُّهُودِ

فمن عرف نوع شعر ذى الرمة وصناعته وأفكاره لم يصدق صحة البيتين
 المرويين لدى الرمة في كتاب المحاسن والأضداد المنسوب إلى الجاحظ. خطأ (٢) :

تَعْصِي الإِلهَ وَأَنْتِ تُظْهِرُ حُبَّهُ هَذَا مُحَالٌ فِي القِيَّاسِ بَدِيعُ
 لو كَانَ حُبُّكَ صَادِقاً لَأَطَعْتَهُ إِنَّ المُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

ولدى الرمة المحظ. الأوفر في التشبيه الجيد فاق فيه أكثر الشعراء وإن
 كان ربما يُطِيلُهُ بِإِفْرَاطٍ . وكان مثل الفرزدق كثير أخذ الأبيات من غيره
 فوفرة سرقاته مشهورة (٣).

ثم من شعراء هذا الصنف الثالث عبيد بن حصين (وقيل عبيد بن
 معاوية) من بني نَمِيرٍ لُقِبَ بالرَّاعِي أو راعِي الإِبِلِ لكثرة وصفه الإبل
 وجودة نعته إياها . كان في الأغلب يسكن فيما هو قريب من البصرة ووالده
 وأهل بيته سادة وأشراف بالبادية . وكان مائلاً إلى الفرزدق فهجاه جرير .
 وأجاد المديح والهجاء ولكن ما عدا قصيدة طويلة يمدح بها عبد الملك بن مروان

(١) كتاب مشارف الأناوير في محاسن الأراجيز بعناية R. Geyer عدد ٢٣ ، بيت ٧٩ - ٨٥

من طبعة ليبسك ١٩٠٨ .

(٢) في باب محاسن الزهد من ١٨٣ من طبعة ليدن ١٨٩٨ .

(٣) راجع كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣٣٨ - ٣٤٠ من طبعة ليدن وكتاب الأغاني

ج ١٦ ص ١٢١ من طبعة بولاق .

($\frac{75}{705} - \frac{86}{705}$)^(١) ما وصل إلينا من شعره إلا قليل متفرق في كتاب الأغاني وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة وخزانة الأدب لعبد القادر البغدادي وحماسة أبي تمام وحماسة البُحْثَرِيِّ وغيرها^(٢). ومن المشهور أن غير بيت له سرقة لجودته بعض الشعراء لا سيما الطرمّاح^(٣).
ومن معاصري الفرزدق وجريير أيضاً مرة بن مَحْكَن السَّعْدِي سَيِّد بنِي رَبِيع قَتْلَهُ صَاحِبُ شُرْطِ مُصْعَبِ بْنِ الزُّبَيْرِ، افتخر في أشعاره بالتضييف والجود فمن قوله^(٤) :

أَلَا فَاسْقِيَانِي قَبْلَ أَغْبَرَ مُظْلَمٍ بَعِيدٍ عَنِ الْأَحْبَابِ مَنْ هُوَ نَازِلُهُ
رَأَيْتُ الْفَنَى يَبْلَى وَيَتَلَفُ مَالَهُ وَتَتَكَبَّرُ أَزْوَاجاً سِوَاهُ حَلَالَتُهُ
ذَرِينِي أَنْعَمَ فِي الْحَيَاةِ مَعِيشَتِي فَأَكُلُ مَالِي دُونَ مَنْ هُوَ آكِلُهُ

ومنهم العُدَيْلُ بْنُ الْقُرْخِ الْعِجْلِيُّ الَّذِي هَجَا الْحَجَّاجَ بْنَ يَوْسُفَ فَفَرَّ خوفاً منه إلى بلاد الروم ثم طلب منه العفو بأبياته المشهورة^(٥) :
فَلَوْ كُنْتُ فِي سَلْمَى أَجْأً وَشِعَابَهَا لَكَانَ الْحَجَّاجُ عَلَيَّ دَلِيلُ

(١) القصيدة مروية في جمهرة أشعار العرب ص ١٧٢ - ١٧٦ من طبعة بولاق وفي ذيل ديوان جرير ج ٢ ص ٢٠٢ - ٢٠٥ من طبعة مصر ١٣١٣ وروى صاحب خزانة الأدب (ج ١ ص ٥٠٢ - ٥٠٣ من طبعة بولاق) ٢٦ بيتاً لها وقال إنها من ٨٠ بيتاً - أما الأبيات المروية في الجمهرة فهي ٨٥ .

(٢) راجع حماسة أبي تمام ص ٦٦٠ - ٦٦٢ و ٦٦٣ - ٦٦٤ من طبعة بن أوج ٤ ص ٣٥ - ٣٧ و ٣٨ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٤٦ - ٢٤٧ من طبعة ليدن .

(٤) حماسة البُحْثَرِيِّ ص ٣٤٤ من طبعة ليدن أو ص ٢٢٨ عدد ١٢٩٩ من طبعة بيروت .
وأبيات مروية له في كتاب الأغاني ج ٢٠ ص ٩ - ١١ وفي كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٣١ - ٤٣٢ من طبعة ليدن وحماسة أبي تمام ص ٦٨٧ من طبعة بن أوج ٤ ص ٥٩ - ٦٣ من طبعة بولاق [ومعجم الشعراء للسرزباني ص ٣٨٣ من طبعة مصر ١٣٥٤] .

(٥) رويت له أبيات في كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٢٤٥ من طبعة ليدن وكتاب الأغاني ج ٢٠ ص ١٢ وحماسة أبي تمام ص ٣٤٧ - ٣٥١ من طبعة بن أوج ٢ ص ١٢٦ - ١٣٠ من طبعة بولاق والفرخ بفتح أوله وسكون الثاني راجع مقاله الأستاذ De Goeje في حاشية I من ص ٢٤٤ من كتاب الشعر والشعراء .

خَلِيلُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَسَيْفُهُ لِكُلِّ إِمَامٍ مُصْطَفَى وَخَلِيلُ
 بَنَى قَبَّةَ الْإِسْلَامِ حَتَّى كَانَمَا هَدَى النَّاسَ مِنْ بَعْدِ الضَّلَالِ رَسُولُ
 وَمِنْهُمْ الْعُجَيْرُ السُّلَمِيُّ الَّذِي مَدَحَ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ وَاعْلَهُ أَدْرَكَ خِلاَفَةَ
 هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ (١٠٥ - ١٢٥) وَكَانَ مِنَ الْمَشْهُورِينَ بِالْإِسْرَافِ (١) . -
 وَمِنْهُمْ عَقِيلُ بْنُ عُلْفَةَ الْمُرِّي (٢) مِنْ أَشْرَافِ قَوْمِهِ فَكَانَتْ قَرِيشٌ تَرْغَبُ
 فِي مَصَاهِرَتِهِ فَتَزَوَّجَ يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ ابْنَتَهُ الْجَرِيَاءَ . - وَمِنْهُمْ الْبَعِيثُ
 الْمَجَاشَعِيُّ الَّذِي كَانَ خَصِمًا مِنْ خِصُومِ جَرِيرٍ وَخَطِيبًا بَلِيغًا (٣) . - وَمِنْهُمْ
 الصَّلْتَانُ الْعَبْدِيُّ (٤) وَاسْمُهُ قَتْمُ بْنُ خَبِيثَةَ الَّذِي اجْتَمَعَ إِلَيْهِ فِي الْحَكْمِ بَيْنَ
 جَرِيرٍ وَالْفَرَزْدَقِ . - وَمِنْهُمْ عَمْرُ بْنُ لَجَأَ (٥) وَهُوَ مِنْ خِصُومِ جَرِيرٍ أَيْضًا وَكَانَ
 رَاجِزًا مَقْصِدًا . - وَمِنْهُمْ يَعْلى الْأَحْوَلُ بْنُ مُسْلِمِ الْيَشْكُرِيِّ الْأَزْدِيُّ الَّذِي

(١) كتاب الأغاني ج ١١ ص ١٥٢ - ١٥٩ وحملته أبي تمام ص ٤١٦ - ٤١٧ و ٧٠٦ -
 ٧٠٧ من طبعة بن أوج ج ٢ ص ١٩٣ - ١٩٤ و ج ٤ ص ٧٩ - ٨١ من طبعة بولاق والبيان للجاحظ
 ج ١ ص ٥٣ من طبعة ١٣١٣ [أوج ١ ص ١١٦ من طبعة ١٣٥١ وفي الحاشية أبيات أخرى للشاعر]
 أو أمالي القتالي ج ١ ص ٢٧٨ من طبعة مصر ١٣٢٤ [أوج ١ ص ٢٧٥ من طبعة مصر ١٣٤٤ وطبقات
 الشعراء لابن سلام ص ١٣٤ - ١٣٥ من طبعة ليدن ١٩١٦] .

(٢) كتاب الأغاني ج ١١ ص ٨٥ - ٩٣ من طبعة بولاق وحملته أبي تمام ص ١٩٦ - ١٩٨
 و ٤٤٥ - ٤٤٦ و ٥١٠ من طبعة بن أوج ج ١ ص ٢٠٩ و ج ٣ ص ٢٣ - ٢٤ و ٨٦ من طبعة بولاق
 (وطبقات الشعراء لابن سلام ص ١٤٥ - ١٤٦ من طبعة ليدن) .

(٣) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣١٢ - ٣١٣ من طبعة ليدن وأبيات مروية له في كتاب الحيوان
 للجاحظ ج ٥ ص ١٦٩ و ١٦٩ و ج ٦ ص ٥٧ و ١٣٩ من طبعة مصر ١٣٢٢ - ١٣٢٥ فراجع كتاب
 البيان لنفس الجاحظ ج ٢ ص ١٨٤ من طبعة مصر ١٣١٣ .

(٤) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣١٤ - ٣١٦ من طبعة ليدن وراجع كتاب الأغاني ج ١٤
 ص ١٠٢ - ١٠٣ و ج ٢١ ص ٤١ ورويت أربعة أبيات من مراثيه للمغيرة المهلب في أمالي المرتضى
 (ج ٤ ص ١٠٧ - ١٠٨ في المجلس الثامن والستين) من طبعة مصر ١٢٢٥ (راجع J. KRENKOW,
The Elogy upon al-Mughirah ibn al-Muhallab (Islamica, II, 1927, P. 344-354))

(٥) كتاب العمدة لابن رشيقي ج ١ ص ١٢٣ من طبعة مصر ١٣٢٥ وكتاب الشعر لابن قتيبة
 ص ٤٢٨ - ٤٢٩ من طبعة ليدن (وطبقات الشعراء لابن سلام ص ١٣١ - ١٣٢ من طبعة ليدن) .

كانت عيشته تُشبه عيشة الشنفرى وتنابط. شراً لأنه « كان لصاً فاتكاً خارباً وكان خليعاً يجمع صعاليك الأزد وخلعاءها فيغير بهم على أحياء العرب ويقطع الطريق على السابلة » فيروى له قصيدة قالها وهو محبوس بمكة في خلافة مروان بن الحكم (٦٤٤ - ٦٨٥) (١). - ومنهم عُوَيْفَ القَوَافِي الفَزَارِيُّ من ساكني الكوفة وبيته من بيوتات العرب المقدمة، تعاطى الهجاء والمديح والرثاء في أيام عبد الملك بن مروان ومن تبعه من بني أمية حتى أدرك خلافة عمر بن عبد العزيز (٧١٧ - ٧٢٠) (٢).

إن سرّحتم أنظاركم في كتاب حماسة البُحْتَرِيِّ عشرتم على ثلاثة أبواب (٣) مترجمة هذه التراجم: الباب الحادي والسبعون والمائة فيما قيل في مَظَلّ الديون وكسرها على الغرماء. الباب الثاني والسبعون والمائة فيما قيل في اليمين وامتناعهم منها بدلاً ليغروا غرماءهم بذلك ثم مسامحتهم بها وتسهيلها عليهم عند المطالبة وتصميمهم عليها. الباب الثالث والسبعون والمائة فيما قيل فيمن تنجح باليمين وبذلها لغريمه من غير تمذع. - وأكثر الشعراء المروية أبياتهم في هذه الأبواب الثلاثة غير مذكورين في سائر المصادر ولكن يتضح من الإشارات الإسلامية الواردة في عدّة أشعار ومن ذكر الكوفة وقرس العراق

(١) كتاب الأغاني ج ١٩ ص ١١١ - ١١٢ .

(٢) كتاب الأغاني ج ١٧ ص ١٠٥ - ١١٨ وحماسة أبي تمام ص ١٢٧ - ١٢٨ و٢٦٣ و٦٧٢ من طبعة بن أويج ١ ص ١٣٩ - ١٤٠ وج ٢ ص ٤٤ وج ٤ ص ٤٨ من طبعة بولاق وحماسة البهتري ص ٢٦ و١٦٠ و٣٧٨ من طبعة ليدن أو ص ١٤ و١٠٨ و٢٦٣ (عدد ٢٨ و٥٠٠ و١٤١٥) من طبعة بيروت (وكتاب البيان للجاحظ ج ١ ص ٢٨٨ من طبعة ١٣٥١) .

(٣) حماسة البهتري ص ٢٧٦ - ٣٨٧ من طبعة ليدن أو ص ٢٦١ - ٢٦٨ عدد ١٤١٠ - LAMMENS, *La république marchande de la Mecque* (Bulletin de l'Institut d'Egypte, V série t. IV, 1911, P. 38-40). [LAMMENS, *La Mecque à la veille de l'Idgira*, Beyrouth 1924, P. 145 seq.]

ومن الأسماء الإسلامية أنهم كانوا بعد ظهور الإسلام وأن قسماً منهم أدرك
 أواخر القرن الأول أو تجاوزها وعلى كل حال هم بأسرهم من أهل البادية
 فليق بهم جعلهم في هذا الصنف الثالث من الشعر . وأبياتهم حريّة بالاعتبار
 لما فيها من الدلالة على بعض الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في جزيرة
 العرب وما يليها من العراق في القرن الأول . « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا
 الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً » (١) : هذا هو الحكم الصالح الكريم الوارد في القرآن
 الشريف . ولكن أولئك التجار من أهل الحضر الذين اعتادوا الربح العظيم بقرض
 المال في زمان الجاهلية لم يرضوا بالامتناع عما كان يعود عليهم بالفائدة
 المالية العظمى فأتوا بالحيل للحصول على ما قد حرمه دين الإسلام فعند
 البيع لا سيما بالدين صاروا يغشون أهل البادية مراراً لما وجدوا فيهم من
 الاحتياج إلى المال ومن السذاجة والجهل . وبما أن الخداع كثيراً ما يدعو
 الخداع صار أهل البدو يُبغضونهم ويحاولونهم ويردون الغش بالغش
 مفتخرين بعملهم هذا لا سيما إن كان ربُّ المال من غير أولاد العرب .
 وكل ذلك موصوف في الأشعار المشار إليها بصفة أن يجعلوا التجار المختدعين
 هدفاً لضحك السامعين (٢) .

٤- فلنخض الآن في الكلام الموجز على الشعر من الصنف الرابع في أيام
 الدولة الأموية أعني الأراجيز . إن هذا النوع من الشعر لا يختلف عن شعر
 الصنف الثالث من حيث اللغة والموضوع والمعاني والمبدأ والخروج والاستطراد
 والنهاية فإنما الفرق بينهما في القالب الذي صيغاً فيه وهو بحر الرجز المشطور

(١) القرآن ٣ (آل عمران) : ١٣٠ .

(٢) ومن ألفت هذه الأسماء ما قاله ديبني بن عيسى الفهمي مرتجزاً ، فراجع حساسة البحري

ص ٣٨٦ - ٣٨٧ من طبعة ليدن أوص ٢٦٨ عدد ١٤٣٤ من طبعة بيروت .

لأشعار الصنف الرابع وسائر الأبحر لأشعار الصنف الثالث . فلكم أن
تعرضوا على سائلين أهذا الفرق المحدود في جنس العروض يستلزم إثبات
صنفين على اتفاهما في أغلب الأمور . فأقول إن الذي حملني على مثل هذا
التمييز ثلاثة أشياء : ١ إن أراجيز هذا الصنف الرابع نوع خاص لم يسبق
إليه شعراء الجاهلية ولا استعمله شعراء الدولة العباسية . ٢ إن أكثر الذين
تعاطوا الأراجيز انفردوا بها عن سائر أنواع الشعر . ٣ إن اتخاذ الرجز أثر
في صناعة الشاعر وأوجب فيها أساليب خاصة لا يوجبها أحد الأعراب
الباقية المشتمل كل بيت منها على مصراعين .

لا يخفى أن أغلب علماء صناعة الشعر ميزوا الرجز والشعر (أو القريض)
تمييزاً تاماً وذلك ابتداءً من لغوي القرن الثاني مثل أبي عمرو بن العلاء
المتوفى سنة ١٥٤ وتلامذته حسبما يتضح من عدة نصوص قديمة^(١) . ففي
كتاب النوادر المشهور فرّق دائماً أبو زيد الأنصاري المتوفى سنة ٢١٤ أو ٢١٥
أو ٢١٦ ما بين باب شعر وباب رجز . ثم لا أحد يجهل أن نوابغ الشعراء
في زمان الجاهلية قلما استعملوا الرجز كأنه ليس أهلاً لمنزاتهم ففي ديوان
امرئ القيس لا نعثر إلا على أربع مقطعات صغيرة منه أعنى اثنتين من
المشطور واثنتين من غير المشطور^(٢) . وأكثر من امرئ القيس ارتجازاً لبيد
ابن ربيعة من الذين أدركوا الإسلام تُنسب إليه خمس عشرة مقطعة في

(١) راجع النصوص المروية في J. GOLDZIEHER, *Abhandlungen zur arabischen Philologie*, I, p. 75 n. 2 وكتاب البيان للجاحظ ج ٢ ص ١٨٤ من طبعة ١٣١٣ [أرج ٣ ص ٢٧٢ من طبعة ١٣٥١]
وكتاب الأغاني ج ٢١ ص ٨٩ ولسان العرب ج ٧ ص ٢١٦ - ٢١٧ و ٢١٨ وكتاب العمد لابن رشيق
ج ١ ص ١٢١ - ١٢٣ من طبعة مصر ١٣٢٥ فيز أيضاً الأغلب العجلى الرجز والقريض في بيت مروى
في لسان العرب ٢ ص ٨٤ .

(٢) عدد ٤٤ و ٦ (رجز مشطور) و ٥٣ و ٥٤ (رجز مشطور) من طبعة بنتاية Ablwardt.

الرجز المشطور^(١) تدور على المفاخرة والحكمة والمعاتبة والمديح والثناء وتشتمل إحداها وهي أطولها على ستة عشر بيتاً .

أما دواوين النابغة الذبياني^(٢) وزهير بن أبي سلمى وعنزة بن شداد وطرفة بن العبد^(٣) وعلقمة الفحل فلا شيء فيها من الرجز . وعلى كل حال لم يكن الارتجاز في زمان الجاهلية إلا بصفة قطع صغيرة يقولها الناس غالباً في الهجاء أو في الحرب وعند اللقاء . أما في القرن الأول للهجرة فأخذ بعض الشعراء من الفحول ينظمون الشعر في ذلك البحر المحتقر فإلى هذا التغيير أشار ابن رشيح القيرواني في كتاب العمدة حين قال^(٤) : « قال أبو عبيدة إنما كان الشاعر يقول من الرجز البيتين والثلاثة ونحو ذلك إذا حارب أو شاتم أو فاخر حتى كان العجاج أول من أطاله وقصده ونسب فيه وذكر الديار واستوقف الركاب عليها ووصف ما فيها وبكى على الشباب ووصف الراحلة كما فعلت الشعراء بالقصيد ؛ فكان في الرجز كامرئ القيس في الشعراء . وقال غيره أول من طول الرجز الأغلب العجلى وهو قديم وزعم

(١) راجع *Die Gedichte des Lebîd ... aus dem Nachlasse von A. Huber herausgegeben von*

C. Brockelmann, Leiden 1891 عدد ٢٦ و ٣١ و ٣١ و ٣٣ و ٣٤ و ٣٥ و ٤٥ ومقطعات عدد

١ و ١١ و ١٢ و ١٤ و ٢٣ و ٢١ و ٢٢ .

(٢) وفي كتاب الأغاني ج ٩ ص ١٧٦ من طبعة بولاق تنسب إلى النابغة خمسة أبيات في بحر الرجز المشطور قالها مرتجلاً مادحاً جود النعمان بن المنذر والأبيات أيضاً في عدد ١٠ من ذيل ديوان النابغة المطبوع في المجموعة المسماة *The Divans of the six ancient Arabic poets* بمناية Abiwardt فراجع R. GEYER, *Beiträge zum Divân des Ru'bah* Wien 1910, P. 2 فقال المستشرق Geyer إن موضوع هذه الأبيات يشابه موضوع القصائد .

(٣) أما طرفة فتنسب إليه أيضاً أبيات في بحر الرجز المشطور قالها وهو صبي ولعله استشهد بها فقط وتنسب هذه الأبيات إلى غيره (إلى كليب أخي مهلهل مثلاً) فراجع شعراء النصرانية ص ٢٩٨ وعدد ١١ من ذيل ديوان طرفة في المجموعة المذكورة في الحاشية السابقة .

(٤) كتاب العمدة ج ١ ص ٥٦ من طبعة مصر ١٣٢٥ وهذا القول كله مروى في المزهري للسيوطي

نوع ٤٩ ج ٢ ص ٣٠١ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

الجمحي^(١) وغيره أنه أول من رجز ولا أظن ذلك صحيحاً لأنه إنما كان على عهد رسول الله (صلعم) ونحن نجد الرجز أقدم من ذلك .

ولكن لا شك في وقوع سهو في آخر كلام ابن رشيقي لأنه من الواضح أن الجمحي إنما أراد بقوله استعمال بحر الرجز في نظم الشعر مثل القصائد فليس من الممكن أن رجلاً عالماً بتاريخ الشعر ودقائقه مثل الجمحي جهل ما هو متداول عند كل العلماء أن الرجز من أقدم فنون الشعر عند عرب الجاهلية . وقول الجمحي صواب تؤيده عدّة نصوص منها شهادة العجاج من أشهر شعراء الأراجيز الذي قال مفضراً^(٢) :

وإن يكن أمسى شبابي قد حصر
وفترت مني البواني وفتر ...
إنسى أنا الأغلب أضحي قد نسر

يعنى أنه أحيا طريقة شعر الأغلب . وهو الأغلب بن جشم العجلي عاش في الجاهلية مدة وأدرك الإسلام وأسلم وله شعر في سجاح لما تزوجت مسيئمة الكذاب . قال صاحب كتاب الأغاني : « كان فيمن توجه إلى الكوفة مع سعد بن أبي وقاص فنزلها واستشهد في واقعة نهاوند^(٣) فقبره هناك في قبور الشهداء ويقال إنه أول من رجز الأراجيز الطوال من العرب . . قال ابن حبيب^(٤) كانت العرب تقول الرجز في الحرب والجِدَاد والمفاخرة وما جرى

(١) يعنى محمد بن سلام الجمحي المتوفى سنة ٢٣٢ . (انظر كتاب طبقات الشعراء ص ١٤٨ من طبعة ليدن).

(٢) انظر مجموع أشعار العرب : الجزء الثاني المشتمل على ديواني الأراجيز للعجاج والزبيان بمثابة Ablwardt من طبعة برلين ١٩٠٣ ص ٧٦ عدد ١٥ من الأبيات المفردات ، فالبيت الثاني مروى في لسان العرب ج ١٨ ص ١٠٤ والثالث مروى في كتاب الأغاني ج ١٨ ص ١٦٤ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٨٩ من طبعة ليدن.

(٣) في سنة ٢١ هجرية فراجع J.WELLHAUSEN, *Prolegomena zur ältesten Geschichte des Islams* (Skizzen und Vorarbeiten, Band VI, Berlin 1899) P. 108 n. 2; L. CANTANI, *Annali dell' Islam*, IV, P. 474-505.

(٤) يعنى أبا جعفر محمد بن حبيب الهاشمي المتوفى في ذي الحجة سنة ٢٤٥ .

هذا المجرى فتأتى منه بأبيات يسيرة فكان الأغلب أول من قصد الرجز ثم سلك الناس بعده طريقته « . وقال ابن قتيبة ^(١) : « وهو أول من شبه الرجز بالقصيد وأطاله » . وفي الحقيقة كل ما وصل إلينا من شعره وهو قليل جداً منظوم في الرجز . فالواضح أن الذي ابتدعه الأغلب الأرجوزة أعنى القصيدة المصوغة في بحر الرجز المشطور وهي غير الأرجاز القديم استعمالها عند العرب .

والمحتمل أن نوابغ الشعراء امتنعوا عن سلوك أسلوب الأغلب مدة ولم يذهبوا إلى نظم الأراجيز إلا في منتصف القرن الأول أو بعده بقليل فإلى ذلك الفتور في هذا النوع من النظم لمَّح على المحتمل العجاج في أبياته المذكورة آنفاً . وعلى كل حال ما عثرتُ على ذكر شعراء أراجيز سوى الأغلب والشماخ بن ضرار ^(٢) فيما قبل خلافة يزيد بن معاوية . أما بعد منتصف القرن الأول فكثيرون اتخذوا بحر الرجز لسبب القصائد مع قطع النظر عن

(١) كتاب الشعر والشعراء ص ٣٨٩ من طبعة ليدن . انظر أيضاً ما قيل فيه في كتاب الألفاني ج ١٨ ص ١٦٤-١٦٧ وكتاب المعمرين للسجستاني ص ٩٨ عدد ١٠٧ من طبعة ليدن ١٨٩٩ وخرزانه الأدب ج ١ ص ٣٣٢ - ٣٣٤ من طبعة بولاق وأسد الغابة لابن الأثير ج ١ ص ١٠٥ من طبعة مصر ١٢٨٠ وفحولة الشعراء للأصمعي (في مجلة *Zeitschrift der deutschen morgenländischen Gesellschaft* ج ٦٥ سنة ١٩١١) ص ٤٩٦-٤٩٧ .

(٢) وقال أيضاً قصائد غير مرتجز . أما أراجيزه فهي مروية في ديوانه المطبوع في مصر سنة ١٣٢٧ وأيضاً في كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٧ - ٢٨ و ١٧٨ - ١٧٩ من طبعة ليدن وفي مشارف الأقاويزي في محاسن الأراجيز (*Altarabische Dilambani* بعناية R. Geyer) عدد ٤٧ و ٤٨ و ٥١ و ٥٢ من طبعة ليبسك ١٩٠٨ وقال الشماخ كلها إما هاجياً وإما مرتجزاً في السفر فتضمن هذه الأخيرة كل الأشياء الموجودة في القسم الأول من القصائد كالنسب وذكر ما مضى من الزمان ووصف الناقة وذكر الرحلة والطرد والافتخار . قال ابن قتيبة (ص ٢٧) إن الشماخ ارتجز مرة بالرجز ه ثم قطع به الروى وتعلم عليه فتركه وسمع يغيره على أثره فظن الأستاذ Geyer (P. 105-107) أن تلك الأبيات ليست من قصيدة وحيدة بل من قصيدتين ولذلك قسمها في عدد ٤٧ و ٤٨ . غير أننا نجد تغير الروى في رجز منسوب إلى بعض الأعراب في كتاب الحيوان للمجاهد ج ٦ ص ١٥١ - ١٥٢ .

الذين ارتجزوا قليلاً في الهجاء مثل الأخطل^(١) والفرزدق والبعيث^(٢) فهم أصحاب أرجاز لا أصحاب أرجيز . وبعض الذين اتبعوا مسلك الأغلب تعاطوا القصيدة والأرجوزة مع غلبة الأول على الثانية عندهم وهم جرير^(٣) وذو الرمة^(٤) وعمر بن لَجَأ^(٥) السابق ذكرهم . ومنهم أيضاً الشمرذَل بن شَرِيك اليربوعي^(٦) من معاصري الفرزدق كان ذا كَلَف بالصيد فقال في الصقر والكلب والقنص أرجيز كثيرة . وبعض الشعراء غلب فيهم الأرجيز على القصائد ومنهم حُمَيْد بن مالك بن رَبِيع التميمي المعروف بِحُمَيْد الأَرْقَط^(٧) معاصر الحجاج بن يوسف (المتوفى سنة ٧١٤) ومنهم

(١) ديوان الأخطل ص ٣٠٧ - ٣١٠ و ٣١٠ و ٣١١ .

(٢) انظر كتاب البيان والتبيين للجاحظ ج ٢ ص ١٨٤ من طبعة ١٣١٣ (وج ٣ ص ٢٧٢ من طبعة ١٣٥١) .

(٣) جمع R. Geyer ما اشتهر من رجز جرير في مشارف الأقاليم في محاسن الأرجيز (Altarabische Diamben) عدد ٢٥ - ٤٤ وكلها مقطعات أرجوزة كما قال Geyer ص ٣ - ٤ وراجع أيضاً كتاب أرجيز العرب ص ٥٥ - ٥٦ من طبعة مصر ١٣١٣ (فيها مديح) .

(٤) جمع R. Geyer ما عثر عليه من رجز ذي الرمة في كتابه المذكور عدد ١٥ - ٢٤ فالأعداد ١٩ و ٢٢ و ٢٣ و ٢٤ كلها أرجوزة كاملة أما غير هذه الأعداد فهي مقطعات وبعضها مروية في أرجيز العرب ص ٥ - ١٠ و ٣٩ - ٤٨ و ٦٢ - ٧٠ و ٩٧ - ٩٨ و ١٣٨ - ١٣٩ (أي خمسة أعداد) .

(٥) قال الجاحظ في كتاب الحيوان ج ٤ ص ٨ إنه « من جمع الرجز والقصيدة » وقال ابن رشيقي في كتاب العملة ج ١ ص ١٢٣ : « وكذلك عمر بن لَجَأ كان راجزاً ومقصداً » .

(٦) وهو المذكور في كتاب الأغاني ج ١٢ ص ١١٧ - ١٢٣ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٤٣ من طبعة ليدن - وترى له في الأغاني ج ١٢ ص ١٢٢ أرجوزة تشابه الطرديات وفي ص ١٢٢ - ١٢٣ أرجوزة يذكر فيها ذئباً « قد لازم مرعى غم الشمرذَل فلا يزال يفرس منها شاة بعد الشاة فرصده ليلة حتى جاء لعادته ثم رماه بسهم فقتله » .

(٧) انظر خزائن الأدب ج ٢ ص ٤٥٤ من طبعة بولاق وكتاب البيان للجاحظ ج ٢ ص ١٨٤ من طبعة مصر ١٣١٣ (أوج ٣ ص ٢٧٢ من ١٣٥١) وكتاب العملة لابن رشيقي ج ١ ص ١٢٣ من طبعة مصر ١٣٢٥ وفعولة الشعراء للأصمعي (في المجلة الألمانية المذكورة) ج ٦٥ ص ٤٩٩ . - ترى له أرجيز في كتاب الحيوان للجاحظ ج ٥ ص ٤٢ وحجاسة أبي تمام ص ٧٩٥ - ٧٩٦ من طبعة بن أوج ٤ ص ١٦١ - ١٦٢ من طبعة بولاق .

أبو النّجم العجّليّ^(١) واسمه الفضل بن قدامة كان ينزل بسواد الكوفة ويُجيد القصيد والأرجوزة ويُرَاجز العجّاج وهو القائل في نفسه^(٢) :

إنّي وكلُّ شاعرٍ من البَشَرِ شيطانُهُ أنْتِ وشيطاني ذَكَرٌ
فما رآني شاعرًا إلاّ أَسْتَسَرَّ فِعْلَ نجومِ الليلِ عَيْنُ القَمَرِ

وعاش في أيام عبد الملك بن مروان (٦٥٠ - ٨٦٠) وخلفائه وأدرك خلافة هشام بن عبد الملك (٧٢٤ - ١٢٥) واستعمل الرجز في المديح والهجاء ووصف الصيد والفهود وغير ذلك فبعث من الشعراء النوايغ .

أما بعض الشعراء فتركوا سائر الأعاريض كلياً ولم يصوغوا القصيدة إلاّ بقلب الرجز . ولعلّ أول من فعل ذلك أبو الشعثاء عبد الله بن روبة بن لبيد من بني سعد تميم الشهير بالعجّاج الذي وُلد على المحتمل في أوائل خلافة عثمان بن عفان (٦٤٤ - ٢٥) وأدرك خلافة سايان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩) . ومدار ديوانه على المديح والمفاخرة والافتخار بنفسه

(١) راجع كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٨١ - ٣٨٦ من طبعة ليدن ونخزاة الأدب ج ١ ص ٥٠ من طبعة بولاق وكتاب البيان للجاحظ ج ٢ ص ١٨٤ من طبعة مصر ١٣١٢ وكتاب الحيوان للجاحظ ج ٤ ص ٨ و ج ٦ ص ٧٠ وكتاب الأغاني ج ٩ ص ٧٧ - ٨٣ و ج ١٨ ص ١٤١ وفضولة الشعراء للأصمعي ص ٤٩٩ و ٥٠٣ . (وطبقات الشعراء لابن سلام أجمعى ص ١٤٨ و ١٤٩ - ١٥٠ من طبعة ليدن) . تروى بعض أراجيزه في شرح التبريزي على حياصة أبي تمام وفي كتاب الحيوان للجاحظ ج ١ ص ١٣٥ و ١٣٦ و ج ٣ ص ١٤٩ و ج ٤ ص ٤ و ٩٠ و ١٠٢ الخ و ج ٦ ص ٥٧ و ٥٨ و ٧٠ و ٧١ وفي شرح شواهد المفنى للسيوطي ص ١٨٥ - ١٨٦ من طبعة مصر ١٣٢٢ وكتاب العقد لابن عبد ربه ج ١ ص ٤٨ - ٤٩ من طبعة ١٣٠٥ .

(٢) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٨٢ من طبعة ليدن ونخزاة الأدب ج ١ ص ٥٠ من طبعة بولاق والبيت الأول مروى أيضاً في كتاب الحيوان للجاحظ ج ٦ ص ٧٠ .
(٣) قال الأصمعي (فضولة الشعراء في المجلة المذكورة ج ٦٥ ص ٤٩٩) إنه مولود قبل الإسلام .

(٤) لا تكاد نجد في تصانيف العرب أخبار حياة العجّاج وكل ما آتى به خنثه Ahlwardt في ص ١٣ - ١٧ من مقدمة كتابه الذي سيأتى ذكره وجمع Ahlwardt نفسه أشعار العجّاج في الجزء الثاني من مجموع أشعار العرب وهو مشتمل على ديوان الأراجيز للعجّاج والزفيان (Sammlungen alterabischer Dichter. II) =

مع ما يتعلّق بذلك على عادة القدماء من النسب و ذكر مخاوف الفياق ومشاق
قطع المهامه ووصف المعشوقة الجميلة والناقة والحمار الوحشي والليل العم الهائل
ولذة الشباب وما أشبه ذلك . وربّ نسيب له في شكايه الغواني ذوات الدلال
قليلات الوفاء مائلاتٍ عمّن شاب رأسه مثل بعض النسب الوارد في قصائد
الأخطل وغيره من معاصريه فمن هذا القبيل أكثر أرجوزته التي مطلعها^(١) :

إِنَّ الْغَوَانِي قَدْ غَنَيْنَ عَنِّي وَقُلْنَ لِي عَلَيْكَ بِالتَّغْنِي
عَنَا فَقُلْتُ لِلْغَوَانِي إِنِّي عَلَى الْغِنَى وَأَنَا كَالْمُظَنَّ
لَمَّا لَبَسَنَ الْحَقَّ بِالتَّجَنِّي غَنِينَ وَأَسْتَبْدُلْنَ زَيْدًا مِنِّي
غُرَانِقًا ذَا بَشَرٍ مُكْتَنٍ يَرْضَى وَيَرْضِيهِنَّ بِالتَّمْنِي
إِذْ شَابَ رَأْسِي وَرَأَيْتَنِي أَنِّي حَتَّى قَنَاتِي الْكِبْرُ الْمُحْنِي
وَالدَّهْرُ حَتَّى صِرْتُ مِثْلَ الشَّنِّ أَطَرَ الثَّقَافِ خُرُصَ الْمُقْنِي
وَصِرْتُ مِثْلَ الْبَازِلِ الْقِسُونِ وَقُلْنَ لِي أَفْنَاكَ طُولُ الشَّنِّ
وَبُرْهَةٌ مِنْ دَهْرِكَ الْمُقْنِي مَعَ الْهَوَى وَقَلَّةِ التُّونِي

ذكر أيضاً في أرجوزة الزمان الذي كان فيه مُتَرْفَعًا بالديار ويشرب الخمر

طول الليل بعد غروب الشمس فقال^(٢) :

كَأَنَّ ذَا فَدَامَةٍ مُنْطَفَأَ قَطْفَ مِنْ أَعْنَابِهِ مَا قَطْفَا

سليج بربلين سنة ١٩٠٣ (وأشير إليه بديوان العجاج) وانظر أيضاً كتاب أراجيز العرب ص ١٠-٢١
و ٤٨ - ٥٤ و ٧١ - ٧٩ و ٨٥ - ٩٦ و ١٠٩ - ١١٣ و ١١٤ - ١٢١ و ١٥٧ - ١٥٨
و ١٧٤ - ١٨٤، M. BITNER, *Das erste Gedicht aus Diwan des arabischen Dichters al-'Aggag*,
Wien 1896 (cf. NOELDEKE, ZDMG, 50, 1896, P. 529-528); R. GEYER, *Beitrag zur
Kenntnis altarabischer Dichter. 3. al- 'Ajjaj und al-Zafaydn (Wiener Zeitschrift für die Kunde des
Morgenlandes, 23, 1909, 74-101).*

وقطعات له مروية في مشارف الأقاويز (GEYER, *Altarabische Diamben*) عدد ٢ - ١ .

(١) ديوان العجاج عدد ٣٩ بيت ١ - ١٥ وانظر أيضاً عدد ١٠ .

(٢) ديوان العجاج عدد ٣٥ من الأبيات المفردات بيت ١٥ - ٢٢ وأراجيز العرب ص ٤٩ - ٥٠
من طبعة مصر ١٣١٣ وبعض هذه الأبيات مروية في كتاب الففران لأبي العلاء المعري ص ١١ من طبعة
مصر ١٣٢١ - ١٣٢٥ .

فَشَنُّ فِي الْإِبْرِيْقِ مِنْهَا نُزْفًا مِنْ رَصْفٍ نَازِعٍ سَيْلًا رَصْفًا
حَتَّى تَنَاهَى فِي صَهَارِيْجِ الصَّفَا فَغَمَّهَا حَوْلَيْنِ ثُمَّ اسْتَوَدَقَا
صَهْبَاءَ خُرْطُومًا عُقَارًا قَرَفَمَا خَالَطَ مِنْ سَلْمَى خِيَاشِيمٍ وَفَا

وله أيضاً أرجوزة تبتدى بعبارات دينية ثم تخرج إلى ذكر متاعب الشاعر ويأسه من العمر الطويل ومنها (١) :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي اسْتَقَلَّتْ بِإِذْنِهِ السَّمَاءُ وَأَطْمَأَنَّتِ
بِإِذْنِهِ الْأَرْضُ وَمَا تَعَتَّتِ وَحَى لَهَا الْقَرَارَ فَاسْتَقَرَّتِ
وَشَدَّهَا بِالرَّاسِيَاتِ الثُّبَّتِ رَبُّ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ الْقُنَّتِ
وَالجَاعِلُ الْغَيْثَ غِيَاثَ الْمُسْنِتِ وَالجَامِعُ النَّاسَ لِيَوْمِ الْمَوْقِتِ
بَعْدَ الْمَمَاتِ وَهُوَ مُخَيِّ الْمَوْتِ يَوْمَ تَرَى النُّفُوسَ مَا أَعَدَّتِ
مَنْ نُزِّلَ إِذَا الْأُمُورُ غَبَّتِ مِنْ سَعْيِ دُنْيَا طَالَ مَا قَدَّ مُدَّتِ
حَتَّى أَنْقَضَى قَضَاؤَهَا فَادَّتِ إِلَى الْإِلَهِ خَلْقَهُ إِذْ طَمَّتِ

وفي أرجوزة ثانية (٢) أيضاً مطلع ديني صاغه العجاج ليخرج بعده إلى مدح عمرو بن عبيد الله بن معمر الذي قاتل الحروريين وانتصر عليهم وقتل رئيسهم أبا فديك سنة ٧٣/٦٩٣ . ولكن في سائر أراجيزه إنما اقتدى بالأفكار والمعاني المتعارفة عند شعراء الجاهلية من أهل البادية . ومن الغريب عدم الهجاء فيما وصل إلينا من شعره مع أنه يفتخر بحد لسانه الذي أسكت به أخصامه وأفحهم (٣) :

إِنِّي إِذَا مَا عَصَبَةٌ أَنْتَابُهَا ظَالِمَةٌ قَدْ سَرَنِي سِبَابُهَا

(١) ديوان العجاج عدد ٣ بيت ١ - ١٣ وكتاب خزنة الأدب ج ٣ ص ٥٠٩ .

(٢) ديوان العجاج عدد ١١ بيت ١ - ١٦ .

(٣) ديوان العجاج عدد ٢ بيت ١٥ - ٢١ .

أَصْدَقُهَا الشُّتْمُ وَلَا أَهَابُهَا حَتَّى تُرَى جَا حِرَةً كِلَابُهَا
إِذَا الْقَوَافِي حُسِرَتْ أَثْوَابُهَا وَجَدَّتْهَا مَفْتَحاً أَبْوَابُهَا
مُقْبِلَةً بِسَيْلِهَا شِعَابُهَا

فقال ابن قتيبة (١) : « قيل للعجاج إنك لا تحسن الهجاء فقال إن لنا أحلاماً تمنعنا من أن نظلم وأحساباً تمنعنا من أن نُظلمَ وهل رأيت بانياً لا يُحسِن أن يهدم » . - والرثاء أيضاً لا أثر له في ديوانه كأنه عسر عليه فاستنكف منه . - وبعض أراجيز العجاج طويلة جداً تُدرك إحداها (٢) عدد مائتي بيت وتشتمل أخرى (٣) على ٢٢٩ بيتاً، والعجاج متين العبارة جيد الألفاظ. كثير التصرف في الوصف وإن كانت الأشياء الموصوفة ممّا كثر ذكره عند الشعراء المتقدمين . أما عيوب شعره فنلمح إليها بعد الكلام على أراجيز ابنه روبة .

تقدّم أن الكتب العربيّة المعروفة الآن لا تُفيدنا أخبار حياة العجاج سوى النوادر التي لا طائلَ فيها فهذه أيضاً حالة روبة بن العجاج الذي وُصفت حياته في كتاب الأغاني بهذه الألفاظ القليلة (٤) : « نزل البصرة وهو من مخضرمي الدولتين مدح بني أمية وبني العباس ومات في أيام المنصور » . ويُخبرنا صاحب الأغاني في موضع آخر (٥) عَرَضياً بأن روبة حجّ مع سليمان ابن عبد الملك وشعراته منهم الفرزدق (وذلك سنة ٩٧/٧١٦) . وقال ابن خلكان (٦)

(١) كتاب الشعر والشعراء ص ٢٨ و ٣٧٥ من طبعة ليدن وكتاب الأماي للغالي ج ٢ ص ٤٩ من طبعة بولاق ١٣٢٤ [أرج ٢ ص ٤٧ من طبعة ١٣٤٤] .

(٢) عدد ٤٠ من ديوان العجاج . (٣) ديوان العجاج عدد ٨ .

(٤) كتاب الأغاني ج ٢١ ص ٨٤ .

(٥) كتاب الأغاني ج ١٤ ص ٨٥ من طبعة بولاق وراجع أيضاً نقائض جرير والفرزدق ص ٣٨٢ - ٣٨٤ من طبعة ليدن .

(٦) وفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٢٣٧ من طبعة غوتنجن أو عدد ٢٢٤ من الطبقات المصرية وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٧٦ - ٣٨٠ من طبعة ليدن .

إنَّ رُوْبَةَ توفى سنة ١٤٥/٧٦٣ وهو مُسِنَّ . هذا جميع ما يُستخرج من الكتب الواصلة إلينا مع أنَّ كتاب الفهرست^(١) يفيدنا أنَّ حمَّاد بن إسحاق بن إبراهيم من علماء القرن الثالث قد ألَّف كتاب أخبار رُوْبَةَ . ولكن من اطلع على ديوان أراجيزه^(٢) التقط. منه فوائد شتى يتوصَّل بها إلى معرفة حقيقة حال الشاعر^(٣). فيتضح من نظمه أنَّه كان مدَّة من أهل الوبر مثل أبيه العجاج وأخذ يجول في البلاد ويسافر إلى النواحي القاصية حتَّى قصد أكابر الناس والأمراء في خراسان وكرمان ليملحهم بأراجيزه فينال منهم الجوائز لأنَّ الشعر كان له ولعياله الكثير مكسباً . فلمَّا انكدرت أحوال المملكة بسبب الفتن التالية لانتهاه دولة بني أمية ١٣٢/٧٥٠ فكسدت أسواق الشعر في جملة من الأنحاء اختار الإقامة بالبصرة ليسهل عليه (وهو كبير السن) الوفد على أهل العقد والحلِّ ونيل ما كان يرجو منهم من المال .

ويذكر أحياناً ما قد مرَّ عليه من الزمان السعيد والتريف^(٤) :

فقد أَرَانِي أَرْحَلُ المَرَّاحِلَا فِي الوَفْدِ أَوْ ذَا حَاجَةٍ مُنَاصِلَا
أَوْ زِيرَ بِيضٍ تَرْتَفُلُ المَرَّافِلَا أَمْضَعُ مِسْوَاكِي وَأَعْدُو هَامِلَا
مَخْتَبِطَا وَلَا عِبَا مُهَازِلَا وَأَتَقِي الفَحْشَاءَ والنَّاطِلَا

(١) كتاب الفهرست ص ١٤٣ سطر ٢ من طبعة ليسك ١٨٧١ - ١٨٧٢ .
(٢) الجزء الثالث من مجموع أشعار العرب وهو مشتمل على ديوان رُوْبَةَ بن العجاج طبع ببرلين سنة ١٩٠٣ بعناية Ahlwardt (*sammlungen alter arabischer Dichter*) (وأرسل إليه ديوان رُوْبَةَ) وأراجيز العرب ص ٢٢ - ٣٨ و ٥٦ - ٦٢ و ٧٩ - ٨٥ و ٩٨ - ١٠٩ و ١٢٢ - ١٣٤ و ١٣٨ - ١٣٩ و ١٥٥ - ١٥٩ و ١٧٢ - ١٨٥ و ١٨٨ - مقطعات له مروية في مشارف الأقاويذ في محاسن الأراجيز (*Altarabische Diuān*) عدد ٣ - ١٤ (٩٦٩ بيتاً) وراجع أيضاً *(Sitzungsberichte der Akademie)* R.GEYER, *Beiträge zum Diwan des Ru'bah.* (Sitzungsberichte der Akademie der Wissenschaften, philos. hist. Klasse, 163 Band, 9. Abh. 1910) وفيه ٥٨ أرجوزة .

(٣) راجع مقدمة ديوان رُوْبَةَ ص ٢٢ - ٢٣ .

(٤) ديوان رُوْبَةَ عدد ٤٥ بيت ٩٧ - ١٠٢ .

ويشكو ثِقْلَ قَتَبِ الدِّينِ وَلَوْمْ زَوَّجَتْهُ لِدَلِكِ (١) :

وَحَمَلَ الدِّينُ عَلَيَّ البَرَكَا وَجَرَ أَرْحَاهُ دَهَكَنَ دَهَكَا
أَهْلَكَنِي أَلَا يَزَالُ يَلْكَأُ صَاحِبُ دَيْنِي لَا يَنْبِي بِمِحْكَا
أَعْرَسُهُ عَنِي فَيَأْبِي العَرَكَ سَوَّقَ الأَجِيرِ المُتَعَبِ الأَفْكَا

وإنما يعلتق الرجاء بمن اشتهر ندَى يديه فلإيه يلتجئ الشاعر (٢) :

ويعتري مَنْ يَطْلُبُ الوَسَائِلَا وَجَهَ الكَرِيمِ وَالعَجْرَادَ البَاذِلَا
وَيُبْغِضُونَ الصُّمَعْرَى البَاخِلَا فَقُلْتُ إِذْ عَالَجْتُ دِينَا شَاغِلَا
لَا بُدَّ مِنْ قَوْلِي وَكُنْتُ قَاتِلَا يَمُّمُ سُلَيْمَانَ تَجِدُهُ وَاصِلَا
أَعَانَ مِنْهُ حَسْبًا وَنَائِلَا مُحْتَسِبَ الأَجْرِ كَرِيمًا فَاعِلَا

فكثيراً ما يشكو إلى الأكابر مصائب الدهر وشدة الفقر (٣) :

إِلَيْكَ أَشْكُو عَضَّ دَهْرٍ مِكْسِرٍ أَبْقَى خُدُودًا كَالْحَرِيقِ المِشْرِرِ
أُرْسِلَ فَاسْتَمَلَى بِأَمْرِ مُنْكَرٍ يَلْوِي وَحَشْرًا قَبْلَ يَوْمِ المَحْشَرِ
طَرَحَ مِنْ نَفْسِهِ تَفْرِيقَهُ المِيزِ مَوْتِي وَأَحْيَاءَ بَشَرٍ مُوقَرٍ
يَشْكُونَ فَقْرًا لَيْسَ بِالتَّفْقُرِ

فيطلب من الكرماء الهدايا الجزية فقال مثلاً في أرجوزة مدح بها نصر
ابن سيار وإلى خراسان والسغد (٤) :

يَا نَصْرُ أَذْرِكْنِي بَغِيثٍ يُجْدِي يَرْحُضُ آثَارَ السنينِ العُجْرِدِ

(١) ديوان روضة عدد ٤٤ بيت ٢٣ - ٢٨ .

(٢) ديوان روضة عدد ٤٥ بيت ١٠٥ - ١١٢ . سليمان بن علي هو عم الخليفة السفاح .

(٣) ديوان روضة عدد ٢٢ بيت ٢٢٤ - ٢٣٠ - خلود جمع خد وهو الحفرة المستطيلة
في الأرض فيراجع بيتا روضة في ديوانه عدد ٤١ بيت ٨٧ - ٨٨ أو أرجوزة العرب ص ١٠٤
يقول الشاعر فيها إن الناقة :

أَبَقَّتْ أَخَادِيدَ وَأَبَقَّتْ حَلَقَا بِصُحُصْحَانِ مُطْرِقٍ وَفَلَقَا

(٤) ديوان روضة عدد ١٩ بيت ٦ - ١٠ ويشير فيها إلى أهله الذين يترقبون الطعام .

إِنْ بَلَّ أَرْضِي لَمْ يُصِيبْنِي وَخَدَى قَدْ كُنْتُ فِي الْوَعْدِ وَعِنْدَ الْعَهْدِ
وَالْخَيْرُ يَأْتِي مِنْكَ قَبْلَ الْكُدِّ

ثم قال (١) :

وَمَا تَزَالُ مِدْحِي مِنْ نَجْدٍ تَأْتِيكَ فَأَذْكَرُ صِلَتِي وَرَفْدِي
عِنْدَكَ خَيْرٌ يُبْتَنِي وَعِنْدِي أَبْقَى وَأَمْضَى مِنْ سَيْفِ الْهِنْدِ
أَدْرَكْتُ مَنْ قَبْلِي فَمَنْ ذَا بَعْدِي يَنْسُجُ نَسْجِي أَوْ يَقْدُ قَدِّي

فلا عجب أن يكون معظم ديوانه في مديح الخلفاء والأمراء والأكابر
الموصوفين بالجود إلا أن المدح الحقيقي في أراجيزه قصير جداً مشتمل على أبيات
قليلة لأن باقي الأرجوزة جارية مجرى كل القصائد القديمة دائرة على ذكر
الدّمّن ومخاوف السفر والنسيب ووصف البراري والسراب والمناهل والقوس
والسهام والصيد والثاقله وهلم جرا فضلاً عن الحماسة والافتخار بقومه وبنفسه.
ومن مدائحه أرجوزة محتوية على ٢٧٢ بيتاً أنشدها بحضرة مروان بن محمد
آخر خلفاء بني أمية (١٣٧ - ١٤٢) ومبدؤها (٢) :

أَرْقَى طَارِقٌ هَمٌّ أَرْقَا وَرَكَضُ غَرِيَانٍ غَدَوْنَ نَغَمًا

ومدارها هذا : يبتدىء روبة بذكر رسوم الأطلال في موضع سكنته
زوجته أروى في الزمان الماضي وهو في ريعان الشباب ثم يشكو إلام الشيب
برأسه ويتصرف في وصف فيافي متسعة طامسة الأعلام هائلة قطعنها العيساء
في لُجّ الليل وهو راكبها كأنه راكب زورقاً أو نعاماً أو حماراً وحشياً . وبعد
ذلك يذكر تشبيهه بنساء قومه غاية الجمال ويفخر بحماسة قبيلته وعلى

(١) ديوان روبة عدد ١٩ بيت ٣٧ - ٤٢ .

(٢) ديوان روبة عدد ٤١ وأراجيز العرب ص ٩٨ - ١٠٩ وفي هذا الكتاب ١٨٣ بيتاً فقط .

وجه الاستطراد ينظم ٤٠ بيتاً في تفضيل شعره على أقوال خصومه من الشعراء فينتهي إلى نحو ثلاثة أرباع من الأرجوزة قبل أن يخرج إلى ذكر الخليفة^(١) وظفره على أصحاب الفتن في الشام والعراق بعون الله فيلعن الثائرين ويثني على جود مروان . ثم يرجع إلى الافتخار بقبيلته تميم ويهدد ربيعة لميلها إلى الدعوة العباسية التي عنده كُفّر فيختم الشعر بتصريح صدق وفائه وإخلاصه لمروان .

ولكن لم يمنعه هذه الأرجوزة عن إطراء بني العباس لما تولوا الخلافة وتألّف أرجوزة تحتوي على ٤٠٠ بيت^(٢) في مدح السفّاح ختمها بطلب الهدايا بل في أرجوزة أخرى مدح بها الخليفة المنصور (١٣٦ - ١٥٨) لم يستح من أن يسبّ الدولة الأموية^(٣) التي قد أثنى عليها في أيامها السعيدة^(٤) :

فترَكُوا مستسليمين جُنْحًا وحوثكاتٍ ونساءً نُوحًا
ومُهَلِّكينَ في الجحيمِ كَلْحًا وعادَ مُلْكُ اللهِ مُلْكًا مُرْدَحًا

واحتذى روبة مثال أبيه العجاج في إغفال تعاطى الرثاء والهجاء فقال^(٥) :

إنّي أمرؤٌ للناسِ غيرُ سَبَابٍ للقُرْبِ الأذنى ولا للأجْنَابِ
أجتنبُ العيبَ أنْقَاءَ الأَعْيَابِ والقولُ يُلْقَى بعضُهُ في الأتبابِ
ماضيهِ أمضى من حِدادِ النَّشَابِ والقولُ يَنْمِي بَعْدَ غَيْبِ الإغْبَابِ

ومما يستحق الذكر قوله في القدر بين في أرجوزة مدح بها مسلمة بن عبد الملك بن مروان (المتوفى سنة ١٢٠/٧٣٧ أو ١٢١/٧٣٩) بعد أن أحمده نيران الفتنة

(١) ديوان روبة عدد ٥٥ وأراجيز العرب ص ١٣٩ - ١٥٥ .

(٢) ديوان روبة عدد ١٤ بيت ٣٧ - ٤٩ .

(٣) ديوان روبة عدد ١٤ بيت ٤٧ - ٥٠ .

(٤) ديوان روبة عدد ٢ بيت ٢٩ - ٣٤ وأراجيز العرب ص ١٦٠ - ١٦١ .

نحو سنة ١٠٢ و قتل يزيد بن المهلب من رؤساء الثائرين . فقال (١) :

فلقتُ والمُملي حفيظُ الكتابِ والقَدَرِيونَ بقولِ مُرتابِ
والقَدَرِيونَ بحبلِ جَذابِ بقَدَرٍ في حَلَقاتِ الأَسبابِ
يَنزِعَنَّهُمُ مِن شَاهِدِ وُغِيَابِ جَذَبَ المَعْلِينَ دِلاءِ الأَكْرابِ
سَيَعْرِفونَ الحَقَّ عِندَ المِيجَابِ دَعَمَهُمُ سَيَلَقَرُونَ أَعَدَّ الحُسَابِ
والأَمْرُ يُقْضَى في الشَّقَا لِلخِيَابِ

ولرؤية حِكْمِ جَسِبَةِ نَسجِها في أَرْجوزة لها ٣٧ بيتاً في معاتبه ابنه
عبد الله (٢) منها :

وأَصْدُقُ إِذا قَلتَ قَولاً وَأَقْصِدِ فليسَ مِن جَارِ كَهَادِ يَهْتَدِي
إِنَّ السَّعِيدَ عَامِلٌ لِإِلْسَعِدِ والرُّشْدُ فاعْلَمَهُ طَريقُ الأَرشِدِ
وزادُ تَقْوَى أَفْضَلُ التَّرَوْدِ

وحِكْمِ أُخرى كثيرة وردت متفرقة في أراجيزه . ثم من الجدير بالذكر
ورود عبارات في شعره تدلُّ على ابتداء رواج الأقوال بعلم أحكام النجوم عند
العرب في أوائل عهد الدولة العباسية (٣) فقال ملمحاً إلى انقراض الأمويين (٤) :

مروانُ لَمَّا أن تهاوتُ أنجُمُهُ وخانهُ في حُكْمِهِ مُنجمُهُ

كان رؤبة يقدر شعره قدراً عظيماً فلو أردنا جمع كل ما قاله مدحاً

(١) ديوان رؤبة عدد ٢ بيت ٤٣ - ٥٠ وهذه الأبيات غير موجودة في كتاب أراجيز العرب .

(٢) ديوان رؤبة عدد ٢٠ بيت ٣٠ - ٣٤ ونقل Ahlwardt كل هذه الأرجوزة إلى اللغة

الألمانية في ص ٣١ - ٣٢ من مقدمته .

(٣) قال رؤبة (الديوان عدد ٥٥ بيت ٨٢ أو أراجيز العرب ص ١٤٥) إن السفاح

(٤) فاز بنجم سَعْدِهِ مُنجمُهُ (وفي الديوان « بنجمي ») .

(٤) ديوان رؤبة عدد ٩٢ من الأبيات المفردات بيت ١٧ - ١٨ وكتاب الأغاني ج ٢١ ص ٨٩ .

لصنعته في أراجيزه لا ضطررنا إلى إيراد أكثر من مائة بيت . فهاكم بعض الأمثلة من ذلك^(١) :

قلتُ والأقوالُ ممَّا يَنْبَرِي ما أنا بالفاني ولا المَغْمَرِ
 أنسجَ نَسجَ الصَّنَعِ المُحَبَّرِ كيفَ تراني أنتَحي في المَدْفَرِ
 على قضيبِ الذاهباتِ الشُّبْرِ لا ينظرُ النحوى فيها نظري
 وإن لوى لَحْيَيْه بالتَحَكُّرِ وهو ذهي العِلْمِ والتَّعْبِرِ
 حتى استقامتْ بي على التيسرِ

وهذه أبيات من أرجوزة مدح بها القاسم بن محمد الثَّقَفِي الذي توفي سنة ٩٥ وهي مهمة لما فيها من أقدم التعريض في الشعر بعلم النحو . - ومما قال في مدح أبياته^(٢) :

قلتُ ولا يبلغُ وصفي واصفُ لأمدحنُ والعروفُ عارفُ
 بمستجداتٍ لها طرائفُ لها سيرٌ ولها مواقفٌ
 أسسها صنْعُهنَّ قائفُ

وقال أيضاً^(٣) :

ما كان تحبيرُ الياني البرادُ يرجو وإن داخلَ كلُّ وصادُ
 نسجي ونسجي مُجرهدُ الجدادُ

إن من تأمل أشعار العجاج ورؤية تعجب من جودة صناعتها ومهارتها في صوغ الأراجيز الطولي على روى صعب مسألة من الإقواء والإكفاء والإيطاء . فقد لاحظ. مثلاً يونس بن حبيب^(٤) أن العجاج قال أرجوزته التي مطلعها

(١) ديوان رؤبة عدد ٢٢ بيت ١٣٤ - ١٤٢ .

(٢) ديوان رؤبة عدد ٣٩ بيت ١٦ - ٢٠ .

(٣) ديوان رؤبة عدد ١٦ بيت ٢٥ - ٢٨ .

(٤) كتاب الأغاني ج ٢١ ص ٨٩ .

«قد جَبَرَ الدِّينَ الإِلَهَ فَجَبَرَ» وهي ٢٢٩ بيتاً موقوفة القوافي ولو أُطْلِقَتْ قوافيها كانت كلها منصوبةً وكذلك عامةً أراجيزهما . ولهما التوسع العجيب في اللغة لا سيما لرؤية ، فأصاب من قال فيه إنه كان بصيراً باللغة قيماً بحوثيَّتها وغريبها^(١) . فلكثرة الألفاظ الغريبة الموجودة في أبياتهما احتجَّت بها أهل اللغة كثيراً وإن كانوا أحياناً لا يفهمون معناها بالضبط . فغلطوا في تفسيرها . ومثال ذلك ما قالت علماء اللغة من العرب في أبيات رؤبة^(٢) :

لَمَّا أَزْدَرَتْ نَقْدِي وَقُلْتُ لِإِنِّي تَأَلَّقْتُ وَأَتَّصَلْتُ بِمُكَلِّ
خِطْبِي وَهَزَّتْ رَأْسَهَا تَسْتَبِلِي تَسَأَلُنِي مِنَ السَّنِينِ كَمَّ لِي
فَقُلْتُ لَوْ عُمِّرْتُ سِنَّ الْحِجْسَلِ أَوْ عُمَرَ نُوْحٍ زَمَنَ الْفِطْحَلِ
وَالصَّخْرُ مُبْتَلٌ كَطَبِينِ الْوَحْلِ صرْتُ رَهِينَ هَرَمٍ أَوْ قَتْلِ

قال الجاحظ . في كتاب الحيوان^(٣) : « وهذا الشعر يدلُّ على طول عمر الحِجْسَلِ لأنه لم يكن ليقول * أو عُمَرَ نُوْحٍ زَمَنَ الْفِطْحَلِ * والصخر مبتلٌ

(١) كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٢٣٧ من طبعة غوتنجن أو عدد ٢٢٤ من الطبقات المصرية وكتاب شرح شواهد التلخيص المسمى معاهد التنصيص لعبد الرحيم بن عبد الرحمن ابن أحمد العباسي ص ٨ من طبعة مصر ١٢٨٤ .

(٢) ديوان رؤبة عدد ٤٦ بيت ٩ - ١٦ (فراجع ما قاله فيها Ahlwardt في مقدمته ص ١٣ - ١٥) وكتاب أراجيز العرب ص ١٢٢ - ١٢٣ والأبيات مروية في لسان العرب ج ١٣ ص ٧٢ و ج ١٤ ص ٤٣ وقاج العروس ج ٨ ص ٦٤ وصحاح الجوهري ج ٢ ص ٢٢٧ من طبعة بولاق ١٢٨٢ (تنسب فيه إلى العجاج) ويجمع الأمثال للميداني ج ٢ ص ٦٢ - ٦٣ من طبعة مصر ١٣١٠ (في المثل : كان ذلك زمن الفطحل) والمزهر للسيوطي (في النوع الخمسين) ج ٢ ص ٣١٤ من طبعة مصر ١٣٢٥ وبلوغ الأدب في أحوال العرب للألوسي ج ٢ ص ٢١٩ - ٢٢٠ من طبعة بغداد ١٣١٤ وحياة الحيوان للدميري ج ١ ص ٢٠٣ من طبعة مصر ١٣١١ والكامل للمبرد ص ٢٤٨ من طبعة ليسانس وثمار القلوب للشعبي ص ٥١٥ - ٥١٧ من طبعة مصر ١٣٢٦ وكتاب الحيوان للجاحظ في المواضع التي سيأتي ذكرها في الحواشي التالية .

(٣) كتاب الحيوان ج ٦ ص ٣٥ - ٣٦ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٥ ولا يذكر اسم الشاعر (راجع أيضاً ج ٤ ص ٦٧ و ٨) .

كطين الوحل * إلا وعمر الحسل عنده أطول الأعمار . وروى ابن الأعرابي عن بعض الأعراب أن سنّ الضبّ واحدة أبداً وعلى حال واحدة أبداً فكأنه قال لا أفعلها ما دام سنّها كذلك لا تنقص ولا تزيد . وقال زيد بن كشيبة سنّ الحسل ثلاثة أعوام وزعم أن قوله مثلاً لا أفعله سنّ الحسل غلط . ولكن الضبّ طويل العمر إذا لم يعرض له أمرٌ وسنّ الحسل مثل سنّ القلوص ثلاث سنين حتى يلقح . ولو كانت سنّ الحسل على حالة واحدة لعرف الأعراب الفتي من الزكيّ وقد يكون الضبّ أعظم من الضبّ وليس بأكبر منه سناً . وقال الجاحظ . في موضع آخر (١) :

« وقد يمكن أن يكون الحسل لا يبنى ولا يرفع فتكون أسنانه أبداً على أمر واحد ويكون قول العجاج (٢) في طول عمره حقاً ويدلّ على أن أسنانه على ما ذكروا قول الفزاري :

وجدناكم راباً بنى أم فرقة كأسنان حسل لا وفاء ولا غدّر

يقولون لا زيادة ولا نقصان » . - وقال في موضع ثالث (٣) : « ومن أمثالهم لا آتيك سنّ الحسل وقال العجاج : ثُمّت (٤) لا آتية سنّ الحسل . كأنه قال حتى يكون ما لا يكون لأنّ الحسل لا يستبدل بأسنانه أسناناً . وفي كتاب لسان العرب (٥) ما نصّه : « وقولهم في المثل لا آتيك سنّ الحسل أي أبداً لأنّ سنّها لا تسقط . أبداً حتى تموت (٦) » وأنشد ابن برّي ثُمّت لا

(١) كتاب الحيوان ج ٦ ص ٣٦ - ٣٧ .

(٢) في الطبعة العجاج - ومن المحتمل أن الجاحظ ينسب إلى العجاج أبيات رؤبة التي ذكرناها آنفاً أو أنه يشير إلى بيت العجاج المروي في ج ٦ ص ٦٢ .

(٣) كتاب الحيوان ج ٦ ص ٤٢ . (٤) في الطبعة : ثمة .

(٥) لسان العرب ج ١٣ ص ٦١ من طبعة بولاق .

(٦) هكذا أيضاً في صحاح الجوهري ج ٢ ص ١٧١ من طبعة بولاق ١٢٨٢ .

أُرْسِلَهَا سِنَّ الْحِجْلِ . - وقال أحد الحديثين وهو السيد محمد توفيق
الْبَكْرِيُّ الصَّدِيقُ شَارِحاً أَيْبَاتِ رُؤْيَا (١) : « الحِجْلُ وَلَدُ الضَّبِّ تَنْفَقُ عَنْهُ
الْبَيْضَةُ وَقَدْ خَرَجَتْ سِنَّةً فَلَوْ بَقِيَ دَهْرًا لَمْ يَتَغَيَّرْ عَمَّا هُوَ عَلَيْهِ . يَقُولُ قَلْبُ عَمْرٍ
لَا أَتَغَيَّرُ كَانَ آخِرَ حَالِي الْمَوْتِ » .

ولكن هذه التفاسير جميعها بعيدة عن حقيقة الأمر فإن من قال بطول
عمر الضب ومن قال بعدم تغير أسنانه إنما استخرج قوله على وجه الحدس
والتخمين من نفس بيت رؤية والمثل السائر المذكور فلم ينتبه لغرابة استعمال
لفظ الحِجْل في مثل هذا التشبيه الدالّ عنده على طول العمر أو عدم التغير
إذ كان الحِجْل اسم الضب حين يخرج من بيضته أعنى وقت ولادته (٢) -
فشرح الأبيات الحقيقي هذا (٣) لا يخرج الحِجْل من بيضته إلا بعد ما
ثَقَبَ قَشْرَتَهَا بِسِنَّ بَارِزَةٍ مِنْ فَمِهِ تَسْقُطُ مِنْهُ بَعْدَ الْمَوْلِدِ . فقال رؤية لو
عُمِّرَتْ مَا خَرَجَ الْحِجْلُ مِنْ بَيْضَتِهِ بِوِاسِطَةِ تِلْكَ السِّنِّ الْخَاصَّةِ يَعْنِي مَا
كَانَ فِي الدُّنْيَا ضَبًّا أَيْ دَائِمًا . فقوله من باب قول الشاعر (٤) :

عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ مَا هَيْتِ الصَّبَا وَمَا قَرَقِرَ الْقَمْرِيُّ فِي وَرَقِ السُّدْرِ

أَوْ مِنْ بَابِ قَوْلِ الْعَرَبِ : « لَا أَفْعَلُهُ السَّمْرُ وَالْقَمَرُ » (٥) أَيْ مَا كَانَ
سَمْرًا وَالْقَمَرُ أَيْ أَبَدًا .

(١) كتاب أراجيز العرب ص ١٢٣ .

(٢) قال أبو زيد الأنصاري (المتوفى سنة ٢١٥ أو ٢١٤ أو ٢١٦) في النوادر في اللغة
ص ٩٢ من طبعة بيروت ١٨٩٤ « يقال لفرخ الضب حين يخرج من بيضته حِجْلٌ ثُمَّ يَكُونُ خَيْدَانًا
ثُمَّ يَكُونُ مَطْبَحًا ثُمَّ يَكُونُ ضَبًّا مَرَكًّا » كذا أيضًا في كتاب الفحص لابن سيدة ج ٨ ص ٩٦ من
طبعة بولاق ١٣١٣ - ١٣٢١ .

(٣) راجع مقدمة Ablwardt لديوان رؤية ص ١٤ - ١٥ .

(٤) انظر كتاب الظرف والظرفاء (أو كتاب الموشى) لأبي الطيب محمد بن إسحاق الوشاء
ص ١٣٠ من طبعة مصر ١٣٢٤ .

(٥) كتاب الأمل للقال ج ١ ص ٢٣٧ من طبعة بولاق ١٣٢٤ .

أما قول روية : أو عُمَرَ نُوحٍ زَمَنَ الْفِطْحَلِ * وَالصَّخْرُ مُبْتَلٌ كَطِينِ
 الْوَحْلِ ، فهو أيضاً مما لم يتوصل إلى شرحه علماء اللغة . قال أبو نصر
 الجوهري المتوفى في أواخر القرن الرابع في كتاب الصحاح (١) : « الْفِطْحَلُ
 عَلَى وَزْنِ الْهَزْبِرِ زَمَنٌ لَمْ يُخْلَقِ النَّاسُ فِيهِ بَعْدُ . قَالَ الْجَرْمِيُّ (٢) سَأَلْتُ
 أَبَا عُبَيْدَةَ (٣) عَنْهُ فَقَالَ الْأَعْرَابُ تَقُولُ إِنَّهُ زَمَنٌ كَانَتْ الْحِجَارَةُ فِيهِ رَطْبَةً .
 وَأَنْشُدُ لِلْعَجَّاجِ [كَذَا] : وَقَدْ أَتَانَا زَمَنَ الْفِطْحَلِ * وَالصَّخْرُ مُبْتَلٌ كَطِينِ
 الْوَحْلِ » . - وفي لسان العرب (٤) ما نصه : الْفِطْحَلُ عَلَى وَزْنِ الْهَزْبِرِ دَهْرٌ
 لَمْ يُخْلَقِ النَّاسُ فِيهِ بَعْدُ وَزَمَنُ الْفِطْحَلِ زَمَنُ نُوحٍ النَّبِيِّ عَلَى نَبِينَا وَعَلَيْهِ
 الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . وَسُئِلَ رُوَيْبَةَ عَنْ قَوْلِهِ زَمَنَ الْفِطْحَلِ فَقَالَ أَيَّامٌ كَانَتْ الْحِجَارَةُ
 فِيهِ رِطَاباً . وَرَوَى أَنَّ رُوَيْبَةَ بِنَ الْعَجَّاجِ نَزَلَ مَاءٌ مِنَ الْمِيَاهِ فَأَرَادَ أَنْ يَتَزَوَّجَ
 امْرَأَةً فَقَالَتْ لَهُ الْمَرْأَةُ مَا سِنَّكَ مَا مَالُكَ مَا كَذَا فَأَنْشَأَ يَقُولُ : [الْأَبْيَاتُ] .
 وَقَالَ بَعْضُهُمْ * زَمَنَ الْفِطْحَلِ إِذَ السَّلَامِ (٥) رِطَابٌ * وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ (٦)
 يُقَالُ أَتَيْتُكَ عَامَ الْفِطْحَلِ وَالْهَدْمَلَةِ (٧) يَعْنِي زَمَنَ الْخِصْبِ وَالرِّيفِ . . .

(١) كتاب الصحاح ج ٢ ص ٢٢٧ من طبعة بولاق ١٢٨٢ .

(٢) وهو أبو عمر صالح بن إسماعيل الجرمي المتوفى $\frac{٢٢٥}{٤٨}$ فانظر G.FLUEGEL, *Die grammatischen Schulen der Araber*, Leipzig 1862, p. 81-82.

(٣) يعني أبا عبيدة معمر بن المنذر من النحويين البصريين واختلف في تعيين سنة مماته بين

(٤) لسان العرب ج ١٤ ص ٤٢ - ٤٣ .

(٥) سلام جميع سلمة أي الحجر .

(٦) أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري المتوفى سنة $\frac{٢٨٢}{٨٩٥}$.

(٧) قال الجوهري في الصحاح : « الهدملة الرملة الكثيرة الشجر » وقيل في لسان العرب ج ١٤

ص ٢١٧ : « والهدملة الدهر الذي لا يقف عليه لظول التقادم ويضرب مثلاً للذي فات يقول بعضهم لبعض كان هذا أيام الهدملة قال كثير :

كَانَ لَمْ يَدْمَنَّهَا أَنْيْسٌ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا بَعْدَ أَيَّامِ الْهَدْمَلَةِ عَامِرٌ

وراجع أيضاً كتاب معجم ما استعجم للبكري ص ٨٢٨ من طبعة خوتنجن ١٨٧٦ .

والفِطْحَلُ السَّيْلُ وَجَمَلٌ فِطْحَلٌ ضَخْمٌ مِثْلُ السَّبْحَلِ قَالَه الفَرَّاءُ (١) . - وفي كتاب مَجْمَعِ الْأَمْثَالِ للمِيدَانِي (٢) المتوفى سنة ٥١٨ : كَانَ ذَلِكَ زَمَنَ الْفِطْحَلِ . قالوا هو زمن لم يُخْلَقِ النَّاسُ . قال الجَرْمِيُّ سَأَلْتُ أَبَا عُبَيْدَةَ عَنْهُ فَقَالَ : الْأَعْرَابُ تَقُولُ ذَلِكَ زَمَنُ كَانَتْ الْحِجَارَةُ فِيهِ رَطْبَةً وَأَنْشُدُ الْمَعْجَاجَ [كَذَا] : وقد أتانا زمن الفطحل * والصخر مُبْتَلٌ كَطِينِ الْوَحْلِ . قلتُ روى غيره لرؤية : [الأبيات] (٣) . - وعلى هذه الصفة أيضاً شرح البيت السيد محمد توفيق البكري حيث قال (٤) : « والفتحل قال الأصمعي إذا قيل للأعراب ما أراد بالفتحل قالوا زمن السلام رطاب يريد زمن الحجارة حين كانت رطبة » .

فالواضح أن علماء اللغة لم يعثروا على تلك اللفظة بذلك المعنى إلا في بيت رؤية والمثل المشتق منه ولم يعرفوا حقيقة معناها فتكلفوا شرحها من نفس البيت على وجه التخمين . فلا عجب في عدم الإصابة إذ كان أصل اللفظ بعيداً جداً مأخوذاً من اعتقادات المندائية وهم فرقة دينية خاصة قديمة الأصل سكنت أصحابها بطائح العراق لا سيما نواحي البصرة في عهد بني أمية ، ويسمّون الآن عند العامة بالصُّبَّةِ . وهم أخذوا كثيراً من آرائهم من مذاهب gnostiques (٥) فزعموا أن أصل جميع الأشياء بيرا رباً أي اللجة العظيمة الذي شاركه أيرزيفما رباً أي الأثير المضيء العظيم ومآناً رباً أي

(١) أبو زكرياء يحيى بن زياد المتوفى $\frac{207}{822-823}$ من النحويين الكوفيّين فليراجع

FLUEGEL, *Die grammatischen Schulen der Araber*, s. 129-136.

- (٢) كتاب مجمع الأمثال للميداني ج ٢ ص ٦٢ - ٦٣ من طبعة مصر ١٣١٠ والظاهر أن القطعة الأولى كلها منقولة من صحاح الجوهري .
 (٣) فراجع أيضاً كتاب المنزه للسيوطي في النوع الحسين ج ٢ ص ٣١٤ من طبعة مصر ١٣٢٥ .
 (٤) كتاب أراجيز العرب ص ١٢٣ .
 (٥) أو من مذاهب أصحاب المعرفة العليا .

الروح العظيم فأصبحوا معاً على صفة ثالث إلهية . ومانا رباً هو المسمى أيضاً نفس العالم أو ملك النور (مَلَكًا دَنْهُورًا) ولُقِّبَ بالحياة الأولى (هَيَّي قَدَمَائِي) لَأَنَّ الْأَشْيَاءَ أَخَذَتْ تَصَدُّرَ عَنْهُ وَذَلِكَ عَلَى وَجْهِ الْفَيْضِ وَهُوَ يَسْكُنُ عَالَمًا نُورَانِيًّا (آلَمًا دَنْهُورًا) . فَأَوَّلُ مَنْ فَاضَ مِنْهُ الْحَيَاةَ الثَّانِيَةَ (هَيَّي تِنْيَانِي) أَوْ يَرْشَامِينَ ثُمَّ مَعْرِفَةَ الْحَيَاةِ (مَنْدَاذَهَيَّي الْمَنْسُوبِ إِلَيْهِ اسْمُ الْمَنْدَائِيَّةِ) الَّذِي يَظْهَرُ فِي الْعَالَمِ الْمَرْتَوِيِّ أَيْ الْأَسْفَلِ بَعْدَ تَجَسُّدَاتِ أَقْدَمِهَا الْإِخْوَةَ الثَّلَاثَةَ هَيْبِلُ وَشَيْتِلُ وَأَنْوَشُ (١) . أَمَّا الْحَيَاةُ الثَّانِيَةُ أَوْ يَوْشَامِينَ فَصَدَرَ عَنْهُ الْحَيَاةُ الثَّلَاثَةُ (هَيَّي تَلْتِيَانِي) الْمَسْمُومَةُ أَيْضًا أَبَاتُورُ فَلَمْ يَكُنْ تَحْتَهُ أَصْلًا إِلَّا فَرَاغَ جَسِيمٍ فِي قَعْرِهِ مَاءٌ أَسْوَدٌ . وَأَرَادَ أَبَاتُورُ مُشَارَفَةَ تِلْكَ الْأَعْمَاقِ فَرَأَى فِي الْمَاءِ صُورَتَهُ فَانْقَلَبَتْ هَذِهِ الصُّورَةُ صُورَةَ ابْنِهِ غَيْرِ الْمَوْجُودِ إِلَى ذَلِكَ الْوَقْتِ وَكَانَتْ صُورَةَ خَادِعَةٍ كَاذِبَةٍ أَوَّلًا ثُمَّ تَصَلَّبَتْ فَأَصْبَحَتْ ابْنَهُ بَيْتَاهَيْلُ وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ كَانَ لَهُ مِنْ طَبِيعَةِ الْمَادَّةِ . وَمِرَاعَاةً لِطَلْبَةِ أَبِيهِ خَلَقَ بَيْتَاهَيْلُ الْأَرْضَ ثُمَّ آدَمَ وَحَوَاءَ لَكِنَّهُ لَمْ يَتِمَّكَزْ مِنْ إِعْطَاءِ الْجَسَدِ الْمَخْلُوقِ نَفْسًا تُحْيِيهِ فَأَرْسَلَ الْحَيَاةَ الْأُولَى (أَي مَانَا رَبًّا) هَيْبِلُ وَشَيْتِلُ وَأَنْوَشَ لِيَنْفُخُوا فِي الْجَسَدَيْنِ رُوحًا مِنْهُ . أَمَّا بَيْتَاهَيْلُ فَحُرِّمَ سُلْطَتَهُ عَلَى الْبَشَرِ وَحُكْمَ عَلَيْهِ بِالنَّفْسِ عَنِ عَالَمِ النُّورِ وَالْبِقَاءِ فِي مَوْضِعٍ تَحْتَهُ مَصْفَدًا بِالسَّلَاسِلِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ . - فَالْوَاضِحُ أَنَّ رُؤْيَةَ عِنْدَ إِقَامَتِهِ الطَّوِيلَةَ بِالسَّوَادِ وَالْبَصْرَةَ سَمِيعَ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْأَعْتِقَادَاتِ الْمَنْدَائِيَّةِ وَعَرَّبَ بَيْتَاهَيْلُ بِالْفِطْحَلِ (وَهُوَ فِي الْعَرَبِيَّةِ الضُّخْمُ مِنَ الْإِبِلِ) (٢) حَسْبَمَا هُوَ

(١) والواضح أن هذه الأسماء الثلاثة مشتقة من هايبيل وشيث وأخنوخ .

(٢) ونجد عند المؤلفين المعاصرين لنا الفطاحل بمعنى كبار العلماء وقال إبراهيم اليازجي لسائل (في مجلة الفيحاء ج ٣ ص ٢٠٨) : « وأما استعمال الفطاحل » بالمعنى الذي ذكرتموه فهو من مواضع العامة ولا شيء منه في كتب اللغة » . واستحسن الشيخ بعيث الحضري هذا الاستعمال وقال (في مجلة المشرق ج ٤ - ١٩٠١ - ص ٣٣٢ - ٣٣٤) : « هو من مواضع الفصحاء والبلغاء قد استعملوه بهذا المعنى من باب -

الغالب في التعريب من تشبيه الألفاظ. الأعجمية بالألفاظ. والأوزان العربية وزعم رؤبة أن بتاهيل أو الفطحل اسم رجل عاش في الزمان القديم وعاصر نوحاً فذكر في البيت لرغبته المعروفة في استعمال الكلمات والأسماء الغريبة .
أما الشراح وعلماء اللغة فحاروا في تفسيره لعدم معرفة لهم بديانة المندائية ولم يُذكر كوا أنه اسم علم فاستنتجوا من القرأتين خطأً أن معناه دهرٌ لم يُخلق الناس فيه بعدُ وكانت الحجارة فيه رطبة فقيّدوا في القواميس معنى لا يوجد حقيقة في اللغة .

وهذا الغلط. من قبيل ما وقع فيه بعض قدماء أهل اللغة لما أرادوا شرح لفظ الأندرين الوارد في المطلع المعزوم إلى معلقة عمرو بن كلثوم^(١) . فإنهم لجهلهم أن أندرين^(٢) موضع بالشام عن جنوبي حلب على طرف البادية ذهبوا إلى أن ذلك اللفظ. اسم جنس لا اسم علم فقال الخليل في كتاب العين^(٣) « الأندريّ ويجمع الأندرين يقال هم الفتيان يجتمعون من مواضع شتى » . ثم قال صاحب لسان العرب^(٤) : « والأندرون فتيان من مواضع شتى يجتمعون للشرب قال عمرو بن كلثوم : ولا تبقى خمور الأندرينا » . فجاء في القاموس تعريف اللفظ. على هذه الصفة : « الأندرون

= الهجاز لأن من معاني الفطحل الفسح من الإبل فتقلوه إلى معنى العظيم أو الكبير من العلماء كما نقل العرب القدماء مثل ذلك في كثير من الألفاظ ومن ذلك الكيش . . . والوعل . . . والنور . . . والفعل . . . والقنحاس ؛ فإن معناه في الأصل معنى الفطحل بتمامه . . . والقروم » .

(١) وهو مطلع منحول لما فراجع ما قاله TH. NOELDEKE, *Fünf Mo'allaght*, I, Wien 1899 P. 13-15.

(٢) وأندرين (كذا ويدون لام التعريف) اسم القرية إلى أيامنا والاسم القديم Andron راجع معجم ما استعجم للبكري ص ١٠٨ ومعجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٣٧٣ - ٣٧٤ من طبعة ليسك وشرح التبريزي على القصائد العشر ص ١٠٩ من طبعة كلكتة ١٨٩٤ و Noeldeke ص ٣٢ - ٣٣ من الكتاب المذكور في الحاشية المتقدمة .

(٣) المروى في كتاب معجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٣٧٣ من طبعة ليسك .

(٤) لسان العرب ج ٧ ص ٥٣ - ٥٤ من طبعة يولاقي .

فتيان شتى يجتمعون للشرب»^(١). فأخذه من القاموس بطرس البستاني في محيط المحيط^(٢) وسعيد الخوري الشرتوني في كتاب أقرب الموارد^(٣) فهما فرقا ما بين الموضع بالشام واسم الجنس فقالا: «الأندرون» فتیان شتى يجتمعون للشرب و «أندرين» قرية «فتخمين خاطي صار لفظاً مقيداً في كتب اللغة.

أما البيت «والصخرُ مبتلُ كطين الوَحْلِ» فإشارة إلى قول بعض العرب برطوبة الحجارة فيما قبل الطوفان أو بعده بمدة وعليه تدلُّ الأبيات المنسوبة إلى أمية بن أبي الصلت^(٤):

وإذ هم لا لبوس لهم تقيهم وإذ صم السلام لهم رطابُ
عشية أرسل الطوفانُ يجرى وفاض الماء ليس له جرابُ

وقال الجاحظ في كتاب الحيوان^(٥): «وأنشدني عبد الرحمن بن كيسان:

فكان رطيباً يومَ ذلك صخرُها وكان خضيداً طلحُها وسيالُها
«فزعم كما ترى أنَّ الصخور كانت لينة وأنَّ الأشجار الطلح والسيال كانت خضيدة لا شوك عليها. وزعم بعض المفسرين وأصحاب الأخبار أن

(١) القاموس ج ١ ص ٤٥٧ من طبعة بولاق ١٢٧٢.

(٢) محيط المحيط ج ٢ ص ٢٠٥٥ - ٢٠٥٦ من طبعة بيروت ١٨٦٧ - ١٨٧٠.

(٣) أقرب الموارد ج ٢ ص ١٢٨٥ من طبعة بيروت ١٨٨٩.

(٤) يروي البيهقي وغيرهما في كتاب البدء والتاريخ للمطهر بن طاهر المقدسي ج ٣ ص ٢٥ من

طبعة باريس ١٨٩٩ - (١٩١٩) وفيها: «وإذ صم السلام» وهو تصحيف ويوجد البيت الأول وغيره

في كتاب الحيوان للجاحظ ج ٤ ص ٦٥ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٥ وفي بلوغ الأرب للألوسي ج ٣

ص ٢٢٠ من طبعة بغداد ١٣١٤ (وكل الأبيات مروية في ديوان أمية عدد ٣٠ من طبعة لبيسك ١٩١١

أو ص ١٨ من طبعة بيروت ١٣٥٢) فراجع أيضاً ثمار القلوب للثعالبي ص ٥١٦ من طبعة مصر ١٣٢٦.

(٥) كتاب الحيوان ج ٤ ص ٦٨ - ٦٩.

الشوك إنما اعتراها في صبيحة اليوم الذي زعمت النصارى فيه أن المسيح ابن الله . وكان مقاتل يقول حدثنا بذلك أبو عقيل السواق وكان أحد رواة والحاملين عنه أن الصخور كانت لينة وأن قديم إبراهيم عليه السلام أثرنا في تلك الصخرة كتأثير أقدام الناس في ذلك الزمان إلا أن الله تعالى توفى تلك الآثار وعنى عليها ومسحها ومحاهها وترك أثر مقام إبراهيم صلى الله عليه وسلم والحجة إنما هي في إفراده بذلك ومحرو ما سواه من آثار أقدام الناس ، ليس أن إبراهيم صلى الله عليه وسلم كان وطئ على صخرة يابسة فآثر فيها .

فبعد هذا الاستطراد الطويل نرجع إلى سياق الكلام على روية . - لا شك أن فرط قصد الغريب من الألفاظ في أشعار العجاج ورؤية سبب استعجابها الشديد على القارئ فلولا عناية صاحب الصحاح وصاحب لسان العرب وصاحب تاج العروس بجمع أقوال اللغويين القدماء لبقى كثير من أبيات تلك الأراجيز كأنها آغاز لا يمكننا التوصل إلى حل معانيها . - ثم من خصائص صناعة العجاج ورؤية شدة ميلهما إلى أنواع المجانسة لا سيما التجنيس المحقق أو المستوفى الذي اتفقت فيه الحروف دون الوزن رجع إلى الاشتقاق أم لم يرجع^(١) والجناس المضارع أو المضارعة الكائنة بتقارب مخارج الحروف مع تقديم وتأخير أو مع زيادة ونقصان . وللمجانسة محل عال في علم البيان ولكن الإفراط في استعمالها (والأمثلة منها ألوف في أراجيز ذينك الشاعرين)^(٢) يُستثقل فيضراً جودة الشعر . - ومن خصائصها

(١) إني أستفيد من الاصطلاحات المستعملة في كتاب العمدة لابن رشيق ج ٢ ص ٢٢٠ - ٢٢٤ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

(٢) انظر الأمثلة المروية في مقدمتي Ahlwardt لديوان العجاج ص ٤٨ - ٥٠ وديوان روية ص ٩٣ - ٩٧ .

أيضاً وفرة إدارج فقر وحكم في سياق الكلام^(١) فيضطرب أحياناً المعنى ويستغلق على القارئ . وقد سبق مثال ذلك في الأبيات المروية (ص ١٧٨ - ١٧٩) ومن هذا القبيل قول روبة بعد وصف حماسة قومه^(٢) :

عَبَلِ الْعَدَاوِيْسِ مُنِيفِ الشُّنَخَابِ أَحْزَمَ تَخْشَاهُ قُهْوِبُ الْأَقْهَابِ
يَخْطِرْنَ مِنْ خَشِيَّتِهِ بِالْأَذْنَابِ وَالْجَزْلُ أَبْغَى مِنْ قُمَاشِ الْأَخْطَابِ
وَالهَمْ لَا يُقْضَى كَسَلُ الْأَوْصَابِ أَرْجُو أَنْتِسَابِي بِقُرُوبِ الْأَقْرَابِ
وَرُؤْيَى قَبْلَ اعْتِيَاقِ الْأَعْطَابِ وَجَهَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْأَوَابِ

ومن هذا الباب قول روبة^(٣) :

إِنَّ لِرَيْعَانِ الشَّبَابِ غَيْهَقًا كَانَ بِي مِنْ أَلْتِي جِنُّ أَوْلَقَا
وَلَا أَحِبُّ الْخُلُقَ الْمُعَدَّقَا وَالْغِرُّ مَغْرُورٌ وَإِنْ تَلَهَوْقَا
وَشَرُّ آفَافِ الصَّبَا مَنْ آنَقَا بَلْ أَبْصَرْتَ شَيْخًا وَنَى وَأَشْفَقَا
وَاضْطَرَبَ الدَّهْرُ بِهِ فَرَقَقَا وَالذَّهْرُ إِنْ لَمْ يُبْلِ طَوْلًا عَوَقَا

وحبُّ الغريب حمل روبة أحياناً على الإسهاب المملِّ في الوصف والتشبيه

مثل قوله في ذكر الطلال^(٤) :

كَأَنَّهُ بَعْدَ رِيَّاحٍ تَدْنَمُهُ وَمُرْتَعِنَاتِ الدُّجُونِ تَشْمُهُ
إِنْجِيلُ أَخْبَارٍ وَحَى مُسْمِنَمُهُ مَا خَطَّ فِيهِ بِالْمِدَادِ قَلَمُهُ
إِذَا نَهَجِي قَارِيٌّ يَهِينَمُهُ أَخْرَجَ أَسْمَاءَ الْبَيَانِ مُعْجَمُهُ

(١) راجع مقدم Ahlwardt لديوان العجاج ص ٤٦ - ٤٧ وديوان روبة ص ٩١ - ٩٢ .

(٢) ديوان روبة عدد ٢ بيت ١٧٧ - ١٨٤ من طبعة برلين وأراجيز العرب ص ١٧٠ .

(٣) ديوان روبة عدد ٤١ بيت ١٧ - ٢٤ وكتاب أراجيز العرب ص ٩٩ - ١٠٠ .

(٤) ديوان روبة عدد ٥٥ بيت ١٣ - ٢١ وأراجيز العرب ص ١٤١ -

ارتعن المطر كثر - وحيث الكتاب أي كتبه .

وَحَلَقُ التَّرْقِينِ أَوْ مُوسَمُهُ يُبْدِي لِعَيْنِي عَابِرَ تَفَهُمُهُ
مَا فِيهِ لَوْلَا أَنَّهُ يُتَرَجَّمُهُ

وربما غير روية وزن الألفاظ. لضرورة القافية فانتقد عليه الأصمعي^٥
انتقاداً مدققاً مروياً في كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة^(١). - هذه عيوب
شعر روية وهي على كل حال أقل من فضائله بكثير.

ومن شعراء الأراجيز المشهورين دكين الراجز وهو دكين بن رجاء من بني
فقيم الذي لم نقف على تعيين عصره إلا بما رواه ابن قتيبة^(٢) وصاحب
الأغاني^(٣) من مدحه لعمر بن عبد العزيز وقت توليه المدينة أعنى قبل
سنة ٧١٧. ولم يصل إلينا من أراجيزه إلا أبيات قليلة جداً^(٤). - ومن شعراء
الأراجيز أبو نخيلة الحمالي الراجز^(٥) الذي تنافر العجاج في الشعر وأقام
مدة بالشام ومدح هشام بن عبد الملك (١٢٥ - ٧٢٤) بأرجوزة ذكر بعض

(١) كتاب الشعر ص ٣٧٨ - ٣٨٠ من طبعة ليدن .

(٢) كتاب الشعر والشعراء ص ٣٨٧ - ٣٨٩ من طبعة ليدن .

(٣) كتاب الأغاني ج ٨ ص ١٥٥ من طبعة بولاق وراجع أيضاً العقد الفريد لابن عبد ربه

ج ١ ص ١١٤ - ١١٥ من طبعة ١٣٠٥ .

(٤) ويروى بعض أبياته في كتاب الحيوان للعاجز ج ٣ ص ١١٢ من طبعة مصر ١٣٢٢ -

١٣٢٥ وخزانة الأدب لعبد القادر البغدادي ج ٢ ص ٤٨٨ و ج ٣ ص ٣٦٧ - ٣٦٨ من طبعة

بولاق - (قال ياقوت في إرشاد الأريب ج ٤ ص ٢٠٠ من طبعة لندن ١٩٢٧ ما نصه : « دكين بن

سعيد الدارمي التميمي الراجز وهو غير دكين بن رجاء المتقدم واشتجا على ابن قتيبة في طبقات الشعراء

فجعلهما واحداً ودكين بن سعيد هذا هو الذي كان منقطعاً إلى عمر بن عبد العزيز حين كان والياً

بالمدينة . . . مات دكين سنة ١٠٩ هـ . أما دكين بن رجاء الفقيمي فقال ياقوت (ج ٤ ص ١٩٨ - ٢٠٠)

إنه وفد على الوليد بن عبد الملك ومدح مصعب بن الزبير ومات سنة ١٠٥ هـ . وفي كتاب العقد في الموضوع

المذكور ينسب مديح عمر بن عبد العزيز إلى دكين بن رجاء الفقيمي كما في كتاب الشعر لابن قتيبة أما

صاحب كتاب الأغاني فقال إن مديح عمر بن عبد العزيز لدكين الراجز بغير تعيين اسم أبيه ونسبه) .

(٥) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٨١ من طبعة ليدن وكتاب الأغاني ج ١٨ ص ١٣٩ - ١٥٢

من طبعة بولاق وكتاب الإيافة لأبي سعيد محمد بن أحمد العملي ص ٥٧ - ٥٨ من طبعة مصر بغير تاريخ

الطبع .

أبياته في كتاب الأغاني^(١) وخرانة الأدب لعبد القادر البغدادي^(٢)، فلما انتقلت الخلافة من بني أمية إلى بني العباس سنة ١٣٢/٧٥٢ نقلها إلى السفاح فبقيت في ديوانه منسوبة إلى هذا الخليفة العباسي. ومات بعد بيعة المنصور أعني بعد سنة ١٣٦/٧٥٤. وشعره ليس بالألفاظ. مجرد عن الغريب مصوغ في بحر الرجز المشطور إلا شيء قليل جداً ورد على غير قالب الأرجوزة. - ومنهم أبو مرثد عطاء بن أسيد السعدي المعروف بالزفيران الذي لم يرد ذكره في أكثر كتب الأدب والتراجم مع أن مؤلفي كتب اللغة ربما احتجوا بأبياته لا سيما صاحب تاج العروس الذي روى نحو ثلاثين بيتاً من أراجيزه. وسنة ١٩٠٣م جمع المستشرق الألماني أهلوذت^(٣) هذه الأبيات المفردة المتفرقة ونشرها مع عشر مقطعات من أراجيزه موجودة في نسخة خطية محفوظة في المكتبة الخديوية. ولم نعرف من أخباره إلا ما يستفاد من بقايا ديوانه أعني أنه كان في قيد الحياة نحو سنة ٧٣ وقت ثورة أبي فديك بهجر من أعمال البحرين. وشعره غير مُفَرِّط في استعمال الغريب مجرد عما ذكرناه آنفاً من وفرة المجانسة والإدراج وهو يدور على ما تدور عليه سائر الأراجيز أعني وصف الغرام وتوجع الفراق والنساء والشباب والنوق والحمير الوحشية والفيافي والصيد وجميع ذلك تمهيداً للخروج إلى مدح قومه أو أمير أو أحد أكابر الناس يُرَجَى منه الجوائز. - ومنهم أيضاً عقيب بن روبة بن العجاج على ما يُستنتج من حكاية مروية في كتاب الشعراء لابن قتيبة^(٤) ومن كتاب الأغاني^(٥).

(١) كتاب الأغاني ج ١٨ ص ١٤١.

(٢) كتاب خزانة الأدب ج ١ ص ٧٨ - ٧٩ من طبعة بولاق.

(٣) الجزء الثاني من مجموع أشعار العرب المأثور وهذا الجزء مشتمل على ديوان الأراجيز للعجاج والزفيران فراجع أيضاً R. GEYER, *Beiträge zur Kenntnis altarabischer Dichter: 3 al-'Ajzaj und al-Zafayān* (Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes, 29. Band, 1909) P. 100-101.

(٤) كتاب الشعر ص ٤٧٧ من طبعة ليدن.

(٥) كتاب الأغاني ج ٣ ص ٣٧ من طبعة بولاق.

إن رؤبة بن العجاج آخِر التوابع الذين قالوا الأراجيز الحقيقية أعنى القصائد الجارية مضمونها على الأسلوب القديم مع أنها مصوغة في بحر الرجز المشطور . وبعده بقليل اندرس هذا النوع من الشعر تماماً ونُحِمَ بأبي العباس محمد بن ذُوَيْبِ القُفَيْمِيِّ المعروف بالعماني^(١) الذي نظم بالرجز أكثر قصائده^(٢) . وكان من أهل البدو ومدح يزيد بن الوليد $\frac{١٢٦}{٧٤٤}$ والخليفين الأخيرين من الدولة الأموية ثم السفاح والمنصور والمهدي وهارون الرشيد . $(\frac{١٧١}{٧٨٦} - \frac{١٩٣}{٨٠٩})$.

إذا قطعنا النظر عن أصحاب الأراجيز الحقيقية وجدنا أن شعراء القرن الأول وأوائل الثاني حصروا استعمال الرجز المشطور في المقطعات الدائرة على مواضيع خاصة وإن كانوا يستعملون فيها أيضاً سائر الأعاريف . فنراهم يرتجزون في وصف أحوال شخصية ارتجالاً^(٣) أو في الرثاء والهجاء ووصف الحيوان والصيد وفي المُلح والحكايات لا سيما المضحكة . ومن هذا الباب

(١) راجع كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٤٧٥ - ٤٧٦ من طبعة ليدن وكتاب الأغاني ج ١٧ ص ٧٨ - ٨٢ من طبعة بولاق وكتاب الحيوان للجاحظ ج ٤ ص ٨ (أبيات له من الرجز في ج ٢ ص ٦١ و ج ٦ ص ٣٠ و ٦٧) وكتاب البيان للجاحظ ج ٢ ص ١٨٤ من طبعة ١٣١٣ (١ و ج ٣ ص ٢٧٢ من طبعة ١٣٥١) وكتاب خزائن الأدب ج ٤ ص ٢٩٢ من طبعة بولاق .
(٢) إن الجاحظ في كتاب البيان والتبيين ج ٢ ص ١٨٤ سطر ٢٢ عد بشار بن برد (المقتول سنة ١٦٧ في خلافة المهدي) من الذين جمعوا القصيد والرجز مثل أبي النجم وحמיד الأرقط والعماني . - ولكن من جملة أشعاره التي نقلت إلينا لا نجد إلا أرجوزة واحدة قالها في مدح عقبة بن سلم (ولا « بن مسلم » كما في الأغاني ج ٣ ص ٣٧ من طبعة بولاق) فيتضح من رواية ابن قتيبة (ص ٤٧٧ من طبعة ليدن) والأغاني (واقظ أيضاً البيان للجاحظ ج ١ ص ٢٣ من طبعة ١٣١٣) (أوج ١ ص ٥٧ من طبعة ١٣٥١) أنه إنما اتخذ بحر الرجز لنسجها لأن عقبة بن رؤبة قد أنكر في حضرة عقبة بن سلم قدرة بشار على إحسان الأراجيز .

(٣) أو بلا ارتجال كالأبيات (٢٠ رجزاً) التي نسجها أبو عمارة عمر بن مسلم بن أبي طرالة الهذلي داعياً الله أن يأذن له في الاشتراك في غزو أبي لطيف . راجع : J. WELLHAUSEN, *Letzter Teil der Lieder der Hudhailiten*, Berlin 1884, No. 297.

الأخير رجز رديني بن عبس الفقعسي^(١) في ذكر طريقة تخلصه من دفع ما كان عليه من الدين لتاجر فارسي بالكوفة ومنه أيضاً قصة العذافر بن الرتيان الكِناني^(٢) في تنجحه لخيانة غرماثة بيمين « كمثل سيل جاء من رأس جبيل ». ومن هذا الباب أيضاً الأبيات الاثنان والعشرون من الرجز التي قالها مسعود بن كبير الجرهمي في حمار اشتراه فوجده على خلاف ما وصفه به النخاس^(٣) أو مخاطبة الأعرابي والضبع التي أكلت شاءه^(٤) أو قول الرجل الذي سرق له الدلو^(٥) وهلم جرا . وقد سبق (ص ١٩٠) ذكر ما قاله الشمردل بن شريك اليربوعي بعد منتصف القرن الأول من الأرجاز العديدة اللطيفة في الصقر والكلب والصيد فتروى لعوف بن ذروة تسعة أبيات من الرجز في وصف الجراد^(٦) ولعبد الله بن كراع من شعراء النصف الأول من القرن الأول أرجاز في وصف الضبع^(٧) ولأحيحة بن الجلاح الأوسي أشعار من بحر الرجز في الكلاب^(٨) ولبعض^(٩) الأعراب من القرن الأول أرجاز في

(١) حماسة البحري ص ٣٨٦ - ٣٨٧ من طبعة ليدن أو ص ٢٦٨ عدد ١٤٣٤ من طبعة بيروت .

(٢) حماسة البحري ص ٣٨٤ - ٣٨٥ من طبعة ليدن أو ص ٢٦٧ عدد ١٤٣٢ من طبعة بيروت .

(٣) كتاب الحيوان للجاحظ ج ٦ ص ١٢٦ - ١٢٧ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٥ ولم أجد ذكره في كتاب الأدب ولكنه إسلامي بغير ترتيب .

(٤) كتاب الحيوان للجاحظ ج ٦ ص ١٥١ - ١٥٢ وهو من شعراء الإسلام والراوى هو أبو زياد الكلابي من معاصري إسحاق الموصلي المتوفى سنة ٢٣٥ .

(٥) حماسة أبي تمام ص ٨٠٠ - ٨٠١ من طبعة بن أوج ٤ ص ١٦٥ - ١٦٦ من طبعة بولاق .

(٦) كتاب الحيوان للجاحظ ج ٥ ص ١٦١ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٥ والنوادر

في اللغة لأبي زيد الأنصاري ص ٤٨ من طبعة بيروت ١٨٩٤ (عن الأصمعي) وكتاب أراجيز العرب ص ٧٩ من طبعة مصر ١٣١٣ ونصه يطابق نص النوادر مطابقة تامة - ولا يذكر الشاعر في كتاب الخزاعة ولا في كتاب الأغاني ولا في كتاب الشعر لابن قتيبة ولا في الأصمعيات ولا في حماسة أبي تمام ولا في حماسة البحري .

(٧) كتاب الحيوان ج ٦ ص ١٦٠ .

(٨) كتاب الحيوان للجاحظ ج ٢ ص ٢٠ - ٢٢ .

(٩) كتاب الحيوان ج ٧ ص ٥٦ .

صفة الفيل واليربوع^(١) وغيرها من الحيوان^(٢) . ولا أحتاج إلى ذكر أمثلة من استعمال الرجز في الرثاء والهجاء .

ومن الحرى بالاعتبار أن شعراء الدولة العباسية لا سيما في القرن الثاني والثالث والرابع اتبعوا هذا المنهج في حصر استعمال الرجز المشطور في مواضع خاصة معينة فكثرت عندهم الأرجاز في الطرديات وهي وصف القنص وحوادثه وجوارح الصيد مثل الكلاب والفهود والبيزان فكاد يغلب الرجز على سائر الأعاريف في هذا النوع من الشعر الذي تعاطاه كثير من الضوابع مثل الفضل ابن عبد الصمد الرقاشي^(٣) من شعراء هرون الرشيد وأبي نؤاس الحسن بن هاني^(٤) المتوفى في العشر السنين الأخيرة من القرن الثاني والناشي الأكبر المتوفى سنة ٢٩٣ وابن المعتز^(٥) المتوفى سنة $\frac{296}{908}$ وأبو فراس الحمداني^(٦) المتوفى سنة ٣٥٧ وغيرهم . ومن المشهور رجز عبد الصمد بن المعتز من شعراء القرن الثالث في وصف العقرب المروي في كتاب الكامل للمبرد^(٧) .

(١) كتاب الحيوان للجاحظ ج ٦ ص ١٣٠ .

(٢) روى في كتاب الحيوان ج ٢ ص ٨٢ رجز في وصف السك لابن أبي العنبر بن أبي نخيلة الراجز .

(٣) روى له الجاحظ في كتاب الحيوان ج ٦ ص ١٦١ (١٨ بيتاً) و ص ١٦١ - ١٦٢ (١٣ بيتاً) أراجيز في وصف الفهد .

(٤) روى له في كتاب الحيوان ج ٢ ص ١٠ - ١٥ أراجيز في الكلاب والطردهم فراجع ديوانه في باب الطرد .

(٥) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ٩٥ من طبعة مصر ١٨٩١ (في باب الطرد) .

(٦) تروى له طردية مزدوجة في W. AHLWARDT, *Ueber Poesie und Plastik der Araber*, Gotha 1856, P. 2-4.

(٧) الكامل في اللغة للمبرد ص ٥١٩ من طبعة ليبسك أو ج ٢ ص ١١٤ - ١١٥ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٤ وعاش عبد الصمد بن المعتز في العصر العباسي فتوجد ترجمته في الأغانى ج ١٢ ص ٥٧ - ٧٢ ويروى له فيه قصيد لا رجز - نقل المبرد (المتوفى سنة ٢٨٥) عنه قول الأصمعي (المولود سنة $\frac{122}{740-739}$ المتوفى $\frac{216}{832-831}$) وإسحاق بن إبراهيم الموصل (المولود سنة $\frac{150}{767}$ والمتوفى $\frac{235}{948}$) . راجع الكامل ص ٥١٩ و ٣٨٧ سطر ١٣ من طبعة ليبسك .

وسبب حفظهم هذا العروض في الطرديات وصفات الحيوان ظاهر وهو
أن هذا النوع من الشعر كان أصله بدوياً ومضمونه أقرب إلى أحوال أهل الوبير
منه إلى عيشة سكان المدن وأهل الحضر .

وربما اتخذوا بحر الرجز أيضاً في نسج الرثاء^(١) وذكر المَلَح واللطائف
والحكايات فضلاً عما ذهبوا إليه مبتدعين من استعمال الرجز لا سيما المزدوج
لتأليف المنظومات الطولى في الأخبار التاريخية أو شرح الفنون والعلوم ولكنهم
في الغالب امتنعوا عن الاقتداء بالسلف في الارتجاز في الهجاء ، ولا شك أن
سبب هذا الاستثناء كان ما وقع في الهيئة الاجتماعية العربية من التقلب العظيم
بعد انقراض دولة بني أمية حيث زال النظام القديم المنبثق على قسمة الناس
في القبائل فلماذا الزوال وللتغير الداخل في الأخلاق والأميال حُمِلت الشعراء
ضرورياً على سلوك طريقة جديدة في الهجاء غير الطريقة المسلوكة في أيام
الجاهلية وعند الأعراب لأن هجاء قبيلة العدو وأقارب الخصم أصبح شيئاً
لا أساس ولا معنى له .

كان الرجز في القرن السابق للإسلام وفي القرن التالي لظهوره البحر العادي
في أشعار العامة من أهل البادية لسهولة وسهولته ومناسبته لمقتضى الارتجال . فقد
انتشاره عندهم ظاهر ظهور الشمس من العدد الوافر من أبيات الرجز
المنسوبة إلى الأعراب الواردة في كتب الأدب واللغة جماً غفيراً حتى إن
أبا زيد الأنصاري المتوفى نحو سنة ٢١٥ الذي قد سبق (ص ١٨٦) أنه
ميز في كتاب النوادر في اللغة أبواب الشعر وأبواب الرجز قال في توطئة
كتابه ما نصه^(٢) : « ما كان فيه (أى في) الكتاب من شعر القصيد فهو

(١) ومن هذا الباب مرتبة أبي نواس في خلف الأحمر راجع W. AHLWARDT, *Chalef alahmar's*

Qasida, Greifswald 1859, P. 414

(٢) كتاب النوادر في اللغة ص ١ من طبعة بيروت ١٨٩٤ .

سماعى من المفضل بن محمد الضبي وما كان من اللغات وأبواب الرجز فذلك سماعى من العرب». فالمحتمل على ظنى أن الذين صاغوا القصائد فى ذلك العروض فقط. واخترعوا الأرجوزة بمعناها الخاص (وهم كما تقدم كلهم من أهل القبائل) إنما أرادوا الاجتهاد فى رفع شأن الشعر العائى البدوى كأن هذا الاجتهاد رُدُّ على أساليب الشعر الملقى فأداروا الأراجيز على مجرد المواضع المألوفة عند سكان البرارى وماؤها ألفاظاً غريبة خاصة لأهل البادية بعيدة عن متعارف أهل الحضرة^(١).

أما أسباب فناء نوع الأراجيز الحقيقية وزوالها فى أوائل الدولة العباسية فأظنُّها من ضربين : صناعية وطبيعية والصناعية عسر حفظ. روى واحد فى الأشعار الطولى ذات أبيات قصيرة جداً من مشطور الرجز ثم المثل الناشئ عن هذا الروى الوحيد للأبيات القصيرة إن طال الشعر ثم صعوبة حصر معنى تام فى بيت من الرجز المشطور وما ينتج منها من الاضطراب إلى تقسيم المعنى الواحد على بيتين أو ثلاثة أو أربعة أو أكثر، وذلك يضرُّ وضرح المعنى ويسبب التعقيد. أما السبب الطبيعى فهو ما تقدم أن الأرجوزة الحقيقية إنما كانت من مخترعات شعراء البادية لم يذهب إليها أحد من الحضريين وهى شعر بدوى محض لغة وموضوعاً فاستنكف عنه شعراء الدولة العباسية لأنهم بعداء عن عيشة الأعراب فمن المعروف أن الإنسان فى الأغلب لا يتكلف ما لا يكون معهوداً فى طبعه ولا موجوداً من خلقه.

٥- قد قسمنا الشعر العربى فى أيام بنى أمية تسعة أقسام أو أصناف وفرضنا من ذكر الأصناف الأربعة الأولى أعنى الغزل فى مدن الحجاز والنسيب والشعر الغرامى عند الأعراب والشعر على الأسلوب القديم المتداول عند فحول

(١) ولم يكن ذلك رجوعاً إلى الأسلوب القديم كما يظن N. Rhodokanakis

الجاهلية والأراجيز . فنبتدئ الآن الكلام الوجيز على شعر الصنف الخامس وهو الذي يتعلّق بالاغتراب والفتوح والحروب أي شعر الجنود في خارج جزيرة العرب .

إنّ الحرب لم تزل تدور رحاها في عهد الأمويين سواء في الثغور لتوسيع حدود المملكة الإسلامية غرباً وشرقاً وشمالاً أم في داخل نفس دار الإسلام بسبب عصبية الأقاليم العربية أو الفتن السياسية والدينية . لا أحد يجهل أن عرب البادية لم يألّفوا أبداً نظاماً اجتماعياً سياسياً غير القبائل المستقلة فأقصى ما انتهوا إليه إنّما كان تحالف جملة من القبائل مدة ما بصفة ألاّ يُفسد به استقلالها فلم يتمكن الدين الإسلامي على ما أتى به من تعليم مساواة المؤمنين ولا جهد الخلفاء لاسيما عمر بن الخطاب ومعاوية بن أبي سفيان من استئصال عصبيتهم وإزالة ما جُبل لهم من كراهة الانقياد والنظام المتين . ولم تبرح تغلب فيهم روح المنافرة والمشاجرة فنشبت بين أقوامهم الحروب بل زاد استعارها بعد منتصف القرن الأوّل حين أخذ ينمو تضادّ النزاريين واليمانيين الذي لا يقدر تأثيره في تاريخ الأمم الإسلامية وأحوال الخلافة في المشرق وفي الأندلس . لا يخفى أنّ دوزي الهولاندي^(١) وكُلْدزِيهَر^(٢) المجرى أفرغا كنانة جهدهما في البحث عن أسباب ذلك التضادّ وكيفية نموّه وشرّ نتائجه ولكن ليس هذا محلّ الخوض في هذا الموضوع الذي يُخصّ بيانهُ بأستاذ التاريخ الإسلامي . فيكفيني إيراد ما قاله المسعودي في الباب

(١) راجع R.P. DOZY, *Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la conquête de l'Andalousie par les Almoravides* (711 - 1110), Leyde 1861, 4 vol. [2ème édition, revue et mise à jour par E. F. Lévi-Provençal. Leyde 1992, 3 vol.]

(٢) راجع I. GOLDZIEHER, *Muhammedanische Studien*, Hall. a. S. 1888-1890, vol. I. P. 78-100 الذي يصحح بعض أقوال دوزي ويكذب رأى العرب أن هذه المضادة جاهلية .

الثالث بعد المائة من كتاب مروج الذهب^(١) : « افتخرت نزار على اليمن وافتخرت اليمن على نزار وأدلى كل فريق بما له من المناقب وتحزبت الناس وثارَت العصبية في البدو والحضر فنتج بذلك أمر مروان بن محمد الجعدي^(٢) وتعصبه لقومه من نزار على اليمن وانحرف اليمن عنه إلى الدعوة العباسية وتغلغل الأمر إلى انتقال الدولة عن بني أمية إلى بني هاشم » .

فإن اعتبرتم أن معظم الذين ارتحلوا إلى الثغور مجاهدين كانوا من عرب القبائل وأنه منهم أيضاً كان أكثر المقاتلين في الحروب الداخلية القومية ثم إن تذكركم ما سبق بيانه غير مرة من بقاء الأعراب في القرن الأول والثاني على أغلب ما كانوا عليه في الجاهلية من الأهواء والأميال والعوائد ما استغريتم وجود نوع من الشعر سميته شعر الجنود لأنه زها في العسكر . إن مثل هذا الشعر في أمة غير العربية لم يكن إلا شيئاً قليلاً جداً دنى القدر حقيراً أما عند الأعراب فلم يكن الأمر كذلك لولوعهم المشهور بالشعر ومهارتهم به كأنه من غريزة خاصهم وعامتهم . فيدل بعض الأخبار دلالاً مبيناً على شدة كلف الجنود بالشعر وتعظيمهم إيّاه . منها ما يروى في كتاب الأغاني^(٣) نقلاً عن أبي الحسن علي بن محمد المدائني من رواة القرن الثاني قال : « بينا المهلب بن أبي صفرة ذات يوم بفارس وهو يقاتل الأزارقة^(٤) إذ سمع المهلب في عسكره جلبة وصياحاً فقال ما هذا ؟ قالوا جماعة من العرب تحاكموا إليك في شيء فأذن لهم فقالوا إننا اختلفنا في جرير والفرزدق فكل فريق منا يزعم أن أحدهما أشعر من الآخر وقد رضينا بحكم الأمير . فقال كأنكم

(١) مروج الذهب ج ٦ ص ٤٥ من طبعة باريس .

(٢) يعنى آخر الأمويين الذي تولى الأمر من سنة ١٢٧ إلى سنة ١٣٢ .

(٣) كتاب الأغاني ج ٧ ص ٥٥ ورواية أخرى في الأغاني ج ٧ ص ٣٩ - ٤٠ من طبعة بولاق .

(٤) وهم من الخوارج .

أردتم تعرّضوني لهذين الكلبين فيمزقان جلدي لا أحكم بينهما ولكني أدلكم على من يهون سؤال جرير وسؤال الفرزدق ، عليكم بالأزارقة فإنهم قوم عرب يبصرون الشعر ويقولون فيه بالحق . ففعلوا كما قال وسألوا في الغد أزرقياً قد خرج دعاهم إلى المبارزة . - وفي تاريخ الطبري^(١) عشرتُ على خبرٍ آخرٍ مهمٍّ لما نحن فيه وهو أن عتّاب بن ورقاء الرّياحيّ قبل الواقعة التي حدثت بينه وبين شبيب الخارجيّ سنة ٧٧ سار في الناس يحرضهم على القتال . قال الطبري عن أبي مخنف لوط بن يحيى المتوفى نحو سنة ١٣٠ عن أحد العساكر : «وقف [عتّاب] علينا فقصّ علينا قصصاً كثيراً كان مما حظتُ منه ثلاثُ كلمات قال : يا أهل الإسلام إن أعظم الناس نصيباً في الجنة الشهداء وليس الله لأحد من خلقه بأحمد منه المصابرين ، ألا ترون أنه يقول : أظبروا إن الله مع الصّابرين^(٢) فمن حمد الله فعلمه فما أعظم درجته . وليس الله لأحد أمقت منه لأهل البغي ، ألا ترون أن عدوكم هذا يستعرض المسلمين بسيفه لا يرون إلا أن ذلك لهم قرّبة عند الله فهم شرار أهل الأرض وكلاب أهل النار أين القصص ؟ قال ذلك فلم يُجبهُ والله أحدٌ منا فلماً رأى ذلك قال أين من يروى شعر عنثرة ؟ قال فلا والله ما ردّ عليه إنسانٌ كلمة . فقال إننا لله كأنني بكم قد فررتم عن عتّاب بن ورقاء وتركتموه نسفي في استه الريح » أراد أنه يئس من الظفر إذ لم يكن أحد يشجع قلوب الناس ويحثهم على القتال بقصص الروايات عن أيام العرب المشهورة وبإنشاد قصائد عنثرة في الحماسة . فقيسوا على ذلك قدر الشعر الجيّد من قواد الأعراب في الحرب .

(١) تاريخ الطبري الجزء الثاني ص ٩٥٠ - ٩٥١ وبالاختصار في تاريخ ابن الأثير ج ٤ ص ٣٤١ من طبعة ليدن ١٨٥١ - ١٨٧٦ (في سنة ٥٧٧ هـ) .
 (٢) القرآن سورة ٨ (الأنفال) : ٤٧ .

وصلت إلينا الأشعار من هذا النوع متفرقة في عدة كتب لا سيما تاريخ الطبري وكتاب الأغاني وهي تدور على خمسة أمور : الحماسة والمفاخرة وهجاء العدو وراثاء القتلى وحزن الاغتراب مع الشوق إلى الوطن البعيد^(١). ومن الحرى بالاعتبار أن الهجاء قليل لأنهم لم يتعاطوه في الغالب إلا إذا كانت المحاربة بين أقوام عربية كأنه عندهم من خصائص أولاد عدنان وقحطان فرأيهم هذا متعلق بأصل الهجاء ومنصبه عند قدماء العرب حسبما سنبينه إن شاء الله بعد الفراغ من هذا التمهيد العام فإن الهجاء لم يُعقل عندهم إلا إذا رد عليه جواب فمن الواضح أن هذا الرد مستحيل إذا كان العدو من العجم .

إذا دارت المحاربة بين أقوام من العرب أصبحت أشعارهم شبيهة بما ورد منها في الحكايات المطولة عن أيام العرب في الجاهلية فترون شعراء فريق يردون على شعراء خصمهم بأبيات أخرى حسبما كان عادة الأعراب منذ الزمان القديم . ومثال ذلك ما جرى من الأشعار بين زفر بن الحارث العامري من أصحاب مُضْعَب بن الزُبَيْر وبين جَوَّاس بن قَعَطَل وغيره حين وقعت مَرَج رَاهِط سنة ٦٥ وهي مروية في تاريخ الطبري^(٢) وكتاب الأغاني^(٣) فلولا الأخبار المتعلقة بها لجرنا في الحكم أمي من عهد الجاهلية أم من زمان الإسلام . قال مثلاً زفر بعد انهزامه من أبيات كثيرة^(٤) :

(١) وقد أشرت إلى شعر الاغتراب والشوق إلى الوطن عند ما تكلمت عن شعر الأعراب الذين كانوا خارج أنحاء جزيرة العرب (١١٥ - ١١٧) .

(٢) كتاب تاريخ الطبري ج ٢ ص ٤٨٣ - ٤٨٦ من طبعة ليدن وتاريخ ابن الأثير ج ٤ ص ١٢٥ - ١٢٧ من طبعة ليدن .

(٣) كتاب الأغاني ج ١٧ ص ١١٠ - ١١٣ .

(٤) مروج الذهب للمسموي ج ٥ ص ٢٠٣ من طبعة باريس (في الباب الثالث والخمسين) وراجع أيضاً التنبية للمسموي ص ٢٠٩ - ٣١٠ من طبعة ليدن ١٨٩٤ وتاريخ الطبري ج ٢ ص ٤٨٣ -

لَعَمْرِي لَقَدْ أَبْقَتْ وَقِيعةً رَاهِطِ .
 فَقَدْ يَنْبُتُ المَرعى عَلَى دِمَنِ الثرى
 أَرِينِي سِلَاحِي لَا أبا لَكَ إِنِّي
 أَنزَهَبُ كَلْبًا لَا تَنلُهَا رِمَاحُنَا
 فلم تُرَ مِنِّي نَبوةٌ قَبْلَ هَدِيهِ
 عَشِيَّةً أَعْدُو فِي الفَرِيقَيْنِ لَا أرى
 أَيُذِيبُ يَرْمُ وَاحِدٌ إِنْ أَسَاتَهُ
 أَبَعَدَ ابْنِ عَمْرُو وَابْنِ مَعْنِ تَتَابَعَا

وكلام الشعر من هذا النوع في الأغلب بسيط. مثل قول عويج الطائي
 يمدح كلباً وحميد بن بحدل^(١) :

لقد علم الأقبامُ وقع ابن بحدلِ
 يقودون أولاد الوجيه ولاحق
 فهذا لهذا ثم إنى لنافيضُ
 فلولا أميرُ المؤمنين لأصبحتُ
 وأخرى عليهم إن بقى سعيدها
 من الريف شهراً ما يننى من يقودها
 على الناس أقوالاً كثيراً حدودها
 قضاة أرباباً وقيس عبيدها

أو مثل قول سبحان وائل (وهو غير الخطيب الشهير) يذكر قتال
 المسلمين بخجندة سنة ٩٤ وتمدح رئيسهم قتيبة بن مسلم^(٢) :

فَسَلِ الفوارسَ في خُجندِ لَدَةَ تحت مُرَهَفَةٍ العوالى
 هل كُنْتُ أجمعهم إذا هُزِموا وأُقدِمَ في قتالى

٤٨٤- وتاريخ ابن الأثير ج ٤ ص ١٢٥ - ١٢٦ من طبعة لندن وكتاب الأغاني ج ١٧ ص ١١٢ ومعجم
 البلدان لياقوت ج ٢ ص ٢٤٤ .

(١) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٤٨٧ .

(٢) تاريخ الطبري ج ٢ ص ١٢٥٧ (في سنة ٩٤) وتاريخ ابن الأثير ج ٤ ص ٤٦٠ من

طبعة لندن .

أَمْ كُنْتُ أَضْرِبُ هَامَةً أَلِ عَائِي وَأَصْبِرُ لِلْعَوَالِي
 هَذَا وَأَنْتِ قَرِيعُ قَيْدٍ بِسِ كَلِّهَا ضَخْمُ النُّوَالِ
 وَفَضَلْتِ قَيْسًا فِي النَّدَى وَأَبُوكَ فِي الْحِجَجِ الْخَوَالِي
 وَلَقَدْ تَبَيَّنَ عَدْلُ حُكْمِكَ إِذْ فِيهِمْ فِي كُلِّ مَالٍ
 تَمَّتْ مُرُوعَتُكُمْ وَنَا [أَغَى عِزُّكُمْ غَلَبَ الْجِبَالِ

لكنه شعر صادر من تَلْقَاء القلب بدون تكلف وتصنع معبر عما في
 الصدر حقيقة فكثيراً ما يُعْجِبُنَا وَإِنْ قَلَّ تَنْمِيقُهُ . وممن نسج القريض من
 هذا الصنف بعض الشعراء المُجِيدِينَ الْبَارِعِينَ أَيْضاً فِي سَائِرِ أَنْوَاعِ الشُّعْرِ
 مِنْهُمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ الْمَعْرُوفُ بِأَعَشَى هَمْدَانٍ (١) وَهُوَ
 شَاعِرٌ فَصِيحٌ كُوفِيٌّ قِيلَ إِنَّهُ «شَاعِرُ أَهْلِ الْيَمَنِ بِالْكُوفَةِ وَفَارِسِهِمْ» (٢) . وَكَانَ
 مِمَّنْ أَغْزَاهُ الْحَجَّاجُ بْنُ يُوْسُفَ بِلَادِ الدَّيْلَمِ الْقَرِيبَةِ مِنْ شَطْطِ بَحْرِ الْخَزَرِ
 الْجَنُوبِيِّ فَأُسِرَ وَبُنِيَ أَسِيرًا فِي أَيْدِي الدَّيْلَمِيِّينَ مَدَّةَ ثَمَّ سَارَ فِي جَيْشِ أَهْلِ
 الْكُوفَةِ إِلَى بِلَادِ مُكْرَانَ (٣) وَطَالَ مَقَامُهُ هَا . وَذَكَرَ فِي قِصَائِدِهِ مَا لَحِقَهُ مِنْ
 أَسْرِ الدَّيْلَمِيِّينَ وَمَا شَهِدَ مِنَ الْوَاقِعِ (٤) :

وَأَغِيرُ غَارَاتٍ وَأَشْهَدُ مَشْهَدًا [أَلَّ قَلْبُ الْجَبَانِ بِهِ يَطِيرُ وَيَرْجُفُ
 وَأَرَى مَغَانِمَ لَوْ أَشَاءَ حَوَيْتُهَا فَيُصَلِّئُنِي عَنْهَا غِنَى وَتَعَفُّفُ
 وَهِيَ قَصِيدَةٌ رَائِقَةٌ وَصَلَتْ مِنْهَا إِلَيْنَا ٥٧ بَيْتًا يَشْكُو بِهَا مَا قَاسَاهُ مِنَ الْمَشَاقِّ

(١) وهي قبيلة من قبائل جنوب جزيرة العرب .

(٢) كتاب الأغانى ج ٥ ص ١٥١ من طبعة بولاق .

(٣) مكران ولاية في جنوب بلاد الفرس على شاطئ خليج عمان .

(٤) كتاب الأغانى ج ٥ ص ١٤٨ من طبعة بولاق [وديوان أعشى همدان في ذيل ديوان أعشى

ميمون الذي طبع بلندن سنة ١٩٢٨ عدد ٣٢ بيت ٣٤ - ٣٥] .

والمرض في مكران^(١) ومبتدوؤها :

طلبت الصبا إذ علا المكبرُ وشاب القذالُ وما تقصيرُ
وبان الشباب ولذاته ومثلك في الجهل لا يُعذرُ
ثم يذكر فيها العواذل ويشكو لومهن فيقول :

كأنني لم أرَ تحيلَ جَسرةٌ ولم أجفها بعد ما تضمُرُ
فأجشمها كلَّ ديمومة ويعرفها البلدُ المُقفرُ
ولم أشهد البأس يوم الوغى على المفاضة والمغفرُ
ولم أنرق الصف حتى تمل ل ذراعة القوم والحسرُ
وتحتي جرداه خيفانة من الخيل أو سابح مجفرُ
أطاعن بالرمح حتى الليا ن يجرى به العلقُ الأحمرُ

ويخرج إلى ذكر ما كان عليه من رخاء العيش وتعيمة :

وإذ أنا في عنقوان الشبا ب يعجبي اللهو والسمرُ
أصيد الحسان ويصطدنتي وتعجبي الكاعبُ المعصرُ
وبعد الإطناب في الكلام عن تغزله وقت شبابه بصفة يلوح منها أنه
كان من سكان المدن يأخذ يشكو شرَّ حاله في العسكر في البلاد البعيدة التي
بُعث إليها كارهاً وذلك في أبيات كثيرة .

وفي سنة ٨٣ لما خرج عبد الرحمن بن الأشعث على الحجاج بن يوسف
وحشد معه أكثر الكوفيين كان أعشى همدان ممن خرج معه وجعل يقول
الشعر في مدح ابن الأشعث ولا يزال يحث أهل الكوفة بأشعاره على القتال
حتى أسر فقتل صبراً بأمر الحجاج^(٢) . وله أيضاً شيء من الشعر يخرج

(١) كتاب الأغاني ج ٥ ص ١٤٩ - ١٥٠ (والديوان عدد ٢٠) .

(٢) كتاب الأغاني ج ٥ ص ١٥٩ - ١٦١ من طبعة بولاق ومروج الذهب للمسعودي في الباب

الخامس والتسعين ج ٥ ص ٣٥٥ - ٣٥٨ من طبعة باريس.

عن هذا الصنف ويدخل في الصنف السادس لمداره على الاختلافات المدينة
منه الأبيات المروية له في كتاب الحيوان للجاحظ. (١) يثلب فيها أصحاب
المختار من أهل الشيعة .

ومن هذا الصنف أكثر أشعار عمير بن شبيب التغلبي المشهور بالقطامي (٢)
المتوفى سنة ١١٠ كان نصرانياً كعظم التغلبيين ثم أسلم وقال أغلب شعره
في ذكر الحروب الجارية بين قبائل العرب لا سيما بين تغلب وقيس
عيلان إلى أن أسير في واقعة ماكسين فأخذت إبلة . فنجاه زفر بن
الحارث رئيس القيسيين وخلص سبيله ورد عليه مائة ناقة فمدحه القطامي في عدة
أشعار . ومما يستحق الذكر في شعره من حيث اللغة ما ذهب إليه أحياناً من
جزم عين الفعل الثلاثي في الماضي حتى قال نشبت وتركت بدلاً من نشبت
وتركت (٣) ولعل ذلك لغة تغلب لأنه غير نادر أيضاً في ديوان الأخطل .

ومن هذا الصنف أيضاً ما يُروى لكعب الأشقرى (٤) في غزوات قتيبة
ابن مسلم في بلاد خوارزم (٥) سنة ٩٣ أو قصيدته الطولى التي وصف فيها
وقائع الجند مع المهلب بن أبي صفرة في بلد حين محاربة الأزارقة ببلاد
العجم (٦) - فترون أن هذا النوع من شعر عهد الأمويين يتصل بما سميئناه
شعر الفتوحات في أيام الخلفاء الراشدين وبالأشعار المشهورة في أيام العرب
في الجاهلية .

٦- أما الصنف السادس من شعر الدولة الأموية وهو شعر الفتن السياسية

-
- (١) كتاب الحيوان ج ٢ ص ٩٩ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٣٥ .
(٢) راجع ترجمته في كتاب الأغاني ج ٢٠ ص ١١٨ - ١٢١ وديوانه مطبوع بليدن سنة
١٩٠٢ بعناية J. Barth
(٣) انظر كامل المبرد ص ٥٣٧ من طبعة ليبك .
(٤) راجع ما قاله فيه صاحب كتاب الأغاني في ج ١٣ ص ٥٦ - ٦٤ من طبعة بولاق .
(٥) كتاب الأغاني ج ١٣ ص ٦٣ - ٦٤ وتاريخ الطبري ج ٢ ص ١٠٠٨ - ١٠١٧ .
(٦) كتاب الأغاني ج ٣١ ص ٥٧ .

والدينية فهو من وجهٍ ليس ببعيد عن الصنف السابق بيانه لأنَّ قسماً غير يسير منه يتعلَّق أيضاً بأحوال الحروب والثورات . فحِزَّتْ مُدَّةٌ فِي أَيِّ شَيْءٍ أَوْفَقُ : أَجْمَعُ الصَّنْفَيْنِ أَمْ التَّفْرِيقِ بَيْنَهُمَا ؟ وَفَضَلْتُ التَّفْرِيقَ اعْتِبَاراً لِمَا آتٍ شَرَحَهُ . إِنَّ الْإِتِّصَالَ بِالْغَزَوَاتِ وَالْحُرُوبِ ضَرُورِيٌّ لِلشَّعْرِ مِنَ النَّوْعِ الْمُتَقَدِّمِ وَليْسَ ضَرُورِيّاً لِلشَّعْرِ مِنَ الصَّنْفِ السَّادِسِ . ثُمَّ الْحُرُوبُ الَّتِي يَتَعَلَّقُ بِهَا الصَّنْفُ السَّابِقُ ضَرْبَانِ بِالْأَخْصَصِ : أَحَدُهُمَا الْجِهَادُ فِي حُدُودِ الْمَمْلَكَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ أَوْ خَارِجِهَا وَالْآخَرُ غَارَاتُ قِبَائِلِ الْأَعْرَابِ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ لِأَسْبَابٍ خَاصَّةٍ لَهَا لَا يَمَسُّ أَغْلِبِيهَا الْأَحْزَابُ السِّيَاسِيَّةُ الْحَقِيقِيَّةُ وَلَا الْمَذَاهِبُ الدِّيْنِيَّةُ اللَّهُمَّ إِلَّا عَرَضاً . أَمَّا الصَّنْفُ السَّادِسُ مِنَ الشَّعْرِ فَإِذَا ارْتَبَطَ . قَوْلُهُ بِالْحُرُوبِ كَانَتْ هَذِهِ الْحُرُوبُ مِنْ جَنْسٍ غَيْرِ الْجَنْسَيْنِ السَّابِقَيْنِ لِأَنَّهَا إِمَّا حُرُوبٌ دَائِرَةٌ بَيْنَ حَزْبَيْنِ سِيَاسِيَّيْنِ أَوْ حُرُوبٌ مِنَ النَّوْعِ الْمُسَمَّى عِنْدَ الْفُقَهَاءِ بِحُرُوبِ الْمَصَالِحِ لَا سِيَّمَا فِي قِتَالِ الْمُرْتَدِّينَ وَأَهْلِ الْبَغْيِ (١) . ثُمَّ إِنَّ الصَّنْفَ السَّادِسَ يَحْتَوِي أَيْضاً عَلَى أَشْعَارٍ مَدَارِهَا عَلَى مَذَاهِبٍ سِيَاسِيَّةٍ وَدِينِيَّةٍ مِنْ دُونِ تَعَلُّقِ بِأَيِّ جَنْسٍ كَانَ مِنَ الْحُرُوبِ .

قلت مذاهب سياسية ودينية لتكون العبارة عن فكري أوضح بالإضافة إلى أحوال زماننا الحاضر ولكن حقيقة الأمر في القرن الأول والثاني بعد خلافة عثمان بن عفان أن كلَّ حزبٍ سياسيٍّ كان عند المسلمين مذهباً دينياً أيضاً لعدم تمييز الدنيا والدين في أمور الحكومة على أحكام الشريعة الإسلامية؛ وذلك واضح إن قابلتم نظام الأمة الإسلامية بنظام الأمم الإفرنجية سواء في الزمان القديم أم في القرون الوسطى أم في العصر الجديد . عند الأمم

(١) راجع الأحكام السلطانية للماوردي في الباب الخامس ص ٤٤ - ٥٣ من طبعة مصر

١٣٢٧ أو ص ٨٩ - ١٠٧ من طبعة بن ١٨٥٣ .

الإفريقية لا يتأسس النظام الاجتماعي السياسي على العقائد وإن كانت العقائد تؤثر فيه أحياناً كما تؤثر في الأميال والأهواء والأخلاق والآداب . فعلاقة المُلْك بأمر الدين عندهم كعلاقته بأخلاق الأمة وتمسكها أعنى على وجه طبيعي محض إذ لا يقوم مُلْكٌ من غير وجود أُمَّة ولا تُعَقَلُ أُمَّةٌ ليست لها آراء وأهواء وأميال وحاجات خاصة . فإن كانت مثلاً جملة من الباباوات في الزمان السالف شملوا سلطة دينية وسلطة دنيوية في أيديهم كان هذا الجمع عرضياً لا جوهرياً لأنهم كانوا أئمة جميع النصارى الكاثوليك في أمور العقائد ولم يكونوا ملوكاً إلا على سكان مملكتهم غير الواسعة ثم ما كان هذا المُلْك مما يستوجب الدين النصراني . وكذلك كانت القياصرة في القرون الوسطى والملوك غير الدستوريين في العصر الجديد يقولون إنَّ سلطتهم من الله ولكن معنى قولهم هذا أنهم قياصرة أو ملوك بإرادة الله ومَنِّهِ وأنَّ سلطانهم حقٌ لم يتوصلوا إليه بالاغتصاب والتعدى فلا تجوز للأمة المعصية عليهم . - وكذلك لا علاقة عندهم بين الأحكام الدينية وبين أصول التشريع إلا عرضاً فليس لهم فقه بحصر معناه المصطلح عليه عند الفقهاء وإنما لهم أحكام سلطانية وقوانين أثبتت قواعدها بالاجتهاد من غير استخراجها من شريعة منزلة أو سنن أنبياء . فواضح أنَّ مسألة اختيار الدولة وهيئة الحكومة عندهم مسألة سياسية محضة متجردة عن العقائد والأحكام الدينية . وكذلك ما اشترك إليه في القرون الوسطى من جمع كل النصارى في مملكة واحدة يتولى أمرها قيصرٌ لم يكن من توابع قواعد النصرانية .

أمَّا الإسلام القديم فلا فرقٌ بائن فيه بين تولى أمور الدنيا وتولى أمور الدين ومسألة الإمامة مسألة شرعية مثل سائر مباحث الفقه . قال أبو الحسن الماوردي^(١)

(١) الأحكام السلطانية ص ٢ من طبعة مصر ١٣٢٧ أو ص ٢ من طبعة بن .

إن الإمامة أصل تستقرّ عليه قواعد الملة وتنتظم به مصالح الأمة ثم^(١) إنها موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا . فمنصب الخليفة أي الإمام دنيوي من حيث قيامه بمصالح جميع سكان دار الإسلام والمسلمين المقيمين بدار الحرب وهو ديني من حيث كونه ولاية الله على الأرض لحفظ الإسلام البدع والفساد ولإبقاء وحدة الأمة الإسلامية على مقتضى الشريعة . وبما أن الأحزاب السياسية في عهد الأمويين إنما نشأجت فيمن تكون الإمامة من حقه فكانت هذه المسألة فقط . سبب الحروب سوى الجهاد وغزوات الأعراب وفتن أهل البدع ، ظاهر أننا لا نتمكن من التفريق فيما بين الأشعار في حروب الأحزاب السياسية والأشعار في الاختلافات الدينية .

إن الشعر من هذا الصنف السادس ذو شأن خطير سواء لنفس قيمته الأدبية أم لما يستفيدة منه من أراد البحث العميق الدقيق المنصف عن تاريخ المشرق الإسلامي في ذلك العصر . لا يخفى عليكم أن القدماء الذين صنفوا الكتب في الأخبار والسير قلما ذهبوا إلى إيضاح الأحوال الاجتماعية والأغراض العاملة في الحوادث وإنما اقتصروا أو كادوا على ذكر ما يظهر من التقلبات والوقائع والحروب والأخبار من دون الإفادة عن أسبابها الباطنة الخفية مثل آراء طبقات الناس وأهوائهم وأمبالهم ومصالحهم فأصبح أكثر ما ألف إلى الآن [يعني إلى سنة ١٩١١] بالعربية من تواريخ بلاد الإسلام أقرب إلى الأخبار البرقية المنشورة في الجرائد منها إلى ما يُعتبر الآن غاية التاريخ الحقيقي الباحث عن علل الحوادث وتسلسلها وعن انقلابات الأحوال الاجتماعية والأفكار . ثم من آفات الكتب العربية في التاريخ أنها

(١) الأحكام السلطانية ص ٣ من طبعة مصر ١٣٢٧ و ص ٣ أيضاً من طبعة بن .

في الغالب لم تستسق إلا من المصادر الرسمية أو روايات الفريق الفائت على غيره فبعد الاطلاع عليها كثيراً ما نُضحى كحُكْمٍ سمع أحد الخصميين فقط فلا يتمكن من الإنصاف في الحُكْم . وغير مرة تساعدنا الأشعار من الصنف السادس على تدارك هذا الخلل . فإنها قامت في عصرها مقام الجرائد والمناقشات الدائرة الآن في المجالس العمومية وهي في الغالب لم تكن ترجمان فكر قائلها فقط . بل كانت صوت جميع الحزب أو المذهب المنتسب الشاعر إليه . فإنَّ العرب في ذلك العصر الذي لم يُعرَف فيه فنُّ الطباعة بعدُ اتخذوا الشعر وسيلةً لنشر آرائهم وأفكارهم وعواطفهم لأنَّ الشعر أسير على ألسنة الناس وأوقع في قلوبهم من الكلام المنشور العادي . فالراوى المرتحل من بلد إلى بلد يُنشِد الأشعار كان لهم بمنزلة الجريدة المشيعة آراء حزبا في الجمهور . فكفى ذلك دلالة على أهمية تلك الأناشيد لمن أراد الوقوف التام على حياة العرب الاجتماعية وعلى الأهواء والعواطف التي لا غنى عن حقِّ معرفتها لمن عزم التنقيب عن حوادث الزمان السالف وإزالة الشكِّ واللبس في تقدير عللها .

لَمَّا قُتِلَ عُمَانُ بْنُ عَفَّانٍ يَوْمَ الْأَضْحِيَّةِ مِنْ سَنَةِ ٢٥٦ هـ اضْطَرَبَتِ النَّاسُ اضْطِرَابًا شَدِيدًا فَذَهَبَ قَوْمٌ غَيْرُ يَسِيرٍ مِنْهُمْ إِلَى أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ قَدْ شَارَكَ الْقَاتِلَ فَأَنْكَرُوا بَيْعَتَهُ وَمِنْهُمْ أَغْنَى مِنَ الْعُمَانِيَّةِ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيُّ شَاعِرُ النَّبِيِّ سَابِقًا الَّذِي رثَا عُمَانَ فَقَالَ فِي مَرثِيَتِهِ الْأَبْيَاتِ الشَّهِيرَةِ^(١)

(١) ديوان حسان بن ثابت ص ٩٨ من طبعة تونس أو عدد ٢٠ ص ٢٢ من طبعة ليدن - أما البيت الأول فهو ناقص في طبعات الديوان ولكنه موجود في كتاب العقدا لابن عبد ربه ج ٢ ص ٢٠٦ من طبعة مصر ١٣١٥ وفي بيان أبحاث ج ١ ص ٩٠ سطر ٧ من طبعة ١٣١٣ وفي كتاب التنبية للمسعودي ص ٢٩٢ من طبعة ليدن وفي خزنة الأدب ج ٤ ص ١١٨ من طبعة بولاق وفي تاريخ ابن الأثير ج ٣ ص ١٥١ من طبعة ليدن وكل الأبيات مروية في NGLDEKE., *Dolectus veterum carminum arabicorum* ص ٧٧ - أما عنوان السجود فانظر القرآن ٤٨ (سورة النحر) : ٢٩ .

ضَحَّوْا بِأَشْمَطَ. عُنْوَانُ السُّجُودِ بِهِ
 بَلْ لَيْتَ شِعْرِي وَلَيْتَ الطَّيْرُ يُخْبِرُنِي
 لَتَسْمَعُنَّ وَشَيْكًا فِي دِيَارِكُمْ
 وَقَدْ رَضَيْتُ بِأَهْلِ الشَّامِ زَافِرَةً
 إِنِّي لَمِنْهُمْ وَإِنْ غَابُوا وَإِنْ شَهِدُوا
 صَرًّا فِدَى لَكُمْ أُمِّي وَمَا وَكَلَدَتْ
 شُدُّوا السُّيُوفَ بِئْسَنِي فِي مَنَاطِقِكُمْ
 لَعَلَّكُمْ أَنْ تَرَوْا يَوْمًا بِمَغْبِطَةٍ
 يُقَطِّعُ اللَّيْلَ نَسْبِيحًا وَقُرْآنًا
 مَا كَانَ شَأْنُ عَلِيٍّ وَأَبْنِ عَفَّانَا
 اللَّهُ أَكْبَرُ يَا ثَارَاتِ عُثْمَانَ
 وَبِالْأَمِيرِ وَبِالْإِخْوَانِ إِخْوَانَا
 حَتَّى الْمَمَاتِ وَمَا سُمِّيتُ حَسَانَا
 قَدْ يَنْفَعُ الصَّبْرُ فِي الْمَكْرُوهِ أَحْبَابَنَا
 حَتَّى يَحِينَ بِهَا فِي الْمَوْتِ مَنْ حَانَا
 خَلِيفَةَ اللَّهِ فِيكُمْ كَالَّذِي كَانَ

فكانت هذه الأبيات كأنها مقدمة المعرفة بالمستقبل فتداعت أصوات من طلب نأر عثمان وجاوبتها الأصدااء لاسيما في الأنحاء الشامية فاشتعلت نار الحرب وتصلصلت الدروع من وقع البيض وتتمت العداوة بين أهل العراق وأهل الشام كما قال كعب بن جعيل التغلبي شاعر الشاميين (١):

أَرَى الشَّامَ تَكَرَّرَهُ مُلْكُ الْعِرَاقِ
 وَكُلًّا لِصَاحِبِهِ مُبْغِضًا
 وَكُلُّهُ يُسْرُ بِمَا عِنْدَهُ
 إِذَا مَا رَمَوْنَا رَمَيْنَاهُمْ
 فَقَالُوا عَلِيٌّ إِمَامٌ لَنَا
 وَقَالُوا نَرَى أَنْ تَدِينُوا لَنَا
 وَأَهْلَ الْعِرَاقِ لَهُمْ كَارِهِينَا
 يَرَى كُلُّ مَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ دِينَا
 يَرَى غَثٌ مَا فِي يَدَيْهِ سَمِينَا
 وَدِنَاهُمْ مِثْلَ مَا يُقْرَضُونَا
 فَقُلْنَا رَضِينَا أَبْنَ هِنْدِ رَضِينَا
 فَقُلْنَا لَهُمْ لَا نَرَى أَنْ نَدِينَا

(١) كتاب الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري ص ١٧٠ - ١٧١ من طبعة ليدن ١٨٨٨ و NOLDEKE, *Delictus veterum carminum arabicorum*, P. 79-80. وأجابه النجاشي (راجع كتاب الأخبار الطوال ص ١٧١ وكتاب Noldeke ص ٨٠ وانظر أيضاً F.SCHULTHESS, *Ueber den Dichter al-Nagāsi und einige Zeitgenossen*, *Zeitschrift der deutschen morgenländischen Gesellschaft*, 54, 1900, P. 64).

ومن دُونِ ذَلِكَ خَرَطُ الْقَتَادِ وَضَرْبُ وَطْعُنُ يُقْرَأُ الْعَيْونَا
 وما في عَلِيٍّ لِمُسْتَحْدِثٍ مَقَالٌ سِوَى عِصْمَةِ الْمُحَدِّثِينَ
 وَإِثَارِهِ لِأَهْلِ الذُّنُوبِ وَرَفْعِ الْقِصَاصِ عَنِ الْقَاتِلِينَ
 إِذَا سَبِلَ عَنْهُ زَوْى وَجْهَهُ وَعَمَى الْجَوَابَ عَلَى السَّائِلِينَ
 فَلَيْسَ بِرَاضٍ وَلَا سَاخِطٍ. وَلَا فِي النِّهَاةِ وَلَا الْآمِرِينَ
 وَلَا هُوَ سَاءٌ وَلَا سَرُّهُ وَلَا بُدُّ مِنْ بَعْدِهِ إِذَا أَنْ يَكُونَا

كان المسلمون بعد قتل عثمان إلى أيام صفين منقسمين إلى فريقين كبيرين متحاربين : العثمانية وشيعة علي . وبينهما ناس يكرهون سفك دماء المؤمنين ويتجنبون التحزب وهم المسمون بالمعتزلة^(١) منهم أبو موسى الأشعري وسعد بن أبي وقاص والمغيرة بن شعبة وغيرهم . ثم رضى علي باقتراح التحكيم في خلافته في صفر سنة ٣٧ هـ (أغسطس ٦٥٧ م) كان سبب فتنة في شيعته لأن قوماً من أصحابه استقبحوا تحكيم الرجال في دين الله أى تفويض حل مسألة الإمامة إلى رجلين اقرلهم لأنه لا حكم إلا لله فخرجوا عن جيشه إلى حروراء^(٢) فسموا الحرورية أو الخوارج^(٣) - وفي سنة $\frac{٣٨}{٦٥٨}$ التقى الحكمان وهما أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص بأندرج في أرض

(١) (أما علاقة هؤلاء المعتزلة بالمعتزلة المشهورين في تاريخ علم التوحيد الإسلامى وأصل اسم هؤلاء المعتزلة الآخرين فراجع C.A.NALLINO, *Raccolta di scritti editi e inediti*, vol. II, (1940, P. 146-169).

(٢) وهو موضع غير بعيد عن الكوفة .

(٣) هذا أصل الاسم فما سماوا به - كما يقال - لأنهم خرجوا على علي . فراجع الذى حلقه بسورة النساء : ١٠١ R. BRUNNOW, *Die Charidschiten unter den ersten Omayyaden*, Leiden 1884, P. 28,

J. WELLHAUSEN, *Die religio-politischen Oppositionsparteien im alten Islam*, Berlin 1901, P.4n.2., (F. GABRIELI, *Sulla origine del movimento Kharijita* (R. Accademia d'Italia, Rendiconti classe scienze morali, 8e série, vol. 3, PP. 110-177); M. GUIDI, *Sui Kharijiti* (Rivista degli Studi Orientali, XXI 1944, P. 1-14).

البلقاء فنتيجة الأمر المرجو منه توافق النفوس واطمئنان القلوب إنما خلع علي ومعاوية معاً . قد دهش كثير من أهل العراق والحجاز أي دهش حين سمعوا خبر ذلك الحكم الذي أسرع علي في إنكاره فلشدّة استغرابهم وبغضهم لمعاوية أنشئت عندهم وذاعت الرواية المتداولة حتى الآن عن الخيانة المنكرة القبيحة التي دبّرها وارتكبها عمرو بن العاص . أمّا الحقيقة التي لم يتوصّل إلى كشفها إلا من رجع إلى المصادر الأصليّة القديمة وأدمن فيها النظر والبحث فإن عمرو بن العاص ما أثبت معاوية أليّة ولكن بما عهد له من الدهاء والمهارة في أمور السياسة قد بلغ مرآة ومرام معاوية حين حمل أبا موسى الأشعريّ على الرضى بالتفحص عن حقوق كل من الخصميين كأنهما متساويا القدر وكان خليفة بايعة جملة وافرة من المؤمنين لا يفضّل علي من كان والياً علي الشام فقط . فنتيجة الحكم أي خلع كلا الخصميين إنما كان أن علياً عزّل عن الخلافة فلم تبق له إلا ولاية العراق أمّا معاوية فخليع ممّا لم يكن له فبقى علي ما كان عليه قبلاً بل زاد حظوة عند أصحابه إذ ساواه الحكم بمن كان مدّة أعلى منه بكثير^(١) .

فبالجملة كان أمر الحكّمين سبب أكثر الاختلافات التي حدثت في الأمة الإسلاميّة بعد موت عثمان إلى أواخر القرن الثاني . خرجت الخوارج عن شيعة علي لمجرد قبوله لاقتراح التحكيم وبعد خروجهم بأربع وعشرين سنة اختلفوا في جواز السكنى في غيرهم من المسلمين ووجوب مجاهدتهم علي اللوام فافترقوا وصاروا علي أربعة أضرب : الأزارقة والصُفريّة والبَيْهسيّة والإباضيّة^(٢) . - أمّا ختام أمر الحكّمين ففرق بين المسلمين تفریقاً عظيماً

LAMMENS, *Etudes sur ... Mo'awia* 1, P. 125-140.

(١) راجع

(٢) هذا تفرقهم القديم في سنة ٦١ هـ تقريباً . انظر الكامل في اللغة للمبرد ص ٦٠٤ من طبعة

ليسك لوج ٢ ص ١٧٢ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٤ وتاريخ الطبري ج ٢ ص ١٧٩٧ .

لم يزل إلى الآن فإنَّ العلويين قالوا بتوارث الإمامة في أهل البيت فأنكر الآخرون ذلك وقالوا بانعقاد الإمامة باختيار أهل الحل والعقد أو بعهد مَنْ قبل . وزاد البون بين الفريقين نحو أواخر القرن الأول لزيادة محازبة الموالي من الفرس لشيعة علي فهم أدخلوا في مذهبهم اعتقادات غريبة وبدعا من بقايا آرائهم ودياناتهم القديمة . - وحدث أيضاً بعد أمر الحكيمين حزب المُرجئة ومنزلتهم فيما بين شيعة العلويين وشيعة بني أمية كمنزلة المعتزلة المشار إليهم فيما تقدّم (ص ٢٣١) بين العثمانيين وأصحاب علي بن أبي طالب . - ومن عواقب الحكم أيضاً حزب الزبيريين لا سيما في الحجاز والعراق فإنه من المشهور أنَّ عبد الله بن الزبير ادعى الخلافة بعد موت الحسين سنة ٦١/٦٨ وتولّى الأمر بحمكة إلى سنة ٧٢/٦٩٢ . - ثم في أوائل القرن الثاني ابتدأت الدعوة العباسية بخراسان فقام فريق سادس من المسلمين يدعون الخلافة لبني هاشم لقربتهم من علي بن أبي طالب . - فلكل هذه الأفرقاء شعراء كانوا يدافعون عن أغراضهم وعمّا ادعى الفريق من الحقوق .

كثُر ذكر شعراء الخوارج وخطبائهم في كتب الأدب القديمة مثل كتاب البيان والتبيين للجاحظ^(١) وكتاب العقد الفريد لابن عبد ربّه^(٢) بل أفرد المبرد لأخبار الخوارج قسماً غير صغير من كتابه المسمى بالكامل في اللغة والأدب^(٣) . وشعرهم شعر خُلنائه في الغالب من نظم أهل البادية أسلوباً ولغة

(١) كتاب البيان والتبيين ج ٢ ص ١٢٦ - ١٢٧ من طبعة مصر ١٣١٣ (أوج ٣ ص ١٦٥ - ١٦٦ مع طبعة ١٣٥١) .

(٢) كتاب العقد ج ٢ ص ١٥٥ - ١٥٧ من طبعة مصر ١٢٠٥ .

(٣) الكامل ص ٥٢٧ - ٦٠٠ من طبعة ليبسك أوج ٢ ص ١١٩ - ٢٢٩ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٤ (ونقل الأستاذ Rescher هذا القسم إلى اللغة الألمانية وطبعه بالمعنوان : *Die Kharidschlenkapitel aus den Kamil, Stuttgart 1922*).

(واضح الأستاذ Gabrieli بجمع أشعار الخوارج الذين عاشوا في عصر بني أمية :

F. GABRIELI, *La poesia khārigita nel secolo degli Umayyādī* (Rivista degli Studi Orientali, vol. XX, 1949, P. 391-372).

وهو فصيح العبارة دائر أكثره على الحماسة والحرب . فلو أردنا الحكم فيهم بناء على شعرهم لقلنا إنهم أقرب بكثير إلى أهل الوبر منهم إلى أهل المدر . ولكن إذا راجعنا النصوص التاريخية القديمة وجدنا جمًّا غفيراً من الأخبار عن تقامهم ونسكهم وشدة عنايتهم بقراءة القرآن وإقامة الصلاة ليلاً ونهاراً وغير ذلك ممَّا يخالف أميال الأعراب وشعائرهم . فما الحقيقة في تناقض هذين الأمرين ؟

لا شك أن الدين رأسوا خروج الحروريين عن جيش علي بن أبي طالب لم يكونوا أعراباً بل كانوا قرأوا من أهل الحضرة منهم مسعر بن قديس التميمي وزيد بن حصين الطائي وذلك لأنهم رأوا التحكم إفساداً للدين . هذا الثابت في جميع الأخبار . فترون أن أصل الخروج إنما كان مسألة نظرية لا يمكن أن تهتم ناساً مثل الأعراب . ولكن بعد قليل أكثر أهل القبائل الذين كانوا هاجروا من بلادهم في أواسط جزيرة العرب وأقاموا بالكوفة والبصرة بعد الفتح الإسلامي اتبعوا القراء لسببين أحدهما مجاوزتهم لهم من حيث السكنى والآخر موافقتهم لهم في مسألة الخلافة . لا يخفى عليكم أن القطب الذي يدور عليه مذهب الخوارج هو وجوب انعقاد الإمامة بالاختيار غير المحدود لأن كل مسلم صالح يمكن عندهم أن يقلد الخلافة وحق الاشتراك في الاختيار مطلق عندهم على الجماعة بأسرها ولا يختص بأهل الحل والعقد . فعلى هذا الرأي كان منصب الخليفة في الأمة الإسلامية كمنزلة السيد في القبيلة فرضى به الأعراب طبعاً لما لهم من حب الاستقلال والتمسك بعاداتهم القديمة والكراهة لكل نظام مخالف نظامهم الخاص . فعن جمع هذين العنصرين المختلفين القراء والأعراب صدر التناقض الظاهري المومأ إليه فيما سبق .

ومن شعراء الخوارج وخطبائهم قَطْرِي بن الفُجَّاءة رئيس الأزارقة الذي
 خرج على ولاية العراق فبقى ٢٠ سنة يقاتل ويسلم عليه بالخلافة حتى قُتل
 سنة ٧٧^(١) ومن أشعاره الأبيات الشهيرة المروية في حماسة أبي تمام^(٢) :

أقول لها وقد طارت شعاعاً من الأبطال ويحك لئن تُراعى
 فإنك لو سألت بقاء يومٍ على الأجل الذي لك لم تُطاعى
 فصبراً في مجال الموت صبراً فما نيلُ الخلود بمستطاعِ
 ولا ثوبُ البقاء بثوبِ عزٍّ فيطوى عن أخى الخنعِ اليراعِ
 سبيلُ الموت غايةُ كلِّ حردٍ فداعيه لأهل الأرض داعي
 ومن لا يُعتبطُ يسأمُ ويهرمُ وتسلمةُ المذونُ إلى أنقطاعِ
 وما للمرءِ خيرٌ في حياةٍ إذا ما عُدَّ من سقطِ المتاعِ

قال ابن خلكان^(٣) : «وهي تشجع أجبن خلق الله وما أعرف في هذا
 الباب مثلها وما صدرت إلا عن نفس أبيه وشهامة عربية . . . ومن شعرائهم
 المقدمين عِمْران بن حِطَّان السُّدوسي^(٤) كان من علماء الصُّفوية وخطبائهم
 فحين أسنَّ وضعف عن الحرب اقتصر على الدعوة والتحريض بلسانه . وهو

(١) كذا في تاريخ الطبري ج ٢ ص ١٠١٨ وقال ابن خلكان (وفيات الأعيان عدد ٥٥٦
 من طبعة غوتنجن أو عدد ٥١٧ من الطبقات المصرية) أنه قتل في سنة ٧٨ هـ .

(٢) حماسة أبي تمام ص ٤٤ من طبعة بن أوج ١ ص ٤٩ - ٥٠ من طبعة بولاق ووفيات الأعيان
 لابن خلكان عدد ٥٥٦ من طبعة غوتنجن أو عدد ٥١٧ من الطبقات المصرية وشرح الشواهد الكبرى للمبني
 ج ٢ ص ٥١ - ٥٣ من طبعة بولاق بهامش خزانة الأدب .

(٣) وفيات الأعيان في الموضوع المذكور .

(٤) راجع الكامل للمبرد ص ٥٣٠ - ٥٣٤ من طبعة ليملك أو ج ٢ ص ١٢١ - ١٢٤
 من مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٤ وكتاب الأغاني ج ١٦ ص ١٥٢ - ١٥٧ وكتاب البيان والتبيين لتجاحظ
 ج ١ ص ٢٢ و ج ٢ ص ١٢٦ - ١٢٧ من طبعة ١٣١٣ [أو ١ ص ٥٥ و ج ٣ ص ١٦٦ من طبعة
 ١٣٥١] وكتاب العقد لابن عبد ربه ج ١ ص ٦٢ من طبعة مصر ١٣٠٥ .

من الذين مدحوا ابن مُلْجَم قاتل عليّ بن أبي طالب وقوله في ذلك مشهور^(١). وأطرده الحجاج بن يوسف وليجّ في طلبه فنجا منه هارباً منتقلاً في القبائل حتى مات في قبيلة الأزد ببلاد عمان . وكان ممن عاصر الفرزدق ولكن شتان ما بينهما فإنّ الفرزدق لم يزل يمدح الأكابر والرؤساء طمعاً في هداياهم وعمران بن حطان برىء من مثل ذلك وهو القائل^(٢) (من بحر الخفيف):

أَيُّهَا الْمَادِحُ الْعِبَادَ لِيُعْطَى إِنَّ اللَّهَ مَا بِأَيْدِي الْعِبَادِ
فَاسْأَلِ اللَّهَ مَا طَلَبْتَ إِلَيْهِمْ وَأَرْجُ فَضْلَ الْمُقْسَمِ الْعَوَادِ
لَا تَقْلُ فِي الْجَوَادِ مَا لَيْسَ فِيهِ وَتُسَمَّى الْبَخِيلَ بِاسْمِ الْجَوَادِ

ومن شعرائهم مُعَاذِ بْنِ جُوَيْنٍ بن حُصَيْنِ الْخَارِجِيِّ سَجَنَةَ الْمُغِيرَةَ بْنِ شُعْبَةَ والى الكوفة (٤١١ - ٤٧٠) فقال في الحبس يحرض أصحابه على الخروج^(٣):

أَلَا أَيُّهَا الشَّارُونَ قَدْ حَانَ لِأَمْرِي شَرَى نَفْسَهُ لِلَّهِ أَنْ يَتَرَحَّلَا
أَقَعْتُمْ بِدَارِ الْخَاطِئِينَ جَهَالَةً وَكُلُّ أَمْرِي مِنْكُمْ يُشَادُّ لِيُقْتَلَا
فُشِدُّوا عَلَى الْقَوْمِ الْعُدَاةِ فَإِنَّهَا أَقَامَتْكُمْ لِلذَّبْحِ رَأْيَا مُضَلَّلَا
أَلَا فَاقْصِدُوا يَا قَوْمِ لِلْغَايَةِ الَّتِي إِذَا ذُكِرَتْ كَانَتْ أَبْرًا وَأَعْدَلَا
فِيَا لَيْتَنِي فِيكُمْ عَلَى ظَهْرِ سَابِحٍ شَدِيدِ الْقَصِيرَى دَارِعًا غَيْرَ أَعْزَلَا
وَيَا لَيْتَنِي فِيكُمْ أَعَادَى عَدُوِّكُمْ فَيَسْقِيَنِي كَأْسَ الْمَيْتَةِ أَوْلَا
يَعِزُّ عَلَيَّ أَنْ تُخَافُوا وَتُطْرَدُوا وَلَمَّا أُجْرِدُ فِي الْمُحِلِّينَ مُنْصَلَا

(١) الأبيات مروية في الكامل للمبرد ص ٥٣١ من طبعة ليبسك أو ج ٢ ص ١٢٢ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٤ وكتاب الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ١٦٣ من طبعة مصر ١٣١٧ - ١٣٢١ بهامش كتاب الملل والأهواء والنحل لابن حزم أو ص ٩٠ من طبعة لندن ١٨٤٦ .
(٢) كتاب الأغاني ج ١٦ ص ١٥٦ و ج ٧ ص ٦ وقيل فيه إن الأبيات منسوبة إلى السيد الحميري في رواية أخرى .

(٣) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٣٦ من طبعة ليدن .

ولمَّا يُفَرِّقْ جَمْعَهُمْ كُلُّ مَا جِدَّ
 مُشِيحاً بِنَضْلِ السَّيْفِ فِي حَمْسِ الوَعْيِ
 وَعَزُّ عَلَى أَنْ تَضَامُوا وَتُنْقَصُوا
 ولو أَنِّي فِيكُمْ وَقَدْ قَصَدُوا لَكُمْ
 فَمَا رَبُّ جَمْعٍ قَدْ قَلَّتْ وَغَارَةٌ
 إِذَا قُلْتَ قَدْ وُلِّي وَأَذْبَرَ أَقْبَلَا
 يَرَى الصَّبْرَ فِي بَعْضِ المَوَاطِنِ أَمْثَلَا
 وَأُضْبِحَ ذَا بَثٍّ أُسِيرًا مُكْبَلَا
 أَثَرْتُ إِذَا بَيْنَ القَرِيْقَيْنِ قَسْطَلَا
 شَهِدْتُ وَقَرْنٍ قَدْ تَرَكَتُ مُجَدَلَا

ومنهم الطُّرْمَاحُ بنُ حَكِيمِ المَشْهُورِ أَيْضاً لِبِرَاعَتِهِ فِي الخُطَابَةِ (١) كَانَ عَلَى
 قَوْلِ صَاحِبِ الأَغَانِي (٢) « من فحول الشعراء الإسلاميين وفصحاهم ومنشؤه
 بالشام وانتقل إلى الكوفة بعد ذلك مع من وردها من جيوش أهل الشام
 واعتقد مذهب الشراة الأزارقة » . وروى في الأغانى أيضاً (٣) : « كان
 الكُمَيْتُ بنُ زَيْدِ صَدِيقاً للطُّرْمَاحِ لا يَكَادَانِ يَفْتَرِقَانِ فِي حَالٍ مِنْ أَحْوَالِهِمَا
 فَقِيلَ لِلْكُمَيْتِ : لا شَيْءَ أَعْجَبُ مِنْ صَفَاءِ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الطُّرْمَاحِ عَلَى تَبَاعُدِ
 مَا يَجْمَعُكُمَا مِنَ النِّسْبِ وَالمَذْهَبِ وَالبِلَادِ وَهُوَ شَائِئٌ قَحْطَانِيٌّ وَأَنْتَ كُوفِيٌّ نَزَارِيٌّ
 شَيْعِيٌّ فَكَيْفَ اتَّفَقْتُمَا مَعَ تَبَايُنِ المَذْهَبِ وَشِدَّةِ العَصِيْبَةِ ؟ فَقال اتَّفَقْنَا عَلَى
 بُغْضِ العَامَّةِ » . وَقَبْلَ انْضِمَامِهِ إِلَى الخَوَارِجِ قَدْ مَدَحَ أَمْراءَ الأُمَوِيِّينَ وَهَجَا
 قَبِيلَةَ تَمِيمٍ هَجَاءً مُفْرِطاً فِي الشُّتْمِ وَالاِحْتِقَارِ رَوَاهُ ابْنُ قَتِيْبَةَ فِي كِتَابِ الشُّعْرِ
 وَالشُّعْرَاءِ (٤) . وَمِنْ شَعْرِهِ بَعْدَ تَمَذُّبِهِ بِالخَوَارِجِ (٥) :

(١) كتاب البيان والتبيين للجاحظ ج ٢ ص ١٨٤ من طبعة مصر ١٣١٣ (أرج ٣ ص ٢٧٢ من طبعة ١٣٥١) .

(٢) كتاب الأغانى ج ١٠ ص ١٥٦ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب الأغانى ج ١٠ ص ١٥٦ و ج ١٥ ص ١١٣ وراجع أيضاً كتاب البيان للجاحظ ج ١ ص ٢٢ من طبعة مصر ١٣١٣ (أرج ١ ص ٥٤ - ٥٥ من طبعة ١٣٥١) .

(٤) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣٧٢ و ٣٧٣ من طبعة ليدن . وتروى أربعة أبيات من الهجاء الأول بغير اسم الشاعر في الباب السابع بعد المائة من مروج الذهب للمسعودي ج ٦ ص ١٢٨ من طبعة باريس .

(٥) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣٧٣ - ٣٧٤ من طبعة ليدن وراجع أيضاً كتاب الأغانى ج ١٠ ص ١٦٠ (و ديوان الطرماح عدد ٣٥ من طبعة لندن ١٩٢٧) .

فيا رب لا تجعل وفائي إن دنت
ولكن أحن يوم شهيداً وعصبة
عصائب من شتى يولف بينهم
إذا فارقوا دنياهم فارقوا الأذى
فأقتل قفصاً ثم يرزى بأعظمي
ويصبح لحمي بطن طير مقيله
على شرجع يعلو بدسكن المطارف
يصابون في فج من الأرض خائف
هدى الله نزالون عند المواقف
وصاروا إلى موعود ما في المصاحف
كضغث الخلا بين الرياح العواصف
دوين السماء في نسور عوائف

يذكرنا البيتان الأخيران توحش بعض أشعار الجاهلية لا سيما أشعار
الشنفرى ونابط. شراً إلا أن سبب التوحش عند هذين الشاعرين يختلف
عن سببه عند الطرماح فإن همجية بعض شعراء الجاهلية صدرت عن أحوال
حياتهم القريبة من أحوال الصعاليك اللصوص وقطاع الطريق أما ما ورد منها
في شعر الطرماح فصادر عن مذهب الأزارقة الذين رأوا الموت في الحرب وقتل
من لم يكن من الخوارج أهون الأشياء عليهم فلم يزالوا مقاتلين إلى انقراض
فرقتهم مخطرين أنفسهم بجراحة عجيبة لا نظير لها كأنهم مشتاقون إلى
الموت الأحمر وكانوا أيضاً أصحاب الاستعراض أي أصحاب الرأي بإباحة
قتل جميع الناس من المخالفين في أي وقت وبدون تمييز الرجال والأطفال
والنساء . فلذلك إن معاني مثل الواردة في أبيات الطرماح ليست نادرة في
أشعار الخوارج فقال قطري بن الفجاعة (١) :

ألا أيها الساغي البراز تقربن أساقك بالموت الدعاف المقشبا
فما في تساقى الموت في الحرب سبة على شاربيه فاستقني منه وأشرباني
وقال عمران بن حطان لما قتل أبو بلال مرداس بن أدية (٢) :

(١) حاسة أبي تمام ص ٣٣١ من طبعة بن أوج ٢ ص ١١١ من طبعة بولاق .
(٢) الكامل للمبرد ص ٥٣٠ من طبعة ليمسك أوج ٢ ص ١٢١ من طبعة مصر ١٣٢٣-١٣٢٤

لقد زاد الحياة إلى بُغضًا وحبًا للخروج أبو بلال
أحاذر أن أموتَ على فراشي وأرجو الموتَ تحت ذرّ العوالى
ولو أنى علمت بأنّ حنّو كحنف أبي بلالٍ لم أبال
فمن يكُ همهُ الدنيا فإننى لها والله ربّ البيت قال

هذا أمر الخوارج . أما الشيعة فأغلبهم قليلو الميل إلى الحرب مستنكفين من جفاء الخوارج فشعرهم بعيد عن توحش شعر الأزارقة كثير المدار على مدح أهل البيت وبيان الاختلافات الدينية . ومن شعرائهم كثير بن عبد الرحمن الخزاعي المتوفى سنة ١٠٥ المعروف بكثير عزة^(١) لتشبيهه بعزة الضمرية في شعره وإن قيل إنه مُدّع غير صادق الصبابة والعشق . فهذا القسم من شعره وهو غير يسير يدخل في الصنف الذى سمّيناه بالشعر الغرامى عند أهل البادية فعُدّ كثير لذلك من العشاق المشهورين . لكنّه لاتصاله بذهب الكبسانية من الشيعة وإظهار هذا المذهب فى أشعاره غير الغرامية يستحق أن يُجعل فى شعراء الصنف السادس الذى نحن فى بيانه لا سيما إذ كان ما أبداه فى أبياته من آرائه الغريبة خطير الشأن لمن يفحص عن أصول اعتقادات الفرق الشيعية . إن الذين ألفوا التصانيف الثمينة فى الملل والنحل مثل ابن خزم والشهرستاني لم يميزوا فى بيانهم القديم والحديث من اعتقادات كل فرقة فرما نسبوا إلى أوائل الفرقة ما لم يتكوّن أو لم يُنخل فيها إلا بمرور الزمان فإذا أردنا التوصل إلى كشف حقيقة الأوائل

(١) وهو مذكور فى كتاب الأغاني ج ٨ ص ٢٦ - ٤٤ من طبعة بولاق وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣١٢ - ٣٢٩ من طبعة ليدن وكتاب وفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٥٥٨ من طبعة غوتنجن أو ٥١٩ من الطبقات المصرية (وطبقات الشعراء لابن سلام ص ١٢٢ - ١٢٥ من طبعة ليدن وديوانه مطبوع بعناية Pers في الجزائر وباريس سنة ١٩٢٨ - ١٩٣٠) .

فلا بد لنا من الرجوع إلى أقوال شعراء هذا الصنف السادس التي برتبة نصوص صحيحة موثوق بها .

من المشهور أن ركن مذاهب أهل الشيعة توارث الإمامة في أعقاب علي بن أبي طالب . فهو رأى لم تذهب أغلب العرب إليه أبداً لنفس مخالفته لنظامهم القديم الذي لم يزل إلى الآن عند الأعراب أعنى أن سيد القبيلة لا ينال منصبه إلا باختيار رجال القبيلة إتياء فلا تتوارث السيادة فإن خلف ابن أباه فيها كان ذلك باختيار القوم أيضاً لا لحق ميراث . أما الأمم المجاورة للعرب في أيام غرة الإسلام لا سيما الفرس فمن زمان طويل ألقت نظاماً سياسياً أساسه توارث الملك في عائلة فلم يكونوا يتصورون إمكان ملك عظيم متين اختارت العامة رأسه . قمالت الفرس طبعاً إلى رأى أهل الشيعة في الإمامة . وزيدوا على ذلك سبباً آخر قومياً أعنى أن العجم بعد موت علي بن أبي طالب رأوا مقاومة أهل الشيعة لئني أمية كمثل قيام علي سلطة العرب فانضموا إليها أفواجاً لبغضهم السرى للمتغلبين على بلادهم . فلتأثير مذاهب الفرس واليهود تغيرت شيئاً فشيئاً مسألة الإمامة عند أهل الشيعة عما كانت في وقت علي أمير المؤمنين . قد جاء في القرآن أن محمداً خاتم النبيين قیدل هذا القول ظاهراً أن الشريعة الإسلامية ستقوم بعده مقام النبوة فيما سلف من الزمان . ولكن نحالف هذا آراء كثير من أمم الشرق واعتقاداتها القديمة فلم يستصوبوا في قلوبهم انقطاع النبوة وعدم بقائها في رجل من الرجال لأن النبوة عندهم تمثيل قدرة الله على الأرض وعنايته بأمر الناس فلو لم تكن النبوة في أحد من الأحياء لمنعت عندهم الدنيا العناية الإلهية . فحملهم هذا الظن بعد إسلامهم على اعتقاد توارثها في أهل البيت بصفة أن يكون الخلف حياً موجوداً في وقت سالفه حسبما كان مثلاً يشوع موجوداً في أيام موسى أو علي في أيام محمد . غير أنهم تركوا طبعاً لفظ.

النبي لتسمية أعقاب رسول الله والتجسُّوا إلى لفظ الوصي أو المهدي أو الإمام^(١). فإلى بقاء رسالة الله في أهل البيت يشير أبو داود خالد بن إبراهيم أحد دُعاة أبي مسلم بخراسان في مخاطبته للنقباء بِمَرُور سنة ١٢٩^(٢):
 وقال: أفتشكون أن الله تعالى نزل عليه [أي على النبي] كتابه فاتاه جبريل عليه السلام الروح الأمين أحلَّ فيه حلاله وحرم فيه حرامه وشرع فيه شرائعه وسنَّ فيه سنَّه وأنبأه فيه بما كان قبله وما هو كائن بعده إلى يوم القيامة؟ قالوا: لا. قال: أفتشكون أن الله عزَّ وجلَّ قبضه إليه بعد ما أدَّى ما عليه من رسالة ربِّه؟ قالوا: لا. قال: أفتظنون أن ذلك العلم الذي أنزل عليه رُفِعَ معه أو خلِّفه؟ قالوا: بل خلِّفه. قال: أفتظنون أنه خلِّفه عند غير عترته وأهل بيته الأقرب فالأقرب؟ قالوا: لا. قال: فهل أحد منكم إذا رأى من هذا الأمر إقبالاً ورأى الناس له محبين بدا له أن يصرف ذلك إلى نفسه؟ قالوا: اللهم لا وكيف يكون ذلك؟ قال: لست أقول لكم فعلتم ولكنَّ الشيطان ربما نزع النَّزْعَةَ فيما يكون وفيما لا يكون. قال: وهل فيكم أحد بدا له أن يصرف هذا الأمر عن أهل البيت إلى غيرهم من عترة النبي صلى الله عليه؟ قالوا: لا. قال: أفتشكون أنهم معدن العلم وأصحاب ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالوا: لا. »

يتضح من هذا النص أن أهل الشيعة أو كثيراً منهم في أوائل القرن الثاني قالوا ببقاء رسالة الله في عترة النبي أي أهل البيت على سبيل التوارث من الأقرب إلى الأقرب. وفي القرن الأول وما يليه من الثاني لتداول الزعم عندهم أن الساعة قريبة ختموا سلسلة أئمتهم بثالث أبناء علي وهو محمد

(١) راجع J. WELLHAUSEN, *Die religiös-politischen Oppositionsparteien* P. 92

(٢) تاريخ الطبري ج ٢ ص ١٩٦١ في سنة ١٢٩.

ابن الحنفية^(١) فقالوا إنه ما مات ولا فارق الدنيا بل إنه يغيب مدة بجبل
رَضْوَى على مسيرة يوم من يَنْبُع ثم يرجع إلى الدنيا فيملؤها عدلاً كما
مُأْتَتْ شراً وجوراً . فإلى هذا المعتقد أشار كثير^(٢) بقوله المشهور :

أَلَا إِنَّ الْأَيْمَةَ مِنْ قَرِيشٍ وَوَلَاةَ الْحَقِّ أَرْبَعَةٌ سِوَاهُ
عَلِيٍّ وَالثَّلَاثَةَ مِنْ بَنِيهِ هُمْ الْأَسْبَاطُ لَيْسَ فِيهِمْ خَفَاءُ
فَسِبُّهُ سِبْطُ إِيْمَانٍ وَبِرٌّ وَسِبْطُ غَيْبَتِهِ كَرَبْلَاءُ
وَسِبْطُ لَا يَذُوقُ الْمَوْتَ حَتَّى يَقُودَ الْجَيْشَ يَقْدُمُهُ اللُّوَاءُ
تَغْيِبَ لَا يُرَى فِيهِمْ زَمَانًا بِرَضْوَى عِنْدَهُ عَسَلٌ وَمَاءُ

وهذا أيضاً معتقد السيد الحميري كما يلوح من أبياته المروية في كتاب
الأغاني^(٣) التي قالها بعد موت ابن الحنفية (أو غيبته على ظنه) بستين سنة .
— أما فرقة أخرى من الكيسانية فقالوا بانتقال محمد بن الحنفية إلى رحمة
الله وانتقال الإمامة وأمه رار العلوم منه إلى ابنه أبي هاشم وهذا القول مهم جداً
لعلاقته بظهور الدعوة العباسية بخراسان والعراق فإنها تأسست على مذهب

(١) توفي في الأول من محرم سنة ٨١ (وقيل في سنة ٨٣ أو ٧٢ أو ٧٣) بالمدينة . انظر وفيات
الأعيان لابن خلكان عدد ٥٧٠ من طبعة غوتنجن أو عدد ٥٣١ من الطبقات المصرية وقال ابن سعد في
الجزء الخامس من طبقاته ص ٨٥ - ٨٦ إن محمد بن الحنفية مات في محرم سنة ٨١ وهو ابن ٦٥ سنة قمرية .
(٢) كتاب الأغاني ج ٨ ص ٣٢ (وانظر أيضاً ج ٧ ص ١٠ - ١١) ومروج الذهب
للمسعودي في الباب الثالث والتسعين ج ٥ ص ١٨٢ وكتاب الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ٢٠٠
من طبعة مصر بهامش كتاب الملل لابن حزم أو ص ١١١ من طبعة لندن ومقدمة ابن خلدون ج ١
ص ٣٥٨ من طبعة باريس ١٨٥٨ أو ص ١٧٣ من طبعة بيروت ١٨٧٩ أو ص ١٩٨ - ١٩٩
من طبعة بيروت ١٩٠٠ (لا يذكر اسم الشاعر في الطبقات الشرقية) [و ديوان كبير عدد ١٥٠، بيت
٣ و ٤ و ٧ و ١٠ و ١١ (ج ٢ ص ١٨٦ - ١٨٨)] ويروي البيهقي الأخيران في وفيات الأعيان
لابن خلكان عدد ٥٧٠ من طبعة غوتنجن أو ٥٣١ من الطبقات المصرية .

(٣) كتاب الأغاني ج ٧ ص ٤ و ج ٨ ص ٢٢ من طبعة بولاق ومروج الذهب للمسعودي
ج ٥ ص ١٨٢ - ١٨٣ في الباب الثالث والتسعين (خمسة أبيات وفيها « سبعين » بدلا من « ستين ») .

القائلين إن أبا هاشم المتوفى في أيام سليمان بن عبد الملك (٧١٥ - ٧١٧) أوصى إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وأوصى محمد إلى ابنه إبراهيم وأوصى إبراهيم إلى أخيه أبي العباس عبد الله السفّاح. ولولا ذبّان هذا الاعتقاد عند أهل الشيعة لما توصل السفّاح إلى تأسيس الدولة العباسية.

ومن الحرى بالاعتبار قول جملة من أهل الشيعة في القرن الأول والثاني بالرجعة فإنهم جعلوه تأييداً لآرائهم في توارث الإمامة في أهل البيت وعزّها . فزعموا أنّ الرسالة أي النبوة وهي عندهم روح الله نُزِلت في النبي وصارت روحه فلما مات تحوّلت روحه أي الرسالة أو الإمامة إلى علي بن أبي طالب ووقت موت علي تحوّلت روحه وانتقلت الإمامة إلى ابنه الأكبر وهلمّ جرّاً . وممن ذهب إلى هذا القول بالرجعة كثير عزة^(١) الشاعر المذكور سابقاً فيروى أنه نظر مرة إلى بني الحسن بن الحسن بن علي وهم صغار فقال : «بأبي أنتم هؤلاء أنبياء صغار»^(٢) . واحتجّ في اعتقاد الرجعة بالآية^(٣) : «أَلَيْدِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ»^(٤) . فلا يخفى عليكم ما لهذه الآراء من النتائج المهمة وهي : ١ أنّ الإمامة أو الخلافة ليست في الحقيقة إلا نبوة . ٢ أنّ الإمام أي الخليفة صاحب صفات الأنبياء . ٣ أنّ الإمامة أي الخلافة لا تنتقل إلا من ميّت إلى حيّ فانقطاعها أو عزل الإمام مستحيل . ٤ أنّ الأرض لا تخلو عن إمام أبداً وإن كان هذا

(١) كتاب الأغاني ج ٨ ص ٢٧ و ٣٣ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغاني ج ٨ ص ٢٤ .

(٣) كتاب الأغاني ج ٨ ص ٣٣ .

(٤) القرآن سورة ٨٢ (الانفطار) : ٧ - ٨ . واحتج أصحاب اعتقاد الرجعة بالسورة ٢٨

(القصص) : ٨٠ .

الإمام مستوراً غائباً عن عيون الناس . ٥ أن وجود إمامين في آن واحد كما زعم بعض الفرق محال . ٦ أن الإمامة أي الخلافة لا تُقلد باختيار الناس سواء كانوا جماعة المسلمين أو أهل الحل أو العقد . - فيتضح أيضاً من جميع ذلك ما لمُحْتُ إليه سابقاً من عدم فرق حقيقي بين الاختلافات الدينية والأحزاب السياسية عند المسلمين أثناء القرون الأولى للهجرة وأن التاريخ السياسي لا يُعقل من دون الفحص عن المذاهب والفرق الإسلامية . ثم يلوح أيضاً ما كان لشعراء تلك الفرق من الشأن العالی في أحوال السياسة . ومن الشعراء الذين ذهبوا مذهب الكيسانية وأنكروا وفاة محمد بن الحنفية وقالوا بغيبته بجبل رضوى أبو هاشم إسماعيل بن محمد الملقب بالسيد الجميري^(١) من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية بل لعل أكثر عمره وقع في أيام بني العباس إذ مات سنة $\frac{171}{788-787}$ قال صاحب الأغاني^(٢) : « كان شاعراً متقدماً مطبوعاً . . . وإنما مات ذكره وهجر الناس شعره لما كان يُقِرط. فيه من سب أصحاب رسول الله صلعم وأزواجه في شعره ويستعمله من قذفهم والطعن عليهم فتحوي شعره من هذا الجنس وغيره لذلك وهجره الناس . تخوفاً وتراقباً وله طراز من الشعر ومذهب قلما يلحق فيه أو يقاربه ولا يُعرف له من الشعر كثير وليس يخلو من مدح بني هاشم أو ذم غيرهم

(١) راجع كتاب الأغاني ج ٧ ص ٢ - ٢٤ من طبعة بولاق ومروج الذهب للمسعودي ج ٥ ص ١٨٢ - ١٨٤ وكتاب الملل للشهرستاني ج ١ ص ٢٠٠ من طبعة مصر بهامش الملل لابن حزم أو ص ١١١ من طبعة لندن فانظر أيضاً .

BARBIER DE MEYnard, *Le Sîd Hâmyarite, recherches sur la vie et les œuvres d'un poète hérétique du II siècle de l'hégire* (Journal Asiatique, 7^{ème} série, t. IV, 1874) P. 159-284.

تروى له أبيات سياسية (إما منسوبة إليه أو أصلية) في كتاب الحيوان للجاحظ ج ٣ ص ١٢٥ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٥ وأبيات مروية له أيضاً في مقدمة ابن خلدون ص ١٧٣ من طبعة بيروت ١٨٧٩ أو ص ١٩٩ من طبعة بيروت ١٩٠٠ أو ج ١ ص ٤٠٦ من الترجمة الفرنسية في كتاب العمدة لابن رشيقي ج ٢ ص ٥٩ من طبعة مصر ١٣٣٥ (أبيات في النبي ونقد ابن رشيقي لها) .

(٢) كتاب الأغاني ج ٧ ص ٢ من طبعة بولاق .

ممن هو عنده ضدّ لهم . . وأخباره كلها تجرى هذا المجرى ولا تخرج عنه . وفي موضع آخر بعد إيراد بعض أبيات السيّد الحميريّ قال صاحب الأغاني^(١) على ميله المعروف إلى التشيع : « وهي قصيدة طويلة حُذِفَ باقياها لقبح ما فيه » يعني الإفراط في التشيع . ومما يدلُّ على علو منزلته عند أهل الشيعة أنّ بعضهم نحل إليه أشعاراً في مذهب الإمامية^(٢) القائلين بإمامة جعفر الصادق فواضح أنّ الذي فعل ذلك رجا من زوره تأييداً لآراء الإمامية ولم يَرُجُ ذلك لو كان السيّد الحميريّ من الشعراء غير المقدمين . وشعره موصوف بالمتانة والرونق والجزالة مع الامتناع عن غريب الألفاظ . فيروى عن إسحق بن ثابت العطار^(٣) : « قال كُنَّا كثيراً ما نقول للسيّد ما لك لا تستعمل في شعرك من الغريب ما تسأل عنه . كما يفعل الشعراء . قال لأنّ أقول شعراً قريباً من القلوب يلدّه من سميحه خير من أن أقول شعراً متعقداً تضلّ فيه الأوهام » .

كان كثير عزة والسيّد الحميريّ من الكيسانية أي من غلاة الشيعة . أما شعراء الشيعة المعتدلون في أيام بني أمية فاشهرهم الكُمَيْت بن زيد الأسدي^(٤) المولود سنة ٦٠ المتوفى سنة ١٢٦ كان من أهل الحضرة ويعلم في أول أمره الصبيان في مسجد بالكوفة . ووصفه صاحب كتاب الأغاني^(٥)

(١) كتاب الأغاني ج ٧ ص ٩ .

(٢) كتاب الأغاني ج ٧ ص ١١ .

(٤) راجع كتاب الأغاني ج ١٥ ص ١١٣ - ١٣٠ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٦٨ - ٣٧٢

وشذاعة الأدب ج ١ ص ٢٩ - ٧٠ و ٨٦ - ٨٧ و مروج الذهب للمسعودي ج ٦ ص ٣٦ - ٤٥ من طبعة باريس (في الباب الثالث بعد المائة) وكتاب الحيوان للجاحظ ج ٥ ص ٢٦ - ٢٧ و ١٥٣ و ١٦٧ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٥ وكتاب الممددة لابن رثيق ج ٢ ص ١١٤ من طبعة مصر ١٣٢٥ وتاريخ الطبري ج ٢ ص ١٥٧٤ - ١٥٧٥ (شعر بعث الكييت إلى أهل مرو ناشراً الدعوة لبني العباس سنة ١١٧ هـ) [والمدائح النبوية في الأدب العربي لزكي مبارك ص ٦٧ - ١٠١ من طبعة مصر ١٣٥٤] .

(٥) كتاب الأغاني ج ١٥ ص ١١٣ .

على هذه الصفة : « شاعر مقدّم عالم بلغات العرب خبير بأيامها من شعراء مُضَرَّ وألسنتها والمتعصبين على القحطانية المقارنين المقارعين لشعرائهم العلماء بالمثالب والأيام المفاخرين بها . . . ولم نزل عصبية للعدنانية ومهاجراته شعراء اليمن متصلةً والمناقضةُ بينه وبينهم شائعة في حياته وبعد وفاته حتى ناقض دِعْبِلُ وابن أبي عُيَيْنة قصيدته المذهبة بعد وفاته وأجابها أبو الزأفَاء البصرى مولى بنى هاشم » . فإذا اعتبرنا هذا النصّ فقط. ظننا أن الكميت من شعراء الصنف الخامس المفتخرين بقومهم المهاجرين قبائل خصومهم . ولكن كيف ذلك إذ كان الكميت كوفياً من أهل الحضرة بعيداً عن أحوال حياة الأعراب ؟ والحق يقال إننا إن تأملنا ما بلغنا من أهاجيه وجدناها على عصبيتها مخالفةً لأساليب هجاء أهل البادية من وجوه فالواضح أن غرضها الحقيقي غيرُ المنافرة المألوفة عند القبائل . قال صاحب الأغاني^(١) « إن سبب هجاء الكميت أهل اليمن أن شاعراً من أهل الشام يقال له حكيم بن عيَّاش [الأعور] الكلبي كان يهجو عليّ بن أبي طالب عليه السلام وبني هاشم جميعاً وكان منقطعاً إلى بني أمية فانتدب له الكميت فهجاه وسبه فأجابه ولبح الهجاء بينهما وكان الكميت يخاف أن يفتضح في شعره عن عليّ عليه السلام لما وقع بينه وبين هشام [بن عبد الملك] وكان يُظهِر أن هجاءه إتياء في العصبية التي بين عدنان وقحطان » فيدلنا هذا القول على أن هجاءه يُعدُّ من الشعر في الاختلافات السياسية الدينية وإن كان ظاهره غير ذلك . وفي كتاب مروج الذهب للمسعودي^(٢) رواية تؤيد ما قلناه وهي أن عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب أراد أن

(١) كتاب الأغاني ج ١٥ ص ١٢٨ وعزارة الأدب ج ١ ص ٨٧ من طبعة بولاق .

(٢) مروج الذهب ج ٦ ص ٤١ - ٤٤ من طبعة باريس (في الباب الثالث بعد المائة) وراجع عزارة الأدب ج ١ ص ٨٦ .

يُهدَى للكميت هدايا ثمينة لقصائده في مدح العلويين فأبى الكميت قبولها فقال عبد الله : «أما إذ أبيت أن تقبل فإنني رأيت أن تقول شيئاً تُغضب به بين الناس لعل فتنة تحدث فيخرج من بين أصابعها بعض ما تُحب ، فابتدأ الكميت وقال قصيدته التي يذكر فيها مناقب النزاريين ويُطنب في تفضيلهم على قحطان وهي زهاء ثلثمائة بيت لم يترك فيها حياً من أحياء اليمن إلا هجاهم . وعرض بأخذ الفرس والحبشة نساء اليمن بقوله :

لنا قمرُ السماء وكلُّ نجم تُشير إليه أيدي المهتدينا
وجدتُ الله إذ سمى نزاراً وأسكنهم بمكة قاطنيننا
لنا جعل المكارم خالصاتٍ وللناس القفا ولنا العجيننا
وما ضربت هجائن من نزار فوالج من فحول الأعجمينا
وما حملوا الحميرَ على عناق مطهمة فيلّفوا مُنغلينا
وما وُجدت بناتُ بني نزار حلائلَ أسودين وأحمرينا
ولكنني أظن أن صاحب الأغاني والمسعودي لم يُصيبا في قولهما كلَّ الإصابة وأنَّ غرض الكميت من هجائه أهل اليمن غير المبين في النصوص التي نقلتها . تذكروا ما شرحته لما تكلمت عن أحوال الشام بعد منتصف القرن الأول (ص ١٤٣) أعني أن اليمينيّين أو المنتسبين إلى قحطان وردوا الشام أفواجا حتى كان عددهم هناك أوفر من عدد النزاريين فإن بني أمية اعتمدوا عليهم خصوصاً لتأييد ملكهم وإثبات أمرهم . فإذا تأملتم هذا فهمتم أن هجاء الكميت اليمينيّين كان في الحقيقة هجاء أشدّ المتعصبين للدولة الأموية وأوثقهم . وهذا غرض أهل الشيعة .

كان الكميت قبل مهاجراته القحطانيّين قد نظم القصائد الهاشميات وهي من جيد شعره مدح فيها بني هاشم أي أهل البيت وأبدى فيها تعصبه

للمذهب الشيعة . ولكنه لم يكن من الغلاة وامتنع عن الحكم القاطع في
أبي بكر وعمر فقال (١) :

أَهْوَى عَلِيًّا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا أَرْضَى بِشَيْئِ أَبِي بَكْرٍ وَلَا عُمَرَ
وَلَا أَقُولُ وَإِنْ لَمْ يُعْطِيَا فَدَكَاً بِنْتِ النَّبِيِّ وَلَا مِيرَاثَهُ كَفَرًا
اللَّهُ يَعْلَمُ مَاذَا بَأْتِيَانِ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عُذْرٍ إِذَا عْتَدَرَا

أما بنو أمية فشتمهم في الهاشميات فقال مثلاً بعد ذكر فضائل بني
هاشم (٢) :

سَاسَةٌ لَا كَمَنْ يَرَى رِعِيَّةَ النَّاسِ سِوَاءَ وَرِعِيَّةِ الْأَنْعَامِ
لَا كَعَبْدِ الْمَلِكِ أَوْ كَرَلِيدٍ أَوْ سُلَيْمَانَ بَعْدُ أَوْ كَهِشَامِ
رَأْيُهُ فِيهِمْ كَرَأْيِ ذَوِي الثَّلَاةِ فِي النَّاتِجَاتِ جُنْحِ الظَّلَامِ

ومن أغرب الغرائب أنه مدح بني أمية في غير القصائد الهاشميات
فمن قوله (٣) :

أَبْنَى أُمَّةٍ إِنْكُمْ أَهْلُ الْوَسَائِلِ وَالْأَوَامِرِ
ثَقَى لِكُلِّ مُلِمَّةٍ وَعَشِيرَتِي دُونَ الْعَشَائِرِ
أَنْتُمْ مَعَادُنُ لِلْخِلَاقِ فَكَبِيرًا مِنْ بَعْدِ كَبِيرِ
بِالتَّسَعَةِ الْمُتَتَابِعِينَ مِنْ خِلَافَتِي وَبِخَيْرِ عَاشِرِ
وَإِلَى الْقِيَامَةِ لَا تَزَالُ لَشَافِعٍ مِنْكُمْ وَوَاتِرِ

(١) الهاشميات ص ٦٣ من طبعة مصر ١٣٢١ أو عدد ٨ بيت ١ - ٣ من طبعة ليدن ١٩٠٤
أما فلك فانظر ما قيل في حاشية ٣ من ص ٦٣ من طبعة مصر .

(٢) الهاشميات ص ٧ من طبعة مصر ١٣٢١ أو عدد ١ بيت ٣٥ - ٣٧ من طبعة ليدن .
عبد الملك بدلا من عبد الملك لضرورة الشعر وكذا أيضا في بيت جواس بن القعقل الكلابي المروي
في حياصة أبي تمام ص ٦٥٨ من طبعة بن أوج ٤ ص ٣٣ من طبعة بولاق وحياصة البحري ص ١٢٢
من طبعة ليدن أو ص ٨١ عدد ٣٧٧ من طبعة بيروت وفي معجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٣ - ٤ من طبعة
ليبسك - ثلة جماعة الضأن الكثيرة وثأج الغم صاح .

(٣) كتاب الأغاني ج ١٥ ص ١١٨ من طبعة بولاق .

فاستغرب ذلك بعضُ كتَّبة العرب فقال ابن قتيبة في توطئته لكتاب الشعر والشعراء^(١) عند ذكر طَمَع بعض الشعراء : «وهذه عندي قصة الكميت في مدحه بنى أمية وآل أبي طالب فإنه كان يتشيع وينحرف عن بنى أمية بالرأى والهوى وشعره في بنى أمية أجود منه في الطالبين ولا أرى علّة ذلك إلاّ قوّة أسباب الطمع وإيثار النفس لعاجل الدنيا على آجل الآخرة» . ويروى في الأغاني^(٢) أنّه قد استأذن أبا جعفر محمد بن عليّ في مدح الأمرين فأذن له فيه . ومن الجدير بالذكر من هذا الباب شعر له مدح فيه النبيّ بما ليس في محله فقبل إنّه لم يُرد النبيّ وإنّما أراد عليّاً فوزى عنه بذكر النبيّ خوفاً من بنى أمية^(٣) .

ليست هذه المداهنة مختصة بالكميت بل توجد أيضاً في شعر غيره من شعراء الشيعة في ذلك العصر^(٤) . ورأى فيها أنّ أسبابها ثلاثة عمليت فيهم معاً : الطمع في الجوائز والخوف من أهل السلطان ورأى الشيعة في التقيّة^(٥) من المشهور أنّ أهل السنة قالوا بإباحة الحرام وتظاهر الكفر عند الخوف من القتل من السلطان كأنّها رخصة من عند الله للضعفاء أمّا الإمامية من فرق الشيعة فلهم كلام كثير في استعمال التقيّة أو الكتمان فاعتبروه واجباً ووضعوا للنبيّ الحديث : «مؤمن لا تقيّة له كمثّل جسد لا رأس له» ونسبوا إلى الإمام جعفر بن محمد القول : «نفس المهموم ظلّمنا

(١) كتاب الشعر ص ١٨ من طبعة ليدن .

(٢) كتاب الأغاني ج ١٥ ص ١٢٦ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب العمدة لابن رثيق ج ٢ ص ١١٤ من طبعة مصر ١٣٢٥ . الأبيات موجودة في

المشتميات عدد ٣ بيت ٣١ - ٣٦ من طبعة ليدن .

(٤) منهم كثير وأيمن بن غريم مثلاً (راجع كتاب الأغاني ص ٢١ - ٧ - ١٣) .

(٥) راجع J. GOLDZIEHER, *Das Prinzip der "takijja" im Islam* (Zeitschrift der deutschen

morgenländische Gesellschaft, 60, 1906, P. 213-226)

تسبيح وهمه لنا عبادة وكنان سرّ جهاد في سبيل الله « فقال الإمام أبو عبد الله : يجب أن يكتب هذا الحديث بما ذهب . فإذا لا غرو أن شعراء مذهبهم في أواخر القرن الأوّل وأوائل الثاني لم يروا في مدح بني أمية بأساً وإن كانوا في قلوبهم يلعنونهم ويقولون بكفرهم . ويؤيد هذا الرأي ما قاله الكميّ في إحدى الهاشميات (١) :

ولّى على حُبِّهِمْ وتطلّعي إلى نصريهم أمثلي الضراء وأختلّ
تجوّد لهم نفسي بما دون وثبة تظلّ بها الغريبان حولي تحجّل
ثم قال أيضاً (٢) :

ولاني على أني أرى في تقية أخالط أقواماً لقوم لعزيزيل

ولاني ذلك أيضاً يرجع ما يروى في كتاب الأغاني (٣) : « دخل الكميّ ابن زيد الأسديّ على أبي جعفر محمد بن عليّ عليهما السلام فقال له يا كميّ أنت القاتل :

فالآن صرتُ إلى أمية في الأمور إلى المصائر

قال نعم قد قلت ولا والله ما أردتُ به إلا الدنيا ولقد عرفتُ فضلكم .
قال أما إن قلت ذلك إن التقية لتجّل » .

وقيل أن نختم كلامنا الوجيز على شعراء الشيعة لا بد لنا من ملاحظة .
قد أشرت غير مرّة إلى قلة العواطف الدينيّة الخالصة في منظومات غير هؤلاء الشعراء وعلى سنوح المناسبة أوضحت أسباب ذلك مثل كلف شعراء المدن الحجازيّة بلذات الدنيا وطبيعة أهل البادية القليلة الميل إلى أمور الدين

(١) الهاشميات ص ٥٥ من طبعة مصر ١٣٢١ أو عدد ٤ بيت ٨٦ - ٨٧ من طبعة ليدن .

(٢) الهاشميات ص ٥٦ من طبعة مصر ١٣٢١ أو عدد ٤ بيت ١٠٥ من طبعة ليدن .

(٣) كتاب الأغاني ج ١٥ ص ١٢٦ - ١٢٧ من طبعة بولاق .

وهلم جراً. إن شعراء بني أمية كانوا شعراء الدولة فمدحوا خلفاء وأمراء ورجالاً كان في أيديهم القوة المادية والسلطة والمُلك فلا غرّو إن غلبت فيهم الدنيا على الدين. أما شعراء الخوارج فأفسدت ووحشهم التعبير عن العواطف الرقيقة اللائقة بالفطرة الدينية الحقيقية فإن أبدوا مثلاً كراهة الدنيا فعلوه على ما قد أوضحته فيما سبق أعني على صفة أقرب إلى الحماسة منها إلى التقوى والزهد. أما شعراء الشيعة لتعلقهم بحزب عزل عن كل سلطة مادية ولدحهم رجال ورع وتقى زعموا بقاء روح النبوة والرسالة فيهم مالوا طبعاً إلى الحلم فغلب فيهم الدين على الدنيا فأتوا في شعرهم بما لا يوجد عند غيرهم من شعراء عهد الأمويين حتى قيل عن قصيدة للسيد الحميري إنها لو قرئت على منبر ما كان فيها بأس^(١). فلا شك أن النوع من الشعر الديني الذي نما فيما بعد فاشتهر به اليرعي يتصل من وجه بقصائد شعراء الشيعة من القرن الأول والثاني.

إذا أردتم الإفادة عن المرجئة وراجعتم ما قيل فيهم في التصانيف مثل كتاب الليل والنحل للشهرستاني وجدتموهم موصوفين فيها كأنهم من المداهب الكلامية لا غير. قال الشهرستاني إنهم «كانوا يؤخرون العمل عن النية والقصد... ويقولون لا تضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة». وقيل الإرجاء تأخير حكم صاحب الكبيرة إلى القيامة فلا يقضى عليه بحكم ما في الدنيا من كونه من أهل الجنة أو من أهل النار. وجميع ذلك صواب بالنظر إلى المتأخرين منهم لا بالنظر إلى المقدمين الكائنين في عصر الدولة الأموية وأوائل العباسية. فإنهم في أول أمرهم لم يكونوا إلا من الأحزاب التي تكوّنت بسبب مسألة الإمامة والفتن التابعة لقتل عثمان بن عفان؛

(١) كتاب الأغانى ج ٧ ص ٧ من طبعة بولاق.

فكانوا حزباً دينياً من جهة مَبَدَّتْهم النظرى وحزباً سياسياً من جهة النتائج العملية الصادرة عن ذلك المبدأ . قد مرَّ (ص ٢٣٢) تشبيه منزلتهم بين أصحاب الأمويين وأهل الشيعة بمنزلة المعتزلة بين العثمانيين والعلويين في أوائل خلافة عليّ ويلوح ذلك من بعض التعارض الواردة اتفاقياً في تاريخ الطبرى ومن أشعار شعرائهم فإنهم قالوا بوجوب الامتناع عن الحكم في عثمان وعليّ وأصحابهما ثم بجواز طاعة بنى أمية ومقاتلة من ثار على السلطان^(١) . قال محارب بن دثار الدهلي^(٢) (المتوفى سنة ١١٦) :

يَعِيبُ عَلِيَّ أَقْوَامٌ سَفَاهَاً بَأْنَ أَرْجُو أَبَا حَسَنِ عَلِيًّا
وإِرجائى أبا حسنٍ صوابٌ عن العُمَريينِ بَرًّا أو شَقِيًّا
فإن قَدَمْتُ قوماً قال قوم أسأتَ وكنْتَ كذاباً رديًّا
إذا أيقنْتُ أَنَّ اللهَ رَبِّي وأرسلَ أحمدًا حقًّا نبيًّا
وَأَنَّ الرُّسُلَ قد بُعِثُوا بِحقِّ وَأَنَّ اللهَ كانَ لَهُمُ وليًّا
فليسَ عليٌّ فى الإرجاءِ بأْسٌ ولا لَبَسٌ ولستَ أخافُ شيئاً

فتأملوا أهمية هذا التوقف وكم كان له من التأثير في العمل والسياسة فإنه حمل أصحابه على التسليم بالمقضى والاعتراف بخلافة الأمويين فغاظ.

(١) راجع G. VAN VLOTEN, *Iradj* (Zeitschrift der deutschen morgenländischen Gesellschaft, 45, 1891, P. 161-171.

(٢) انظر كتاب الأغاني ج ٧ ص ١١ من طبعة بولاق - وفي البيت الأول أرجو (كذا) والصحيح أرجى [كما في طبعة دار الكتب المصرية ج ٧ ص ٢٤٨] - أما البيت الثانى فتركبه هو: « وإرجائى أبا حسن برًّا وشقيًّا عن العمرين صواب » راجع van Vloten في مقاله المذكورة آنفاً ص ١٦٥ حاشية ٢ .

هذا الإرجاء أهل الشيعة أي غيظ. فقال فيه السيد الحميري^(١) :

خليلي لا تُرجئنا وأعلما بأن الهدى غير ما تزعمان
وأن عمى الشك بعد اليقين وضُغفَ البصيرة بعد العيان
ضلالٌ فلا تلججنا فيهما فبيئت لعمركما الخصلتان
أبرجى على إمام الهدى وعثمان ما أعند المرجيان
ويرجى ابن حُرب وأشياءه وهوج الخوارج بالنهران
يكون إمامهم في المعاد خبيث الهوى مؤمن الشيصبان

ومن شعراء المرجئة غير محارب بن دثار السابق ذكره ثابت قُطنة^(٢) أحد
الفرسان الشجعان في ثغور خراسان بل والى على عمل من أعمالها غزا عدة
غزوات في بلاد تركستان في أيام قتيبة بن مسلم فكان كثير من شعره مما
سميئناه الصنف الخامس أي دائراً على الحماسة والمغازي ومما قال سنة ٦٥^(٣) :

فَدَتْ نَفْسِي فَوَارِسَ مِنْ تَمِيمٍ عَلَى مَا كَانَ مِنْ ضَنْكِ الْمَقَامِ
بِقَصْرِ الْبَاهِلِيِّ وَقَدْ أَرَانِي أَحَامِي حِينَ قَلَّ بِهِ الْمُحَامِي
بَسِيفِي بَعْدَ كَسْرِ الرُّمَحِ فِيهِمْ أَذُودُهُمْ بَدَى شُطْبِ حُسَامِ
أَكْرُّ عَلَيْهِمُ الْيَحْمُومَ كَرًّا كَكَرِّ الشُّرْبِ آئِيَةَ الْمُدَامِ
فَلَوْلَا اللَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ وَضَرْبِي قَوْنَسَ الْمَلِكِ الْهُمَامِ
إِذَا فَاطَتْ نِسَاءَ بَنِي دِثَارٍ إِمَامَ التُّرْكِ بَادِيَةَ الْخِدَامِ

(١) كتاب الأغاني ج ٧ ص ١٦ من طبعة بولاق . أرجأ وأرجى آخر - لج القنادي في الخصومة
- أعند فلاناً عارضه بالوفاق - ابن حرب هو معاوية - أهوج طويل وبه تسرع وحمق وطيح -
النهران مركز من مراكز الخوارج .

(٢) وهو المذكور في كتاب الأغاني ج ١٣ ص ٤٩ - ٦٤ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٠٠
- ٤٠١ من طبعة ليدن وخرزانه الأدب ج ٤ ص ١٨٥ - ١٨٧ فليُنظر أيضاً ونهرست تاريخ الطبري .

(٣) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٤٩٤ من طبعة ليدن وتاريخ ابن الأثير ج ٤ ص ١٢٠ - ١٢١
من طبعة ليدن في سنة ٦٥ (وفيه اسم الشاعر ثابت بن قطنة بدلا من ثابت بن قطنة) .

ولما تولَّى سليمان بن عبد الملك أمور الخلافة (٩٦ - ٩٩) وفضل قحطان على مضر لأغراض سياسته فنار عليه قتيبة بن مسلم والى خراسان لتعصبه لعدنان كف ثابت قطنة عن الثورة بل تألف الوالى الجديد يزيد ابن المهلب بن أبي صفرة ولم ينحرف عن صحبته على صروف الزمان . فلما تقلبت أحوال القحطانيين في أيام يزيد بن عبد الملك (٧٢١ - ٧٢٤) ورجعت الشوكة إلى مضر أخذ ثابت يحرض ابن المهلب على المقاومة والقتال (١) واتبعه لما توجه إلى العراق راغباً في خلع يزيد بن عبد الملك طالباً للخلافة لنفسه وكان معه في يوم العقر في صفر سنة ١٠٢ حين خذل أهل العراق يزيد بن المهلب وفرُّوا عنه فقتل . فقال ثابت قطنة يرثيه (٢) :

كلُّ القبائل بايعوك على الذى تدعو إليه . وتابَعوك وساروا
حتى إذا حمى الوغى وجعلتَهُم نصبَ الأسننة أسلموك وطاروا
إن يقتلوك فإنَّ قتلك لم يكن عاراً عليك ورُبَّ قتلٍ عارُ

وتعاطى أيضاً الهجاء فوصلت إلينا قطع منه . أما الذى حملنى على ذكر ثابت قطنة هنا فهو شعره مشهور فصل فيه آراء المرجئة في زمانه أى في النصف الثانى من القرن الأول وهو شعر مهم جداً لموضوعه ولكنّه من أقدم الأشعار قيلت في وصف اعتقادات دينية بعد ظهور الإسلام . ومن أبياته (٣) :

يا هندُ فاستمعى لى إن سِيرتَنَا أن تعبدَ الله لم نُشرك به أحد

(١) كتاب الأغاني ج ١٣ ص ٥٤ - ٥٥ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغاني ج ١٣ ص ٥٥ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٠١ من طبعة ليدن وخرزانة الأدب ج ٤ ص ١٨٤ من طبعة بولاق ومروج الذهب للمسعودى ج ٥ ص ٤٥٥ من طبعة باريس في الباب التاسع والتسعين (بغير اسم الشاعر) .

(٣) كتاب خزانة الأدب ج ٤ ص ١٨٦ - ١٨٧ من طبعة بولاق وكتاب الأغاني ج ١٣ ص ٥٢ ورواية خزانة الأدب أحسن من رواية الأغاني .

نُرْجَى الْأُمُورَ إِذَا كَانَتْ مَشْبُوهَةً
 الْمُسْلِمُونَ عَلَى الْإِسْلَامِ كُلُّهُمْ
 وَلَا أَرَى أَنَّ ذَنْبًا بِالْبَيْعِ أَحَدًا
 لَا نَسْفِكَ الدَّمَّ إِلَّا إِنْ يَرَادُ بِنَا
 مِنْ يَتَّقِي اللَّهَ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ لَهُ
 وَمَا قَضَى اللَّهُ مِنْ أَمْرٍ فَلَيْسَ لَهُ
 كُلُّ الْخَوَارِجِ مُخْطِئٌ فِي مَقَالَتِهِ
 أَمَّا عَلِيٌّ وَعُمَانُ فَإِنَّهُمَا
 وَكَانَ بَيْنَهُمَا شَغَبٌ وَقَدْ شَهِدَا
 يُجْزَى عَلِيٌّ وَعُمَانُ بِسَعْيِهِمَا
 اللَّهُ يَعْلَمُ مَاذَا يَحْضُرَانُ بِهِ
 وَنَصْدُقُ الْقَوْلَ فِيمَنْ جَارَ أَوْ عَنَدَا
 وَالْمُشْرِكُونَ أَشْتَوْا دِينَهُمْ قَدَدَا
 مِنَ النَّاسِ شُرَكَاءَ إِذَا مَا وَحَدُوا الصَّمَدَا
 سَفَكَ الدَّمَاءَ طَرِيقًا وَاحِدًا جَدَدَا
 أَجَرَ التَّقَى إِذَا وَفَى الْحِسَابَ غَدَا
 رُدُّهُ وَمَا يَقْضَى مِنْ شَيْءٍ يَكُنْ رَشَدَا
 وَلَوْ تَعَبَّدَ فِيمَ قَالَ وَاجْتَهَدَا
 عَبْدَانِ لَمْ يُشْرِكَا بِاللَّهِ مُذْ عَبَدَا
 شَقَّ الْعَصَا وَبَعَيْنِ اللَّهِ مَا شَهِدَا
 وَلَسْتُ أَدْرِي بِحَقِّ آيَةٍ وَرَدَا
 وَكُلُّ عَبْدٍ سَيَلِقَى اللَّهَ مَنْفَرَدَا

تأملوا هذه الآيات يتضح أن جميع المسائل المدلول عليها فيها إنما هي من نتائج الاختلافات في من تكون الإمامة من حقه . ففي البيت الثاني يرد ثابت قطنه على أهل الشيعة القائلين بظلم الخلفاء الأمويين ووجوب عصيانهم لجورهم . ثم في البيتين التاليين يُجيب الخوارج وأهل الشيعة معاً القائلين بكفر من لا يذهب مذهبهم من المسلمين ويرد عليهم جميعاً أيضاً بقوله « لانسفك الدم إلخ » لأن الخوارج قالوا بوجوب جهاد سائر المسلمين بل ذهب قوم منهم إلى استحسان الاستعراض الموماً إليه سابقاً (ص ٢٣٨) أما أهل الشيعة فكفروا من سفك دماء المؤمنين وأردوا بذلك تكفير الخلفاء والأمراء من بني أمية . ثم أظهر ثابت قطنه في باقي أبياته الإنصاف فيما بين عليّ وعثمان فجعلهما متساويي القدر وكف عن الحكم فيما جرى بينهما من الخلاف مقتدياً بالآية المشار إليها عند آخر الشعر وهي على المرجح :

«وَأَخْرُوجُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» (١). فترون أن جميع ذلك متعلق ضرورياً بمسألة الخلافة والحكومة شديد التأثير في السياسة والعمل . ولكن لما رسخت الدولة العباسية وثبتت شوكتها في جميع بلاد الشرق فزالت فعلاً الاختلافات في الإمامة عند رجال السياسة والسلاطن - تقلب حال المرجئة كما تقلب حال كثير من سائر المذاهب أو الأحزاب الإسلامية القديمة أعني أن آرائهم الدينية السياسية التي أصلها مسألة الإمامة لا غير تحولت إلى آراء كلامية عامة متجردة عن علاقة ضرورية بمسائل الخلافة فعدلوا مثلاً عن القول بإرجاء عثمان وعليّ وبنى أمية وقالوا بتأخير حكم من ارتكب الكبيرة إلى يوم القيامة . فدورهم هذا الجديد هو الموصوف في التآليف المشهورة في الملل والنحل .

قل الشعراء المساعدون للزبيريين على ادعائهم بالخلافة أو بالحرى قل ذكرهم في الكتب التي وصلت إلينا فإن الذين مدحوا مصعب بن الزبير أرادوا الثناء على شجاعته وجوده كما يلوح من أشعار عبید الله بن قيس الرقييات (٢) أحد شعراء قريش المقدمين المشتهر بالغزل أيضاً وهو صحب مصعباً وخرج معه على عبد الملك بن مروان ولم يفارقه إلى أن قتل مصعب سنة ٧٢/٦٩١ وبعد مدة استشفع بعبد الله بن جعفر بن أبي طالب إلى عبد الملك فغفا عنه فقال ابن قيس الرقييات البيتين الشهيرين (٣) :

(١) القرآن سورة ٩ (التوبة) : ١٠٦ .

(٢) أما اسمه فانظر ما قال N. Rhodokanakis في ص ٤ - ٧ من مقدمته للديوان المطبوع بعناية في وينا سنة ١٩٠٣ - والشاعر المذكور في كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣٤٣ - ٣٤٥ من طبعة ليدن .

(٣) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٤٤ من طبعة ليدن وكتاب الألفاظ ج ٤ ص ١٦٠ من طبعة بولاق والكامل في اللغة للمبرد ص ٣٩٨ من طبعة ليبسك وعزارة الأدب ج ٣ ص ٢٦٩ والديوان عدد ١

ما نَقَمُوا من بنى أمية إ لَّا أَنَّهُمْ يَحْتُمُونَ إِنْ غَضِبُوا
وَأَنَّهَمْ سَادَةُ الْمَلِكِ فَلَا تَصْلُحُ إِلَّا عَلَيْهِمُ الْعَرَبُ

قد كثر ولا غرو في ذلك الشعراء المادحون لبني أمية ، منهم بل أشهرهم الأخطل السابق ذكره (ص ١٥١) . لكني لا أريد هنا إلا الذين تعصبوا للأمويين في مسألة الإمامة ودافعوا عن حقوقهم وأدعائهم وجادلوا الخصوم في أشعارهم مثل ما فعل كعب بن جعيل الذي قرأت أبياته في الحروب بين أصحاب معاوية وشيعة علي (ص ٢٣٠) .

فمن هؤلاء الشعراء أعشى بن ربيعة وهو عبد الله بن خارجة من سكان الكوفة « كان مرواني المذهب شديد التعصب لبني أمية »^(١) . فقال رداً على آراء الخوارج والشيعة^(٢) :

وما أنا في أمرى ولا في خصومتي بمهتضمٍ حقى ولا قارعٍ سننى
ولا مُسلمٍ مولاى عند جنابة ولا خائفٍ مولاى من شرٍّ ما أجنى
وإنَّ فؤاداً بين جنبيِّ عالمٍ بها أبصرتُ عيني وما سمعتُ أذنى
وقضيتُ في الشعر واللُّبُّ أننى أقول على علمٍ وأعرف من أعنى
فأصبحتُ إذ فضلتُ مروانَ وابنه على الناس قد فضلتُ خيرَ أب وابن

وحدث عبد الملك على مقاتلة الزبيريين المدعين بالخلافة في الحجاز وقال^(٣) :

آلُ الزبير من الخلافة كالتى عَجِلَ النَّتَاجُ بِحَمَلِهَا فَأَحَالَهَا
أو كالضعاف من الحمولة حُمَّلتُ ما لا تُطِيقُ فَضِيعَتُ أَجْمَالَهَا

(١) كتاب الأغاني ج ١٦ ص ١٦٠ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغاني ج ١٦ ص ١٦١ [وديوانه عدد ١٧ من طبعة لندن ١٩٢٨ في ذيل

ديوان أعشى ميمون] .

(٣) كتاب الأغاني ج ١٦ ص ١٦١ [وديوانه عدد ١٤] الحمولة هي الإبل التي تحمل -

التمال هو النيات التي يقوم بأمر قومه .

قوموا إليهم لا تناموا عنهم كم للغواة أطلتمو إمهالها
 إنَّ الخلافة فيكمو لا فيهم ما زلتمو أركانها وثمالها
 أمسوا على الخيرات قفلاً مغلقاً فانهض بيمنك فافتتح أقفالها

ومن هؤلاء الشعراء عبد الله بن الزبير^(١) الأسدّي قال فيه صاحب الأغاني ما نصّه^(٢): «شاعر كوفي المنشأ والمنزل من شعراء الدولة الأموية وكان من شيعة بني أمية وذوي الهوى فيهم والتعصب والنصرة على عدوهم. فلما غلب مصعب بن الزبير على الكوفة أتى به أسيراً فمّنّ عليه ووصله وأحسن إليه فمدحه وانقطع إليه فلم يزل معه حتى قُتل مصعب ثمّ حمى عبد الله بن الزبير بعد ذلك ومات في خلافة عبد الملك بن مروان (٦٨٥ - ٨٦) ... وهو أحد الهجّاتين للناس». فإذا طالعت أشعاره المروية في كتاب الأغاني عرفتم قدر إطرانه للأمويين.

ومنهم أيضاً السائب بن فروخ المعروف بأبي العباس الأعمى^(٣) مولى بني الدليل سكن مكة وقال الشعر في النصف الثاني من القرن الأول فقيل إنّه كان من شعراء بني أمية المعدودين المقدمين في مدحهم والتشيع لهم وانصباب الهوى إليهم^(٤) فنظم أشعاراً كثيرة في مدائحهم وهجاء آل الزبير فكانت الأمويون يبعثون إليه الجوائز من الشام. ومدّحه جرى مجرى مدح عرب الجاهلية لساداتهم فلولا ذكر المنابر في شعر أبي العباس لما وجدنا

(١) وهو المذكور في كتاب الأغاني ج ١٣ ص ٣٣ - ٤٩ من طبعة بولاق وخرزاة الأدب ج ١ ص ٣٤٥ و ج ٢ ص ١٠٠ إلخ من طبعة بولاق.

(٢) كتاب الأغاني ج ١٣ ص ٣٣ من طبعة بولاق.

(٣) وهو المذكور في كتاب الأغاني ج ١٥ ص ٥٩ - ٦٤ من طبعة بولاق ولم يذكره ابن تيّبة (ولعله هو المشار إليه عرضاً في ص ٣٦٦ سطر ١٤) ولا صاحب خزانة الأدب [ولا ابن سلام ولا الأملّي] ولكن يدل اسم أبيه وكونه مولى على أنه فارسي الأصل.

(٤) كتاب الأغاني ج ١٥ ص ٥٩ من طبعة بولاق.

بينه وبين أشعار القدماء فرقاً . ومن قوله في بني أمية^(١) (من بحر الخفيف) :
 خُطْبَاءٌ عَلَى الْمَنَابِرِ قُرْسًا نُ عَلَيْهَا وَقَالَةُ غَيْرُ خُرْسِ
 لَا يُعَابُونَ صَدَامَتِينَ وَإِنْ قَا لَوْ أَصَابُوا وَلَمْ يَقُولُوا بَلْبَسِ
 بِحُلُومٍ إِذَا الْحُلُومُ نَقَضَتْ وَوَجُوهٍ مِثْلَ الدَّنَانِيرِ مُلْسِ

ومن شعراء الأحزاب يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري المعروف بابن مفرغ^(٢) المتوفى سنة ٦٩ في بلاد كرمان . كان حليف قريش وصحب عباد بن زياد بن أبي سفيان حين ولّاه معاوية بلاد سجستان ولم يحمّده ثمّ لما وقع بينهما أخذ يهجو ويهجو معه عبيد الله بن زياد بن أبي سفيان والى العراق (المتوفى سنة ٦٦) وغيرهما من آل زياد ومعاوية فانتشرت أهجيه حتى كانت أهل البصرة تغنى بها فطلبه عبيد الله بن زياد وحبسه مدة إلى أن غضبت أهل اليمن بالشام وطلبوا من الخليفة الأمر بتخليه سبيله ففعل . وكان ابن مفرغ من شعراء الغزل أيضاً فأشعاره في أناهيد بنت أحد دهاقين الفرس مشهورة . وسيأتى الكلام عليه ثانية عند ذكر الشعر القصصي اليمني .

لما شرعت في الكلام عن الشعر من هذا الصنف السادس قلت إنه مرآة أحوال الأحزاب السياسية الدينية وترجمان أهواء الناس وآرائهم في مسائل الدنيا والدين فما تقدّم برهان على ذلك قاطع . فأشرت إلى أشعار العثمانية والخوارج والشيعة والمرجئة والزبيريين وأصحاب الأمويين، فلا بدّ لنا الآن من

(١) كتاب الأغاني ج ١٥ ص ٦٠ .

(٢) ذكر في كتاب الأغاني ج ١٧ ص ٥١ - ٧٣ وخزانة الأدب ج ٢ ص ٢١١ - ٢١٦ من طبعة بولاق وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٢٠٩ - ٢١٣ من طبعة ليدن ووفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٨٣١ من طبعة غوتنجن أو ٧٩٢ من الطبقات المصرية ومروج الذهب للمسعودي في الباب السادس والثمانين ج ٥ ص ٢٦ من طبعة باريس [وطبقات الشعراء لابن سلام ص ١٤٣ - ١٤٤ من طبعة ليدن] .

لَمَعَةٌ فِي الشَّعْرِ الْمَعْبُورِ عَنْ أَسْبَابِ انْحِطَاطِ قُوَّةِ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ غَيْرِ الْفِتَنِ
وَالِاخْتِلَافَاتِ فِي مَسْأَلَةِ الْإِمَامَةِ .

أَفْضَتْ الْخِلَافَةَ سَنَةَ ١٢٥/٧٤٣ إِلَى الْوَلِيدِ بْنِ يَزِيدَ فَهُوَ لَمْ يَزَلْ مُدْمِنًا عَلَى الصَّبَدِ
وَاللَّهُوِ وَشُرْبِ الْخَمْرِ مَحْتَجِبًا عَنِ النَّاسِ مِنْهُمْ كَأَنَّ فِي اللَّذَّاتِ فَمَلُّ النَّاسِ أَيَّامَهُ
وَكَرِهَهُ فَرَأَى بَعْضُ أَهْلِ بَيْتِهِ خَلَعَهُ سِوَاهُ أَنْ يَحْمِلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ بَغْضِ سِوَاهِ
سِيرَتِهِ أُمَّ الطَّمَعِ وَحُبِّ الْأَحْدَاثِ . فَوَقَعَتِ الْفِتْنُ بَيْنَهُمْ فَقَالَ الْعَبَّاسُ بْنُ الْوَلِيدِ
ابْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ الْمَسْمُومِيَّ بِفَارِسِ بْنِ مَرْوَانَ لَشَهَامَتِهِ : « يَا بَنِي مَرْوَانَ أَظُنُّ
أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَذِنَ فِي هَلَاكِكُمْ » ثُمَّ أَخَذَ يُنذِرُهُمْ فَقَالَ (١) :

إِنِّي أَعِيدُكُمْ بِاللَّهِ مِنْ فِتْنٍ مِثْلِ الْجِبَالِ تَسَاحَى ثُمَّ تَنْدَفِعُ
إِنَّ الْبِرِّيَّةَ قَدْ مَلَّتْ سِيَاسَتَكُمْ فَاسْتَمْسِكُوا بِعَمُودِ الدِّينِ وَأَرْتَدِعُوا
لَا تُلْحِمَنَّ ذُنَابَ النَّاسِ أَنْفُسَكُمْ إِنَّ الذَّنَابَ إِذَا مَا أَلْحَمَتْ رَتَعُوا
لَا تُبْقِرَنَّ بِأَيْدِيكُمْ بُطُونَكُمْ فَتَمَّ لَا حَسْرَةَ تُغْنِي وَلَا جَزَعُ

وَمِنْ أَهَمِّ الْمَصَادِرِ وَأَوْثَقِهَا لِمَعْرِفَةِ حَالِ الْعَرَبِ وَالْعَجْمِ بِخِرَاسَانَ فِي أَوَاخِرِ
الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ أَشْعَارُ أَمِيرِ لَا تَأْتِي الْكُتُبُ فِي طَبَقَاتِ الشُّعْرَاءِ بِتَرْجُمَتِهِ وَإِنْ
كَانَ مَا نَظَّمَهُ فِي فِتْنِ زَمَانِهِ أَتَمَّ وَصَفٍ وَأَوْضَحَ تَبْيَانٍ لِمَا وَقَعَ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ مِنْ
الشَّرِّ بَيْنَ الْيَمَنِيِّينَ وَالنَّزَارِيِّينَ وَاعْلَمْ نَمُوَ الدَّعْوَةَ الْعَبَّاسِيَّةَ وَازْدِيَادَ قُوَّةَ الْمَوَالِي
وَزَوَالَ أَمْرِ الْعَرَبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا عَمِلَ فِي انْتِقَالِ الْخِلَافَةِ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ إِلَى
بَنِي الْعَبَّاسِ . أَعْنَى نَصْرَ بْنَ سَيَّارِ أَمِيرِ خِرَاسَانَ الْمَتَوَفَّى فِي رَبِيعِ الْأَوَّلِ مِنْ
سَنَةِ ١٢١/٧٤٨ . فَلَوْلَا أَشْعَارُهُ مَا تَوَصَّلْنَا إِلَى مَعْرِفَةِ كَثِيرٍ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِالتَّقْلِبَاتِ
السِّيَاسِيَّةِ وَتَغْيِيرِ بَعْضِ الْمَذَاهِبِ الدِّينِيَّةِ فِي الثَّلَاثِ الْأَوَّلِ مِنَ الْقَرْنِ الثَّانِي

(١) كِتَابُ الْأَغَانِي - ٦ ص ١٣٧ مِنْ طَبْعَةِ بُلَاغِ وَتَارِيخِ الطَّبْرِيِّ ج ٢ ص ١٧٨٨ مِنْ

منها مثلاً ما مالت إليه المرجئة في بلاد العجم الشمالية بعد ما انضمت إلى مذهبهم جملة من الفرس . قد مرَّ (ص ٢٤٥ - ٢٥٢) أنَّ الإرجاء عند العرب في القرن الأول كان التوقف عن الحكم بين شيعة عليّ وشيعة بني أمية وأنَّه كان للثانية أجدى منه للأولى إذ أدى أصحابه إلى استقباح قيام الشيعة على دولة بني أمية . أمّا بخراسان في أوائل القرن الثاني فانعكس الأمر إذ ذهبت إلى رأى المرجئة جملة من العجم الكارهين سُلطة العرب عليهم الشاكين جَور الأمويين وأمرائهم الراجين الصلاح من تغيير الإمارة فعدل الإرجاء عمّا كان عند العرب قبلاً وأصبح توقُّفاً عن التعصُّب لبني أمية بل كرهاً لمساعدتهم على مقاتلة أصحاب الدعوة العباسية التي مالت إليها المرجئة شيئاً فشيئاً . وذلك يلوح من شعر قاله نصر بن سيار سنة ١١٧ حين أقبل الحارث بن سريج المرجئي إلى مرو ومن أبياته (١) :

والعائِبِينَ عَلَيْنَا دِينَنَا وَهُمْ شَرُّ الْعِبَادِ إِذَا خَابَرْتَهُمْ دِينَا
وَالْقَائِلِينَ سَبِيلُ اللَّهِ بُغْيَتُنَا لُبَعْدَ مَا نَكَبُوا عَمَّا يَقُولُونَا
فَأَقْتُلُهُمْ غَضَبًا اللَّهُ مُنْتَصِرًا مِنْهُمْ بِهِ وَدَعِ الْمُرْتَابَ مَقْتُونَا
إِرْجَاؤُكُمْ لَزُّكُمْ وَالشُّرْكَ فِي قَرْنٍ فَانْتُمُ أَهْلُ إِشْرَاكِ وَمُرْجُونَا
لَا يُبْعِدُ اللَّهُ فِي الْأَجْدَاثِ غَيْرَكُمْ إِذْ كَانَ دِينُكُمْ بِالشُّرْكِ مَقْرُونَا
فِيُشْبِهُ هَذَا الْكَلَامَ مَا كَانَتْ الشَّيْعَةُ يَقُولُونَهُ فِي مَرْجِئَةِ الْعِرَاقِ الْمُنْتَعِنِينَ عَنِ
مَعْصِيَةِ مَعَاوِيَةَ وَخَلَائِفِهِ . - ومن الشهير من شعر نصر بن سيار في ذكر أحوال

(١) تاريخ الطبري ج ٢ ص ١٥٧٦ في سنة ١١٧ . ويدل ابن حزم على ما هو الإرجاء الفارسي في كتابه الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ٣ ص ١٨٨ من طبعة مصر ١٣١٧ - ١٣٢١ وهذا نصه : « اختلف الناس في ماهية الإيمان فذهب قوم إلى أن الإيمان إنما هو معرفة الله تعالى بالقلب فقط وإن أظهر اليهودية والنصرانية وسائر أنواع الكفر بلسانه وعبادته فإذا عرف الله تعالى بقلبه فهو مسلم من أهل الجنة وهذا قول أبي محرز الجهم بن صفوان وأبي الحسن الأشعري البصري وأصحابهما » .

خراسان وإهمال الخلفاء الأمويين الآخرين الذين كانوا من أشدّ العوامل في انقراض دولتهم^(١) :

أَرَى خَلَلَ الرُّمَادِ وَمِيضَ جَمْرٍ وَيُوشِكُ أَنْ يَكُونَ لَهُ ضِرَامٌ
فَإِنَّ النَّارَ بِالْعُودَيْنِ تَدَكَّى وَإِنَّ الْحَرْبَ أَوْلَاهَا الْكَلَامُ
وَإِنْ لَمْ تُطْفِئْهَا تَجَنِّ حَرْبًا مُشْمَرَةٌ يَشِيبُ لَهَا الْغَلَامُ
أَقُولُ مِنَ التَّعَجُّبِ لَيْتَ شِعْرِي أَيْقَظُ أُمِّيَّةً أَمْ نِيَامُ
فَإِنَّ يَكُ قَوْمُنَا أَضْحَوْا نِيَامًا فَقُلْ قَوْمُوا فَقَدْ حَانَ الْقِيَامُ
فَقِرِّي عَنِ رِحَالِكِ ثُمَّ قَوْلِي عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْعَرَبِ السَّلَامُ
وَقَالَ يَخَاطِبُ مُضَرَ وَالْيَمَنَ وَيَحَذِّرُهُمُ الْعَدُوَّ الدَّاخِلَ عَلَيْهِمْ^(٢) :

أَبْلِغْ رَبِيعَةَ فِي مَرَوٍ وَإِخْوَتَهَا أَنْ يَغْضَبُوا قَبْلَ أَنْ لَا يَنْفَعِ الْقَضْبُ
وَلْيَنْصَبُوا الْحَرْبَ إِنْ الْقَوْمَ قَدْ نَصَبُوا حَرْبًا يُحَرِّقُ فِي حَافَاتِهَا الْحَطَبُ
مَا بِالْكُمْ تُلْقِحُونَ الْحَرْبَ بَيْنَكُمْ كَانَ أَهْلَ الْحِجَا عَنْ فِعْلِكُمْ غَيْبُ
وَتَتْرَكُونَ عَدُوًّا قَدْ أَظْلَكَكُمْ مِمَّن تَأَسَّبَ لَا دِينَ وَلَا حَسَبُ
لَيْسُوا إِلَى عَرَبٍ مِنَّا فَتَعْرِفَهُمْ وَلَا صَمِيمَ الْمَوَالِي إِنْ هُمْ نُسَيْرَا
قَوْمًا يَدِينُونَ دِينًا مَا سَمِعْتُ بِهِ عَنِ الرَّسُولِ وَلَا جَاءَتْ بِهِ الْكُتُبُ
فَمَنْ يَكُنْ سَائِلِي عَنْ أَصْلِ دِينِهِمْ فَإِنَّ دِينَهُمْ أَنْ تُقْتَلَ الْعَرَبُ
وَقَبْلَ أَنْ نَخْتَمَ هَذِهِ النَّبْذَةَ فِي الصَّنْفِ السَّادِسِ مِنَ الشَّعْرِ فِي أَيَّامِ بَنِي
أُمِّيَّةَ عَلَيْنَا أَنْ نَذَكَرَ شِعْرَاءَ مِنَ الْعَجَمِ نَسَجُوا الْقَرِيضَ بِلُغَةِ الْعَرَبِ . - لَمَّا
جَرَى الْكَلَامُ عَلَى الشَّعْرِ فِي مَدَنِ الْحِجَازِ أَوْضَحْتُ أَنَّهُ بَعْدَ الْفَنُوحِ وَقَبْلَ

(١) مروج الذهب للمسعودي في الباب السادس بعد المائة ج ٦ ص ٦٢ من طبعة باريس وكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٢ ص ٢٧٧ من طبعة مصر ١٣٠٥ وكتاب الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري ص ٣٥٦ من طبعة ليدن .
(٢) كتاب الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري ص ٣٦١ من طبعة ليدن والعقد الفريد لابن عبد ربه ج ٢ ص ٢٧٨ من طبعة مصر ١٣٠٥ (لا يوجد في البيت الخامس) .

أواسط القرن الأول جُلبت إلى بلاد الحرمين الجوارى المغنّيات بالفارسيّ والروميّ وشرحت ما كان لذلك من التأثير في اعتناء شعراء المدن الحجازية بالغزل دون سائر أفانين الشعر . وفي ذلك العصر كثر أيضاً بمكة والمدينة عدد المماليك من سبى الفرس فصار أولادهم موالى أهل الجحاز وتدرّبوا بلغة أصحابهم حتى إن بعضهم نحو أواسط القرن الأول أخذ ينظم الشعر بالعربية . وهذا الأمر مهمٌ جداً لأنّ الشعر تعبير عن عواطف الأمة وأهواها وأميالها وأخلاقها وعوائدها فإذا شاركها في الشعر بلغتها أمم أخرى فلا بد من وقوع تقلّب واضح في مضمون ذلك الشعر وإن لم تتغير اللغة والأعراب التي صيغ فيها . فبسبب الموالى بعد منتصف القرن الأول أخذ شعر العرب يتحوّل شيئاً فشيئاً إلى شعر أمم إسلامية شتى بلغة عربية .

ومن الموالى الذين أصلهم من آذربيجان ومنشؤهم وسكناهم بمكة أو المدينة أبو العباس الأعمى السابق ذكره ومنهم أيضاً موسى شهوات^(١) الذي قال الشعر في المديح والهجاء والتشبيب بالمدينة في أيام سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩) أو قبله وأدرك خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥) ومنهم محمد بن يسار الذي قلّ ما وصل إلينا من أخباره . ومنهم زياد بن سلمى الأعجم^(٢) مولى عبد القيس قال بعض الرواة إنه كان ينزل إصطخر ،

(١) « شهوات » على الصفة وعلى الإضافة وهو أصح - والشاعر المذكور في كتاب الأغاني ج ٣ ص ١١٨ - ١٢٤ من طبعة بولاق وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٦٦ - ٣٦٧ من طبعة لندن ونخزاة الأدب ج ١ ص ١٤٤ من طبعة بولاق - وقيل في الأغاني ج ٣ ص ١١٨ إنه موسى بن يسار وفي نخزاة الأدب ج ١ ص ١٢١ من إخوة إسماعيل بن يسار ولكن هذا تصحيف - فما وصف صاحب كتاب الأغاني (ج ٤ ص ١٢١) من إخوة إسماعيل بن يسار إلا محمداً وإبراهيم بصناعة الشعر فلم يذكر اسم أبيه في كتاب الشعر لابن قتيبة . [وفي معجم الشعراء لمرزبان ص ٣٧٦ من طبعة مصر ١٣٥١ : قيل إنه موسى بن يسار] .

(٢) ذكر في كتاب الأغاني ج ١٤ ص ١٠٢ - ١٠٩ ونخزاة الأدب ج ٤ ص ١٩٣ - ١٩٤ من طبعة بولاق وكتاب الشعر لابن قتيبة ج ٢٥٧ - ٢٥٩ من طبعة لندن ووفيات الأعيان لابن

وقال البعض إنَّ أصله ومولده ومنشأه بأصبه ان « ثم انتقل إلى خراسان فلم يزل بها حتى مات وكان شاعراً جزلاً الشعر فصيح الألفاظ. على لُكنة لسانه وجريه على لفظ. أهل بلده » (١). وله قصيدة طويلة عُدَّت من غرر المراثي قالها لما مات المغيرة بن المهلب بن أبي صفرة سنة ٨٣ منها (٢) :

قُلْ للقوافل والغزاة إذا غزوا والباكرين وللمجدِّ الراح
 إنَّ الساحة . والمروعة ضُمَّنا قَبْرًا بمرَّو على الطريق الواضح
 فلماذا مررتَ بقبره فأعقِر به كُومَ الهِجانِ وكلَّ طِرْفٍ سابع
 وأنضحْ جوانبَ قبره بدمائها فلقد يكونَ أُنحاً دمٍ وذباح

ومن الغريب ما له من الهجاء الكثير الجارى مجرى هجاء الأعراب (٣) كأنه منهم فمن اطَّلع عليه بدون أن يعرف اسم قائله لما ظنَّ أنه شعر مولى فارسي . وأدرك زياد خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥) .

ولكن غرضي هنا إنما هو الكلام على بعض الموالى يدخل قسم من شعرهم

— خلكان وترجمة المهلب بن أبي صفرة عدد ٧٦٣ من طبعة غوتنجن أو عدد ٧٢٣ من الطبقات المصرية وحاسة أبي تمام ص ٦٧٨ و ٧٨٠ من طبعة بون أو ج ٤ ص ٥٢ و ١٤٨ من طبعة بولاق [وكتاب المؤلف للاملى ص ١٣١ - ١٣٢ من طبعة مصر ١٣٥٤] واسم أبيه هو سليمان في كتاب الأغاني ج ١٤ ص ١٠٢ وفي وفيات الأعيان لابن خلكان [وفي كتاب المؤلف للاملى] .

(١) كتاب الأغاني ج ١٤ ص ١٠٢ .

(٢) في كتاب الأغاني ج ١٤ ص ١٠٢ : « المهلب بن المغيرة » وهو غلط . تروى القصيدة (٥٠ بيتاً) في ذيل أمالي القالي ص ١٠ - ١٢ من طبعة بولاق ١٣٢٤ (أو ص ٨ - ١٢ من طبعة ١٣٤٤) واستخرج ابن خلكان منه ٢٧ بيتاً (انظر الموضوع المذكور من وفيات الأعيان) وبعض الأبيات مروية في كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٢٥٨ من طبعة ليندن وكتاب الأغاني ج ١٤ ص ١٠٢ وخزانة الأدب ج ٤ ص ١٩٢ (فراجع F. KRENKOW, *The elegy upon al-Mughirah ibn al-Muhallab* (Islamica, II, 1926, P. 344-354) .

مرو هو مرو الشاهجان — أما البيت الثاني فهو الشاهد في تذكير المؤنث .

(٣) راجع في كتاب الأغاني ج ١١ ص ١٦٥ - ١٦٧ و ١٧١ و ١٧٢ . ا. قاله يهجو بني يشكر وفي ج ١٣ ص ٥٨ - ٥٩ ما قاله يهجو كعباً الأشقرى .

في هذا النوع السادس . إنَّ الناس أحبُّوا في كلِّ وقتٍ تخليدَ ذكرِ مآثرِ آباؤهم والافتخارَ بها فنعم هذا الافتخار إن لم يُفسدْهُ التعصُّبُ المُفرِّطُ المُنكَرُ لأنَّه إذا لم يعدل عن سبيل الإنصاف أصبح حثاً نافعاً على احتذاء مثال الأفاضل وتخريصاً شديداً على طلب المعالي وصونٍ ما يجب على كلِّ أمةٍ لإيراثه الخلف من مجد السلف وعلو شأنهم في الاجتماع البشري . ولا أحتاج إلى وصف قدر اهتمام العرب بإبقاء ذكر أفعالهم ومفاخرهم التي ملؤوا من تذكارتها دواوين أشعارهم . فلما خرجوا عن جزيرتهم وفتحوا البلاد أهانوا الأمم التي تغلبوا عليها كأنها أدنى منهم بكثير شرفاً ومجداً . أما هذه الأمم المتقدمة في سيرة التمدُّن من زمان عتيق فأخذت تفتخر بملوكها القدماء وما لهم من الآثار المعجبة فإلى ذلك أشار جرير بقوله^(١) :

إذا افتخروا عدواً الصَّبَّهْبَدَ منهم وكيسرى وآل الهَرْمُزَانَ وقبصراً
ترى منهم مستبصرين على الهدى وذا التاج يضحى مرزباناً مسوراً
أغرَّ شبيهاً بالفنيق إذا ارتدى على القبطريِّ الفارسيِّ المزوراً
وكان كتابٌ فيهم ونبوَّةٌ وكانوا بإصطخَرَ الملوك وتُسْتَرَا
لقد جاهد الوضاح بالحقِّ مُعْلِماً فأورث مجداً باقياً أهل بربراً

فنشأ نوع من الشعر في مدح العجم وتفضيلهم على العرب وهو داخل في هذا الصنف السادس المُفْرَد لشعر الأحزاب السياسية والأختلافات الدينية . ولعلَّ أوَّلَ الفُرْسِ الذي نظم الشعر بلغة العرب وسلك فيه المسلك المدلول عليه المسمَّى عند كُتَّبة القرن الثالث والرابع بالشعوبيَّة هو إسماعيل بن يسار

(١) ديوان جرير ج ١ ص ١٠٧ من طبعة مصر ١٣١٣ [أو ص ٢٤٢ - ٢٤٣ من

طبعة مصر ١٣٥٤] .

النسائي الذي روى صاحب كتاب الأغاني^(١) بعض أخباره فقال إنه «مولى
 بنى تميم بن مرة تيم قريش وكان منقطعاً إلى آل الزبير فلما أفضت الخلافة إلى
 عبد الملك بن مروان وفد إليه^(٢) مع عروة بن الزبير ومدحه ومدح الخلفاء من
 ولده بعده وعاش عمراً طويلاً إلى أن أدرك آخر سلطان بنى أمية ولم يدرك
 الدولة العباسية وكان طبيباً مليحاً مندرّاً^(٣) بطالاً مليح الشعر وكان
 كالمنقطع إلى عروة بن الزبير . وإنما سُمي إسماعيل بن يسار النسائي لأنَّ
 أياه كان يصنع طعام العرس ويبيعه فيشتريه منه من أراد التعريس من
 المتجملين ومن لم تبلغ حاله اصطناع ذلك^(٤) . ومما وصل إلينا من أشعاره
 يلوح أنه تعاطى المديح والرثاء فضلاً عن الغزل اللطيف الغالب عند شعراء
 مدن الحجاز في ذلك العصر . أما الذي يُهمني في هذا المقام والذي أُحبُّ أن
 تتأملوه فإنَّ إسماعيل بن يسار كان «شعوبياً شديداً التعصب للعجم وله شعراء
 كثير يفخر فيه بالأعاجم»^(٥) ففي قصيدة له بعد إظهار التشبيب بهند قال^(٦) :

رُبُّ خال متوجِّج لي وعمُّ ماجدٍ مُجتدِي كريم النَّصابِ

(١) وهو مذكور في كتاب الأغاني ج ٤ ص ١١٩ - ١٢٧ ولا يذكر في كتاب الشعر
 لابن قتيبة (ص ٣٦٦ من طبعة ليدن) وخزانة الأدب (ج ١ ص ١٤٤ من طبعة بولاق) إلا اسمه
 فراجع أيضاً J. GOLDZIEHER, *Muhammadianische Studien*, I, 160

(٢) وهذا بعد مقتل عبد الله بن الزبير (كتاب الأغاني ج ٤ ص ١٢٤ سطر ٢٢ من طبعة
 بولاق) أي بعد سنة $\frac{٧٣}{٢٩٦}$.

(٣) [كلا في طبعة بولاق وفي طبعة دار الكتب المصرية : « مندرّاً » وفي الحاشية : « مندرّاً
 يأتي بالتواضع من قول أو فعل . وبطال كثير الهزل والمزاح »] .

(٤) كتاب الأغاني ج ٤ ص ١١٩ من طبعة بولاق . وقيل « إنما سمى إسماعيل بن يسار
 النسائي لأنه [وليس أبوه] كان يبيع النجد والفرش التي تتخذ للعرائس » .

(٥) كتاب الأغاني ج ٤ ص ١٢١ من طبعة بولاق .

(٦) كتاب الأغاني ج ٤ ص ١٢٠ - اجتدي سأله حاجة أو طلب جدواه - نصاب أول
 كل شيء ، الأصل - ضاهي شاكله وشابهه - حقب وجمعه أحقاب الدهر - دس الشيء تحت التراب
 وغيره ودسه فيه أدخله فيه ودفنه تحته وأخفاه - أما اشتقاق فوارس فراجع ما قاله ابن بدرون في شرحه على
 قصيدة ابن عبيون ص ٨ من طبعة ليدن ١٨٤٦ .

إِنَّمَا سُمِّيَ الْفَوَارِسُ بِالْفُرِّ س مضاهاةً رِفْعَةً الْأَنْسَابِ
فَاتْرُكِي الْفَخْرَ يَا أَمَامَ عَلَيْنَا واطركى الجور وأنطقى بالصواب
وَأَسْأَلِي إِنْ جَهَلْتِ عَنِّي وَعَنْكُمْ كيف كننا في سالف الأحقاب
إِذْ نَرَبِّي بِنَاتِنَا وَتَدُسُّو ن سفاهاً بناتكم في التراب

وجسر يوماً بالرصافة على إنشاد نصيدة بحضور هشام بن عبد الملك
قال فيها^(١):

لِأَنِّي وَجَدْتُكَ مَا عُدِي بَدَى خَوْرٍ عند الحفظ ولا حوضي بمهدوم
أَصْلِي كَرِيمٌ وَمَجْدِي لَا يُقَاسُ بِهِ ولي لسان كحد السيف مسموم
أَحْمَى بِهِ مَجْدَ أَقْوَامِ ذَوِي حَسَبٍ من كل قرم بتاج الملك معوم
جَحَاجِحَ سَادَةٍ بُلُجٍ مَرَازِبَةٍ جرد عناق مساميح مطاعيم
مَنْ مِثْلَ كِسْرَى وَسَابُورِ الْجُنُودِ مَعَا والهزمزان لفخر أو لتعظيم
أَسَدُ الْكُتَائِبِ يَوْمِ الرُّوعِ إِنْ زَحَفُوا وهم أذلوا ملوك الترك والروم
يَمْشُونَ فِي حَلْقِ الْمَآذِي سَابِغَةٍ مشى الضراغمة الأسد اللهاميم
هَنَّاكَ إِنْ تَسَأَلِي تُنَبِّئِي بِأَنَّ لَنَا جرثومة قهرت عز الجرائميم

ويروى أن هشام بن عبد الملك لما سمع هذه الأبيات غضب وأمر بدفع

(١) كتاب الأغاني ج ٤ ص ١٢٥ من طبعة بولاق - خور ضعف - قرم: الفعل أو ما لم
يسه جبل ولم يحمل عليه وترك لفحلة وقيل السيد أو العظيم على التشبيه بالفعل - جميع السيد
المسارع في المكارم - أبلج ذو الكرم والمعروف وجمعه بلج - الأجرد الذي له جرد يعني قصر شعر الجملد
في الفرس وهو من الأوصاف المصودة في الخيل - العناق (جمع حقيق) من الخيل: النجائب - مسامح
(وجمعه مساميح) ذو جواد وذو سماعة - مطعام (وجمعه مطاعيم) كثير الأضياف والقرى -
ملك كسرى الأول أنو شروان من ٥٣١ إلى ٥٧٩ بعد المسيح وسابور الأول من ٢٤١ إلى ٢٧١
وسابور الثاني ذو الأكتاف من ٣٠٩ إلى ٣٧٩ وسابور الثالث من ٣٨٣ - ٣٨٨ . - زحف مشى
- الحلقة (وجمعه حلق) كل شيء استدار والحلقة الدرع خاصة - (درع) سايغة تامة طويلة - لميم
(جمعه لهاميم) السابق الجواد من الخيل والناس - جرثومة أصل .

إسماعيل في بركة كانت أمامهما في القصر ففعلوا وغطوه في الماء حتى كادت نفسه تخرج ثم أمر بإخراجه ونفاه من وقته إلى الجحاز .

فعلَّ إسماعيل بن يسار كان أولَ شاعر استعمل اللغة العربية لتفضيل الفرس على العرب . وابنه إبراهيم كان أيضاً مبتلياً بالعصبية للعجم والفخر بهم فحذا حدوا أبيه في إظهار تعصبه في الشعر^(١) . وذلك دلالة على تقرب عهد جديد أعنى عهد الخلفاء العباسيين الذي غلبت فيه العجم على العرب في أمور السلطان والسياسة .

سمعنا إلى الآن أقوال تعصب وبُغض وخلاقات وفتن وحروب فقبل أن نفارق هذا الصنف من الشعر ينبغي لنا الإشارة إلى القليل البعيد عن مثل ذلك القريب من الآية القرآنية : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ »^(٢) .

ليس مجهولاً لكم أن أكثر الخوارج اجتمعوا على جواز تقليد الإمامة لكل رجل صالح مهما كان أصله وجنسه فلا فرق عندهم بين عربيّ وفارسيّ وزنجيّ وبربريّ وغيرهم من أصحاب مذهبهم . وذلك مخالف لعصبية قبائل الأعراب موافق للقول بتساوي كلِّ المؤمنين . فلما هرب عِمْران بن حِطَّان الخارجيّ المذكور سابقاً (ص ٢٣٦) من الحجاج بن يوسف وارتحل من قبيلة إلى قبيلة طالباً للمثوى ونزل مدة عند رَوْح بن زِنْبَاع الجُدَامِيّ ثم بزُفَر بن الحارث الكِلَابِيّ ثم عند قوم من الأزد قال في نزوله بهم^(٣) :

نَزَلْنَا بِحَمْدِ اللَّهِ فِي خَيْرِ مَنَزِلٍ نُسِرُّ بِمَا فِيهِ مِنَ الْأَنْسِ وَالْخَفَرِ

(١) كتاب الأغاني ج ٤ ص ١٢٦ سطر ٢٢ من طبعة بولاق .

(٢) القرآن سورة ٤٩ (الحجرات) : ١٠ .

(٣) الكامل للبرد ص ٥٣٣ - ٥٣٤ من طبعة لبيك أوج ٢ ص ١٢٤ من طبعة مصر

١٣٢٣ - ١٣٢٤ (وفيه شرح الأبيات) وكتاب الأغاني ج ١٦ ص ١٥٤ .

نَزَلْنَا بِقَوْمٍ يَجْمَعُ اللَّهُ شَمْلَهُمْ وليس لهم عود سوى المجد يُعْتَصِرُ
 من الأزد إن الأزد أكرم معشر بمانيّة طابوا إذا نُسِبَ البَشْرُ
 فأصبحتُ فيهم آميناً لا كمعشر أتوني فقالوا من ربيعة أو مضر
 أم الحي قحطان فتلكم سفاهة كما قال لي رَوْحٌ وصاحبه زفر
 وما منها إلا يسرُّ بنسبة تُقْرِبُنِي منه وإن كان ذا نفر
 فنحن بنو الإسلام والله واحد وأولى عباد الله بالله من شكر

ولكن إياكم أن تغتروا بهذا القول المعبر عن شكر الشاعر لمن ألجأه
 وأثواه هارباً خائفاً فقيراً لا غير . فقد سبق (ص ٢٣٦) أن عمران بن حطان
 كان من الشعراء المعرضين حزبهم على قتال غيرهم وقد تقدم أن الخوارج قالوا
 بكفر جميع من لم يتبع مذهبهم وكانوا أشد الناس تعصباً حتى تفرقوا
 أنفسهم عدة فرق مبغضين بعضها بعضاً على قلتها . والحقيقة أنهم محوا
 التعصب القوي المؤلف للأعراب من قديم الزمان وبدلوه بتعصب مذهبي أشد
 من القوي حدة معادل له سعة لأن عدد أصحاب فرقة من فرقهم لم يتجاوز
 في الغالب عدد أبناء قوم من أقوام الأعراب - أما الذي لمحت إليه إنما
 هو مثل قول الصلتان العبديّ معاصر الفرزدق وجريير (١) :

أرى أمةً شهرت سيفها وقد زيدت في سوطها الأصبحي
 بنجدية وحرورية وأزرق يدعو إلى أزرق
 فمِلْتُنَا أَنَسَا المسلمون على دين صديقنا والنبي

(١) الكامل للمبرد ص ٤٠ من طبعة ليبسك أوج ٢ ص ١٢٩ من طبعة مصر ١٣٢٣ -
 ١٣٢٤ - أما الأصبحي فقال المبرد : « تسمى هذه السياط التي يعاقب بها السلطان الأصبحية وتنسب
 إلى ذي أصبح الحميري . . . وهو أول من أطلقها » [ومن الممكن أن الشاعر يشير إلى اليمنيين الذين
 نالوا الحظوة عند بني أمية] . - أما النجدية فقال المبرد : « تنسب إلى نجدة بن عويمر . . . كان رأساً
 ذا مقالة منفردة من مقالات الخوارج » - الحرورية من الخوارج أيضاً - وأزرق يدعو إلى أزرق
 يقال يعني من كان من أصحاب نافع بن الأزرق .

أو مثل قول نهار بن تَوْسِعة شاعر بني بكر بن وائل بخراسان في أيام قتيبة بن مسلم^(١) :

أبي الإسلام لا أبَ لي سِواه إذا هتَفوا ببِكرٍ أو تميم
دَعِي القومَ يَنْصُرُ مُدْعِيَهُ فيُلْحِقَهُ بذي النَسَبِ الصميمِ
وما كَرَّمَ ولو شَرُفَتْ جُدودُ ولكنَّ التَّقِيَّ هو الكَرِيمُ

لكن مثل هذه الأقوال الكريمة نادرة جداً عند شعراء عهد الأمويين.

٧- فلنشرع في بيان الصنف السابع من الشعر في أيام بني أمية وهو شعر أهل الحضرة في مدن العراق والشام .

بُنيت الكوفة والبصرة بعد تمام فتح العراق سنة $\frac{17}{638}$ تقريباً في خلافة عمر بن الخطاب . فكان لهذا الخليفة الأجل الماهر بأمر السياسة غرضان من تأسيس تينك المدينتين^(٢) أعنى نقصان شأن المدن العراقية الفارسية الأصل مثل المدائن والحيرة لئلا تفوق العجم العرب قدرةً وتأثيراً وجعل مقامات للأعراب المفتحين في أطراف البادية متوسطة بين البدو والحضر ليعتادوا العيشة المدنية شيئاً فشيئاً وتزال رَغْبَتُهُمْ في الرجوع إلى براريهم وكراهتهم للاستقرار في المدن كما تقدم بيان ذلك في أحد الأبواب الماضية (ص ١٤٣) . فزاد عدد من استوطن الكوفة سريعاً لا سيما لما نقل على ابن أبي طالب دار الخلافة إليها سنة $\frac{36}{657}$ فأضحت مدة أربعة أعوام قاعدة الملك للمنقطعين إلى شيعة علي . ثم في أيام الدولة الأموية لم تنزل عامرة

(١) انظر كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٨٢ من طبعة ليدن والكامل للمبرد ص ٥٣٨ من طبعة لبيسك أوج ٢ ص ١٢٧ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٤ (فيه البيت الأول والثاني فقط) والبيت الأول مروى أيضاً في الفصل الحادي والمائة من كتاب المفصل للزنجشري (ص ٧٨ من طبعة مصر ١٣٢٣) .

(٢) راجع أيضاً : J.L. CAETANI, *Annali dell' Islam*, vol. III, P. 774-776; 833-845

زاهرة في غاية النضارة^(١) بل صارت للآداب العربية سوقاً حفيلاً لم ينقص نفاقه عن در مثله بدمشق فوفدت الشعراء إليها جمّاً غفيراً وإن كانت سكناهم الاعتيادية في أنحاء بعيدة عنها . كيف لا وأغلب ولائها مائلون إلى سماع الشعر مُنعمون على الشعراء الصّلات الجزيلة محبّون للأنس والاجتماع والمسر مثل بشر بن مروان الذي يروى فيه أن أيمن بن خريم الشاعر لما أتاه «نظر الناس يدخلون عليه أفواجا فقال من يؤذن لنا الأمير أو يستأذن لنا عليه ؟ فقيل له ليس على الأمير حجاب ولا يستر فدخل وهو يقول^(٢) :

يُرى بارزاً للناس بشر كأنه إذا لاح في أثوابه قمر بدر
ولو شاء بشر أغلق الباب دونه طماطم سود أو صقابة شقر
أبى ذا ولكن سهل الإذن للتي يكون له في غيبها الحمد والشكر

فضحك إليه بشر وقال : إننا قوم نحجب الحرم وأما الأموال والطعام فلا . ثم تأملوا أمراً آخر وهو أن دمشق حينئذ كانت دار الخلافة وأهلها وأهل جميع الشام كثيروا التعصب للأمويين بل أشد أركانهم حتى إن لفظ الشامي استعمل أحياناً بمعنى المنقطع إلى بني أمية^(٣) فربما من لم يعل من الشعراء إلى الدولة الأموية كره دخول الشام خوفاً من عداوة أهلها أو من أن يتهم بخيانة حزبه . أما العراق فإن قطعنا النظر عن ولاية الحجاج ابن يوسف كانت رعاية الأمويين فيها أخف منها بالشام فصارت البصرة والكوفة مقصداً للناس من كل شيعة وحزب ومذهب فنزل فيها بدون عائق ومانع من لعل صعب عليه قدوم الشام . فكثير من الشعراء المذكورين فيما

(١) أما رفاة العيش في الكوفة والحيرة في عصر بني أمية فانظر ما قيل مثلاً في كتاب الأغاني ج ٢

ص ١٢٢ و ١٢٤ و ١٢٥ من طبعة بولاق .

(٢) انظر كتاب الأغاني ج ٢١ ص ١٢ .

(٣) ويوجد « الشامي الأخطل » بهذا المعنى في قصيدة للفرزدق فانظر النفاض ص ٢٠٢ عدد

٣٩ بيت ٦٢ من طبعة ليدن [وديوان الفرزدق ص ٧٢١ سطر ٧ من طبعة مصر ١٣٥٤] .

تقدّم وفدوا الكوفة مراراً أو أقاموا بها على اختلاف مذاهبهم ومنهم الأخطل والفرزدق وجريير وذو الرمة والراعي وعبد الله بن الزبير وأعشى بنى ربيعة من مدّاح الخلفاء والأمراء الأمويين وكثير الكميت من أهل الشيعة والطّرمّاح من الخوارج وهلمّ جرّاً . فإذا لاغرو أن تكون للكوفيين منزلة خاصّة في تاريخ الشعر العربيّ في أيام بنى أميّة .

أمّا أنواع الشعر المألوفة لأهل مدن العراق سوى الشعر السياميّ المتقدّم بيانه والمرأى فثلاثة: الخمريات والغزل والمديح . وجميع ذلك متصل بأنواع الشعر العربيّ الجاهليّ في أقطار العراق الجنوبيّة الغربيّة .

أسست مدينة الكوفة على مسافة قليلة أي ستة كيلومترات تقريباً من الحيرة فلا شكّ أنّ جملة من أهل الحيرة انتقلوا إلى المدينة الجديدة واستوطنوها للتجارة فيها . وأحوال الحيرة قبل الفتح الإسلاميّ وتأسيس الكوفة معروفة فلا أحد يجهل أنّها كانت قاعدة ملك اللخميّين إلى نحو سنة ٢٠ قبل الهجرة وأنّ معظم سكّانها نصارى معروفون بالعباد اشتهروا عند عرب البادية في الجاهليّة لبيع الخمر . ونبتت فيها الشعراء من أهل الحضر ووفدت إليها أيضاً شعراء أهل الوبر من بلاد نجد واليمامة والبحرين لما كانوا يجدون فيها من رواج الشعر وحسن القبول عند ملوك بنى لخم ومن سعة الأرزاق ورغد العيش وكثرة الحوانيت والخمّارات التي كانوا يبيتون فيها معاقرين للشراب مستمعين لأغاني القينات . فخمريات أهل الحيرة أو من نزل فيها من الفحول مثل عديّ بن زيد والأعشى وطرفة والنابغة الذبيانيّ أشهر من أن احتاج إلى الإطناب في الكلام عليها . فإن تأملتُم هذا وتأثير أهل الحيرة وعاداتهم في العرب الذين عمروا الكوفة واختلاط المسلمين بأصحاب ديانات شتى في العراق ثمّ إن تذكّرتُم ما تقدّم بيانه من تمسك الأعراب بعاداتهم

القديمة وكراحتهم لبعض الأحكام الإسلامية ما استغربتم وفرة الأشعار في وصف الخمر ومدحه عند من نسج القريض في الكوفة والبصرة في أيام بني أمية . وزيدوا على ذلك كله حب شعراء العرب لاحتذاء مثال المتقدمين والافتداء بأساليبهم وأخذ معانيهم فكما تجدون حتى الآن شعراء يبكون على أطلال قوم العشوقة ويشكون مشاق قطع الفيافي التي لم يروها أبداً ولا من بعيد كذلك ليس من المحال أن بعض الشعراء ذهبوا إلى وصف الخمر وذكر لذاتها بدون أن ذاقوا منها قطرة كأن غرضهم تقليد أشعار فحول الجاهلية لا التعبير عما في قلوبهم حقيقة .

وعلى كل حال لم يزل خمارو الحميرة مشهورين إلى نحو أواخر القرن الثاني أو بعدها بقليل كما يُستنتج مما رواه صاحب كتاب الأغاني في ترجمة بكر ابن خارجة شاعر من أهل الكوفة مُفرِّم بشرب الخمر . قال (١) : « حرّم بعض الأمراء بالكوفة بيع الخمر على خمارى الحيرة وركب فكسر نبيذهم فجاء بكر يشرب عندهم على عادته فرأى الخمر مصبوبة في الرحاب والطرق فبكى طويلاً وقال :

يا لقوى لِمَا جَنَى السُّلْطَانُ لا يَكُونُنْ لِمَا أَهَانَ الْهَوَانُ
قهوة في التراب من حَلَبِ الْكَرِّ م عُقَارًا كَأَنَّهُ الزَّعْفَرَانُ
قهوة في مكان سوء لقد صا دف سعد السعود ذاك المكانُ
من كُئِيبَتِ بَدَا الْمَزَاجُ لَهَا لَوْ لَوْ نَظَمِ وَالْفَضْلُ مِنْهَا جُمَانُ
... كيف صبري عن بعض نفسي وهل يص ر عن بعض نفسه الإنسانُ

والشواهد على انتشار شرب الخمر عند بعض الأفاضل المسلمين في العراق في القرن الأول غير نادرة منها ما يروى في كتاب سيرة الرسول لابن هشام

(١) كتاب الأغاني ج ٢٠ ص ٨٧ . المقار : الخمر . جان : التولوة الواحدة .

أن النعمان بن عدى^(١) بعد ما استعمله عمر بن الخطاب على ميسان موضع
من أرض البصرة قال :

ألا هل أتى الحسناء أن حليلها بميسان يُسقى في زجاج وحنتم.
إذا شيتُ عنثي دهاقينُ قرية ورُقاصةٌ تجدوا على كل منسم
فإن كنتَ ندماني فبالأكبرِ أسقيني ولا تسقني بالأصغر المتثلّم
لعلَّ أمير المؤمنين يسوؤه تنادُمنا في الجوسقِ المتهلّم

فلما بلغت عمرَ هذه الأبيات عزله . فنذكر عن قريب أمثلة أخرى
متعددة من حُب الخمر في العراق في عهد بني أمية .

أما الغزل فهو عند أهل الحضرة المترفين كالنسيب عند أهل البادية
فقد أحسن ابن رشيح القيرواني في وصف الفرق بينهما حيث قال^(٢) :
«ومقاصد الناس تختلف فطريق أهل البادية ذكر الرحيل والانتقال وتوقع
البين والإشفاق منه وصفة الطلول والحمول والتشوقِ بحنين الإبل ولَمْع
البُرُوق ومرُّ النسيم وذكر المياه التي يلتقون عليها والرياض التي يُحلون بها
من خزامى وأقحوان وبهار وحنوة وظبانٍ وعرار وما أشبهها من زهر البرية الذي
تعرفه العرب وتُنبتُه الصحارى والجبال وما يلوح لهم من النيران في الناحية
التي بها أحبابهم ولا يعدون النساء إذا تغزلوا ونسبوا فإن وقع مثل قول
طرفة^(٣) :

وفي الحي أحوى ينفض المرْدَ شادين مظاهرُ سَمْطَى لؤلؤٍ وزبرجدٍ

(١) سيرة الرسول ص ٧٨٦ من طبعة غوتنجن ١٨٥٨ - ١٩٥٩ ويروى البيت الأول والرابع
في معجم ما استعجم للبكري ص ٥٦٧ من طبعة غوتنجن والبيت الأول في لسان العرب ج ١٥ ص ٥١
- حتم الجرة الحصراء - الجوسق القصر معرب كوشك بالفارسية وهو أيضاً من مصانع الفرس بالكوفة
(راجع معجم البكري ص ٢٥٧) .

(٢) كتاب المدة ج ١ ص ١٥٠ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

(٣) وهو البيت السادس من معلقة طرفة .

فإنما هو كناية بالغزل عن المرأة . وأهل الحاضرة يأتى أكثر تغزليهم في ذكر الصدود والهجران والواشين والرقباء ومَنَعَة الحرس والأبواب وفي ذكر الشراب والنداهى والورد والنسرين والنيلوفر وما شاكل ذلك من النواوير البلدية والرياحين البستانية وفي تشبيه التفاح والتحية به ودرس الكتب وما شاكل ذلك مما هم به منفردون .

أما المديح فسبب اعتناء الشعراء به واضح لا يحتاج إلى شرح . ومن الشعراء المقيمين بالكوفة والبصرة حارثة بن بدر الغدائي^(١) من فرسان بني تميم ووجوههم حسب صاحب الأغاني على وجه التخمين أنه قد أدرك النبي في صباه وحدائته وكان له حظٌ عظيم عند زياد بن أبي سفيان الذي لم يزل طول عمره مُكرِّماً له وقابلاً لرأيه محتملاً لما يعلمه من تناوله الشراب^(٢) وكذلك أكرمه عبيد الله بن زياد والى الكوفة من سنة ٦٨٠ إلى سنة ٦٨٦ حتى استعمل مدة على نيسابور . وأكثر أشعاره من الخمريات منها^(٣) .

أَذْهَبَ عَنِّي الْغَمُّ وَالْهَمُّ وَالَّذِي بِهِ تَطَرَّقُ الْأَحْدَاثُ شُرْبُ الْمُرُوقِ
فَوَاللَّهِ مَا أَنْفَكُ بِالرَّاحِ مَهْتَرًا وَلَوْ لَأَمَّ فِيهَا كُلُّ حُرٍّ مَوْفِقِ
فَمَا لَأَمِّي فِيهَا وَإِنْ كَانَ نَاصِحًا بِأَعْلَمَ مِنِّي بِالرَّحِيقِ الْمَعْتَقِ
وَلَكِنْ قَلْبِي مُسْتَهَامٌ بِحُبِّهَا وَحُبُّ الْقِيَانِ رَأَى كُلَّ مَحْمَقِ
أَحِبُّ الَّتِي لَا أَمْلِكُ الدَّخْرَ بَعْضُهَا وَذَلِكَ فِعْلٌ مُعْجِبٌ كُلَّ أَخْرَقِ
سَأَشْرَبُهَا صِرْفًا وَأَسْقِي صَحَابَتِي وَأَطْلُبُ غِرَاتِ الْغَزَالِ الْمَنْطَقِ

(١) وهو المذكور في كتاب الأغاني ج ٢١ ص ٢٠ - ٤٤ وكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٣ ص ٣١١ - ٣١٢ من طبعة مصر ١٣٠٥ (وفيه اسم الشاعر حارثة بن زيد) و ٣١٣ .
(٢) كتاب الأغاني ج ٢١ ص ٢١ وراجع أيضاً ص ٣٩ - ٤٠ .
(٣) كتاب الأغاني ج ٢١ ص ٤١ . وفي الشطر الثاني من البيت الخامس اقرأ : « وذلك فعلٌ معجبٌ كل أخرق » بدلا من « وذلك فعلٌ معجبٌ كل أخرق » كما في الطبع .

فدعه أنس بن زُفَيْم الليثي ووعظه قائلاً (١) :

أحار بن بدرٍ باكيرٍ الراحٍ إنَّها
تُنسِكُ أسباباً عِظاماً ركبَتها
... فَدَعُ عَنْكَ شَرِبَ الخمرِ وارْجِعْ إلى التي
عليك نبيذُ التَّمْرِ إن كنتَ شارباً
ألا إن شُرِبَ الخمرُ يُزْرِى بذي الحِجَى
فصَبْرًا عن الصهباءِ وأعلمُ بأنِّي
وَلَكِنْ لَمْ تَنْفَعَهُ الموعظُ والنصائحُ .

ومن الشعراء الكوفيين الذين كانوا في أواخر القرن الأول وأوائل الثاني
عمار بن عمرو الملقب بذي كِنَاز (٢) قال فيه صاحب الأغاني ما نصه :
« كان لَينَ الشعرِ ماجناً خَمِيراً معاقراً للشرابِ وقد حُدَّ فيه مرَّاتٍ وكان
يقول شعراً ظريفاً يُضحكُ من أكثره شديدَ التهافتِ جَمَّ السُّخْفُ .. وكان
هو وحماد الراوية ومطيع بن إياس يتنادمون ويجمعون على شأنهم
لا يفترقون وكلَّهم كان متَّهماً بالزندقة ، وعمار ممن نشأ في دولة بني أمية
ولم أسمع له بخبر في الدولة العباسية » . ومن الجدير بالذكر أنَّ شعرَ عمار
ذي كِنَاز أو ما وصل إلينا منه كلُّه منسوج في الأعاريف القصيرة دائر على
العِزَّاح والخمر والغزل ومثاله (٣) :

شَجَا قَلْبِي	غَزَالٌ ذُو	دَلال	واضح	السُّنَّةُ
أَسِيلُ	الخدِ	مربوب	وفي	مَنْطِقَه
ألا	إنَّ	الغواني	قد	برى
				جسْمِي
				هوَأَهْنَه

(١) كتاب الأغاني ج ٢١ ص ٣٣ .

(٢) توجد ترجمته في كتاب الأغاني ج ٢٠ ص ١٧٤ - ١٨٠ .

(٣) كتاب الأغاني ج ٢٠ ص ١٧٩ .

وقالوا شَفَّكَ الحورُ هَوَى قلت لهم إنَّه
ولكنى على ذاك معنى بأذاكُنَّه
أراح الله عمَّاراً من الدنيا ومنهنة
بعيدات قريبات فلا كان ولا كنه
فقد أذهل منى العقد لَ والقلب شجَاهنَّه
يُمنَّينَ الأباطيلَ ويجحدنَ الذى قلنَّه

ومن هولاء الشعراء حنين بن بلوع الحيرى^(١) كان شاعراً مغنياً
فحلا من فحول المغنين وله صنعة فاضلة متقدمة وكان يسكن الحيرة ويكرى
الجمال إلى الشام وغيرها وكان نصرانياً وهو القائل يصف الحيرة ومنزله
بها : (من المنسرح)

أنا حنينٌ ومنزلى النَّجْفُ وما ندىمى إلا الفنى القَصيفُ
أقرعُ بالكأس نغر باطية . مترعَّة تارة وأخريفُ
من قهوة باكر التَّجارُ بها بيتَ يهودٍ قرارها الخزفُ
والعيش غص ومنزلى خصبُ لم تُغلفنى شقوةٌ ولا عنفُ^(٢)

وكان من معاصرى هشام بن عبد الملك وبشر بن مروان ونخالد القسرى.
وفى ترجمته فى كتاب الأغاني تجدون عدة أخبار دالة على رغد العيش والرفاهية
بمدينتى الحيرة والكوفة بعد منتصف القرن الأول .

ومن الشعراء الكوفيين الذين غلب فى أشعارهم ذكر الشراب والميزاج والمجون

(١) راجع كتاب الأغاني ج ٢ ص ١٢٠ - ١٢٧ من طبعة بولاق والشاعر طير مذكور فى
غزاة الأدب ولا فى كتاب الشعر لابن قتيبة [ولا فى طبقات الشعراء لابن سلام ولا فى كتاب المؤلف
والمختلف للأصمى . أما اسم أبيه فهو فى طبعة دار الكتب المصرية (ج ٢ ص ٣٤١) بفتح الباء وسكون
اللام وفتح الواو] .

(٢) كتاب الأغاني ج ٢ ص ١٢٠ من طبعة بولاق .

الأقيشِر الأَسَدِيّ^(١) الذي ابتداءً يقول الشعر في أيام الخلفاء الراشدين ومات في حدود الثمانين تقريباً^(٢) وهو الذي يقول لنفسه^(٣) :

فإنَّ أبا معرُضٍ إذْ حَسَا من الراح كَأَسَا على المِنْبَرِ
خطيبُ لبیبُ أبو مُعْرِضٍ فإنَّ ليمَ في الخمرِ لم يَصْبِرِ
أحلُّ الحرامِ أبو مُعْرِضٍ فصار خليعاً على المَكْبِرِ
يُجِلُّ اللُّثَامَ وَيَلْحَى الكَرَامَ وإنَّ أقصروا عنه لم يُقْصِرِ
فقبل إنَّه كان لا يسأل أحداً أكثر من خمسة دراهم يجعل درهمين في كِراه بغل إلى الحيرة ودرهمين للشراب ودرهماً للطعام^(٤) ، وحكاياته مع أهل الشُرطة معروفة^(٥) . وإليه ينسب ابن قتيبة هذه الأبيات^(٦) :

(١) وهو مذكور في كتاب الأغاني ج ١٠ ص ٨٤ - ٩٦ من طبعة بولاق وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٥٢ - ٣٥٤ من طبعة ليدن وخرزانه الأدب ج ٢ ص ٢٧٩ - ٢٨٢ . وتروى له ثلاثة أبيات في شرح التبريزي على حاشية أبي تمام ص ٨١١ - ٨١٢ من طبعة بن أوج ٤ ص ١٧٦ من طبعة بولاق (وراجع أيضاً كتاب الأغاني ج ١٠ ص ٨٧) فاختلف في اسمه وقيل في كتاب الأغاني وخرزانه الأدب وكتاب المقاصد النحوية للعيبي (ج ٣ ص ٥٠٨ و ج ٤ ص ٥١٦ من طبعة بولاق ١٢٩٩ بهامش الخزانة) [وكتاب التنبيه للبكري (ص ٣٨ - ٣٩ من طبعة مصر ١٣٤٤)] إنه المغيرة بن عبد الله بن معرُض فقال ابن قتيبة إنه المغيرة بن الأسود بن وهب وقال العيني (ج ١ ص ٣٧٧) إنه المغيرة بن أسود بن عبد الله بن معرُض [وقال الأمدى في المؤلف والمختلف (ص ٥٦ من طبعة مصر ١٣٥٤) إنه المغيرة بن عبد الله من بني معرُض بن عمر بن أسد وقال المرزباني في معجم الشعراء (ص ٣٦٩ من طبعة مصر ١٣٥٤) إنه المغيرة بن عبد الله بن أسود بن وهب من بني ناصح بن عمرو بن أسد وقيل من بني معرُض بن عمرو بن أسد أما اسم معرُض فقبض في طبعة مصر ١٣٤٤ من كتاب التنبيه للبكري بضم الميم وفتح العين وكسر الراء المشددة فأظن أن الصحيح معرُض بضم الميم وسكون العين وكسر الراء لأن أبا معرُض كنية الشاعر وهي مذكورة في ثلاثة أبيات له (وسياتي ذكرها) فالقراءة « معرُض » بتشديد الراء غير ممكنة فيها لأجل الوزن فذكر صاحب تاج العروس (ج ٥ ص ٥٤) علمي معرُض (بسكون العين) ومعرُض (بتشديد الراء) .

(٢) خزانة الأدب ج ٢ ص ٢٨٢ مدح بشر بن مروان وهو والي الكوفة . من سنة $\frac{71}{790}$ إلى $\frac{74}{794}$

(انظر كتاب الأغاني ج ١٠ ص ٩٤ من طبعة بولاق) .

(٣) كتاب الأغاني ج ١٠ ص ٨٥ .

(٤) كتاب الأغاني ج ١٠ ص ٨٩ وانظر ص ٩١ .

(٥) كتاب الأغاني ج ١٠ ص ٩٠ و ٩١ و ٩٢ .

(٦) كتاب الشعر والشعراء ص ٣٥٤ من طبعة ليدن وفيه لا يروى البيت الثاني فأخذته من كتاب

الأغاني ج ١٦ ص ٤٥ ومعجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٥١ من طبعة ليبسك .

وصهباء جرجانية لم يطف بها
ولم يشهد القس المهينم نارها
أتاني بها يحيى وقد نمت نومة
فقلت أضطبخها أو لغيري فأهدها
إذا العزم وفي الأربعين ولم يكن
فدعة ولا تنفس عليه الذي أتى
حنيف ولم تنفر بها ساعة قدز
طروقاً ولا صلى على طبخها حبر
وقد غابت الشعري وقد خفق النسر
فما أنا بعد الشيب وبحك والخمر
له دون ما يأتي حياء ولا يشر
وإن جر أرسان الحياة له الدهر

أما صاحب كتاب الأغاني^(١) فينسبها إلى شاعر كوفي آخر وهو أيمن
ابن خريم الأسدي^(٢) من الشعراء المتغزلين والمداحين لعبد العزيز وبشر بن
مروان. وأيمن هذا مع تنزله ومدحه لأمرء من بني أمية كان يتشبع في أيام
عبد الملك بن مروان (٦٨٥ - ٧٠٥) نسج في مديح بني هاشم قصيدة
رائقة منها^(٣) :

نهاركم مكابدة وصوم
وليلتكم صلاة وافتراء
وليتم بالقران وبالتزكى
فأسرع فيكم ذاك البلاء
بكي نجد غداة غد عليكم
ومكة والمدينة والجواء
وحق لكل أرض فارقوها
عليكم لا أبا لكم البكاء
أجعلكم وأقواماً سواء
وبينكم وبينهم الهراء
وهم أرض لأرجلكم وأنتم
لأرويسهم وأعينهم سماء

ومثل هذا الكلام التقى غريب جداً عند شاعر مثل هؤلاء الكوفيين .

(١) كتاب الأغاني ج ١٦ ص ٤٥ .

(٢) وهو مذكور في كتاب الأغاني ج ٢١ ص ٧ - ١٣ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٢٤٥ -

٢٤٧ من طبعة ليدن .

(٣) كتاب الأغاني ج ٢١ ص ١٠ . - والجواء جبل بينه وبين الريلة شمالية فراسخ (معجم

البيروني ص ٣٥٥) .

ومنهم مالك بن أسماء بن خارجة الفزاري^(١) كانت آباؤه من سادة غطفان لكنه حضريّ مقيم بالكوفة فتزوج الحجاج بن يوسف أخته هنّدا . وللك أشعار في الخمر تشبه خمريات شعراء بغداد في عهد بني العباس منها^(٢) :

حَبْدًا لَيْلَتِي بَتَلْ بُونًا إِذْ نُسَقِي شَرَابِنَا وَنُغْنِي
 مِنْ شَرَابِ كَأَنَّهُ دَمٌ جَوْفٍ يَتْرُكُ الشَّيْخَ وَالْفَتَى مُرْجَحِنَا
 حَيْثُ دَارَتْ بِنَا الزُّجَاجَةُ دُرْنَا يَحْسِبُ الْجَاهِلُونَ أَنَا جُنْنَا
 وَمَرَرْنَا بِنِشْوَةٍ عَطِيراتِ وَسَمَاعٍ وَقَرْقَفٍ فَزَلْنَا

وله أشعار ظريفة أيضًا من نوع الغزل وروى البُخترى^(٣) له أبيات في ذهاب الشباب وابتداء الشيب .

ومنهم إسماعيل بن عمّار بن عيينة^(٤) الذي أدرك أوائل الدولة العبّاسية وقال الشعر في الرثاء والهجاء والمديح والغزل والفكاهات والخمر وله وصف طويل لقيان بن رامين بالكوفة .

ومنهم الحكم بن عبدل الأسدي الأعرج^(٥) منزله ومنشؤه بالكوفة إلا أنه انتقل إلى الشام لما بويج لعبد الله بن الزبير بالعراق سنة ٦٤٤ هـ فكان من

(١) وهو مذكور في كتاب الأغاني ج ١٦ ص ٤١ - ٤٧ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٩٢ - ٤٩٣ من طبعة ليدن ويروي له بيتان في خزنة الأدب ج ٢ ص ٤٨٤ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٩٢ من طبعة ليدن ومعجم البلدان لياقوت ص ٨٦٥ من طبعة ليبسك وكتاب الأغاني ج ١٦ ص ٤٠ ويختلف في الرواية .

(٣) حماسة البخترى ص ٢٨٧ - ٢٨٨ من طبعة ليدن أو ص ١٩٧ - ١٩٨ عدد ١٠٣٨ و ١٠٣٩ من طبعة بيروت (وفيها « المرادي » بدلًا من « الفزاري ») .

(٤) وهو مذكور في كتاب الأغاني ج ١٠ ص ١٣٥ - ١٤٢ وليس بمذكور في كتاب الشعر لابن قتيبة ولا في خزنة الأدب [ولا في طبقات الشعراء لابن سلام] .

(٥) راجع كتاب الأغاني ج ٢ ص ١٤٩ - ١٥٩ من طبعة بولاق وخزنة الأدب ج ٤ ص ٩٥ [والمؤلف للأصمعي ص ١٦١] وأبيات له مروية في كتاب الحيوان للجاحظ ج ١ ص ١١٧ و ١١٨ - ١٢٠ و ١٧١ و ج ٢ ص ١١١ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٥ .

الداخلين إلى عبد الملك بن مروان (٦٨٥ - ٧٠٦) السامريين عنده ثم رجع إلى الكوفة وصار منقطعاً إلى بشر بن مروان فلما مات بشر جزع عليه ورثاه. وكان شاعراً مُجيداً خبيث اللسان مُدمناً للخمر كالشعراء المتقدم ذكرهم وشعره كله في الهجاء والمجون والمديح. وكان له الشعر مكسباً كما كان لسائر شعراء طبقتة فقال (١) :

أَطْلُبُ مَا يَطْلُبُ الْكَرِيمُ مِنْ آلِ رَزَقٍ لِنَفْسِي وَأَجُولُ الطَّلَبَا
وَأَحْلُبُ الثَّرَّةَ الصَّفَى وَلَا أَجْهَدُ أَخْلَافَ غَيْرِهَا حَلَبَا
إِنِّي رَأَيْتُ الْفَتَى الْكَرِيمَ إِذَا رَغِبْتَهُ فِي صَنِيعَةٍ رَغِبَا
وَالْعَبْدُ لَا يَطْلُبُ الْعَلَاءَ وَلَا يُعْطِيكَ شَيْئًا إِلَّا إِذَا رَهَبَا
مِثْلُ الْجِمَارِ الْمَوْقِعِ السَّوِّءِ لَا يُحْسِنُ مَثَبًا إِلَّا إِذَا ضُرِبَا
ويروى أن «الشعراء اجتمعوا إلى الحجاج وفيهم ابن عبدل فقالوا للحجاج إنما شعر ابن عبدل كله هجاء وشعر سخييف فقال له قد سمعت قولهم فاستمع مني قال هات» (٢) فأنشده قصيدة مروية في كتاب أمالي القالي (٣) وصف نفسه فيها بما لم يكن له حقيقة من الشوق إلى المكارم والمعالي منها :

وَإِنِّي لِأَسْتَعْفِي فَمَا أَبْطَرُ الْغِنَى وَأَعْرِضُ مَيْسُورِي لِمَنْ يَبْتَغِي عَرَضِي
وَأَعْسِرُ أَحْيَانًا فَتَشْتَدُّ عُشْرَتِي فَأَذْرِكُ مَيْسُورَ الْغِنَى وَمَعِي عَرَضِي
وَمَا نَالِي حَتَّى تَجَلَّتْ فَاسْفَرَّتْ أَخُوثِقَةَ فِيهَا بِقَرَضٍ وَلَا فَرَضٍ
وَلَكِنَّهُ سَيْبُ الْإِلَهِ وَحِرْفَتِي وَشَدَى حَيَازِيمِ الْمَطِيَّةِ بِالْفَرَضِ

(١) حياصة ابن تمام ص ٥٣٥ من طبعة بن أوج ٣ ص ١١٠ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغانى ج ٢ ص ١٥٨ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب الأمالي لقال (المتوفى سنة ٣٥٦) ج ٢ ص ٢٦٥ - ٢٦٦ من طبعة بولاق

١٣٢٤ [أوج ٢ ص ٢٦٠ - ٢٦١ من طبعة مصر ١٣٤٤] .

لَأَكْرِمَ نَفْسِي أَنْ أَرَى مَتَخَشَعًا لِيَدِي مِثْنَةَ يُعْطَى الْقَلِيلَ عَلَى النَّحْضِ
وَأَخْرَاهَا :

ولستُ بذي وجهين فيمن عرفته ولا البخلُ فاعلم من سائي ولا أرضي
إنَّ كلَّ من سبق من هؤلاء الشعراء الكوفيِّين يليق به أن يوصف بهذا
القول : « شاعر خليع ماجن منهمك في شرب الخمر » فنذكر الآن من كان
عن الخمر عفيفاً وهو المتوكل بن عبد الله اللبني^(١) من أهل الكوفة الذي
كان في عصر معاوية (٦٦١ - ٦٨٠) وابنه يزيد (٦٨٠ - ٦٨٣) فصاغ
في مدحهما عدَّة قصائد . وربما تعاطى الهجاء مُعْرِضاً عمَّن هجاه ولم يفعل
ذلك إلا كارهاً كما يظهر من قوله^(٢) :

نَدِمْتُ عَلَى شَنْحِي الْعَشِيرَةَ بَعْدَ مَا تَغْنَى بِهَا عُوْدٌ وَحَنٌّ يَمَانِي
قَلْبْتُ لَهُمْ ظَهَرَ الْعِجَنُ وَلِبْتَعِي رَجَعْتُ بِفَضْلٍ مِنْ يَدِي وَلِسَالِي
عَلَى أَنْتَى لَمْ أَرَمُ فِي الشَّعْرِ مُسْلِمًا وَلَمْ أَهْجُ إِلَّا مِنْ رَوِي وَهَجَانِي
ومثل هذا الكلام لعمرى نادر في ذلك العصر . ومما يدلُّ أيضاً على رقة
عواطفه الشعر اللطيف الذي قاله في امرأته أم بكر وصف فيه قدر هواه لها^(٣)
وله أبيات في الحكيم منها^(٤) :

(١) وهو المذكور في كتاب الأغاني ج ١١ ص ٣٩ - ٤٤ وخزانة الأدب ج ٣ ص ٦١٧ -
٦١٨ من طبعة بولاق [وطبقات الشعراء لابن سلام ص ١٤٢ - ١٤٣ ومعجم للمرزباني ص ١٠٩ -
١١٠] وحجاسة أبي تمام ص ٥٢٧ و ٧٧٢ و ٧٧٥ من طبعة بن أوج ص ٣ ص ١٠٣ و ج ٤ ص ١٤٠
و ١٤٣ من طبعة بولاق وحجاسة البحري ج ١٧٤ و ٢٤٥ من طبعة ليدن أو ص ١١٧ و ٢٣٨
عدد ٥٧٣ و ١٣٠٠ من طبعة بيروت .

(٢) كتاب الأغاني ج ١١ ص ٤٢ وراجع حجاسة البحري ص ٣٤٥ من طبعة ليدن أو ص ٢٣٨
عدد ١٣٠٠ من طبعة بيروت .

وقلب له ظهر المجن مثل يضرب لمن كان لصاحبه على مودة ورعاية ثم حال عن العهد (راجع مجمع
الأمثال للميداني ج ٢ ص ٣٢ من طبعة مصر ١٣١٠) .

(٣) كتاب الأغاني ج ١١ ص ٤٠ و ٤١ من طبعة بولاق .

(٤) حجاسة أبي تمام ص ٧٧٢ من طبعة بن أوج ص ٤ ص ١٤٠ من طبعة بولاق .

لَسْنَا وَإِنْ أَحْسَابُنَا كَرُمَتْ يوماً على الأحسابِ نَتَكَلَّمُ
نَبِيٌّ كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا تَبْنِي وَتَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلُوا
ومنها أيضاً^(١) :

إِنِّي إِذَا مَا الْخَلِيلُ أَحَدَثَ لِي صُرْمًا وَمَلُّ الصَّفَاءِ أَوْ قَطْعًا
لَا أَحْتَمِي مَاءَهُ عَلَى رَتْقِي وَلَا يَرَانِي لِبَيْنِهِ جَزَعًا
أَهْجُرُهُ نَمَ يَنْقُضِي غُبْرُ الْإِ هِجْرَانِ عَنَّا وَلَمْ أَقُلْ قَدَعًا
إِخْذَرُ وَصَالَ اللَّثِيمُ إِنَّ لَهُ عَضْبًا إِذَا حَبِلُ وَصَلِيهِ انْقَطَعًا

ثم من شعراء الكوفة المشهورين الرماد بن أبرد (وقيل يزيد) من بني مرة بن عوف المعروف بابن ميادة^(٢) كان في أيام هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ٧٢٤) وأدرك خلافة المنصور العباسي (١٣٦ - ١٥٨) . وأشعاره في الهجاء والمدح والنسيب فقيل إنه كان متعرضاً للشر طالباً لمهاجاة الناس ومُسَابَبة الشعراء وكان مع ذلك فصيحاً يحتاج أهل اللغة بشعره . ومدح بني أمية لا سيما الوليد بن يزيد (١٢٥ - ٧٤٣) . ومدح من العباسيين المنصور وجعفر بن سليمان والى المدينة . ومن شعره في الوليد بن يزيد^(٣) :

هَمِمْتُ بِقَوْلِ صَادِقٍ أَنْ أَقُولَهُ وَإِنِّي عَلَى رَغَمِ الْعَدُوِّ لِقَائِلُهُ
رَأَيْتُ الْوَلِيدَ بْنَ الْيَزِيدِ مَبَارِكًا شَدِيدًا بِأَخْنَاءِ الْخِلَافَةِ كَاهِلُهُ
أَضَاءَ سِرَاجِ الْمَلِكِ فَوْقَ جَبِينِهِ غَسَدَاةً تُنَاجِي بِالنَّجَاحِ قَوَابِلُهُ

(١) حماسة أبي تمام ص ٥٢٧ من طبعة بين أوج ٢ ص ١٠٣ من طبعة بولاق .
(٢) وهو مذكور في كتاب الأطلال ج ٢ ص ٨٨ - ١٢٠ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٨٤ - ٤٨٥ من طبعة ليدن وخزانة الأدب ج ١ ص ٧٧ - ٧٨ و ٢٢٧ - ٢٢٨ من طبعة بولاق .
(٣) كتاب خزنة الأدب ج ١ ص ٣٢٧ - ٣٢٨ من طبعة بولاق - أما البيت الثاني فهو الشاهد في أن العلم إذا وقع فيه اشتراك اتفاق جاز تعريفه باللام - أحناء جمع حنو وهو الجانب والجهة وقيل هو هنا بمعنى السرج والقتب كنى به عن أمور الخلافة .

ومن جيد شعره في الاشتياق إلى بلاده وطلب الجوائز من الوليد بن يزيد^(١) :

ألا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِينَنَ لَيْلَةً بَحْرَةَ لَيْلِي حَيْثُ رَبَّتْنِي أَهْلِي
بِلَادِنَا لَهَا نَيْطَتْ عَلَيَّ تَمَامِي وَقُطُّعْنَ عَنِّي حِينَ أَدْرَكْنِي عَقْلِي
وَهَلْ أَسْمَعَنَّ الدَّهْرَ أَصْوَاتَ إِهْجَمَةٍ تَطَالَعُ مِنْ هَجَلٍ خَصِيبٍ إِلَى هَجَلٍ
فَإِنْ كُنْتَ عَنْ تِلْكَ الْمَوَاطِنِ حَاسِي فَأَقْشِرْ عَلَيَّ الرِّزْقَ وَأَجْمَعْ إِذَا شَمَلِي

ومن ساكني الكوفة أيضاً أبو كَلْدَةَ بن عُبَيْدِ اليشكُري^(٢) كان أولاً من أخصّ الناس بالحجاج بن يوسف ثم ثار عليه مع ابن الأشعث وصار شديد التحريض عليه بالشعر فقتله الحجاج . وأقام أبو كَلْدَةَ مدّة بَمدن وقرى شتى من بلاد العجم مثل سجستان وخراسان وكان كثير الغزل والهجاء معاقراً للخمر . فقال في آخر إحدى خمرياتة^(٣) :

سَأْرُكُضُ فِي التَّقْوَى فِي الْعِلْمِ بَعْدَمَا رَكَضْتُ إِلَى أَمْرِ الْغَوَى الْمَشْهُرِ
وَبِاللَّهِ حَوْلِي وَاحْتِيَالِي وَمِنْ عِنْدِهِ عَرَفِي الْكَثِيرُ وَمُنْكَرِي

وفي نفس بلاد العجم التي أقام أبو كَلْدَةَ بها أعني خراسان وسجستان عاش شاعر عربي مطبوع آخر لا أعرف أهو كوفي الأصل أيضاً أم لا وهو أبو الهندي^(٤) الذي مات بسجستان في أوائل الدولة العباسية . قال فيه

(١) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٨٥ من طبعة ليدن وكتاب الأغاني ج ٢ ص ١٠٨ من طبعة بولاق وسميم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٢٥١ من طبعة ليبسك .

(٢) راجع ترجمته في كتاب الأغاني ج ١٠ ص ١١٠ - ١٢٠ ولم يذكر في كتاب الشعر لابن قتيبة ولا في خزائن الأدب [ولا في طبقات الشعراء لابن سلام] .

(٣) كتاب الأغاني ج ١٠ ص ١١٩ .

(٤) وهو نذكور في كتاب الأغاني ج ٢١ ص ٢٧٧ - ٢٨٠ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٢٩ - ٤٣٠ من طبعة ليدن وأسمه غالب بن عبد القدوس في كتاب الأغاني وعبد المؤمن بن عبد القدوس في كتاب الشعر .

صاحب كتاب الأغاني^(١) « كان جَزُلَ الشعر حَسَنَ الألفاظ. لطيف المعاني
وإنما أخمله وأمات ذكره بَعْدَهُ من بلاد العرب ومقامه بسجستان وبخراسان
وشغفه بالشراب ومعاقرته إِيَّاه وفسقه وما كان يُتَّهَمُ به من فساد الدين
واستفرغ شعره بصفة الخمر ». ومن قوله^(٢) :

إذا ما أَلَحَّ البَرْدُ فَاجْعَلْ دِثَارَهُ إذا التَّحَفَ الأَقْوَامُ دُكْنَ المَطَارِ
ثلاثة أرطالٍ نبيذاً مُعَسَّلاً تَكُنْ آمِنًا منه له غَيْرَ خائفِ
فإنَّ التحاف المرء في جَوْفِ بطنه أشدُّ وأذفاً من جِإِدِ المَلاحِفِ
وهو أيضاً القائل^(٣) :

اجْعَلُوا إن مُتُّ يوماً كَفَنِي وَرَقَ الكَرَمِ وقبري مَقْصَرَةٌ
إنني أرجو من الله غداً بَعْدَ شُرْبِ الراح حُسْنَ المَغْفِرَةِ
فلنتكلم الآن في شعر أهل الحضرة بالشام في أيام بني أمية .

إن قدر نبوغ الشعر العربي في الأصقاع الإسلامية فيما مضى من الزمان
مختلف باختلاف أمرين وهما ميل الخلفاء والسلاطين والأمراء وأكابر الناس
إلى استماع الأشعار وأحوال البلاد من حيث العمران والرفاهية والأخلاق
والتقلبات السياسية . أما ميل الخلفاء والأمراء الأمويين إلى الشعر فلا يُنكَرُ
فتشهد عليه جملة وافرة من الحكايات والأخبار والأشعار نعث عليها في كتب
الأدب والتاريخ . فلو تأملتم مثلاً حال معاوية مؤسس الدولة الأيوبية لوجدتم أن
والده أي أبا سفيان بن حرب كان له اليد الطولى في الشعر فضلاً عن التجارة

(١) كتاب الأغاني ج ٢١ ص ٢٧٧ .

(٢) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٣٠ من طبعة ليدن .

(٣) كتاب الأغاني ج ٢١ ص ٢٧٩ وعلبة الكيوت للنواحي ص ٩٧ من طبعة مصر ١٢٩٩

(في الباب التاسع) وكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٣ ص ٣١٢ من طبعة مصر ١٣٠٥ .

والسياسة فترَوَى مقطعات من أشعاره في سيرة الرسول لابن هشام وكتاب الأغاني وغيرهما . أما هند بنت عتبة أم معاوية فهي أيضاً من شواعر العرب فمن أبياتها المشهورة معاصمتها الخنساء بمصائبها^(١) . . . وكان معاوية كثير الميل إلى قصائد فحول الشعراء الجاهلية محباً لسماح إنشادها عارفاً بفضائلها ومحاسنها حافياً بمن أتاه من أهل الشعر كما يتضح أيضاً مما جاء في كتاب العقد الفريد^(٢) من ذكر الوافدات عليه وأكثرهن شواعر كان معاوية يعرف جملة من أبياتهن . ولم يقتصر على سماع الإنشاد بل كان هو ذاته ينسج الشعر أحياناً ويُدرج الأبيات في مكاتباته الرسمية ويتمثلها في محاورته حسبما يلوح مما يروى منها في كتب الأدب والتاريخ^(٣) . أما يزيد بن معاوية فكان شاعراً^(٤) مولعاً بالمنادمة على الشراب ومصاحبة الشعراء فصليته بالأخطل شهيرة . ومن المشهور أيضاً عظيم قدر الشعر عند أكثر سائر الخلفاء الأمويين

(١) كتاب الأغاني ج ٤، ص ٣٥ من طبعة بولاق وأنيس الجلساء في ديوان الخنساء ص ٥٨ - ٥٩ من طبعة بيروت ١٨٩٦ وقيل في ص ٥٨ : « جعلت تعاطم العرب في مصيبتها وتقول : أنا أعظم العرب مصيبة . وبيكم (يعني أباهما وإخوتها) في شعرها حتى عرفت العرب ذلك منها » .

(٢) كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ج ١ ص ١١٩ - ١٢٥ من طبعة مصر ١٣٠٥ .

(٣) راجع LAMMENS, *Etudes sur ... Mo'awia Ier*, P. 255 ومحاوره معاوية في كتاب

العقد ج ٢ ص ١٠٧ و ١١٣ من طبعة مصر ١٣٠٥ - يروى له أبيات في الباب السادس والثمانين من مروج الذهب للمسعودي ج ٥ ص ٣٠ - ٣١ من طبعة باريس وكتاب الأغاني ج ١٦ ص ٣٣ .

(٤) تروى له أبيات في كتاب الأغاني ج ١ ص ١٠٤ و ج ٢ ص ١٣٦ و ج ٧ ص ١٧٨ و ج

١٢ ص ٦٤ و ١٥٤ و ج ١٤ ص ٦٣ و ١١٩ و ج ١٦ ص ٣٣ و ٨٨ وفي الباب الثاني والتسعين من

مروج الذهب للمسعودي (ج ٥ ص ١٥٧ و ١٦١ - ١٦٢ من طبعة باريس) وكتاب الحيوان

للجاحظ ج ٤ ص ٢٢ من طبعة ١٣٢٣ - ١٣٢٥ (وينسب هذان البيتان إلى « بعض شعراء الشام »

في الباب الثاني والتسعين من مروج الذهب للمسعودي (ج ٥ ص ١٥٨) وديوان الأخطل ص ٣٥٩ و ٣٦٠

و ٣٨٩ « وله ديوان مشهور وقيل إن معظم الشعر المنسوب إليه منقول »

(LAMMENS, *Etudes sur ... Mo'awia Ier*, P. 419)

(وراجع أيضاً : P. SCHWARZ, *Le Califat de Yazid Ier*, Beyrouth 1921, P. 493; P. SCHWARZ, *Escorial-Studien zur arabischen Literatur-und Sprachkunde*, Stuttgart 1922, I, P. 28-72; G. LEVI

DELLA VIDA, *Alcuni versi del califfo Yazid I*, (*Islamica*, II, 1926, p. 373-379).

وجليل خطبه في قلوبهم لاسيما عبد الملك بن مروان ويزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد . فبالجملة كان الشعر لهم غريزة كما كان من سليفة أغلب العرب الصميم . ولتحتيهم هذا على الشعر دواعٍ أخرى أيضاً عدا ما وصفناه من ميلهم الطبيعي إليه . قد تقدم غير مرة الإشارة إلى عظيم مرتبة الشعر في سياسة العرب في الجاهلية والقرن الأول للهجرة فشبهنا منزلة الأبيات والقصائد السائرة على ألسنتهم بجرائد عصرنا الشائعة في الأقطار المتكلمة عن لسان رجال الأحزاب . فجميع ما بيّناه عند الكلام في الصنف السادس من الشعر في أيام بني أمية برهان على ذلك واضح قاطع فلا غرور إذا أن الأمراء قصدوا اجتذاب الشعراء إليهم بالمكافآت الجميلة والصلوات الجزيلة لينتفعروا بهم ويتخذوهم دفاعاً عن أغراضهم بالمديح ومضادةً للأخصام بالهجاء . فترون أحياناً والياً من الولاة ذاهباً إلى مركزه الجديد ومعه بعض الشعراء كأنهم من مستعمليه ومعاونيه في أمور ولايته . وفي الحقيقة ربّما امتخلمت أرباب الدولة الشعراء وأبياتهم لتغيير الرأي العام حسب أغراضهم الخاصة وحمل الناس على ما كانوا في أول الأمر يكرهونه فمثال ذلك مسألة بيعة يزيد في أيام والده معاوية . لا يخفى عليكم أن العرب الصميم كانوا أبعد الناس عن الرضاء بتوارث الخلافة كابراً عن كابر لمضادته سننهم القديمة المألوفة في اختيار سادة أقوامهم فلما أراد معاوية إثارة أبتة بالعهد دون من سواه أظهر قوم في المجلس شدة كراحتهم لذلك وبعد ما غلب في الوفد الرأي بقبول تولية يزيد العهد احتاج معاوية إلى إغراء سائر الناس بذلك لاسيما في العراق والحجاز فأصبحت شعراء الدولة مساعدين له على هذا الأمر فجاء في كتاب الأغاني ما نصّه (١) : « كان يزيد بن معاوية يؤثر مسكيناً الدارمي

(١) كتاب الأغاني ج ١٨ ص ٧١ .

ويصله ويقوم بحوائجه عند أبيه فلما أراد معاوية البيعة ليزيد تهيب ذلك وخاف أن لا يخاله عليه الناس لحسن البقية فيهم وكثرة من يرشح للخلافة وبلغه في ذلك ذرؤ كلام^(١) بلغه كرهه من سعيد بن العاص ومروان بن الحكم وعبد الله بن عامر فأمر يزيد مسكيناً أن يقول أبياتاً ويُنشدها معاوية في مجلسه إذا كان جافلاً وحضره وجوه بني أمية فلما اتفق ذلك دخل مسكين إليه وهو جالس وابنه يزيد عن يمينه وبنو أمية حواليه وأشراف الناس في مجلسه فمَثَل بين يديه وأنشأ يقول « شعراً منه هذه الأبيات^(٢) :
 ألا ليت شعري ما يقول ابن عامر ومروان أم ماذا يقول سعيدُ
 بني خلفاء الله مهلاً فإنما يبوئها الرحمن حيث يريدُ
 إذا المنبرُ الغربيُّ خلاه ربهُ فإن أمير المؤمنين يزيدُ
 ومن الشعراء الذين قالوا الشعر في هذه البيعة الأخطل^(٣) العظيم الخطُّ
 عند يزيد فكثرة سماع مثل تلك الأبيات كانت تؤثر في نفوس الناس تأثيراً
 خفياً وتعودهم شيئاً فشيئاً ما كانوا يُنكرونه - ومن هذا الباب أيضاً ما رواه
 أبو زكرياء يحيى التبريزي في شرح الحماسة^(٤) أن عبد الله بن همام السلولي
 كان « مكيناً عند آل مروان وهو الذي بعث يزيد بن معاوية على البيعة
 لابنه معاوية في قوله » :

تعزوا يا بني حرب بصير فمَنْ هذ الذي يرجو الخلودا
 خلافة ربكم حاموا عليها ولا ترموا بها الغرض البعيدا
 تلقفها يزيد عن أبيه فخذها يا معاوي عن يزيدا

- (١) قال الميداني في المثل « ذرى بما عندك يا ليغاه » : « الذرو الطرف والقليل من الكلام . . .
 يقال سمعت ذرواً من الخبر إذا لم تستقبه » .
 (٢) كتاب الأغانى ج ١٨ ص ٧١ ، فراجع كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٤٧ من طبعة
 لندن وخرافة الأدب ج ١ ص ٤٦٦ . (٣) ديوان الأعطل ص ٩٥ سطر ٦ .
 (٤) حماسة أبي تمام ص ٥١٧ من طبعة بن أو ج ٣ ص ٨٤ من طبعة بولاق .

وجاء في كتاب البيان والتبيين للجاحظ^(١) أن عمران بن عَصَام العنزي^(٢) الشاعر الخطيب وهو الذي أشار على عبد الملك بخلع أخيه عبد العزيز والبيعة للوليد بن عبد الملك في خطبته المشهورة وقصيدته المذكورة . فإليه ملح صاحب كتاب الأغاني^(٣) في رواية أوردها بحروفها : « قال الحجاج يوماً لأهل - ثقته من جلسائه : ما من أحد من بني أمية أشدَّ نَصَباً لي من عبد العزيز بن مروان وليس يومٌ من الأيام إلا وأنا أتخوف أن تأتيني منه قارعة فهل من رجل اتدبوني عليه له لسان وشعروجلد ؟ قالوا نعم عمران بن عَصَام العنزي فدعاه فأخلاه ثم قال له اخرج بكتابي هذا إلى أمير المؤمنين فاقدح . في قلبه من ابنه شيئاً في الولاية . فقال له عمران : دَسَّ أيها الأمير إلى دَسِّ . فقال له الحجاج : إن العوان لا تعلمُ الخِمرَةَ . فخرج بكتاب الحجاج فلما دخل على عبد الملك دفع إليه الكتاب وسأله عن الحجاج وأمر العراق فاندفع يقول :

أمير المؤمنين إليك أهدي على الشَّحَطِ التحية والسلاما
 أميرٌ من بنيك يَكُنْ جوابي لهمم أكرومةً وأنا نظاما
 فلو أن الوليد أطاع فيه جعلتُ له الإمامة والذُّماما »

فكفي بذلك برهاناً على أحد أسباب ميل أهل العقد والحل إلى الشعراء .
 وسبب آخر ما في طبيعة أكثر الناس من حبِّ الفخر والتقريظ . والمدح فمن

(١) كتاب البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ٢٣ من طبعة مصر ١٣١٢ .

(٢) ليست نسبة الشاعر بالعرف بل هي العنزي في كتاب الأغاني (ج ١٦ ص ٦٠) . ولم يذكر الشاعر في خزائن الأدب ولا في كتاب الشعر لابن قتيبة ولا في حاشي أبي تمام والبحري [ولا في طبقات ابن سلام ولا في المؤلف للاندلس . فضبط العنزي بضم العين وفتح الراء في كتاب البيان للجاحظ ج ١ ص ٥٦ من طبعة مصر ١٣٥١] .

(٣) كتاب الأغاني ج ١٦ ص ٦٠ - حوان النصف في سنها من كل شيء . قال الميداني في مجمع الأمثال (ج ١ ص ١٣ من طبعة مصر ١٣١٠) : « والخمرَةُ من الاختيار كالجلمة من الجلوس اسم للهيئة . والحال أي أنها لا تحتاج إلى تعليم الاختيار . يضرب للرجل المحرب » .

سليقتهم أن يَصْغَرُوا إلى سماع كلام يملقهم لا سيما إذا كان ذلك الكلام مجبراً شديداً الوقوع في القلوب لرونقه وانسجامه . وإن راجت مدائح الشعراء عاد الرواج على الممدوحين بمنفعة لا تُنكر فلم تفت الجاحظ. (١) أهمية ذلك حيث قال : « ولولا أن دولة بني العباس أعجمية خرسانية ودولة بني مروان عربية أعرابية وفي أجناد شامية والعرب أوعى لما تسمع وأحفظ . لما تأتى ولها الأشعار التي تُقيد عليها مآثرها وتخلد لها ، محاسنها رجرت من ذلك في إسلامها على مثل عاداتها في جاهليتها فبنت بذلك لبني مروان شرفاً كثيراً ومجداً كبيراً وتدبيراً لا يُحصى ، ولو أن أهل خراسان حفظوا على أنفسهم وقائعهم في أهل الشام وتدبير ملوكهم وسياسة كبرائهم وما جرى في ذلك من فرائد الكلام وشريف المعاني ، كان فيما قال المنصور وما فعل في أيامه وأسس لمن بعده ما يفي بجماعة ملوك بني مروان » . فإن تأملنا ذلك ما استغربنا ما يروى في كتاب الأغاني (٢) : « أتى نصيب عبد الله بن جعفر فحملة وأعطاه وكساه فقال له قائل يا أبا جعفر أعطيت هذا العبد الأسود هذه العطايا فقال والله لئن كان أسود إن ثنائه لأبيض وإن شعره لعربي ولقد استحق بما قال أكثر مما نال وما ذاك إنما هي رواحل تُنضى وثياب تُبلى ودراهم تُفنى وثناء يبني ومدائح تُروى » .

إلا أن المديح كان سبب هيجان طمع الشعراء في المال وهمتهم الساقطة فقل عدد الذين لم يجعلوا الشعر متجراً وأنفوا من السؤال بالمدائح مثل جميل ابن عبد الله بن مهران الذي يُحكى أنه لم يمدح أحداً قط . سوى ذويه وأقاربه (٣) .

(١) كتاب البيان الجاحظ ج ٢ ص ١٥١ من طبعة مصر ١٣١٣ (أرجح ٣ ص ١١٧ من طبعة ١٣٥١) .

(٢) كتاب الأغاني ج ١ ص ١٣٧ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب العمد لابن رشيق ج ١ ص ٥١ من طبعة ١٣٢٥ .

أما أغلبهم فلم يستحوا من إظهار طمعهم أي إظهار وجعل أنفسهم منزلة
الفقراء السائلين كما قال نصيب^(١) :

لعبد العزيز على قومٍ وغيرهم من غامرة
فبابك ألين أبوابهم ودارك مأهولة عامرة
وكلبك آنس بالمعتفين من الأم بابنتها الزائرة
وكفك حين ترى السائلين ن أزدى من الليلة الماطرة
فمنك العطاء ومنا الثناء بكل محبرة سائرة

فألف حاجب بن ذبيان المازني قصيدة يمدح بها يزيد بن المهلب بخراسان
فابتداً قائلاً^(٢) :

إليك امتطيت العيس تسعين ليلة أرجى ندى كفيك يا ابن المهلب
وأنت امرؤ جادت سماء يمينه على كل حى بين شرق ومغرب
ومن هذا الباب أيضاً ما قاله إسماعيل بن يسار في قصيدة أنشدها بين
يدى عبد الملك بن مروان^(٣) :

إليك إمام الناس من بطن يثرب ونعم أخو ذى الحاجة المتعمد
رحلنا لأن الجود منك خليفة وأنت لم يذم جنانك معتمد
قد مر عند بيان سائر أصناف الشعر أو عند الكلام في الكوفيين
ذكر شعراء متعددين امتدحوا بني أمية في بعض قصائدهم الشهيرة ولهم منزلة
عالية في الصناعة مثل كعب بن جعيل والمشوكل اللبي في أيام معاوية والأخطل

(١) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٢٤٤ من طبعة ليدن وكتاب الأغاني ج ١ ص ١٣٣ وشرح

التبريزي على حساسة أبي تمام ص ٥٦٧ من طبعة بن أوج ٣ ص ١٤١ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغاني ج ١٣ ص ٥٠ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب الأغاني ج ٤ ص ١٢٥ من طبعة بولاق .

في أيام يزيد وهلمَّ جرّاً وسندكر غيرهم أيضاً فيما يتلو . غير أننا نجد مع هؤلاء النوايغ عدداً غير يسير ممن لم يغفل أبداً عن رتبة الشؤيعر أو الشؤرور واجتهد على ذلك في نسج القصائد على أسلوب فحول الجاهلية في المديح وملاها ألفاظاً طنانة رنانة وتشابيه غريبة وبالغ في إطرائه أي مبالغة مثل قول طريح ابن إسماعيل الثقفي من أهل الطائف في الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١) :

أنت ابنٌ مُسَلَّنَطِحِ البِطَاحِ ولم تُعْطَفْ عَلَيْكَ العُحْنِيُّ وَالْوَلَجُ
لَوْ قُلْتَ لِلسَّيْلِ دَعُ طَرِيقِكَ وَال حَوَّجُ عَلَيْهِ كَالهَضْبِ يَعْتَلِجُ
لَارْتَدُّ أَوْ سَمَاحٍ أَوْ لَكَانَ لَهُ فِي سَائِرِ الأَرْضِ عَنْكَ مُنْعَرَجُ

ومثل هذه الأبيات التي لا يستحسنها من له الذوق السليم ومثل هذه التشابيه المضحكة لم تندر عند أصغر المداح فيروى (٢) أن عبد الملك بن مروان قال يوماً : « يا معشر الشعراء تشبهوننا مرةً بالأسد الأبخر ومرةً بالجبل الأوعر ومرةً بالبحر الأجاج ألا قلم فينا كما قال أيمن بن خريم في بني هاشم » (الأبيات المروية ص ٢٧٩) .

فخلاصة القول أن أسباب نبوغ الشعر ونضارته بالشام في أيام بني أمية خمسة :

(١) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٢٨ من طبعة ليدن فراجع في كتاب الأغاني ج ٤ ص ٧٦ - ٨٦ ترجمة طريح بن إسماعيل الثقفي الذي (ص ٧٧) « نشأ في دولة بني أمية واستفرغ شعره في الوليد ابن يزيد وأدرك دولة بني العباس ومات في أيام المهدي وقيل الهادي » وقرئ الأبيات المذكورة في كتاب الأغاني ج ٤ ص ٨٠ - ٨١ وكتاب العقد لابن عبد ربه ج ٣ ص ١٠٢ من طبعة مصر ١٣٠٥ وقيل فيه إن طريح قالها في أبي جعفر المنصور وهذا غير صحيح فانظر كتاب الأغاني في الموضع المذكور وكتاب العقد ج ٢ ص ٢٦٩ .

(٢) كتاب الأغاني ج ٢١ ص ١٠ ويوجد قول عبد الملك هذا أيضاً في كتاب الأغاني ج ١٢ ص ٦٣ ولكن الخليفة ينشد فيه أبياتاً لكعب الأشقري .

(١) ما هو مغرور في قلوب العرب الصميم من الوازع بالشعر منذ الزمان القديم .

(٢) ميل الخلفاء والأمراء الأمويين إلى الشعر وتعطفهم على قائله بل كون كثير منهم شعراء مطبوعين .

(٣) محلُّ الأشعار وتأثيرها فيما يتصل بالأمور السياسيّة .

(٤) حُظوة المديح عند الخلفاء والولاة وأكابر الناس سواء لمجرد استلذامهم المَلَق أم لانتفاعهم بالمدائح السائرة في الأقطار .

(٥) زيادة الترف والرفاهة التي يزيد بها نفاق أسواق الآداب .

ومما يُستغرب بادئ نظر قلة الشعراء الشاميين من أهل الحضر في خلافة معاوية وابنه يزيد على كثرة الوافدين إليهما المجتمعين بأبوابهما من شعراء أهل البادية . قد بيّنا فيما سبق (ص ١١٩ - ١٣٥) قدر نبوغ نوع جديد من الشعر وهو الغزل عند الحضريين الحجازيين حتى لا نكاد نعثر عندهم على غيره من فنون الشعر مدّة القرن الأوّل (بعد خلافة عمر بن الخطّاب) وفي أوائل القرن الثاني . ووضحنا أيضاً ما بلغه من الانتشار والرواق الشعر في الغزل والخمريات في مدن العراق الجنوبيّة في ذلك الزمن فضلاً عن الكلام المنظوم المتصل بأغراض الأحزاب والفرق . فمن أين حمل الشعر ذلك عند الحضرة بالشام ومن أين فنورهم في الاعتناء بنسج القريض ؟ ولم امتنعوا مدّة عن الغزل والخمريات على الأسلوب المحدث بالحجاز والعراق كأنهم لم يعرفوا إلا القصائد على منوال القدماء وأهل البادية . إنَّ لذلك أسباباً . تفكروا أولاً فيما تقدّم بيانه الطويل عند الكلام عن الصنف الثالث من الشعر أعني أن الذين انتقلوا إلى الشام من جزيرة العرب حين الفتح الإسلامي وبعده كانوا أعراباً ما عدا القليل ونصفهم أو

أكثر كانوا يمنيين أو منتسبين إلى قبائل اليمن . وقد سبق أن هؤلاء المنتقلين لم يعتادوا الإقامة بالأمصار ولا ألفوا عيشة المدن إلا شيئاً فشيئاً بعد مدة غير قليلة فمكثوا يأنفون سُكنى المدن يحذون إلى التعرُّب أى الرجوع إلى براريهم المتسعة ومفاوزهم الفيحاء بل ذات الخلفاء الأمويين سوى معاوية وعبد الملك كانوا يقصدون البادية وقصورهم في أرض البلقاء كلما لم يمنعه عن الخروج إليها مانع مهم . - أمّا العراق فما ارتحل إليها الأعراب فقط . بل توجهت إليها واستقرت فيها جملة من حضريي الحجاز لما نقل علي بن أبي طالب دار الخلافة إلى الكوفة ثم في أيام ذهاب الحسن بن علي وآل الزبير إلى نواحي السواد .

ثم تأملوا ما وقع من الفرق بين أحوال العرب في العراق وأحوالهم في الشام قبيل ظهور الإسلام . من المشهور أن المسلمين حين احتلالهم العراق وجدوا في الجنوبية حضريين من العرب وهم قسم من سكان مملكة الحيرة قد تزكوا البداوة منذ الزمان الطويل واتخذوا جزءاً من الحضارة العجمية . فرأينا أن الخمريات التي اشتهر بها شعراء الكوفة والبصرة في أيام بني أمية إنما كانت من جنس الخمريات المتداولة عند شعراء الحيرة أو الواقدين إليها في عهد الجاهلية كأنها بأسرها مذهب شعري واحد متواتر لم يزل في تلك البلاد من قديم الزمان إلى أيام الدولة العباسية . فواضح أيضاً أن وجود أولئك العرب الحضريين في العراق سهل وعجل اختلاط المحتلين الإسلاميين بمن جاورهم من العجم هنالك . - أمّا في الشام فالأمر خلاف ذلك . كان الكخميون في العراق في القرن السابق للهجرة من أهل الحضرة أمّا بنو غسان بالشام فلم يزالوا متوسطين فيما بين البداوة والحضارة فكان رؤساء قبائلهم يقيمون تارة بمساكن ثابتة بالبناء والمدر وتارة بنوع من المعسكرات والمضارب

كانوا ينقلونها من مكان إلى مكان لدفاع غارات قبائل الأعراب المستقلة عن حدود مملكة الروم فأصبحت محلاتهم مثل جلق والجابية قارئة بين صفات المعسكر المتنقل والقرية الثابتة جامعة بين أحوال البادية وخواص الحضارة . وكانت نتيجة ذلك أن الجيوش الإسلامية لما فتحو بلاد الشام ما وجدوا في مدنها وقراها سكاناً من العرب خلافاً لما اتفق لهم في العراق فأعدتهم من يكون واسطة بينهم وبين الأهالي . ولكن أغلب المحتلن من أهل البادية الكارهين القرار في الأمصار تهادى بالشام البون الكبير بين العرب وبين سكان المدن وهم سريان وروم فما ابتدأ اختلاط عام بينهم بالمعاشرة والمصاهرة إلا نحو أواخر القرن الأول . فبتأخر الاختلاط تأخر انتقال معظم المتغلبين من حال بداوتهم إلى حال الحضارة وتأخر أيضاً عندهم نبوغ الشعر من النوع المؤلف للحضر .

ثم لبقاء الشعر في الشام على منوال قصائد النوابع من عهد الجاهلية سببان آخران أعنى ميل الخلفاء الأولين من بني أمية إلى ذلك النوع من الشعر وشدة سلطة معاوية في بلاد الشام . يروى في كتاب العقد الفريد لابن عبد ربّه (١) أن هذا الخليفة الأجل قال مرة لعبد الرحمن بن الحكم : « يا ابن أخي إنك شهرت بالشعر فإياك والتشبيب بالنساء فإنك نعر الشريفة في قومها والعضيفة في نفسها ، والهجاء فإنك لاتعدو أن تُعادي كريماً أو تستشير به لثيماً ولكن افخرُ ببيت قومك وقل من الأمثال ما توقر به نفسك وتؤدب به غيرك » . فلا شك أن هذا القول ولو لم تصح روايته على هذه الصفة هو ترجمان فكر معاوية في الشعر كما يظهر من غيره من الأخبار . وحرّم معاوية بالشام شرب الخمر وصناعة الغناء على جواز هذه الصناعة بالحجاز . فيروى على صفة استثناء أن عبد الله بن جعفر بن

(١) كتاب العقد ج ٣ ص ٨٧ من طبعة مصر ١٣٠٥ .

أبي طالب قدم عليه بالشام فأنزله معاوية في دار عياله ولم ير به بأساً أن يغني ليلة في تلك الدار^(١) . ونفذ ذلك التحريم بالشام مدة القرن الأول على غرام بعض الخلفاء بسماع الألحان . ويروى في موضع من كتاب الأغاني^(٢) أن يزيد بن معاوية كان «أول من سنّ الملامى^(٣) في الإسلام من الخلفاء وأوى المغنين وأظهر الفتك وشرب الخمر . . وكان يأتيه من المغنين سائب خاثر فيقيم عنده فيخلع عليه ويصليه . . ولكن إن راجعتم الأخبار عن يزيد والمغنين وجدتم أنه كان يلقاهم عادة بالحجاز ولم يقبلهم بدمشق إلا في أندر النادر وسراً بمساعدة أصدقائه المدنيين لا سيما عبد الله بن جعفر^(٤) . وسائب خاثر المذكور فيما تقدم إنما كان من ساكني المدينة^(٥) .

أما أول الأمويين الذي أدخل المغنين في الشام فالوليد بن يزيد (١٧٢ - ١٧٤) وهو أراد أولاً أن يدخلهم خفية مراعاة لخواطر أهل تلك البلاد كما يلوح من رواية كتاب الأغاني^(٦) : «إن الوليد بن يزيد لما ولي الخلافة بعث إلى المغنين بالمدينة ومكة فأشخصهم إليه وأمرهم أن يتفرقوا ولا يدخلوا نهراً لئلا يعرفوا وكان إذ ذاك يتستر في أمره ولا يظهره فسبقهم ابن عائشة فدخل نهراً وشهر أمره فحبسه الوليد وأمر به فقيد وأذن للمغنين وفيهم معبد فدخلوا عليه دخلات ثم إنه جمعهم ليلة فغنوا له حتى طرب وطابت نفسه إلخ .»

(١) كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٣ ص ١٨٢ - ١٨٣ من طبعة مصر ١٣٠٥ وراجع الحكاية في كتاب الأغاني ج ٧ ص ١٨٩ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغاني ج ١٦ ص ٧٠ .

(٣) والملامى (جمع ملهى) هنا الآلات الموسيقية .

(٤) ولعله لم يقبل شاعراً في الشام إلا مرة واحدة (راجع كتاب الأغاني ج ٧ ص ١٠٣ - ١٠٤ و ١٨٩ من طبعة بولاق) .

(٥) قتل سائب خاثر في سنة ٦٣ / ٦٨٣ يوم الحرة (راجع آنفاً ص ١٢٣ حاشية ٢) .

(٦) كتاب الأغاني ج ٤ ص ٨١ - ٨٢ من طبعة بولاق فراجع كتاب العقد لابن عبد ربه

ج ٢ ص ٢٦٩ من طبعة ١٣٠٥ (رواه محمد بن أبي عائشة بدلا من محمد بن عائشة) .

لعلكم تسألون لماذا هذا الكلام في صناعة الغناء وإدخالها في بلاد الشام؟ ألم تكن نبحت عن صناعة الشعر لا غير، أقول إن بين الصناعتين صلة قوية لا يجوز إهمال الفحص عنها لمن يريد بيان سير الشعر وتقلباته في أيام بنى أمية. لما تكلمت عن الغزل الحقيقي بمدن الحجاز أثناء القرن الأول أوضحت تعلقه بتقلب الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في الحرمين وزيادة الترف والرّفه بعد الفتوحات الإسلامية الكبرى وما فاز المسلمون من الأموال والرقاب وأشرت إلى الاتفاق الواقع بين قدوم المغنين والمغنيات من الموالي بمكة والمدينة وبين أوائل انتشار الشعر الغزليّ فيهما. وذكرت أن أولئك الموالي كانوا في بدء الأمر يغنون بالروميّ أو الفارسيّ ثم عدلوا إلى الغناء بالعربيّ فأصبحوا من أشدّ العوامل في إهمال نسج القصائد على منوال المعلقات وتغيير ذوق الظرفاء والمتأدّبين. إن الألحان التي دخل بها الموالي والمماليك في المدن الحجازية كانت من الأنواع المسيرة والمطرية وهي مما اخترعه الروم والفرس من أصحاب صناعة الأنغام ترويحاً للنفوس وبسيلة للقلوب لا سيما في أيام العيد والفرح أو عند المنامة والمجالسة، فما صلحت لها الأعاريف الطويلة الثقيلة ولا أشعار مدارها على وصف أعضاء الناقة ومخاوف الفياض ومتاعب السفر في الرمال وغزوات القبائل إذ لا يُنكر الارتباط الواقع بين نوع النغمة والغناء المتقن الصنعة وبين عروض الشعر وفحواه. وزيدوا على ذلك أن أولئك المغنين أصلهم من العجم والحضر استصعبوا فهم القصائد على المنوال القديم وحفظها بما فيها من غريب الألفاظ وتوحش المعنى. فإن تأملتم أيضاً أن الشعراء من حضريّ العراق والحجاز وجدوا الشعر أسرع رواجاً وأوسع شهرةً وألذ للنفوس وأوقع في قلوب الناس إذا غنى على آلات السماع تمكّنت من تقدير ما كان لصناعة الغناء

والألحان من التأثير في تقلب أفانين الشعر . - فالمحتمل عندي أنه لولا منع الغناء الممتقن والسماع إلى أواخر القرن الأول في بلاد الشام لما تأخر نبوغ الغزل والخمريات عن وقت نبوغهما بالعراق والحجاز بمدة طويلة .

فلجملة هذه الأسباب قلّ بالشام الشعراء من الحضرة (١) إلى أواخر القرن الأول فشعرهم على ما أدخلت فيه العيشة المدنية من رقة العواطف ولينة الألفاظ. وعلو الكلام لم يزل متوسطاً بين الشعر الجاهلي وبين الغزل الغالب عند شعراء مدن الحجاز والعراق . أما الخمريات فامتنعوا عنها أثناء القرن الأول وما ذكروا الخمر إلا لمجرد وصفها أو للتشبيه بها مثل قول عدى ابن الرقاع (٢) :

أَمِيدُ كَأَنِّي شَارِبٌ لَعِبْتُ بِهِ عَقَارُ ثَوْتٍ فِي سِجْنِهَا حِجْبًا سَبِيحًا
مَقْدِيَّةٌ صَهْبَاءُ تُنْخِنُ شَرِبَهَا إِذَا مَا أَرَادُوا أَنْ يِرَاحُوا بِهَا صَرَحِي
عُصَارَةٌ كَرَمٍ مِنْ حُدَيْجَاءَ لَمْ يَكُنْ مَنَابِتُهَا مُسْتَحْدَثَاتٌ وَلَا قُرْعَا
أَوْ مِثْلُ قَوْلِهِ (٣) :

كُمَيْتٌ إِذَا سُجَّتْ فِي الكَأْسِ وَرَدَةٌ لَهَا فِي عِظَامِ الشَّارِبِينَ دَبِيبٌ

(١) لا أجد في شعراء الشام من الحضرة عبد الرحمن بن الحكم أخا الخليفة مروان بن الحكم (٦٤٠ - ٦٨٣) لأنه أقام بالحجاز مدة أطول من إقامته بالشام بل لم يزل في بلاد الحرمين حتى تفاه عبد الله بن الزبير عنها مع سائر بني أمية . وكان « متوسط الحال في شعراء زمانه وكان يهاجى عبد الرحمن بن حسان بن ثابت » (كتاب الأغاني ج ١٢ ص ٧٢) ومن شعره القريب من نوع الخمريات والخلعة الأبيات الثلاثة المروية له في كتاب الكامل للمبرد (ص ٧٢ من طبعة لبيك أو ج ١ ص ٦٠ من طبعة مصر ١٣٢٣-١٣٢٤) وهو مذكور في كتاب الأغاني ج ١٢ ص ٧٢-٧٦ .
(٢) كتاب معجم البلدان لياقوت ج ٤ ص ٨٩ من طبعة لبيك . يروى البيت الأول والثاني في لسان العرب ج ٤ ص ٤١٧ من طبعة بولاق بالرواية « باكرت شهرها » . وهذه الرواية صارت الشاعر شارب خمر .

(٣) كتاب العقد لابن عبد ربه ج ٢ ص ١١٨ من طبعة مصر ١٣٠٥ .

تُريك القَدَى من دونها وهى دونه لوجد أخيها في الإناء قُطوبُ
 فيروى أن سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩) لما سمع هذين البيتين
 قال لعدي بن الرقاع : شربتها ورب الكعبة . قال عدى والله يا أمير المؤمنين
 لئن رأيتك وصنى لها قد رابى معرفتك بها . فتضحكا وأخذوا في الحديث .
 - فنفس هذه الحكاية تدل على ما أردنا بيانه أى ندرة شرب الخمر عند
 أهل الحضرة بالشام وإمساك شعراءهم عن الخمرات أثناء القرن الأول خلافاً
 لحضرة العراق . وما هو مشهور من انهماك الأخطل في الشراب وأشعاره فيه
 لا يدحض قولى إذ كان الأخطل بدوياً عراقياً نصرانياً .

كان عدى بن الرقاع ^(١) السابق ذكره من أقدم شعراء الحضرة بالشام
 مداحاً لبني أمية كثير الحفظ . عندهم لاسيما الوليد بن عبد الملك (٨٦ -
 ٩٦) ومنزله بدمشق وهو من السجيدين في المديح والنسيب الرقيق اللطيف
 الخالى عن تغزل شعراء الحجاز والعراق . ومن أبياته التى ذكر فيها عنايته
 بإتقان بنية شعره وخبرته بأحوال الحياة ^(٢) :

وقصيدة قد يت أجمع بينها حتى أقوم ميلها وسنادها
 نظر المثقف في كعوب قنائه حتى يُقيم ثقافته مُنادها
 أو ما ترى شيباً تفسخ ليمى حتى علا وضح بلوح سوادها
 فلقد تببت يد الفتاة وسادة لي جاءلاً إحدى يدي وسادها
 ولقد أصبت من المعيشة لذة ولقيت من شظف الخطوب شدادها
 وعمرت حتى لست أسأل عالماً عن حرف واجدة لكى أزدادها
 صلى المليك على امرئ ودعته وأتم نعمته عليه وزادها

(٦) وهو مذكور في كتاب الأغاني ج ٨ ص ١٧٩ - ١٨٤ من طبعة بولاق وكتاب الشعر
 لابن قتيبة ص ٣٩١ - ٣٩٣ (ج ١٧) من طبعة ليدن وترى له أبيات في الكامل للمبرد ص ٨٥ من
 طبعة ليبك أوج ١ ص ٧١ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٤ [وطبقات الشعراء لابن سلام ص ١٤٤ -
 ١٤٥] .

(٢) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٢٩٢ من طبعة ليدن .

ومن لطيف شعره^(١) :

ومما شجاني أنني كنتُ نائماً أَعْلَلُ من بَرْدِ الكَرَى بالتَّسَمِّ
إلى أن بَكَتْ وَرَقَاءُ في غُضَنِ أَيْكَةِ تُرَدُّ مَبْكَاهَا بِحُسْنِ التَّرَنِّمِ
فلو قَبِلَ مَبْكَاهَا بَكَيْتُ صَبَابَةً بِسُعْدَى شَفِيَّتُ النَّفْسِ قَبْلَ التَّنَدُّمِ
ولكن بَكَتْ قَبْلِي فَهَاجَ لِي البُكَاءُ بُكَاهَا فَقُلْتُ الفَضْلُ لِلْمُتَقَدِّمِ
ومن نصّ وارد في كتاب الأغاني^(٢) ومما نقلته آنفاً من كتاب العقد
الفريد يستنج أنه أدرك خلافة سليمان بن عبد الملك .

ومن معاصري عدى بن الرقاع المشهورين شاعر ليس أصله من العرب وهو
أول من قال الشعر الجيد اللطيف بالعربي من السود أعنى به نصيب بن
رباح^(٣) مولى عبد العزيز بن مروان . واختلفوا في أصله فلو صحّت رواية
من قال إنه من أهل وُدَّان^(٤) وعبد لرجل من بني كنانة الساكنين هناك
اشتراه عبد العزيز لكان من المغاربة . والمحتمل إذاً أن عبد العزيز^(٥) اشتراه
في أيام ولايته مصر في خلافة معاوية وعبد الملك بن مروان . وعلى كل حال
عاش نصيب بالشام وبها قال . أكثر شعره فيعدُّ من المقدمين عند خلفاء

(١) الكامل للمبرد ص ٥١٤ من طبعة ليسك أو ج ٣ ص ١٠٤ من طبعة مصر ١٣٢٣ -
١٣٢٤ ، ويروي البيهقي الأخيران أيضاً في شرح التبريزي على حاشية أبي تمام ص ٥٦٧ من طبعة
بن أوج ٣ ص ١٤٢ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغاني ج ٨ ص ١٧٩ من طبعة بولاق .

(٣) وهو المذكور في كتاب الأغاني ج ١ ص ١٢٩ - ١٥٠ من طبعة بولاق وكتاب الشعر لابن

قتيبة ص ٢٤٢ - ٢٤٤ من طبعة ليدن [وراجع *U. RIZZITANO, Ada Mihgan-Nuqayb ibn*

Rabāh [Rivista degli Studi Orientali, XX, Roma 1948, P. 421-472; XXII, 1947, P. 29-35]

(٤) وعلى الأجمع ليست ودان نصيب المدينة المشهورة في أفريقية بل هي موضع بين مكة والمدينة

المنورة يذكره نصيب في أبياته (راجع معجم البلدان لياقوت ج ٤ ص ٩١٠ من طبعة ليسك) .

(٥) توفي عبد العزيز بن مروان سنة $\frac{٨٥}{٧٠٤}$.

بني أمية الذين أثنى عليهم الثناء الوافر ونال منهم الجوائز الجزيلة^(١) وهو أجداد المديح والمراثي والنسيب، ونسيبه عفيف بعيد عن الغزل الخليع فيقال إنه لم ينسب قط. إلا بامراته . وتجذون عدة أشعاره في كتاب الأغاني فاقصر على ذكر بيتين له مرويين في حماسة أبي تمام^(٢) معناهما كثير الشبه بمعنى أبيات عدى بن الرقاع المذكورة آنفاً :

لقد هتفت في جنح ليل حمامة على فتن وهنا وإني لثائم
كذبت وبيت الله لو كنت عاشقاً لما سبقتني بالبكاء الحمائم
رما وقفت على سنة وفاته فالواضح عما جاء في كتاب الأغاني^(٣) أنه كان في قيد الحياة حين أفضت الخلافة إلى هشام بن عبد الملك سنة ٨٥/٧٠٤.

كفى ما تقدم دليلاً على قدر الفرق بين شعر الحضرم بالشام وشعرهم بالعراق والحجاز في القرن الأول غير أن هذا الفرق اضمحل بعد أوائل القرن الثاني بقليل إذا تقلبت أحوال مدن الشام لاختلاط العرب والأعجمين فيها ولزوال شدة الخلفاء في حكومتهم وأخذهم في تقليد أبهة قدماء الملوك من بني ساسان بالمدائن وفخامة ملوك الروم بالقسطنطينية في اللباس والطعام والأواني وجميع أنواع الترف . وجلبت الخصبان من بلاد الروم وأدخلت في دمشق المغنون والمغنيات علناً في أيام الوليد بن يزيد (١٢٥/٧٤٣ - ١٢٦/٧٤٤) حسبما شرحته فيما تقدم، وأظهر شرب الخمر وفسدت الأخلاق ودبت في عرب المدن الخلاعة فبتقلب الأخلاق والعوائد والأهواء تقلبت أفانين الشعر فعمت الشام الأشعار في الخمر والغزل .

ورئيس هولاء الشعراء الذين ذهبوا بدمشق المذهب الجديد الوليد بن

(١) انظر الأبيات المروية له سابقاً ص ٢٩١ .

(٢) كتاب الحماسة لأبي تمام ص ٥٦٧ من طبعة بن أوج ٣ ص ١٤١ - ١٤٢ من طبعة

بولاق .

(٣) كتاب الأغاني ج ١ ص ١٤٨ من طبعة بولاق .

يزيد^(١) الذي وصفه صاحب الأغاني قائلاً^(٢) : « وكان من فتيان بني أمية وظرفائهم وشعرائهم وأجوادهم وأشدائهم وكان فاسقاً خليعاً متهماً في دينه مرمياً بالزندقة وشاع ذلك من أمره وظهر حتى أنكروه الناس فقتل وله أشعار كثيرة تدل على نجبته وكُفِّره ومن الناس من ينسب ذلك عنه ويُنكِّره ويقول إنه نحله وألصق إليه والأغلب الأشهر غير ذلك » . وقال بعض الرواة إن الذي أضلّه مودبه عبد الصمد بن عبد الأعلى وهو كان فيما يقال زنديقاً فحمل الوليد على الشراب والاستخفاف بدينه^(٣) . فلو جمعنا ما يُعزى إلى الوليد من الأشعار وما يُروى في حقه من الأخبار وما يُنسب إليه من الكلام الكثير الوقاحة والدنائة لاستغربناه كل الاستغراب وتعجبنا منه بتقيلده منصب الإمامة ولو مدة يسيرة . كيف لا إذ هو القائل على ما نطلع عليه في بعض الكتب^(٤) :

أنا الإمامُ الوليدُ مفتخرًا أجْرُ بُرْدِي وأسمَعُ الغزلا
 أشحَبُ ذَيْبِي إلى منازلها ولا أبالي من لامٍ أو عدلا
 ما العيشُ إلا سماعٌ مُحسِنَةٌ وقهوةٌ تتركُ الفتي ثملا
 لا أرتجى الحورَ في الخلود وهل يأمل حورَ الجنانِ من عقلا
 إذا حَبَّتكَ الوصالَ غانيةٌ فجازها بذلها كمن وصلها

(١) وهو مذكور في كتاب الأغاني ج ٦ ص ١٠١ - ١٤١ و ج ٨ ص ١٦١ - ١٦٢ من طبعة بولاق وكتاب المقدس لابن عبد ربه ج ٢ ص ٢٦٩ - ٢٧١ من طبعة مصر ١٣٠٥ وفي باب الحادي بعد المائة من مروج الذهب للمسعودي ج ٦ ص ٥ - ١١ من طبعة باريس ورسالة الففران لأبي العلاء المعري ص ١٤٥ - ١٤٦ من طبعة مصر ١٣٢١ [١٣٢٥ -] ويروى له بيتان « في الهجاءات بالخير والشر مثلا يمثل « في سماء البحري ص ٢٣٧ من طبعة ليدن أو ص ١٦١ عدد ٨٥٤ من طبعة بيروت [وراجع F. GABRIELI, *al-Walid ibn Yazid, il califfo e il poeta* (Rivista degli Studi Orientali, XV, 1934, PP. 1-64)] .

(٢) كتاب الأغاني ج ٦ ص ١٠١ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب الأغاني ج ٢ ص ٧٨ .

(٤) رسالة الففران ص ١٤٦ من طبعة مصر ١٣٢١ - ١٣٢٥ .

ويقال إنه لما أحيط به دخل القصر وأغلق بابه وقال^(١) :

دَعَا نِي هِنْدًا وَالرَّبَابَ وَفَرْتَنِي وَمُسَيْعَةً حَسْبِي بِذَلِكَ مَا لَا
خُدُوا مُلْكِكُمْ لَا ثَبَّتَ اللَّهُ مُلْكَكُمْ فَلَيْسَ يُسَاوِي بَعْدَ ذَلِكَ عِقَالًا
وَنَحَلُوا سَبِيلِي قَبْلَ عَيْرٍ وَمَا جَرَى وَلَا تَحْسُدُونِي أَنْ أَمُوتَ هُنَا لَا

غير أن الحكم المُنْصِفَ في الوليد بن يزيد صعب علينا إذا تأملنا مصادر أخباره وأخبار أكثر الأمويين . فقدت التصانيف التاريخية القديمة فمعظم ما نعرفه من سير بني أمية منقول من مؤلفات أعدائهم سواء من أهل الشيعة أم من المنقطعين إلى الدولة العباسية . فأهل الشيعة أفرطوا في تسويد معاوية ويزيد لما جرى بينهما وبين علي بن أبي طالب وآله . أما المتعصبون ببني العباس فاجتهدوا في تسويد ذكر الآخرين من خلفاء بني أمية لما وقع من العداوة بينهم وبين بني هاشم . ثم تفكروا في أمر آخر تقدم التلميح إليه فيما سبق وهو أن الدولة الأموية كانت دولة عربية محضة فأبغضها المسلمون من غير العرب وأسرعوا في قبول روايات الحاقدين على بني أمية بدون إجراء النقد فيها لميل الناس إلى تصديق ما يوافق أهوائهم ؛ فنتيجة كل ذلك أن المورخين المتأخرين مثل ابن الأثير وأبي الفداء اغتروا وضلوا أي ضلال في بعض ما رووه من أخبار الأمويين . ومن الجدير بالاعتبار ما ذهب إليه بعض الناس منذ أواخر القرن الأول من وضع الأحاديث بُغْضاً لبني أمية وأمرائهم فعزوا مثلاً إلى الشبي القول بأن سيقوم في بني ثقيف كاذب ومُبيرٌ فلأنهم فسروا هذا الحديث قائلين بأن الكاذب مختار بن أبي عبيد والمُبير الحججاج

(١) رسالة النفران ص ١٤٦ راجع المقدم للفريد لابن عبد ربه ج ٣ ص ٣١٦ من طبعة

مصر ١٣٠٥ وفيه تنسب الأبيات إلى يزيد بن الوليد .

ابن يوسف^(١) . وفي حديث آخر مختلق كالسابق يُظهر النبي وهو مُشرف على الموت كراهته لثلاث من قبائل العرب أي بنى ثقيف وبنى حنيفة وبنى أمية^(٢) . وكذلك نُسب إلى النبي أنه لقي رجلاً قد سمى ابنه الوليد فقال له : أقم تسمون أولادكم بأسماء فراعنتكم إنه سيقوم رجل اسمه الوليد يضر أمتي أكثر مما ضرَّ فرعونُ شعبة^(٣) . فلو راجعتم الأحاديث الموضوععة من باب الفتن والملاحم والمهدى^(٤) عثرتم على مثل ذلك مما زور لتسويد أعراض الأمويين أو غيرهم من أصحاب الأحزاب السياسية . وفي وضع الأحاديث هذا لمثل هذه الأغراض في القرن الثاني والثالث دلالة على التقلب العظيم الذي حدث في ذلك العصر في هيئة المسلمين الاجتماعية . إنَّ العرب الصميم إلى أواخر الدولة الأموية إذا أرادوا تشنيع أخصامهم وشتمهم إنما استعملوا الأشعار كما سبق بيان ذلك بالتفصيل عند الكلام على الصنف الخامس والسادس من الشعر لأن الشعر فقط كان عند العرب منذ الزمان القديم ديوانَ مفاخرهم ومثالبهم . أما الشعوب الإسلامية غير العربية فما اتخذوا الشعر كسلاح في تخاصم الأحزاب والفرق والملل والتجذُّوا إلى المصنِّفات المنثورة على كثرة أنواعها . ومنها الأحاديث الموضوععة . فمن يرد البحث العميق في تاريخ الأمم الإسلامية فلا بد له من الاطلاع على تلك الأحاديث المختلقة المزورة لأنها في الحقيقة بخزانة آراء الفرق وأغراض الأحزاب التي كثيراً لا تتضح من الكتب المؤلفة في العلوم التاريخية فتشبه منزلتها بمنزلة الأشعار السياسية إلى منتصف القرن الثاني .

(١) رواه Goldziher في كتابه *Muhammedanische Studien* ج ١ ص ١٠٠ عن صحيح مسلم ومصابيح السنة البغوي وابن بديون .

(٢) راجع الموضوع المذكور من كتاب Goldziher ومن الممكن أن بنى حنيفة لم يذكرها في هذا الحديث إلا لكون نافع بن الأزرق رئيس الأزارقة منهم .

(٣) راجع GOLDZIEHER, *Muhammedanische Studien*, II, 109-110

(٤) انظر مثلاً الترمذي وأبا داود وراجع GOLDZIEHER, *Muhammedanische Studien*, II, P.127

وبعد هذا الاستطراد أرجع إلى سياق الكلام فأقول إن الوليد برىء على المحتمل من أقبح ما يروى عنه من الأخيار والأشعار . ولكن ولو سلمنا ورود التزوير فيها والافتراء في حقه فلا ريب أنه تهادى في الشرب واللذات وأفرط وأن كثيراً مما يُروى من غزلياته وخمرياته صحيح الرواية موثق به . ولعل غرامه سماع أشعار القدماء الذين عاشوا في مملكة الحيرة لا سيما عدى ابن زيد العبادي أثر في أسلوب شعره تأثيراً عظيماً كما رأينا أنه أثر في شعر الحضرة من العراقيين أثناء القرن الأول والثاني للهجرة . فواضح أن منظومات شعراء الكوفة وشعراء دمشق في أواخر الدولة الأموية كانت كواسطة بين خمريات الجاهلية وخمريات البغداديين في أيام بني العباس .

٨- فعلينا الآن أن ننتقل إلى الصنف الثامن من الشعر في أيام بني أمية وهو الذي سمّيته الشعر القصصي اليمّني .

لما تكلمت عن شعر النصارى في زمن الجاهلية أومأت إلى ما جاء به عدى بن زيد العبادي في بعض قصائده من ذكر حوادث الملوك والأمم السالفة ليكون ذلك الذكر عبرة للمعتبرين، وبرهاناً على زوال الأرضيات بأسرها وعدم بقاء هذه الدار على أحد، ونصيحة لأولى الألباب لتلاّ يغروا بطيب العيش وأبهة الملك . ومن هذا الباب أيضاً قصيدة حائية مشهورة منسوبة إلى نصراني آخر من أيام الجاهلية أعنى قس بن ساعدة الإيادي يذكّر فيها بعض من هلك من ملوك حمير الكبار ليتفكّر الإنسان في فناء جميع ما ربّما يبغيه ويناقس فيه من السودد والمال واللذات^(١) .

ومن المشهور أنّ بعض المتأخرين سلكوا هذا المسلك من الزهديات لنظم

(١) راجع مثلاً شعراء النصرانية ص ٢١٧ - ٢١٨ أيضاً VON KREMER, *Altarabische*

Gedichte, Leipzig 1867, no. 12, p. 16-17.

ما يُشبه مختصر تاريخ الدول منهم عبد المجيد بن عبدون المتوفى سنة ٥٢٩
 ناظم القصيدة الطويلة المسماة بالبشامة ألفها عند انقراض دولة بني
 الأفتس بمدينة يابرة بيد المرابطين سنة ٤٨٥ فلمح فيها إلى أحوال جميع
 دول الأندلس منذ الفتح الإسلامي فبادرت العلماء إلى شرحها بشروح مطولة
 أصبحت كتباً تاريخية لا غير^(١). ومن أولئك الشعراء أيضاً الذين اتخذوا
 الزهديات سبيلاً إلى وصف حوادث الدول تشوان بن سعيد الحميري المتوفى
 سنة ٥٧٣ صاحب القصيدة الحميرية^(٢) المشتملة على ١٣٥ بيتاً فعلى صفة
 سؤال أين فلان ذكر فيها مآثر جميع ملوك حمير. وهي قصيدة حائية مثل
 القصيدة المنسوبة إلى قس بن ساعدة وأولها :

الأمرُ جِدٌّ وَهُوَ غَيْرُ مُزَاحٍ فَاعْمَلْ لِنَفْسِكَ صَالِحًا يَا صَاحِبِ
 كَيْفَ البَقَاءِ مَعَ انْتِخَافِ طَبَائِعِ وَكَرُّ لَيْلٍ دَائِمٍ وَصَبَاحِ
 وبعد المطلع المحتوى على تسعة أبيات في الزهد يبتدىء الشاعر يقول :

أفأين هودٌ ذو النقى وَوَصِيَّةِ قَحْطَانُ زَرْعُ نُبوَّةِ وَصِلَاحِ
 أم أين يَحْرُبُ وَهُوَ أَوَّلُ مُعْرَبٍ فِي النَّاسِ أبْدَى النُّطْقِ بِالإفْصَاحِ
 ثم ألف تشوان شرحاً مطولاً على قصيدته ليفصل بيان الأخبار الملمح
 إليها في النظم وأدرج في الشرح جملة من أشعار منسوبة إلى أهل حمير
 القدماء وملوكهم فتعزى أبيات إلى الحارث الرائش أول التبابعة على رأى
 أصحاب الكتب في السير والتواريخ من العرب وتعزى أبيات أخرى إلى أسعد
 تبع والتبع الأكبر الرائد وأسعد كامل وغيرهم فضلاً عما يُنسب إلى الشعراء

(١) فليراجع مثلاً شرح ابن بدرون المطبوع بليدن سنة ١٨٤٨ [ومصر سنة ١٢٤٠].

(٢) احتى المستشرق A. von Kremer بنشر متن القصيدة ونقلها إلى اللغة الألمانية

(A. VON KREMER, *Die himjarische Kasidah*, Leipzig 1865).

غير الملوك ومدار الأشعار على مآثر أهل حمير ومفاخرهم وقصورهم المشيدة
ومبانيهم العظيمة وما فتحوا من البلاد في أقاصى الأرض مثل فارس والهند
والصين من جهة الشرق وطنجة وكاتنبو من جهة الغرب وبلاد السودان .
فمثال هذا الشعر ما يُنسب إلى التبع الأكبر^(١) (من بحر الطويل) :

أنا تبع الأملاك من نسل حمير ملكنا عباد الله في الزمن الخالي
ملكناهم قهراً وسارت خيولنا إلى الهند والأنبار ترمى بأبطال
وكلّ عباد الله قد وطئت لنا خيولاً لعمرى غير نكس وأعزال
فجالت لدى شرق البلاد وغربها لهتك ستور (فتية) ذات أحجال
وعُطلّ منها كل حصن ممنوع ونقلّ منها ما حوتهُ من المال
وتلك (تروع) الأرض منها وطأها إلى الصين والأتراك حالا على حال
فأبنا جميعاً في السبايا وكلنا على كل محبوبك من الخيل صهال
بكلّ فتاة لم ترّ الشمس وجهها أسيلة مجرى الدمع بيضاء مكسال
صموت البُرى غرثى الوشاح كأنها من الحسن بدر زال عن غيم هطال

وبعض أبيات التبابعة المروية في شرح نشوان قد جاءت أيضاً في كتاب
المعارف لابن قتيبة^(٢) المتوفى سنة ٢٧٦ من دون ذكر المصادر التي نُقلت
عنها وقليل منها وَاِرد أيضاً في كتب غيره . - ومن المشهور القصيدة الظريفة
لعلقمة ذى جَدَن الحميرى^(٣) الشاعر الذى وصف فيها ما ذاق من اللذات

(١) طبع المتن في A. VON KREMER, *Altarabische Gedichte*, No. 19, P. 17-18 والنقل في

VON KREMER, *Uebtr die sudarabische Sage*, Leipzig, 1866, p. 75-76.

(٢) كتاب المعارف ص ٣٠٤ - ٣١٦ من طبعة غوتنجن ١٨٥٠ أو ص ٣٠٩ - ٣١٤

من طبعة مصر ١٣٠٠ .

(٣) تروى له قصيدة أخرى في جمهرة أشعار العرب في باب أصحاب المرائى ص ١٢٧ - ١٢٨

من طبعة بولاق ١٣٠٨ وفي نيل الأرب في قصائد العرب ص ٧٠ - ٧١ من طبعة مصر ١٨٩٥ وطأ ستة

ومشرون بيتاً وقيل في جمهرة أشعار العرب إن اسمه علقمة وقيل في كتاب الأغاني (ج ٤ ص ٢٧ - ٢٨ من

طبعة بولاق) إنه علس . أما ذو جدن فهو قوم شريف في اليمن فراجع HARTMANN, *Die arabische*

Frage, Leipzig 1909, P. 324-325.

سابقاً وما كان لقصر عُمدان من الفخامة قبل كَرِّ الدهور عليه وذَكَرَ هلاك
ذى نواس آخر ملوك حِمَيْرِ وهي قصيدة تُروى في سيرة الرسول لابن هشام^(١)
وتاريخ الطبرى^(٢) وغيرهما . ويروى لذى رُعيْن الحميرى الشاعر أبيات
مشهورة متعلّقة بأحوال اليمن القديمة^(٣) :

أَلَا مَنْ يَشْتَرِي يَوْمًا بِدَهْرٍ قَلِيلًا مَا يَبِيتُ قَرِيرَ عَيْنٍ
أَبِينَا الْغَدْرَ إِذْ رَغِبْتَ إِلَيْهِ مَقَاوِلُنَا فَأَمْسُوا رَهْنًا حَيْنٍ
فَإِنَّ تَكَ حِمَيْرٌ غَدَرَتْ وَخَانَتْ فَمَعْدِرَةُ الْإِلَهِ لَذَى رُعيْنٍ

وجميع هذه الأبيات والقصائد المتصلة بأخبار اليمن ومفاخرها في زمان
الجاهلية المتداولة في القرن الأول للهجرة حسبما نبينه عن قريب هي ما
سمّيته الشعر القصصى اليمنى مستنداً في اختيار لفظ. القصصى إلى اصطلاح
اكتبة العرب في القرون الوسطى . وهذا يستلزم شرحاً قصيراً على سبيل
استطراد .

لَمَّا نُقِلَتْ كُتُبُ أَرِسْطُوطَالِيْسٍ فِي صِنَاعَةِ الشَّعْرِ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ اشْتَدَّ تَحْيِيرُ
الْمُرْجِمِينَ فِي تَعْرِيْبِ الْمَوْضُوعِ وَالْإِصْطِلَاحَاتِ لِعَدَمِ مَوَافَقَةِ أَنْوَاعِ الشَّعْرِ عِنْدَ
الْيُونَانِ لِأَنْوَاعِهِ عِنْدَ الْعَرَبِ . وَمِنَ الْأَنْوَاعِ الْمَجْهُولَةِ عِنْدَ النَّاطِقِينَ بِالضَّادِ الْمَسْمُوعِ
بِالْيُونَانِيَّةِ epiké وهو لفظ. معناه الْأَصْلَى قَصَصِيٌّ (مِنْ قَصَصِ الْقِصَصِ) غَيْرِ
أَنَّ الْيُونَانَ إِصْطَلَحُوا بِهِ عَلَى جِنْسٍ مِنَ الشَّعْرِ لَيْسَ لَهُ مَقَابِلٌ فِي الْآدَابِ
الْعَرَبِيَّةِ . فَلَمَّا قَامَ ابْنُ رِشْدِ الْأَنْدَلُسِيِّ بِتَلْخِيصِ كِتَابِ أَرِسْطُوطَالِيْسٍ فِي صِنَاعَةِ
الشَّعْرِ اسْتَعْمَلَ لَفْظَ الْقَصَصِيِّ وَبَيَّنَّهُ بَيَانًا يُظْهِرُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُحِيطُ . بِذَلِكَ

(١) سيرة الرسول ص ٣٦ - ٣٧ من طبعة غوتنجن ١٨٥٨ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ١ ص ٩٢٨ - ٩٢٩ من طبعة ليدن .

(٣) تروى الأبيات في سيرة الرسول لابن هشام ص ١٨ من طبعة غوتنجن وكتاب المعارف

لابن قتيبة ص ٣٠٩ من طبعة غوتنجن و A. VON KREMER, *Altarabische Gedichte*, p. 13, No. 49

النوع من الشعر اليوناني علماً يقيناً ولا رصنه معرفة فقال (١) : «الأشعار القصصية سبيلها في الأجزاء التي هي المبدأ والوسط. والنهاية سبيل أجزاء صناعة المديح وكذلك في المحاكاة إلا أن المحاكاة لا تكون للأفعال فيها وإنما تكون للأزمنة الواقعة فيها تلك الأفعال وذلك أنه إنما يحاكي في هذه كيف كانت أحوال المتقدم مع أحوال المتأخر وكيف تُنقل الدول والممالك والأيام . ومحاكاة هذا النوع من الوجود قليل في لسان العرب وهو كثير في الكتب الشرعية . وذكر مُجيدين في هذا الصنف من شعراهم وأثنى ثناء عاماً على أميرش . ومن جيد ما في هذا المعنى للعرب قول الأسود ابن يعفر :

ماذا أوئلُ بعد آل مُحرقٍ تركوا منازلهم وبعد إباد
أرضِ الخورنقِ والسديرِ وبارقِ والقصر ذى الشرفات من سِنْدَاد
نزلوا بأنقرة يسيل عليهم ماء الفرات يجيء من أطواد
جرت الرياحُ على محلّ ديارهم فكأنهم كانوا على ميعاد
فأرى النعيمَ وكل ما يُلهى به يوماً يصير إلى بلي ونفادٍ (٢)

فيتضح من هذا النص أن ابن رشد لعدم دراية له بشيء من الآداب اليونانية لم يتوصل إلى فهم كلام أرسطوطاليس وزعم أن الأشعار القصصية هي الأشعار المتوسطة بين الزهد وتاريخ الأمم على منوال ما أشرت إليه من قصائد

(١) تلخيص كتاب أرسطوطاليس في الشعر لأبي الوليد بن رشد ص ٤٠ - ٤١ من طبعة فيرنزة سنة ١٨٧٢ وكتاب علم الأدب : مقالات مشاهير العرب لشيخوخ ج ٢ ص ٢٩٤ من طبعة بيروت ١٨٨٩ . [راجع أيضاً F. GABRIELI, *Estetica e Poesia araba nell' interpretazione della poetica Aristotelica ... (Rivista degli Studi Orientali, XII, 1929-1930), p. 294 n. 2, PP. 322-324*]

(٢) الأبيات مروية في شعراء النصرانية ص ٤٨١ وكتاب الأغاني ج ١١ ص ١٣٤ - ١٣٥ من طبعة بولاق وكتاب صفة جزيرة العرب للهمدان ص ١٧١ و ٢٣١ من طبعة لندن ١٨٨٤ ومصمم البلدان لهقوت ج ١ ص ٣٩١ و ج ٢ ص ١٦٥ من طبعة ليسانس .

عدى بن زيد وقس بن ساعدة . - وفي كتاب حديث وهو «تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب وفيكتور هوكو» تأليف المقدسي^(١) سمي ذلك النوع من شعر اليونان بالشعر الحماسي وهو تعريب بعيد جداً يدل على قلة المعرفة بآداب الغرب . فقال المؤلف إن ذلك الشعر «رواية الوقائع العجيبة التي يقوم بها الشجعان» وإن «موضوعه الوقائع الملققة المشتملة على غرائب الشجاعة ونوادير الفروسية» ثم إن الشعر العربي «يوجد فيه أيضاً من الشعر الحماسي وهو الذي روي فيه أخبار الحروب وأطنب بشجاعة الشجعان» وبعد ذكر أسماء الأناشيد الشهيرة من ذلك النوع من الشعر عند أمم مختلفة أضاف إليها «كتب الحماسة للعرب وأشهرها كتاب الحماسة لأبي تمام» . فالواضح أن المقدسي اغتر في وصفه هذا بنفس الاصطلاح الذي اختاره لتعريف ذلك الشعر .

إن الشعر القصصي المراد في كتب أرسطوطاليس الموجود عند اليونان والرومان والهند والفرس والأمم الإفرنجية عبارة عن أناشيد طويلة جداً مشتملة على ألوف أبيات لم يصغها الشاعر للتعبير عما في صدره من العواطف والشعائر أو عما رآه وعايته وحضره من الأفعال والبلاد والحوادث والرجال كما هي العادة في أشعار العرب التي لا تلمح إلى آثار السلف إلا على سبيل الافتخار أو الهجاء أو الاعتبار الزهدي، بل نسجها الشاعر القصصي متكلماً عن لسان أمة بأسرها راوياً ما حدث لكثيرها من الحوادث العظيمة في عصر من العصور القديمة أو ما اتفق لرجل من الأكابر أنخذ كالبيطل الممثل لجلالة جميع الأمة وعمرانها فكانت الأنشودة القصصية عند القدماء مرآة أخلاق الأمة وأميالها ومستودع مآثرها وخلاصة مفاخرها المتوارث ذكرها جيلاً عن جيل،

(١) طبع في مصر سنة ١٩٠٩ انظر ص ١٥٩ و ١٦٠ و ١٦١ .

وهي آثار نظمها الشاعر بعد مدة طويلة وزينها وحلأها بسحر البيان وجعلها متصلة بعضها ببعض وفيها الروايات الغرامية وحكايات شتى ليس لها صلة ضرورية بالحروب والحماسة وفيها ذكر الحوادث العجيبة لشداخل الآلهة والجن والشياطين وغيرهم مما كانت تلك الأمم تعتقد وجوده والغرض من تلك الأناشيد حفظ آثار الأمة المجيدة القديمة وتحريك النفس لقبول الفضائل والحث على الشجاعة وأنواع الكرم. فيسهل عليكم تصور ماهية تلك الأناشيد إذا أطلعتم على الوحيدة منها التي نقلت إلى العربية أعنى إلياذة هميرس ترجمها حديثاً سليمان البستاني بما له من طول الباع في اللغتين اليونانية والعربية وبما له من الحظ. الوافر في صناعة القريض^(١).

فلنرجع إلى ما كنا فيه من الكلام . قد رأيتم أن الأشعار المشار إليها المتعلقة بأخبار اليمن توافق تعريف ابن رشد للشعر القصصي توافقاً تاماً فحملني هذا الوفاق على انتخاب هذا الاصطلاح . فينبغي علينا أن نوضح ما أصل هذه الأشعار الحقيقية وما غرضها .

إن عدم الموافقة بين أخبار الأشعار المنسوبة إلى التبابعة وبين أخبار الكتابات الحميرية الحقيقية أدل دليل على أن الأشعار مختلفة . ولكن ولو لم نكتشف في السنين الأخيرة تلك الكتابات أو لم نتوصل إلى قراءتها وتفسيرها لكان تزوير الأشعار واضحاً من نفسه إذ من المعلوم أن قدماء اليمن لم يعرفوا العربية وإنما استعملوا السبئية أو الحميرية فليست رواية أبيات التبابعة أصح من رواية الأبيات العربية التي تعزى في بعض الكتب إلى سيدنا آدم . - هذا من أمر أشعار الملوك ومعاصريها .

(١) ولم يفت نقصان هذا النوع من الشعر ضياع الدين بن الأثير الجزري فليراجع ما قاله في آخر

كتاب المثل السائر ص ٥٠٣ من طبعة بولاق ١٢٨٢ أو ص ٣٢٤ من طبعة مصر ١٣١٢ .

أما الأشعار المنسوبة إلى علقمة ذي جَدَن وإلى ذي رُعَيْن المتأخرة عن موت ذي نواس فيلوح من بعض عباراتها أنَّ أصحابها مسلمون . فليس من المُحال أنَّ علقمة ذا جدن وذا رعين شاعران عاشا في أوائل الإسلام . غير أن وجودهما لا يخلو من ريب فيه كما يتضح مما يتلو من كلامي .

يُستنتج من مقابلة الأشعار المتفرقة في كتب ابن قتيبة وابن هشام والطبري وغيرهم على روايتها الواسعة في شرح نشوان بن سعيد على قصيدته أن المصدر الأصلي لجميعها إنما هو كتاب الملوك وأخبار الماضين^(١) لعبيد^(٢) ابن شربة الجرهمي الذي أدرك خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦) وكان من اليمنيين الذين وفدوا على معاوية بن أبي سفيان . وقيل إنه جمع أخبار اليمن من ألسنة أهل صنعاء ومن قدرته على اختلاقي الأخبار مثال في كتاب ابن خلكان في ترجمة الشريف الرضي^(٣) . وتعرفون أيضاً أن القصاص من اليمن كثيرون في القرن الأول ومن أشهرهم وهب بن منبه (المتوفى سنة ١١٠ أو ١١٤) صاحب الإسرائيليات وغيرها من الكتب التي هي أقرب إلى الخرافات منها إلى التواريخ الحقيقية . ومن الزورين المعاصرين لعبيد بن شربة يزيد بن مفرغ الحميري المتوفى سنة ٦٩ الذي سبق ذكره في شعراء الصنف السادس قبل في حقه في كتاب الأغاني^(٤) : وقال [أبو العيناء] : سئل الأصمعي عن شعر تبع وقصته ومن وضعها فقال

(١) [راجع ما قاله في هذا الكتاب وعنوانه الصحيح C. Brockelmann في *Geschichte der arabischen Litteratur, Erster Supplementband, P.100*]

(٢) واسمه عبيد بضم العين وفتح الباء وبعدها ألياء مسكنة راجع حواشي Goldziher ص ٢٩-٣٠ من كتاب المعمرين للمسجستان عدد ٣٩ من طبعة ليدن ١٨٩٩ وراجع أيضاً VON KREMER, *Sudarabische Sage, P.47-49*.

(٣) عدد ٦٧٨ من طبعة غوتنجن أو ٦٣٩ من الطبعات المصرية .

(٤) كتاب الأغاني ج ١٧ ص ٥٢ .

ابن مفرغ وذلك أن يزيد بن معاوية لما سيره إلى الشام وتخلّصه من عبّاد ابن زياد أنزله الجزيرة وكان مقبياً برأس عين وزعم أنه من حمير ووضع سيرة تبّع وأشعاره .

أما أسباب الاختلاق فظاهرة وهي ميل الناس إلى الأخبار العجيبة وما رجا الرواة من المكسب بها وحبّ كلّ شعب للافتخار بأجداده ولاسيما ما وقع من التخاصم والمنافرة بين عرب عدنان وعرب قحطان في القرن الأول للهجرة . وغرض بعض الذين وضعوا تلك الأشعار في أخبار ملوك حمير افتخار اليمنيين وحطّ عرب نزار الذين لم يكن لهم مآثر تقابل مآثر أهل اليمن في قديم الزمان . وهي الطريق التي سلكها سائر الأمم الإسلامية في مثل ذلك كما شرحته في دروس السنة الفاتنة^(١) لما تكلمت عما اختلق ابن وحشية (أو بالحرى أبو طالب الزيات) من الكتب المنسوبة إلى النبط. وهي أيضاً منهج المصريين عند تزويرهم أخبار الفراعنة وتدوينها في الكتب وهو أيضاً الداعي الذي حمل الشعراء الفارسيين دقيقى وفردوسى إلى تأليف الأنشودة العظيمة المسماة بشاهنامه . غير أن الفرس قد حفظوا كثيراً من كتبهم القديمة باللغة البهلوية في السير والتواريخ فما اضطروا إلى تليق ما وصل إليهم من الأخبار .

ومن الجدير بالذكر أن المزورين اليمنيين لئلاً يُظهروا غرضهم بل لئلا أشعارهم القبول عند الخلفاء وسائر العرب وضعوا أبحاثاً للحارث الرائش أول التبابعة تنبئ مجيء النبي بعد قرون^(٢) ورووا أن أسعد كاملاً كان مؤمناً وآمن بالنبي (صلعم) قبل مبعثه بسبعمائة سنة وقال :

(١) [راجع علم الفلك تاريخه عند العرب في القرون الوسطى لكرلو نلينو ص ٢٠٨ - ٢١٠] .

(٢) كتاب مروج الذهب للمسعودى في الباب السادس ج ١ ص ١٢٣ من طبعة باريس .

شهدتُ على أحمد أنه رسول من الله باري النسم
 فلو مُدَّ عُمري إلى عمره لكنت وزيراً له وابن عم^(١)
 فستروا غشهم بإظهار التقى^(٢) .

٩- وعلينا الآن أن نتكلم عن النوع التاسع الأخير وهو المرثية وإننا نجد في معظم شعر الشعراء المتقدم ذكرهم شيئاً من المراثي ولكن هذا النوع نفسه إنما خصت به النساء فإنهن لم يأخذن يقلن الشعر في غير هذا الجنس إلا في عصر بني العباس وما يعجبنا عند قراءة مراثي العصر الأموي مشابهتها لمراثي الجاهلية ولذلك أسباب شتى منها قلة التنوع الشعوري والإلهام الشعري عند العرب القدماء وعادتهم أن ينسجوا على منوال الأولين وأخيراً اختصاص النساء بهذا النوع وهن محافظات لسنة السلف دون غيرهن .

(١) يشير إلى ذلك von Kremer في كتابه *Ueber die sudarabische Sage*, P. 63

(٢) انتهت هنا النسخة العربية من هذه الدروس فنقلت السطور التالية من المسودة التي كتبها أبي بالغة الإيطالية .

فهرست الأعلام

الأحوص الملقب الأنصاري ١٣٠
 أحيحة بن الجلاح الأوسي ٢١٤
 الأخطل ١٤٧ ، ١٥١ ، ١٥٧ ،
 ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ،
 ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٩٠ ،
 ٢٧٢ ، ٢٨٨ ، ٢٩١ ، ٢٩٩
 إسماعيل بن عمار بن عيينة ٢٨٠
 إسماعيل بن يسار النسائي ٢٦٥ ،
 ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٩١
 الأسود بن يعفر ٣٠٩
 أعشى بن ربيعة ٢٥٧ ، ٢٧٢
 الأعشى ميمون ٨٦ ، ٨٧ ، ١٠٥
 أعشى همدان ٢٢٣ ، ٢٢٤
 الأغلب بن جشم العجلي ١٨٧ ، ١٨٨
 الأفوه الأودي ٧٩
 الأقيشر الأسدي ٢٧٨
 أم الثواب من بني هزان ٢٦
 امرؤ القيس بن حجر ٦٧ ، ٧٤ ،
 ٧٥ ، ٨٩ ، ١٨٦
 أمية بن أبي الصلت الثقفي ٩٣ ، ٢٠٨
 أنس بن زعيم الليثي ٢٧٦
 أوس بن حجر التميمي ٨٤ ، ٩٨
 أيمن بن خريم الأسدي ٢٧١ ، ٢٧٩
 البحري ٤١
 البعيث المجاشعي ١٧٣ ، ١٨٣ ، ١٩٠
 بكر بن خارجة ٢٧٣
 تأبط شراً الفهمي ٧٢

ابن أبي عيينة ٢٤٦
 ابن سريج (مغن) ١٢٣
 ابن سيحان ١٢٩
 ابن عبدون ٣٠٦
 ابن عمرز (مغن) ١٢٣
 ابن المعتز ٣٩ ، ٢١٥
 ابن مفرغ ٢٥٩ ، ٣١٣
 ابن ميادة ٢٨٣
 أبو تمام ٥٨
 أبو خراش خويلد بن مرة الهذلي ١١١
 أبو دهيل الجمحي ١٢٢
 أبو دؤاد الإيادي ٨٩
 أبو ذؤيب خويلد بن خالد الهذلي ١١١
 أبو الزلفاء البصري ٢٤٦
 أبو السائب الخزومي ١٣٤ ، ١٣٥
 أبو سفيان بن حرب ١٠٨ ، ٢٨٥
 أبو صخر الهذلي ١٤٢
 أبو العباس الأعمى ٢٥٨ ، ٢٦٣
 أبو العتاهية ١٤٠
 أبو عطاء أفلح بن يسار السندي ٢٧
 أبو فراس الحمداني ٢١٥
 أبو كلدة بن عبدة اليشكري ٢٨٤
 أبو محنجن الثقفي ١٠٩
 أبو النجم العجلي ١٩١
 أبو فخيلة الحماني الراجزي ٢١١
 أبو نواس الحسن بن هاني ٢١٥
 أبو الهندي ٢٨٤

ذكين بن رجاء من بني ققيم ٢١١
 ذكين بن سعيد الداري ٢١١
 ذو الإصبع العدواني ٨٠
 ذو الرمة ١٧٨ ، ١٨١ ، ١٩٠ ، ٢٧٢
 ذو رعين الحميري ٣٠٨ ، ٣١٢
 ذو كزاز انظر : عمار بن عمرو
 الراعي ١٨١ ، ٢٧٢
 الربيع بن أبي الحقيق ٧١
 ردي بن عبس النقعسي ٢١٤
 الرماد بن أبرد انظر : ابن ميادة -
 رؤبة بن العجاج ١٩٤ ، ٢١١
 زفر بن الحارث العامري ٢٢١
 الزفيان ٢١٢
 زهير بن أبي سلمى المنزني ٧٤ ، ٧٧ ، ١٨٧
 زهير بن جناب الكلبي ٨١
 زياد بن سلمى الأعجمي ٢٦٣
 زيد بن عمرو بن نفيل ٩٨
 سائب خاثر (مغن) ١٢٣ ، ٢٩٦
 سبحان بن زفر الوائلي ١١٨
 سبحان وائل ٢٢٢
 السري بن عبد الرحمن ١٢٩
 سعيد بن المسيب ١٣٢ ، ١٣٣
 سلامة بن جندل التيمي ٨٠
 السموع بن عاديا ٧١
 سهم بن حنظلة الغنوي ٢٥
 السيد الحميري ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٥٣
 سبعة بن غريص ٧١
 شعبة بن غريص انظر : سبعة بن
 غريص
 الشماخ بن ضرار الديباني ١١٠ ، ١٨٩

التبع الأكبر ٣٠٧
 توبة بن الحمير ١٣٧
 ثابت قطنة ٢٥٣ ، ٢٥٥
 جامع بن نحية الكلابي ١٣٣
 جبير بن أيمن ١٢٩
 جروك بن أوس الخطيئة ١٠٩
 جرير ١٣٥ ، ١٦٨ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ،
 ١٩٠ ، ٢٦٥ ، ٢٧٢
 جزم بن ضرار ١١١
 جميل بن عبد الله بن معمر العذري
 ١٣٩ ، ١٤٠ ، ٢٩٠
 جواس بن قطبة ١٤٠
 جواس بن قعطل ٢٢١
 حاتم بن عبد الله الطائي ٧٩
 حاجب بن ذبيان المازني ٢٩١
 الحارث بن حلزة ٧٤ ، ٧٥
 الحارث بن خالد العاصي الخزومي ١٢٤
 الحارث بن الرائش ٣٠٦
 الحارث بن هشام بن المغيرة ١٠٨
 حارثة بن بدر الغداني ٢٧٥
 حسان بن ثابت الأنصاري ٨٧ ، ٨٨ ،
 ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ٢٢٩
 الخطيئة انظر: جروك بن أوس الخطيئة
 الحكم بن عبد الأسد ٢٨٠ ، ٢٨١
 حكيم بن عياش الأعور الكلبي ٢٤٦
 حميد الأرقط ١٩٠
 حنين بن بلوغ الحميري ٢٧٧
 خالد بن أبي أيوب ١٢٩
 الخنساء ٨١
 دريد بن الصمة الجشمي ٨٠
 دعلج ٢٤٦

العجاج ١٨٨ ، ١٩١ ، ١٩٤ ، ٢٠٠ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١
 العجير السلولى ١٨٣
 عدى بن الرقاع ٢٩٨ ، ٣٠١
 عدى بن زيد العبادى ٨٩ ، ٩١ ، ١٥٤ ، ٢٧٢ ، ٣٠٥
 العديل بن الفرخ العجلى ١٨٢
 العرجى انظر : عبدالله بن عمر العرجى
 عروة بن أذينة ١٣٣
 عروة بن حزام العدرى ١٣٨ ، ١٣٩
 عروة بن الورد ٧٨
 عطاء بن أبى رباح ١٣٥
 عقبه بن رؤبة بن العجاج ٢١٢
 عقيل بن علفه المرى ١٨٣
 علقمة ذو جلدن الحميرى ٣٠٧ ، ٣١٢
 علقمة الفضل ١٨٧
 على بن أبى طالب ١١٧
 عمار بن عمرو ذو كنان ٢٧٦
 العماني ٢١٣
 عمر بن أبى ربيعة المخزومى ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٥
 عمر بن لجا ١٨٣ ، ١٩٠
 عمران بن حطان السلدوسى ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩
 عمران بن حصام العرنى ٢٨٩
 عمرو بن كلثوم ٧٤ ، ٧٥ ، ١١٤
 عمرو بن معد يكرب الزبيدى ١١١
 عنرة بن شداد العيسى ٧٤ ، ٧٦ ، ١٢٠ ، ١٨٧
 عوف بن ذروة ٢١٤
 عويج الطائى ٢٢٢

الشمر دل بن شريك اليربوعى ١٩٠ ، ٢١٤
 الشنفرى الأزدي ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤
 الصلتان العبدى ١٨٣ ، ٢٦٩
 ضرار بن الخطاب الفهرى ١٠٨
 طرفه بن العبد ٢٨ ، ٧٤ ، ٨٣ ، ٨٩
 ١٨٧ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤
 الطرماح بن حكيم ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٧٢
 طريح بن إسماعيل الثقفى ٢٩٢
 طويس (مغن) ١٢٣
 العباس بن الوليد بن عبد الملك ٢٦٠
 عبد الله بن أبى معقل بن نهبك بن
 إساف الأنصارى ١٢٩
 عبد الله بن الزبيرى ١٠٨
 عبد الله بن الزبير الأسدى ١٦٤ ، ٢٥٨ ، ٢٧٢
 عبد الله بن عمر العرجى ١٣١
 عبد الله بن كراع ٢١٤
 عبدالله بن مسلم بن جندب الهذلى ١٣٢
 عبد الله بن همام السلولى ٢٨٨
 عبد الرحمن بن أبى عمار الجشمى ١٣٥
 عبد الرحمن بن حسان بن ثابت
 الأنصارى ١٥٥ ، ٢٩٨
 عبد الرحمن بن الحكم ٢٩٥ ، ٢٩٨
 عبد الصمد بن المعدل ٢١٥
 عبد الوهاب بن على البغدادى ١٥٣
 عبيد بن الأبرص الأسدى ٨٢ ، ٨٣
 عبيد بن شربة الجهمى ٣١٢
 عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن
 مسعود ١٣٢
 عبيد الله بن قيس الرقيات ٢٥٦
 عثمان بن الوليد بن عمارة القرشى ١٥٠

مزرد بن ضرار ١١١
 مسعود بن كبير الجرمي ٢١٤
 مسكين اللداني ٢٨٧ ، ٢٨٨
 معاذ بن جوين بن حصين الخارجي ٢٣٦
 معاوية بن أبي سفيان ١٤٤ ، ١٦٢ ،
 ١٦٣ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ،
 ٢٩٥ ، ٢٩٦
 معبد (مغن) ١٢٣
 مقاتل بن مسعود العبدي ٢٧
 مهلهل ٦٨
 موسى شهوات ٢٦٣
 ميسون بنت بحدل ١٤٤ ، ١٤٧
 ميسون بنت جندل الفزارية ١٤٧
 النابغة الجعدي ١٤٥
 النابغة الذبياني ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٩ ،
 ١٨٧ ، ٢٧٢
 النابغة الشيباني ٢٦
 الناشئ الأكبر ٢١٥
 نشوان بن سعيد الحميري ٣٠٦
 نصر بن سيار ١٢٦ ، ٢٦٠ ، ٣٢٦١
 نصيب بن رباح ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٣٠٠
 النعمان بن عدى ٢٧٤
 نهار بن توسعة ٢٧٠
 هند بنت عتبة ٢٨٦
 الوليد بن عتبة بن أبي سفيان ١٢٨
 الوليد بن عثمان بن عفان ١٢٨
 الوليد بن يزيد ٢٩٦ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٥
 وهب بن منبه ٣١٢
 يزيد بن معاوية ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٦
 يزيد بن مفرغ انظر : ابن مفرغ
 يعلى الأحول بن مسلم البشكري ١٨٣ ،

عويف القوافي الفزاري ١٨٤
 الغريص (مغن) ١٢٤
 القرزدي ١٥٨ ، ١٦٧ ، ١٧٣ ،
 ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٩٠ ، ٢٧٢
 الفضل بن عبد الصمد الرقاشي ٢١٥
 قس بن ساعدة الإيادي ٩٨ ، ٣٠٥
 القطامي ١٤٦ ، ٢٢٥
 قطري بن الفجاءة ٢٣٥ ، ٢٣٨
 قيس بن الخطيم الأوسي ٩٢
 قيس بن فريح الكناني ١٣٨
 قيس المكشوح المرادي ١١٥
 كثير عزة ١٤٢ ، ٢٣٩ ، ٢٤٢ ،
 ٢٤٥ ، ٢٧٢
 كعب الأشقري ٢٢٥
 كعب بن جعيل ١٥٥ ، ٢٣٠ ، ٢٩١
 كعب بن زهير ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١١٤
 الكعيت بن زيد الأسدي ٢٤٥ ،
 ٢٥٠ ، ٢٧٢
 ليبد بن ربيعة العامري ٢٤ ، ٧٤ ،
 ٧٨ ، ٨٧ ، ١٨٦
 مالك بن أبي السمح (مغن) ١٢٣
 مالك بن أسماء بن خارجة الفزاري ٢٨٠
 المتلمس ٢٥ ، ٨٤
 متمم بن نويرة اليربوعي ١٠٨
 المتوكل بن عبد الله الليثي ١٥٦ ،
 ٢٨٢ ، ٢٩١
 مجنون ليلى ١٣٦ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢
 محارب بن دثار الدهلي ٢٥٢
 محمد بن عبد الله الحميري ١٣٢
 محمد بن يسار ٢٦٣
 مرة بن محكان السعدي ١٨٢

فهرست

صفحة	
٥	تقديم
١٥	مقدمة
	الباب الأول :
	١ - لفظ « الأدب » بحث عن معناه الأصلي وما تفرع منه من
٢١	المعاني المتعددة المختلفة
٥٥	٢ - تعريف تاريخ الآداب
٥٧	٣ - كيف ينقسم تاريخ الآداب العربية
٦٥	الباب الثاني : الآداب العربية في العصر الجاهلي
٧٢	١ - شعر أهل البادية
٨١	٢ - شعر الوثنيين الملازمين ملوك الحيرة و غسان
٨٨	٣ - شعر النصارى بالحيرة وفي مملكة غسان
٩٢	٤ - شعر أهل الحضرة في مدن الحجاز
٩٥	٥ - النثر الجاهلي
٩٩	٦ - المسائل المتعلقة بالقرآن
١٠٣	الباب الثالث : الآداب في صدر الإسلام وأيام الخلفاء الراشدين
١٠٤	١ - الشعر في مدح النبي
١٠٨	٢ - شعراء المشركين الحاقدون على النبي
	٣ - الشعراء الذين أسلموا من غير أن يهتموا في أبياتهم
١٠٨	بأمور دينهم
١١٥	٤ - شعر الفتوحات
١١٦	٥ - الديوان المنسوب إلى علي بن أبي طالب
١١٦	٦ - النثر

صفحة	
١١٩	الباب الرابع : الشعر في عصر بني أمية
١٢٠	١ - الغزل في مدن الحجاز
١٣٥	٢ - النسيب عند الأعراب
١٤٢	٣ - الشعر على أسلوب فحول الجاهلية
١٨٥	٤ - الأراجيز
٢١٧	٥ - شعر الجنود
٢٢٥	٦ - شعر الفتن السياسية والدينية
٢٧٠	٧ - شعر أهل الحضر في ميدان العراق والشام
٣٠٥	٨ - الشعر القصصي اليمني
٣١٤	٩ - المرثي
٣١٥	فهرست الأعلام

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧٠

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ٦٩/٤٤٢٩

تاريخ الآداب العربية

لقد كان هذا الكتاب بحق سبباً في تكوّن أعلام الأدب في عصرنا الحديث ، لقد وجد طلاب الجامعة المصرية القديمة في محاضرات ناليو في الأدب العربي وتاريخه شيئاً لم يألّفوه من قبل في الأساتذة أو في كتب الأدب القديمة . . .

لقد فتح ناليو الطريق للدراسات جادة رصينة في الشعر الجاهلي والشعر الإسلامي والشعر الأموي ، كما درس النثر ونصوره جاهلية وإسلاماً ، فهذهنا بذلك إلى شعر الفنون وشعر المشركين وشعر الغزل والشعر السياسي والشعر القصصي اليمني وغيرها من طريف الموضوعات .